يوسف الصديق عليه السلام
شعرا ونثرا

محمد عايش عبيد
مشرف على شئون القرآن الكريم
بالمعهد الأزهرى بالعريش

الطبعة الأولى

١٤٢٢هـ-٢٠٠١م

دار الوفاء للطباعة والنشر والتوزيع - ج.م.ع - المنصورة

الإدارة : ش الإمام محمد عبده المواجه لكلية الآداب ص . ب٢٣٠

ت :٣٤٢٧٢١/ ٣٥٦٢٢٠/ ٣٥٦٢٣٠ فاكس٣٥٩٧٧٨

المكتبة : أمام كلية الطب ت ٣٤٧٤٢٣

تقديم كريم

الحمد لله رب العالمين . . . أحمده حمد الشاكرين ، وصلى الله وسلم على محمد وآله وصحبه . . . وعلى جميع إخوانه من الأنبياء والمرسلين .

وبعد . . . لقد يسعدنى أبلغ السعادة ، أن يساعدنى وقتى على أن أستوعب هذه الرسالة القيمة . حول حياة « يوسف الصديق عليه السلام » بدءا من رؤيته المنامية التى قصها على أبيه ، إلى أن جمع الله شملهما بعد فراق طال ، لا يعلم مداه إلا الله تعالى .

وما تخلل هذا الزمن من أحداث ، أثبتها القرآن الكريم فى محكم آياته ، وسجلها بروح شاعر ناثر ، أديب ، يخشى الله تعالى خشية العلماء به ، القادرين فضله وهو أخى الأستاذ المفضال **محمد عايش عبيد** ، المشرف بالمعاهد الأزهرية بالعريش ، على شئون القرآن الكريم .

غير أن القدر القليل الذى قرأته من هذه الرسالة ، وجدته شعراً شاعراً ، ونثراً رائعاً بحيث أقنعنى بأن هذه الرسالة ، تستحق من عناية أهل العلم بها ، ما يهتف بهم ، أن يؤدوا إليها حقها من العمل الدائب ، على إذاعتها فى الناس ، كى ينتفعوا بها فيما اشتملت عليه من معان شريفة ، يعتز بها رجال الدين من سائر المذاهب ، وينتفع بأسلوبها الأدباء والمتأدبون ، فى جيلنا الحاضر ، والأجيال القادمة إن شاء الله .

ذلك لأن كاتب هذ الرسالة : « **يوسف الصديق : شعراً ونثراً** » له شخصية مستقلة ، ذو ثقافة واسعة ، ورأى جرىء ، وتعبير صادق ، يترجم الأحداث ، ويجسد الأحاسيس ، بأسلوبه الأخاذ .

والله المسئول أن ينفع الأستاذ المؤلف العالم الأديب بعلمه ، وأن ينفع بهذا العلم الفياض ، أبناءه ومريديه ، والآخذين عنه . . . والله تعالى سميع مجيب الدعاء .

بقلم الفقير إلى الله تعالى
أحمد حسن الباقورى
رئيس وعميد معهد الدراسات الإسلامية
عضو مجمع البحوث الإسلامية بالأزهر الشريف
عضو مجمع اللغة العربية بالقاهرة
الرئيس العام لجمعيات الشبان المسلمين العالمية

مقدمة المؤلف ... عن نعمة القدرة على التعبير

الحمد لله الذى أعطانى القدرة على أن أصوغ أفكارى ... بقلمى ، فضلاً عن لسانى ، وبأسلوبين اثنين ، أحدهما : الشعر ... ولا غرو فالشعر يعتبر أرفع أنواع الكلام ، بعد القرآن الكريم ، وبعد كلام رسول الله محمد ﷺ ... ذلك لأنه يصوغ الأفكار نظماً ، بحيث يضعها فى قوالب وأوزان ... والنفوس تميل إلى القول المنظوم فتحفظه ، إذن فذلك أعون على النفع به ، لكونه أيسر حفظاً .

ثانيهما : النثر ... وليس كل من أمسك القلم ، يستطيع أن يصوغ أفكاره ، ويعبر عما يجيش به صدره كما يريد ... لأن الكتابة لاسيما الأساليب الأدبية منها ، فن لا يستطيعه ولا يجيده إلا القليل ، أو أقل القليل .

إذن فالقدرة على التعبير ، نعمة من الله عز وجل ... بل من أجل النعم التى منحها الله لبنى الإنسان ، لذلك قال فى معرض تعدد نعمه علينا ، فى أول سورة الرحمن : ﴿ خَلَقَ الإِنسَانَ . عَلَّمَهُ الْبَيَانَ ﴾ [الرحمن : ٣ ، ٤] .

وتالله لن نستطيع أداء شكر تلك النعمة ، إلا إذا أخلصنا فيما نكتب للناس ، بما يعود عليهم بالنفع ، في دينهم ونياهم ... وأسأل الله أن أكون واحداً من المخلصين ، فى هذا الميدان ، وفى كل أعمالى وأقوالى .

وعن الأنبياء عامة :

الأنبياء والمرسلون، هم صفوة الله تعالى من خلقه، اختارهم أمناء على وحيه، هم أفضل خلق الله من البشر على الإطلاق.. اصطنعهم لنفسه .. ورباهم على عينه.. ثم أهلهم لحمل أعباء الرسالات.. وأمانة الدعوة إلى توحيده وعبادته.. وأودع فيهم القدرة على احتمال الأذى، من السفهاء، والحلم على جهل الجهلاء، وتطاول المتطاولين، وعداء المعتدين.

هم أيضاً من أرفع الأنساب فى أقوامهم.. اختصهم وأيدهم بالمعجزات المؤيدة لهم، أمام تحديات المعاندين والمعرضين.. فمن ثم أقام بهم الدين الذى ارتضاه لخلقه .. فهدى بهم من الضلالة .. وأنقذ بهم من الجهالة.. إذ جعلهم أدلاء للأمم إلى دروب الخير ، ومعرفة وحدانية الله تعالى.. أنه خالق كل شىء.. وبيده كل شىء.. ومنه كل شىء..

وإليه يرجع كل شيء.. لا معبود فى الكون سواه.. الخلق كلهم عبيده.. إنسهم وجنهم.. ملوكهم وسوقتهم.. السماوات مطويات بيمينه ، والأرض جميعاً قبضته يوم القيامة !!

وعن يوسف الصديق خاصة :

ويوسف الصديق ـ الذى نحن بصدد الحديث عنه ـ واحد من الأنبياء الذين اختارهم الله عز وجل، لحمل أعباء الرسالات.. وفضلا عن كونه رسولا نبيا ، فقد اختاره مولاه، ليكون بطل أعظم قصة فى تاريخ الإنسانية .. هى قصة الصراع بين الحق والباطل.. بين الإيمان والكفر.. بين العفة والطهر، فى أروع صورهما.. وبين الفجور والرذيلة، فى أبشع صورهما.. فيها من الدروس المستفادة للمتأملين، ما يجعل الآباء يجتنبون ما وقع فيه نبى الله يعقوب ﷺ من حيث تفضيله يوسف، على بقية إخوته.. فكان ذلك سببا أصيلاً فيما حدث ليوسف، من تآمر إخوته عليه، وما تبع ذلك من أحداث هى موضوع صفحات هذا الكتاب.

إن يوسف الصديق ﷺ ابتلاه الله عز وجل ، بأشدّ وأمرّ أنواع البلاء.. وهل هناك ما هو أمرّ على نفس الحر: سليل الشرف والنبوة ، من أن يجد نفسه عبداً ، يجرى عليه ما يجرى على العبيد ؟!

والسبب أن أباه أحبّه حباً لا مزيد عليه، فكرهه إخوته وحسدوه، وحقدوا عليه، لتفضيل أبيه له عليهم، فمن ثم قرروا قتله أو التخلص منه، ليخلو لهم وجه أبيهم كما زعموا.. وفعلا لقد تخلصوا منه، فألقوه فى الجب ، ثم باعوه إلى التجار، على أنه عبد رقيق آبق.. !!

وفى بيت العزيز أحبته المرأة، أحبته حباً أفقدها صوابها، فراودته عن نفسه فأبى.. فألقى فى غياهب السجن، بين القتلة والمجرمين.. فلبث فيه بضع سنين.. وانطلاقا من هذا المعنى، فإن الحب صار فى حياة يوسف الصديق، كأنه لعنة تطارده أينما حل وأينما سار!!

ولاغرو فقصة يوسف الصديق، تلك التى أقدمها اليوم للقارئ الكريم، فى ثوبها القشيب.. تعتبر بمثابة بحر لجىّ، شابت على عدوتيه آراء وأفكار العلماء والمفسرين.. والأدباء والقصاص قديما وحديثا، إذ لم يستطيعوا سبر أغواره، فكان طبيعيا أنهم لن يصلوا إلى شاطئه.

لقد قرأت معظم ما كتب عن هذه القصة ، بأقلام القدامى والمعاصرين ، ووقفت على آرائهم وأفكارهم ، فلم أجدهم وصلوا إلى رأى قاطع فى جملة: ﴿ **وَهَمَّ بِهَا لَوْلَا أَن رَّأَىٰ بُرْهَانَ رَبِّهِ** ﴾ فبماذا هم يوسف ؟ ! وما هو البرهان الذى رآه ؟ !

فمن ثم شعرت فى أعماقى بالغيرة ، لكون هذه القصة ظلت بغير حل ، تتحدى كل ذى علم وفكر .. كأنها طلاسم المنجمين والسحرة .

لذلك . . قررت أن أمتطى صهوة جواد فكرى ، وأن انطلق غير متقيد فى عالم المعرفة اللامحدود ، علّى أستطيع تحطيم أقفال تلك الطلاسم ، وبالتالى أكتشف ما هو مخبوء وراءها من أسرار تلك القصة .

وفعلا . . لقد توكلت على الله، فشمرت عن ساعد الجد ، فأسهرت ليلى ، وأضنيت نهارى ، بغية استجلاء الحقيقة المدفونة تحت ركام أفكار وآراء ليست إسلامية . . نعم ، معظمها إسرائيليات ، جلبها إلينا الشغوفون بكل غريب . . فى حين أنها تسىء إلى نبى كريم ، وتلهب عرضه وشرفه وعفته ، بسياط التجريح والافتراء .

لقد أعاننى الله عز وجل ، فأصبت هدفين اثنين :

أحدهما: أننى صغت هذه القصة بأسلوب جديد مبتكر ، لم يسبقنى إليه أحد . . . لقد صغتها شعراً كلها . . . بأسلوب الأوزان والأنغام ، من الشعر الرشيق الهادف الذى لا يجنح إلى الخيال ، بل هو من صميم الواقع ، ذلك لأننى اعتمدت فى صياغتى لها ، من واقع الأحداث التى تضمنتها الآيات القرآنية ، من سورة يوسف .

ثانيهما : أننى فيما أعتقد قد وفقت واهتديت إلى معرفة الحقيقة الضائعة . . نعم ضائعة، وذلك بسبب تعدد الآراء من المؤرخين ، وحاطبى الليل ، الذين لا يفرقون بين الغث والسمين ، بل بين الحق والضلال لقد قلت رأيى صريحا فى تلك الجملة[1] . . تلك الجملة التى يدور حولها المفسرون ، دوران الخائف من الاقتراب منها .

كيفية صياغة وتنظيم مادة هذا الكتاب :

لقد تحيرت أول الأمر، عندما قررت كتابة النثر، فى كيفية تنظيم عناصر هذا الكتاب . . ذلك لأنه مكون من عناصر ثلاثة: القرآن الكريم، الشعر، النثر، فكيف أنظم هذه العناصر الثلاثة، بحيث تنسجم وتتجانس مع بعضها بغير تنافر ؟! فمن ثم اخترت طريقتين اثنتين :

إحداهما: أن أضع الآية القرآنية، أعلى الصفحة، ثم أخط خطاً تحتها . . وتحت الخط أضع أبيات الشعر التى صيغت من أحداث نفس الآية . . بحيث يكون القرآن والشعر فى صفحة، وفى الصفحة المقابلة لها، أضع النثر الذى يفسر الآية، ويفصل ما أجمله الشعر .

ثانيهما: أن أضع الآية القرآنية، فى أعلى الصفحة، ثم أخط تحتها خطاً، وتحت الخط أضع أبيات الشعر التى صيغت من معانى تلك الآية، ثم أخط خطاً تحت الشعر ، وتحت الخط الثانى ، أضع النثر الذى يفسر معانى الآية ، ويفصل ما أجمله الشعر أيضاً .

---

(١) « وهمّ بها لولا أن رأى برهان ربه » .

وقد أخرجنى من حيرتى تلك . . صديقى الكريم: الأديب والكاتب الصحفى، الأستاذ أسعد الكاشف ـ مخرج بالتلفزيون القطرى ـ فحينما عرضت عليه الطريقتين اللتين اخترتهما! قال: الطريقة الثانية أفضل . . ودلل على هذا برأى جيد، اقتنعت به، وفعلاً أخذت برأيه .

كيفية التبويب :

مجموع أشعار هذا الكتاب ، حوالى ٨٠٠ (ثمانمائة بيت) . . قسمتها إلى ١١ (إحدى عشرة حلقة)، خلا المقدمة الشعرية التى تضمنت موجز القصة كلها .

وطبيعى كما ذكرت آنفاً، فأبيات الشعر، تم توزيعها على كل صفحات الكتاب، كل صفحة فيها، ثلاثة أبيات، أو أربعة، أو خمسة ، أو ستة . . ذلك حسبما يقتضى المقام .

وبعد أن انتهيت من صياغة الكتاب كله : قرآناً وشعراً ونثراً ، تحيرت مرة ثانية ، فماذا أصنع ؟! هل أجمع صفحات الكتاب كله ، حسب ترتيبها ، مع تسلسل أرقام الصفحات ، كباقى الكتب ؟! لا ، لأن هذا الكتاب يختلف عن كل الكتب ، فى طريقة تأليفه ، إذن فينبغى أن يبوب تبويباً يتفق مع طريقة التأليف .

فاهتديت إلى الآتى: أن أجعل الآيات القرآنية المخصصة لكل حلقة، فى صفحة منفردة، ثم أجعلها أولى صفحات الحلقة . . يليها مجموع أشعار نفس الحلقة فى صفحتين أو ثلاث، وبعد ذلك تبدأ أحداث القصة، مع توزيع الآيات والأشعار، على مجموع الصفحات التى استغرقتها الحلقة . . وذلك لكى يطلع القارىء على مجموع الآيات ومجموع الأشعار التى تنظم أحداث الحلقة ، قبل أن يدلف إلى التفاصيل ، داخل الصفحات .

الخاتمة : لقد كان الابتلاء ليوسف الصديق ، طريقاً أوصله إلى ذروة المجد ، كان بمثابة دروس عملية ، صقلته وأهلته لتسنم قمة المسئولية السياسية والدينية معاً . . . بحيث أصبح الأمين الوحيد الذى اختير ، ليتولى وزارة المال ، فى أعرق دولة آنذاك ، هى مصر . . وأن يكون نبياً مرسلاً فى الوقت نفسه .

أخيراً: ها أنذاك أدعوك أخى القارئ، لنلج معاً إلى حديقة غناء، نتنسم فوح أريجها، ونقطف من يانع أزاهيرها ، ونأكل من نضيج ثمارها ، ونغترف من عذب مائها ، ونتفيأ وارف ظلالها ، إنها غذاء الأرواح والعقول ، وبهجة النفوس والقلوب . . والله الموفق .

محمد عايش عبيد
مشرف على شئون القرآن الكريم
بالمعهد الأزهرى بالعريش

موجز قصة « يوسف الصديق » شعراً

الأنبيَاءُ جَميعُهُم من مَعْدن غَال ثمين ١
همْ خَيْرُ خَلقِ الله كَانُوا للأَمَانَة حَاملين ٢
دلّوا الشُّعُوبَ على الإله ليَعْبُدُوه مُوَحّدين ٣
قَدْ عُرّضُوا للابتلاء ، فَلَمَ يكُونُوا مُتْرَفين ٤
منْهُم نَبىّ الله يُوسُفُ مِنْ جُدُودٍ مكْرَمين ٥
حُبّ الأبُوة ذَاك أورْثَه عَدَاءَ الحَاقدين ٦
إخْوانُه حَسَدُوهُ بُعداً للرّجَال الحَاسدين ٧
ولقَدْ نَجَا من كَيْدهم إذْ أشْبَهُوا للْقَاتلين ٨
قَد ذَاقَ ذُلّ الرّقّ حَتّى صَارَ كَالعَبْد المهين ٩
وهنَاكَ فِى بَيْت العزيز يَعيشُ كَالمتَنَعّمين ١٠
زَوْجُ العَزِيز تُحبّهُ مِنْ نَوْعٍ حُبّ الفَاسقين ١١
قَد نَالَهُ مِنْ حُبّها فِى السّجن بضْعٌ من سِنين ١٢
فِى السّجن صَار يُفَسّر الأَحْلام بالقَوْلِ الأمين ١٣
فَأَصَاب فِى تَفْسيره قَدْ كَان كَالنّورِ المبين ١٤
مَلكُ البِلادِ رَأى مَنَاماً مُعْجزاً للْعَابرين ١٥
جَاءُوا لِيُوسُفَ عَبَّر الرؤيا مِن العِلْم المكين ١٦
قَدْ صَار يُوسُف خَازناً فِى مَال مصرِ أجْمَعين ١٧
الخِصْب عَم بلاد مصرٍ سَبْعَةً مُتَتَابعين ١٨
مِنَ بعْدِهَا جَاءَت سُنُون القَحْط سَبْعاً مُهلكين ١٩
النّاس فِى شَرْقٍ وَغَرْبٍ أصْبَحُوا كَالجَائعين ٢٠
مِنْ كُلّ صَوْبٍ قَدْ أتَوا مِصْر العَزِيزَةَ وَافدين ٢١
كَى يأخُذُوا منْا طَعَاماً وليعُودُوا قَافلين ٢٢
قَدْ جَاء إخْوةُ يُوسُف ضِمْن الوُفُود القَادمين ٢٣
لمّا رَآهمُ صَارَ عَارِفَهُم ، ولَيْسُوا عَارفين ٢٤

قَدْ قَالَ هَاتُوا لِى أخَاكُم مِنْ أبِيكُم مُسْرِعِين ٢٥
كَيْمَا أُوفِّى الكَيل حَقاً ولتَعُودُوا سَالِمين ٢٦
عَادُوا لأَرْضِ الشّام حَيث الأهل كَانُوا نَازِلِين ٢٧
فَتَحدّثُوا للشّيْخ عَمّا قَدْ أَرادُوا قَائِلِين ٢٨
الشيخ وافقهم ولكن كارها هذا يقين ٢٩
عَادوا وَقد أخذوا أخَاهم حيث أرْضِ الخَالدين ٣٠
دَخلُوا عَلَى الصّدّيق ، أنْزَلَهُم نزُول المكْرَمِين ٣١
عند الرّحيل إذَا أخُوهم فِى عداد السّارِقين ٣٢
قَدْ أمسَكَ الصّديقُ سَارِقَهُم ، فَصَارُوا ذَاهِلين ٣٣
عَادُوا بغَيْرِ أخِيهِمُو للشّيْخ عَوْد الخَائبين ٣٤
وقَدْ أَخْبَرُوهُ بمَا جَرَى ، كَانُوا جَمِيعاً آسِفِين ٣٥
فَأَجَابَهُم ، عُودُوا لِمصْر ، لِبَحْث حَال الغَائبين ٣٦
عنْ يُوسف الصّدّيقِ ، ثم أخِيه كُونوا بَاحِثِين ٣٧
عَادُوا إلى الصّديق ، عَاتَبَهم عِتَابَ اللائمين ٣٨
عَرَفُوهُ عنْد عِتَابه ، صَارُوا جَمِيعاً نَادمين ٣٩
لكنْ عفَا الصّدّيقُ عَنهم ،نِعْم عفْوُ القَادِرين ٤٠
أيضاً وأعْطَاهُم قَمِيصاً ، فِيهِ سرٌّ عنْ يقين ٤١
عَادُوا إلى الشّيخ الكَبيرِ ، وإنّه بَاكٍ حَزِين ٤٢
ألقَوا عَلَيهِ قَمِيصَ يُوسُف صَارَ ضمن المبصِرين !! ٤٣
رَحلُوا جَمِيعاً تارِكين مَنَازِلَ المتَقَدّمين ٤٤
كى يَنْزِلُوا مِصْر العزيزة ، للإقَامَة عَازِمين ٤٥
جاءوا ليُوسُف حَيث كَانَ البُعْد قَدْ زَادَ الحَنِين ٤٦
سَجَدُوا جَمِيعاً عِنْد رُؤْيته سُجُودَ مُعَظّمين ٤٧
فَتَحَقّقت رُؤْياهُ لكنْ ، بَعْدَ عَشَراتِ السّنِين ٤٨

المؤلف/ محمد عايش عبيد
مشرف على شئون القرآن الكريم
بالمعاهد الأزهرية بالعريش

الحلقة الأولى

رؤيا يوسف الصديق عليه السلام

أبناء يعقوب يفكرون فى قتل أخيهم يوسف

يتحايلون على أبيهم ليذهب يوسف معهم

يعقوب يخاف الذئب على يوسف

الآيات القرآنية التى صيغ منها شعر الحلقة الأولى

﴿ الٓر تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ (١) إِنَّا أَنزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ (٢) نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَذَا الْقُرْآنَ وَإِن كُنتَ مِن قَبْلِهِ لَمِنَ الْغَافِلِينَ (٣) إِذْ قَالَ يُوسُفُ لِأَبِيهِ يَا أَبَتِ إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ (٤) قَالَ يَا بُنَيَّ لَا تَقْصُصْ رُءْيَاكَ عَلَىٰ إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُوا لَكَ كَيْدًا إِنَّ الشَّيْطَانَ لِلْإِنسَانِ عَدُوٌّ مُّبِينٌ (٥) وَكَذَلِكَ يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ وَيُعَلِّمُكَ مِن تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ وَيُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَعَلَىٰ آلِ يَعْقُوبَ كَمَا أَتَمَّهَا عَلَىٰ أَبَوَيْكَ مِن قَبْلُ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ إِنَّ رَبَّكَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (٦) لَّقَدْ كَانَ فِي يُوسُفَ وَإِخْوَتِهِ آيَاتٌ لِّلسَّائِلِينَ (٧) إِذْ قَالُوا لَيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَىٰ أَبِينَا مِنَّا وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّ أَبَانَا لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ (٨) اقْتُلُوا يُوسُفَ أَوِ اطْرَحُوهُ أَرْضًا يَخْلُ لَكُمْ وَجْهُ أَبِيكُمْ وَتَكُونُوا مِن بَعْدِهِ قَوْمًا صَالِحِينَ (٩) قَالَ قَائِلٌ مِّنْهُمْ لَا تَقْتُلُوا يُوسُفَ وَأَلْقُوهُ فِي غَيَابَةِ الْجُبِّ يَلْتَقِطْهُ بَعْضُ السَّيَّارَةِ إِن كُنتُمْ فَاعِلِينَ (١٠) قَالُوا يَا أَبَانَا مَا لَكَ لَا تَأْمَنَّا عَلَىٰ يُوسُفَ وَإِنَّا لَهُ لَنَاصِحُونَ (١١) أَرْسِلْهُ مَعَنَا غَدًا يَرْتَعْ وَيَلْعَبْ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ (١٢) قَالَ إِنِّي لَيَحْزُنُنِي أَن تَذْهَبُوا بِهِ وَأَخَافُ أَن يَأْكُلَهُ الذِّئْبُ وَأَنتُمْ عَنْهُ غَافِلُونَ (١٣) قَالُوا لَئِنْ أَكَلَهُ الذِّئْبُ وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّا إِذًا لَّخَاسِرُونَ (١٤) ﴾ .

أشعار الحلقة الأولى

اللهُ قَالَ مُحَدّثاً فِى مُحكَمِ الذّكْرِ المبين ١
لِلمُصْطَفَى الهَادِى إمام الأنبيَاء المرْسَلين ٢
عَن أحْسَنِ القَصَصِ التّى هِىَ عِبْرَةٌ للْعَالمين ٣
عن يُوسُف الصّديق مَع إخْوانه المسْتَهْتَرين ٤
فَلقَدْ رأى الصّدّيقُ رُؤيا ، نِعْمَ رؤيا الصَّالحين ٥
رُؤْياهُ تلك تَطَاولَتْ بالذّكْر بَيْن الخَالدين ٦
فَلقَدْ رَأى شَمْساً وقَمَراً مع نُجُومٍ ظَاهرين ٧
الكُلّ قَدْ سَجَدُوا له حقّاً سُجُودَ الخَاضعين ٨
يَحكِى رُؤاهُ إلى أبِيه مِنَ الشُّيُوخ الطَاعِنين ٩
الشَيْخُ يَفْهُم أنّهَا صدْقٌ مِنَ العلْم المكين ١٠
فَوْراً يَقُولُ لِيُوسُف الصّديق ذى العَقْل الفَطِين ! ١١
لا تَقْصُص الرُّؤْيا عَلَى إخْوانك المتَعَنّتين ١٢
قَدْ يَحقدُون عَلَيك فَاحْذَرْ بَطْشَةَ المتَحَفّزين ١٣
لاشَكّ للشَّيْطان نَزْغٌ فِى قُلُوبِ الحَاقِدين ١٤
هُوَ أخْطَر الأعْداء للإنسان فى الذّكْرِ المبين (١) ١٥
وَلَسَوْفَ تُصبح إنَ يَشَأْ ربّى مِنَ المتَنَبّئين ١٦
وتَفسّر الأحْلامَ ذَاكُم فَضْلُ رَبّ العَالمين ١٧
لقَدْ اصْطَفَى الآباء قَبْلاً ، فِى عداد المرْسَلين ١٨
هُوَ فَضْل رَبّ العَرْش يُعطَى لِلْعبَاد المخْلصين ١٩
أبناء يُعْقُوب غَدَوا فِى ألْسُنِ المتَسَائلين ٢٠
فِى شأنهم قَالَ الإله ، فنِعْمَ خَيْر القَائلين ٢١
قَالوا لِبَعْضٍ حَيث كَانُوا فِى حَديثٍ هَامسين ٢٢
هَاكُم مقالتهم فَبِئْسَ مَقَالَةُ المتَطَاوِلين ٢٣
الشّيخ فِيهِ ضَلاَلَةٌ ، فلتَعْلَمُوا العِلْم اليَقِين ٢٤

---

(١) فى الذكر المبين : من قوله تعالى : ﴿ إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا ﴾ سورة فاطر آية رقم ٦ .

أعْطَى لِيُوسُفَ حُبه وأخيه مِنْ دُون البَنِين ٢٥
أعْطَاهُمَا حُباً وقَد صِرنَا جَمِيعاً مُهْمَلين ٢٦
هَذَا لَعَمْرُ الله ظُلْمٌ مِنْ أبٍ فِى النّابهين ٢٧
إنّا نُريدُ عقَابَه ، حتّى يثُوبَ ويَستبين ٢٨
فَلَنَقْتُلَنّ غُلامَه حتّى نكُونَ الفائزين ٢٩
إذمَا قَتَلْنَا حبّهُ يَهْدأ هَدُوءَ المكْرَهين ٣٠
ونَفُوزُ بالحُبّ الذى لَمْ نَلْقَهُ طُولَ السِّنين ٣١
وَلَسَوْفَ نَغْدُو بَعْدَ ذَلك فِى عداد الصّالحين ٣٢
لكنّ أكْبَرَهُمَ يَقُولُ ، وكَانَ ذَا عَقْلٍ فَطِين : ٣٣
لا ، لا أُوافقُكُم عَلَى قَتْلِ الغُلام المسْتَكين ٣٤
ياإخْوَتَاهُ لتَعْلَمُوا ، فَالقَتْلُ فعْل المجْرِمين ٣٥
والرأىُ عنْدى فَاسْمَعُوه ، وَلَا تكُونُوا مُعْرِضين ٣٦
فِى قَعْر جُبٍّ أنْزلُوه ، وَعَنْه عُودُوا قَافلين ٣٧
بَعْضُ القَوَافلَ علّهم إذمَا يكُونُوا رَاحلين ٣٨
إنْ يأت وَاردُهُم ، فَسَوْفَ يعُودُ بالصّيد الثّمين ٣٩
هَذَا هُو الرَّأْىُ الصَّوَابُ ، فَلا تكُونُوا جَاهلين ٤٠
كيْفَ السَّبيلُ لكَى يتمَّ مُخَطّطُ المَتآمرين ؟! ٤١
جَاءُوا أبَاهُم فِى ثِيَابِ الزّهْد كَالمتَبَتّلين ٤٢
قَالُوا له قَوْلاً كَذُوباً ، بئس قَوْماً كَاذبين ٤٣
لِمَ لَمْ تثقْ فِينَا ، فَلَسْنَا يا أبَانا خَائنين ٤٤
هَذَا أخُونَا يُوسف فِى البَيْتَ يَقْعُدُ كَالسَّجِين ٤٥
أرْسله مَعَنَا صُحْبَةَ الأغْنَام نَغْدُو لَاعبين ٤٦
إنّا سَنَحْرُسُه ، وَسَوْفَ يَعُودُ عَوْدَ الآمنين ٤٧
فَأَجَابَهُم ، لا تَأْخُذُوه ، أَخَاف من غدر السنين ٤٨
الذّئْبُ يَأْكُلُه ، وأخْشَى أنْ تكُونُوا غَافلين ٤٩
قَالُوا لَه : هَذَا المقَالُ يُسيئُنَا فِى العَالَمين ٥٠
تَاللّه إن يأكلْ أخَانَا الذئبُ ، صِرنَا خَاسِرين ٥١
إنّا رجَالٌ أقْوِيَاءُ نَقيه شَرّ الكَاسِرين ٥٢
كَذَبُوا لَقَدْ خَانُوا الأَمَانَة ، لَمْ يكُونُوا صَادقين ٥٣

القرآن أحسن القصص

﴿ الٓر تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ ① إِنَّا أَنزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ② نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ ... ﴾

الـلـــهُ قَالَ مُحَدِّثـــاً فِى مُحْكَمِ الـــذِّكْرِ المبـــين ١
لـــلـمُصْطَفـــى الـــهَادِى إِمـام الأَنْبِيَاءِ المـــرْسَلِين ٢
عَن أَحْسَنِ الـــقَصَصِ الـــتى هِىَ عِبْرَةٌ لِلْعَالمـــين ٣

هذه الأحرف المقطعة.. ألـف.. لام.. راء، فى أول السورة، هى رموز وإشارات لا يعلم تأويلها إلا الله، ثم الراسخون فى العلم.. تلك آيات الكتاب.. هذه هى آيات القرآن الكريم.. المبين.. الواضح الجلى، الذى يفصح عن الأشياء المبهمة، ويفسرها ويبينها.

إنا أنزلناه قرآنا عربيا.. وذلك لأن لغة العرب هى أفصح اللغات، وأبينها وأوسعها، وأكثرها تـأدية للمعانـى.. فلهذا أنزل أشرف الكـتب، بأشرف اللغـات، على أشرف الرسل، بسفارة أشرف الملائكة، وكان ذلك في أشرف بقاع الأرض، وابتدى، إنزاله فى أشرف شهور السنة، وهو رمضان.. هذا قول المـفسر الكبير ابن كثير.. وأضيف كان بدء نزوله فى أشرف ليلة، وصفت بأنها خير من ألف شهر، هى ليلة القدر.

قوله تعالى: ﴿ نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ ... ﴾.

الضمير « نحن » هو الله سبحانه وتعالى، وفيه استدعاء للرسول الكريم، ومداناة له من ربه، وتكريم لذاته، صلوات الله وسلامه عليه، بهذا الحديث الذى يتلقاه عن ربه بغير واسطة.

و﴿ أَحْسَنَ الْقَصَصِ ﴾.. أصدقه حديثاً، وأشرفه غاية، وأكرمه مقصداً، وأقومه طريقاً، وهو قصص القرآن الذى يقصه الله تعالى. القصص القرآنى للأستاذ عبد الكريم الخطيب.

قال ابن كثير: فكمل من كل الوجوه.. ولهذا قال تعالى: ﴿ نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ ﴾ يقص عـلينا المـولى جلت قدرتـه، فى محكم آيـاته، وذلك فيـما أوحاه إلى رسوله محمد ﷺ والخطاب موجه إلى الناس جميعا من خلال خاتم الأنبياء وإمامهم.

يقص علينا أروع وأحسن القصص، وأعجبها أيضاً... لقد ذُكرت قصص الأنبياء

فى القرآن الكريم ، إلا أنك تجد القصة الواحدة ذكرت متفرقة فى أكثر من سورة ، بحيث يتصور البعض ممن ليس لهم دراية بأساليب اللغة العربية ، أن تكرار القصة فى سورة بعد أخرى ، إنما هو تكرار لمعنى واحد ، وذلك ليس من البلاغة فى شىء . . !

والواقع أنه ليس كذلك ،فتكرار القصة فى سورة بعد أخرى،له عدة أسباب منها :

الإضافة . . فالذى يذكر فى السورة الثانية ،لا يخلو من إضافة تزيد المعنى وضوحاً ، ومنها أيضاً تنويع الأسلوب : فأسلوب القرآن الكريم ، يتنوع من سورة لأخرى ، فلكل سورة من سور القرآن نظمها وموسيقاها وإيقاعها . . وهذا مما تفرد به القرآن الكريم ببلاغته التى تحدى بها الثقلين : الجن والإنس . . ومما يؤكد فضل القرآن بأسلوبه وقصصه، وأنه كاف عن كل ما سواه من الكتب ما رواه جابر بن عبد الله ، أن عمر بن الخطاب أتى النبى ﷺ بكتاب أصابه من بعض أهل الكتاب ، فقرأه على النبى ، فغضب وقال : « أمتهوكون ـ متحيرون ـ فيها يا ابن الخطاب . . ؟ ! والذى نفسى بيده لقد جئتكم بها بيضاء نقية ، لاتسألوهم عن شىء ، فيخبروكم بحق فتكذبونه ، أو بباطل فتصدقونه ، والذى نفسى بيده لو أن موسى كان حياً ما وسعه إلا أن يتبعنى . .» رواه الإمام أحمد فى مسنده .

إخوة يوسف ليسوا أنبياء

﴿ ... بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَذَا الْقُرْآنَ وَإِن كُنتَ مِن قَبْلِهِ لَمِنَ الْغَافِلِينَ (٣) ﴾

عـــن يُوسُف الـصّديـــق مَع إخْوانِه المُستَهْتِريـــن ٤

إنها قصة يوسف الصديق ، مع إخوانه الذين أعماهم الحقد والحسد ، فانزلقوا إلى حضيض التفكير الإنسانى . . كيف . . ؟!

لقد ركب الشـيطان رءوسهم ، فزين لهـم السوء فأطاعوه ، فمن ثـم ارتكبوا أسوأ وأشنع جريمة فى تاريخ البشرية ، لقد أعادوا إلى الأذهان ،قصة قابيل مع أخيه هابيل ، تلكم هى أول جريمة وقعت على الأرض .

بيد أن جريمة أبناء يعقوب مع أخيهم يوسف ، أشد بشاعة من جريمة قتل قابيل أخاه هابيل . . ذلك لأن قابيل كان واحداً لا شريك معه فى تفكيره . . والشيطان يستطيع أن يلعب بـالواحد وبالاثنين فقط ، لـكنه لا يستطيع أن يـلعب بالثلاثة فأكـثر ، وذلك من واقع قول المعصوم محمد ﷺ حيث قال: « الراكب شيطان، والراكبان شيطانان، والثلاثة ركب » هذا فـى السفر إذ ينـبغى أن يكون المـسافرون فى الـصحراء أكثر مـن اثنين . . ولاغرو فالجماعة تبدأ من ثلاث .

وقال علـيه الصلاة والسـلام : « عليكم بالجـماعة فإنما يـأكل الذئب من الـغنم ، القاصية » والذئب هنا هو الشيطان .

وإخوة يوسف كانوا عشرة رجال ، ليـس واحداً ، أو اثنين ، أو ثلاثة ، بل كانوا عشرة ، أصغرهم قد ناهز الاحتلام ، قد أجمعوا كلهم على التخلص من يوسف، وكان أصغرهم كلهم سناً ، ولا ذنب له إلا أن أباه قد أحبه ففضله على جميع أولاده ، وذلك لما فيه من المزايا .

إن أبناء يعقوب بصنيعهم الحقود مع أخيهم يوسف ، قد خالفوا ما هو متعارف عليه من العقل والمنطق والعرف والشرع ، بأن الشيطان لا يستطيع أن يلعب بالجماعة .

ومما هو جدير بالذكر،فإن أخوة يوسف ليسوا من الأنبياء،إذ لا دليل لدينا،ولا نص يؤكد نبوتهم ، وكيف يكونون أنبياء ، أولئك الذين فكروا فى الجريمة،بل وأتوها !!!

فمن المعروف أن الأنبياء معصومون قبل النبوة وبعدها، ولاسيما عن الكبائر، وإخوة يوسف قد تلوثت أيديهم بالجريمة، بحقدهم على أخيهم يوسف لمكانته فى قلب أبيه، والحقد لا يمكن أن يكون من صفات الأنبياء.. إذن فلا حرج علينا فى أن نطلق ألسنتنا عليهم، وأن نصفهم بما يستحقونه، من واقع سلوكهم الذى قصه علينا القرآن الكريم.

﴿ وَإِن كُنتَ مِن قَبْلِهِ لَمِنَ الْغَافِلِينَ ﴾ إن رسول الله ﷺ ، كان غافلا عن هذا الأمر ، لم يكن يتوقع أنه سيكون نبياً يوما ما ، إلى أن فجأه الوحى على رأس الأربعين من عمره ، وهو فى غار حراء .

﴿ وَإِن كُنتَ مِن قَبْلِهِ لَمِنَ الْغَافِلِينَ ﴾ أى وإن الحال والشأن ، أنك كنت من قبل أن نوحى إليك هذا القرآن ، لمن الغافلين عن هذه القصة ، لم تخطر ببالك ، ولم تقرع سمعك ، لأنك أمىٌّ لا تقرأ ولا تكتب (١) .

﴿ وَإِن كُنتَ مِن قَبْلِهِ لَمِنَ الْغَافِلِينَ ﴾ يريد من قبل أن نوحى إليك ، غافلاً عن قصة يوسف وإخوته ؛ لأنه ﷺ إنما علم ذلك بالوحى .

ومنهم من قال : المراد أنه كان من الغافلين ، عن الدين والشريعة قبل ذلك . كما قال تعالى : ﴿ مَا كُنتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ ﴾ [الشورى : ٢٥] (٢) .

---

(١) مجلد ٢ ص ٤١ صفوة التفاسير .
(٢) مفاتيح الغيب تفسير الآية ٣ .

الرؤيا جزء من ستة وأربعين جزءاً من النبوة

﴿ إِذْ قَالَ يُوسُفُ لِأَبِيهِ يَا أَبَتِ إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ ﴿٤﴾ ﴾

فَلَقَدْ رأى الصِّدِّيقُ رُؤيا ، نِعْمَ رؤيا الصَّالحين ٥
رُؤْيَاهُ تلك تَطَاوَلَتْ بالذِّكْرِ بَيْنَ الخَالدين ٦
فَلَقَدْ رَأى شَمْساً وقَمَراً مع نُجُوم ظَاهِرين ٧
الكُلّ قَدْ سَجَدُوا له حَقّاً سُجُودَ الخَاضِعِين ٨

يوسف الصديق ، يرى رؤيا منامية ، ونعم رؤى الصديق ، فالإنسان الصادق لا تكذب رؤياه ، ولا سيما الذين اصطفاهم الله من خلقه ، وهيأهم لحمل أعباء الرسالة مثل : يوسف الصديق وأضرابه .

ومن المعلوم ، فرؤيا يوسف الصديق هذه ، قد بلغت من الشهرة التاريخية ، ما جعلها ماثلة فى الأذهان ، مرتبطة ارتباطاً وثيقاً بيوسف الصديق ، بحيث عرفت به ، وهو قد عرف بها . . فماذا رأى يوسف الصديق . . ؟!

لقد رأى أحد عشر كوكباً ، والشمس والقمر،رآهم جميعاً قد سجدوا له . . يالله !! إنها لرؤيا تستحق الاهتمام من رائيها ، حتى وإن كان فتى صغيراً ، فكونه يرى الشمس والقمر ونجوماً محددة العدد ، هذه الكواكب العظيمة التى نراها فى السماء ، يراها غلام صغير فى رؤياه،تتهاوى فتسجد أمامه،إنه لأمر يدعو إلى الدهشة والاستغراب !!

قال القرطبى فى تفسيره : « الرؤيا حالة شريفة ، ومنزلة رفيعة ، قال ﷺ : « لم يبق بعدى من المبشرات إلا الرؤيا الصالحة الصادقة ، يراها الرجل أو ترى له » .

وقال : « أصدقكم رؤيا أصدقكم حديثاً » وحكم ﷺ بأنها جزء من ستة وأربعين جزءاً من النبوة » وروى : « من سبعين جزءاً من النبوة » وروى من حديث ابن عباس رضي الله عنهما : « جزءاً من أربعين جزءاً من النبوة » ومن حديث ابن عمر : « جزء من تسعة وأربعين جزءاً » ومن حديث العباس : « جزء من خمسين جزءاً من النبوة » ومن حديث أنس : « من ستة وعشرين » وعن عبادة بن الصامت « من أربعة وأربعين جزءاً من

النبوة » والصحيح منها الستة والأربعين ، ويتلوه فى الصحة حديث السبعين . . . ولم يخرج مسلم فى صحيحه غير هذين الحديثين .

وقال ابن كثير فى تفسيره: يقول تعالى: اذكر لقومك يا محمد في قصصك عليهم ، من قصة يوسف ، إذ قال لأبيه ، وأبوه هو : يعقوب عليه السلام كما قال الإمام أحمد :

عن ابن عمر : أن رسول الله ﷺ قال : « الكريم ، ابن الكريم ، ابن الكريم ، ابن الكريم ، يوسف بن يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم » . مسند الإمام أحمد .

﴿ إِذْ قَالَ يُوسُفُ لِأَبِيهِ يَا أَبَتِ إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا ﴾

« من هنا بداية القصة ، أى اذكر حين قال يوسف لأبيه يعقوب ـ والخطاب هنا لمحمد ﷺ ـ يا أبى إنى رأيت فى المنام هذه الرؤيا العجيبة ، رأيت أحد عشر كوكباً من كواكب السماء ، خرت ساجدة لى ﴿ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ ﴾ أى ورأيت فى المنام الشمس والقمر ساجدة لى مع الكواكب « قال ابن عباس : كانت الرؤيا فيهم وحياً ، قال المفسرون : الكواكب الأحد عشر كانت إخوته ، والشمس والقمر أبواه ، وكان سنّه إذ ذاك اثنتى عشرة سنة ،وبين هذه الرؤيا .واجتماعه بأبيه وإخوته فى مصر، أربعون سنة »[١] .

---

(١) الصاوى على الجلالين . عن صفوة التفاسير مجلد ٢ ص ٤١ .

يوسف الصديق يقص رؤياه على أبيه

....

يَحـكِى رُؤاهُ إلـــى أبِيــه مــنَ الـــشُّيُوخ الـطَّاعِنِين ٩
الــــشَّيْخُ يَفْهُمُ أنّهَا صِدْقٌ مِنَ الــعِلْم المــكِين ١٠
فَوْراً يَقُولُ لِيُوسُف الصّديق ذِى الـعَقْل الفَطِين ! ١١

فلما استيقظ يوسف فى الصباح من نومه، وكانت أحداث رؤياه لا تزال ماثلة فى ذهنه، تملأ وجدانه وعقله، فتوجه نحو أبيه، وألقى عليه تحية الصباح، ثم قال له: يا أبت! إنى رأيت فى منامى رؤيا عظيمة. . رأيت أحد عشر كوكباً والشمس والقمر كلهم رأيتهم لى ساجدين .

لقد قص يوسف رؤياه على أبيه ، ونستطيع هنا أن نقول : إنه قص الرؤيا على أبيه وهو لا يدرى ما معناها ، ذلك لأنه كان صبيا صغيراً ، لما يبلغ الاحتلام بعد . . . وهكذا يفعل الناس جميعاً ، صغارهم وكبارهم .

فمن يرى رؤيا منامية، فإنه يبادر فيقصها علي أهله، عساه أن يجد فيهم من يعبرها له، ذلك لأن الرؤى المنامية قديماً وحديثاً، يستشف الناس منها ما سوف يأتى به من الخير أو الشر.

لقد قص يوسف الصديق رؤياه على مسامع أبيه ، وكان ينتظر منه أن يعبرها له ، فيطمئنه بكلمات تبشره ، بأن خيراً سوف يصيبه ، أو مستقبلاً حسناً ينتظره . . قال الأستاذ عبد الكريم الخطيب فى كتابه القيم : « القصص القرآنى » ، « وتسرح عين يوسف فى وجه أبيه ، ليرى على قسماته أثر هذا الحديث عنده ، وتأويله الذى أوّله بينه وبين نفسه ، وهل هو مما يسر أو مما يسوء ؟! » .

لقد استمع يعقوب ولده يوسف، وهو يقص على مسامعه تلك الرؤيا العجيبة!! ولم لا تكون عجيبة ؟ ! لقد كانت سبباً فى تغيير مجرى حياة يوسف ، وبداية لرحلة عذاب طويلة قطعها يوسف ، فى عديد من المحن ، إلى أن انتهى به المطاف إلى المكانة المرجوة التى أعدها الله له ، وقد كانت مخبوءة فى ضمير الغيب ، بيد أن رؤياه أوحت بهذا .

لقد أدرك يعقوب أن رؤيا يوسف ولده ، رؤيا صدق وإلهام ، ولا يمكن أن تكون من أضغاث الأحلام التى تثيرها الخواطر والأفكار فى النوم ، لا سيما خواطر غلام صغير كيوسف ، الذى يخاف أبوه عليه من الذئب .

يعقوب يحذر يوسف من إخوته

﴿ قَالَ يَا بُنَيَّ لا تَقْصُصْ رُءْيَاكَ عَلَىٰ إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُوا لَكَ كَيْدًا إِنَّ الشَّيْطَانَ لِلإِنسَانِ عَدُوٌّ مُّبِينٌ (٥) ﴾ .

لا تَقْصُص الــرُّؤْيــا عَلَى إخْوانك المــتَعَنّتين ١٢
قَدْ يَحــقِدُون عَلَيـك فَاحْذَرْ بَطْشَةَ المــتَحَفّزيــن ١٣
لاشَكّ لــلــشَّيْطــانِ نَزْغٌ فِى قُلُوبِ الحَاقديــن ١٤
هُوَ أخْطَرَ الأعْداءِ لــلإنــســانِ فِى الــذّكْرِ المبِين ١٥

ظل يوسف ينـتظر أباه ، بعد أن قص عليه رؤيـاه ليعبرها له ، وبينـما كان يوسف ينتظر من أبـيه تعبير رؤياه ، كان يجول بأفـكاره هنا وهناك بحثاً عن مـعناها ، كان أبوه يعقـوب فى الوقت نفسـه يجول بأفكـاره فى واد آخر ، ليس فـى مجال تعبيـر الرؤيا ، ولكنه فى مجال آخر ، ذلك لأنه فهم معنى الـرؤيا ، وبالتالى فهم ما سوف يترتب على تعبيرها . . لقد استشف من أحداث رؤيـا يوسف ولده ، أنه سوف يكون نبياً رسولاً ، وسوف يكون ذا سلطان وجاه ، وسوف يسود أهله كلهم : أباه وأمه وإخوته .

فمن ثم خشى على يوسف ، أن يسمع إخوته رؤيـاه تلك ، فيفهموا منها ما فهمه هو ، فيحسدوه ويكيدوا لإهلاكه . . وبعد فترة صمت ، كان كل من يعقوب ويوسف ، يجول بفكره أثناءها فى واد غير الذى يجول فيه الآخر ، قال يعقوب ليوسف :

﴿ قَالَ يَا بُنَيَّ لا تَقْصُصْ رُءْيَاكَ عَلَىٰ إِخْوَتِكَ ﴾ يوسف لم يصدق أذنيه حينما سمع أباه يحذره أن يقصص رؤياه على إخوته ، لقد دهش يوسف مـن أبيه ، فبينما هو ينتظر منه تعبير رؤيـاه ، إذ هو ينهاه أن يقص رؤياه علـى إخوته . . وشتان ما بين ما كـان يتوقعه يوسف ،وبين ما سمعه من أبيه،إلا أن دهشته لم تطل،لقد أردف أبوه قائلاً: ﴿ فَيَكِيدُوا لَكَ كَيْدًا إِنَّ الشَّيْطَانَ لِلإِنسَانِ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴾ لا غرو أن الشيـطان عدو للإنسان كـما أخبر بذلك المولـى عز وجل فى محكـم آياته ، ومن ثم فـهو لا يدع فرصـة تفوته لـممارسة عداوته ، إنـه أخطر الأعداء وألدهم لـبنى الإنسان ، لا يـهنأ له بال وهو يـرى الإنسان مستقيماً ، مطـيعاً عابداً مولاه ، يتمتع بالأمن والأمان مع كـل من حوله . . أحب بنى الإنسان إليه ، هو الذى لا يقيم لعبادة ربه وزناً ، ولا يلتمس إلى الخير سبيلا .

وتالله لو قـدر لأحد أن يطلع على سريـرة إبليس ، لوجده يقهـقه طرباً وسروراً ، وفى أسعد أحواله منـذ أن خلقه الله ، ذلك لأنه قد حقق نصراً كبـيراً بوسوسته لإخوة يوسف ، ومـلء صدورهم حقـداً عليه .. أقـول : فى أسعد أحـواله لا لنجـاحه فى الوسوسة إليهم فـحسب ، ولكن لكون الموسوس إليهم من آل بيـت النبوة ، من سلالة إبراهيم خليل الله !!!

« إن يعقوب يقول لابنه الحبيب بملء فيه ، لا تقصص فهو ينهاه نهياً مباشراً صريحاً لا غموض فيه ولا إبهام ، بعدم قص رؤياه على إخوته . إنه لا يقول مثلاً :

« يا بنى ، أرى ألا تقص رؤياك .. » فيكـون ليوسف شىء من إبداء الرأى ، فى هذه المسألة ، إن كان له رأى .

ونحن نتساءل: لماذا لم يعط يعقوب ،ابنه يوسف فرصة المشاركة فى هذه المسألة ؟! والجواب على ذلك أن يعقوب قد ثبت له بـصفة أكيدة ، أن الإخوة لا يحبون يوسف . ولو قص عليهم رؤياه ، لتمادوا فى حسدهم ، وربما تورطوا مع يوسف ، فيما لا تحمد عقباه [1] » .

---

(١) « تأملات فى سورة يوسف » لمؤلفـه الدكتور حسن محمد باجودة . رئيس قسم الدراسـات العليا العربية ، جامعة الملك عبد العزيز .

يعقوب يبشر يوسف بعد تحذيره

﴿ وَكَذَلِكَ يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ وَيُعَلِّمُكَ مِن تَأْوِيلِ الأَحَادِيثِ وَيُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَعَلَىٰ آلِ يَعْقُوبَ كَمَا أَتَمَّهَا عَلَىٰ أَبَوَيْكَ مِن قَبْلُ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ إِنَّ رَبَّكَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (٦) ﴾

وَلَسَوْفَ تُصــــبُح إنَ يــــشَأْ ربّى مِنَ المــــتَنَبِّئِين ١٦
وتَفَسّر الأَحْلامَ ذَاكُم فَضْلُ رَبّ الــــــعَالمين ١٧
لَـقَدْ اصْطَفَـى الآبــاء قَبْلاً ، فِى عدادِ المـرْسَلِين ١٨
هُوَ فَضْل رَبّ الــعَرْش يُعـــطَى لِلْعِبَاد المخْلَصِين ١٩

بعد أن نصـح نبىُّ الله يعقـوب ، ولده يوسف وحذره قائلاً : لا تـقصص رؤياك على إخوتك، لقد كان يخشى عليه مـن إثارة حقدهم ، وكيدهم له .. استطرد قائلاً : **﴿ وَكَذَلِكَ يَجْتَبِيـكَ رَبُّكَ وَيُعَلِّمُكَ مِن تَأْوِيلِ الأَحَادِيـث ... ﴾** أى إننى أتصـورك ياولدى ، سوف تكون ذا مكانة مرموقة بين الناس ، وسوف تكون نبياً مرسلاً بإذن الله ، وبالتالى سوف يمنحك الله علم تأويل الأحلام .

هكذا أتصور مستقبلك يا ولدى ، من وحى رؤياك ، وليس ذلك بعيداً على الله ، وبالتـالى لن يكـون بدعاً ، فنـحن يا ولدى سـلالة آباء كرام ، نـحن آل بيت الـنبوة ، ولسوف يكـرمك ربك ، ويتم نعـمته عليك وعـلى آل يعقوب جمـيعاً ، كما أتمهـا على أبويك مـن قبل وهما : إبـراهيم خليـل الله ، وإسحاق ولـده نبى الله .. إذن فـليس غريباً أن يعطيك الله مثل ما أعطاهما .

عن أبى هريرة قال : سئل رسول الـله ﷺ : أى الناس أكرم ؟ ! قال : « أكرمهم عند الله أتقاهم » قالوا : ليس عن هذا نـسألك قال : « فأكرم الناس يوسف نبى الله ، ابن نبى الله ، ابن نبى الله ، ابن خليل الله .. إلخ » الحديث أخرجه البخارى .

فأنت من تلك السلالة الطاهرة يا ولدى ، وفضل الله يمنحه للمخلصين من عباده ، ويوفقهـم إلى الخير ، وينجـيهم من كل مكـروه ، ويأخذ بأيديهـم عندما تظلـم الرؤية أمامهم ، فيهديهم إلى الطريق القويم .

قال صاحب تفسير المنار: **﴿ وَكَذَلِكَ يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ وَيُعَلِّمُكَ مِن تَأْوِيلِ الأَحَادِيث ... ﴾**

أى ومثل ذلك الشأن الرفيع والمجد البديع الذى تمثل لك فى رؤياك ، يجتبيك ربك لنفسه، ويصطفيك على آلك وغيرهم، فتكون من عباده المخلصين، ويعلمك من علمه اللدنى، تأويل الرؤيا وتعبيرها ،أي تفسيرها بالعبارة والإخبار بما تؤول إليه فى الوجود .

وقال القرطبى فى تفسير : ﴿ وَكَذَٰلِكَ يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ ... ﴾ وهذا ثناء من الله تعالى على يوسف ، وتعديد فيما عدده عليه من النعم التى آتاه الله تعالى ، من التمكين فى الأرض، وتعليم تأويل الأحاديث، وأجمعوا على أن ذلك فى تأويل الرؤيا ، قال عبد الله ابن شداد بن الهاد : كان تفسير رؤيا يوسف بعد أربعين سنة ، ذلك منتهى الرؤيا .

وقال ابن كثير فى تفسيره : ﴿ وَكَذَٰلِكَ يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ ﴾ يقول تعالى مخبراً عن قول يعقوب لولده : إنه كما اختارك ربك وأراك هذه الكواكب ، والشمس والقمر ساجدة لك، كذلك يجتبيك ربك، يختارك ويصطفيك لنبوته، ويعلمك من تأويل الأحاديث . . . يعنى تعبير الرؤيا .

قال صاحب « تأملات فى سورة يوسف »: « لقد أدرك يعقوب ،بأن رؤيا يوسف ، لا يمكن أن تكون أضغاث أحلام ، على الرغم من أن يوسف غلام صغير السن حقاً ، وأن هذه الرؤيا ستعبر فى الحقيقة ، ولكن بعد وقت ما . وأن ابنه قد اصطفى لأمور عظام : بينها يعقوب فى القول على لسانه ، أى ومثل ذلك الاجتباء بالرؤيا الطيبة الصادقة . يجتبيك ربك ، بما تدل عليه هذه الرؤيا ، بالمنزلة الدينية العالية ، وليس وراء منزلة النبوة منزلة ، وبشىء من الملك أيضا » .

للظواهر غايات لا تعلم حقائقها إلا منها

﴿ لَقَدْ كَانَ فِي يُوسُفَ وَإِخْوَتِهِ آيَاتٌ لِّلسَّائِلِينَ ۝٧ ﴾

أبنــاء يُعْقُوبِ غَدَوا فِى أَلْسُنِ المتسَائلين ٢٠
فِى شَأْنِهم قَالَ الإله ، فَنِعْمَ خَيْرِ القَائلين ٢١
قالوا لِبَعْضٍ حَيث كَانُوا فِى حَدِيث هَامسين ٢٢
هَاكُم مقالتَهُم فَبِئْسَ مَقَالةُ المتَطَاوِلِين ٢٣

لقد كان فى قصة يوسف مع إخوته عبر وعظات ، ومعان بعيدة المعنى على كثير من الأفهام ، فمن ثم صار الناس يتساءلون عنها ، وأبادر فأقول : إن سياق الآيات يوحى بأن قصة يوسف مع إخوته ، كانت معروفة لدى الذين تساءلوا عنها ، لكنهم ربما كانوا يجلهون تفاصيلها الدقيقة . . لذلك تساءلوا عنها .

ولا غرو فمن فاته العلم بشىء ، أو بحكمته ، أو بوجه العبرة فيه ، سأل عنه من هو أعلم به منه ، ذلك لأن للظواهر غايات ، لا تُعلم حقائقها إلا منها . . فإذا ما كشف الغطاء عن أسرارها ونتائجها ، وقف العقل أمامها منبهراً . . والدليل على ذلك ، أن إخوة يوسف « لو لم يحسدوه ، لما ألقوه فى الجب ، ولو لم يلقوه فى الجب لما وصل إلى عزيز مصر ، ولولا وجوده فى بيت عزيز مصر ، لما أحبته زليخا وراودته عن نفسه واستعصم ، ولما ظهرت نزاهته ، وعُرف شرفه ، ولو لم تخب امرأة العزيز وصواحبها فى كيدهن ، لما ألقى يوسف فى السجن ، ولم لم يسجن ، لما عرفه ساقى الملك ، ولما عرف براعته فى تعبير الرؤيا ، ولو لم يعلم الساقى منه هذا ، لما عرفه ملك مصر ، ولما جعله على خزائن الأرض ، ولو لم يتبوأ هذا المنصب لما أمكنه أن ينقذ أبويه وإخوته وأهله أجمعين ، من المخمصة ، ويأتى بهم إلى مصر فشاركوه فى رياسته ومجده ، بل لما تم قول أبيه له : **﴿ وَيُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَعَلَىٰ آلِ يَعْقُوبَ ﴾** فما من حلقة من حلقات هذه السلسلة ، إلا وكان ظاهرها محرقاً ـ شراً ـ وباطنها مشرقاً ـ خيراً ـ فهذه أنواع من آيات الله فى القصة للسائلين عن وقائعها الحسية الظاهرة ، وما هو أعلى منها من علومها وحكمها الباطنة وهى: علم يعقوب بتأويل رؤيا يوسف ، وعلمه بكذب أولاده فى دعوى أكل الذئب ، ومن شهادة الله له بالعلم **﴿ وإنه لذو علم لما علمناه ﴾**

ومن شمه لريح يوسف منذ فصلت العير من أرض مصر قاصدة أرض كنعان »[١] .

لا يفوتنى أن أقول : إن مجىء قصة يوسف مع إخوته ، تامة فى سورة واحدة ، كان جواباً على تساؤلات وجهت لمحمد ﷺ ، وبدهى أن الجواب على أى سؤال ، يجىء متكاملاً ، لا متفرقاً .

قال الأستاذ عبد الكريم الخطيب فى ـ القصص القرآنى :

﴿ لَقَدْ كَانَ فِي يُوسُفَ وَإِخْوَتِهِ آيَاتٌ لِّلسَّائِلِينَ ﴾ . « وهذا يعنى أن قصة يوسف جاءت جواباً على سؤال أو أسئلة ، وردت على النبى ﷺ من اليهود ، أو من المشركين بإيعاز من اليهود ، ويجوز أن يكون عرض القصة جواباً ، على أسئلة واقعة ، أو مفترضة أن تقع من الذين يطلبون العلم بأخبار الماضين ، ويبحثون عنها فى مظانها ، ويسألون كل من يحسبون عنده علم بها . . وها هو ذا القرآن الكريم ، قد جاء فى هذا بالحق كله ، لمن يطلب أنباء هذه القصة ، ويلتمس مواقع العبرة منها .

أما من أراد بالسؤال عنها ، الامتحان والتحدى ، فقد جاءه من الحق ما يخزيه ويفضح ضلاله وبهتانه ، وسوء ظنه » .

(١) السطور التى بين الأقواس من تفسير المنار للسيد رشيد رضا جـ ١٢ بتصرف .

أبناء يعقوب وصفوا أباهم بالضلال

﴿إِذْ قَالُوا لَيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَىٰ أَبِينَا مِنَّا وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّ أَبَانَا لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ (٨)﴾

الشّيخ فِيه ضَلاَلَةُ ، فلتَعْلَمُوا العِلْم اليَقِين ٢٤
أعْطَى لِيُوسُفَ حُبه وأخيه مِنْ دُون البَنِين ٢٥
أعْطَاهُمَا حُباً وقَد صِرنَا جَمِيعاً مُهْمَلين ٢٦
هَذَا لَعَمْرُ اللهِ ظُلْمٌ مِنْ أبٍ فِى النّابِهين ٢٧

جلس أبناء يعقوب، إخوة يوسف، الصديق الذين امتلأوا حقداً على أخيهم يوسف، لا لذنب جناه ، أو إساءه وقعت منه فى حق أحد منهم .. بل لقد كان يوسف مثلاً أعلى فى الأخلاق ، فمن ثم لم يكن له مع أحد منهم علاقة سيئة .

دار بينهم حديث هامس ، لقد كان موضوع الحديث الهامس ، هو : يوسف الصديق ، إنهم يتبادلون الآراء بشأنه ، فماذا كان حديثهم وهمسهم .. ؟ ! وعلى أى شىء اتفقوا ..؟! لقد قرروا جميعاً أن أباهم، رجل ضال .. والدليل على ضلاله ، تفضيله يوسف وأخاه الشقيق بنيامين علينا ، ونحن الأكثر عدداً ، الأكبر سناً ، الأقوى على تحمل المسئوليات ، الأقدر على التكسب وحمل أعباء المعيشة .

فكونه يفضل يوسف وأخاه علينا بمزيد المحبة، على صغرهما وقلة غنائمها، فهذا لعمر الله يعتبر انحرافاً واضحاً من أبينا فى سلوكه ، إذ المفروض عقلاً أن يفضلنا نحن .. من واقع هذا الفهم القاصر العفن ، تطاولوا فقالوا : ﴿ **إِنَّ أَبَانَا لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ** [1] ﴾ إنه تائه عن الصواب ، ضال عنه ضلالاً بيناً ، وهل هناك ضلال بعد هذا ... ؟!

هذا الحكم منهم على أبيهم ، يعتبر تطاولاً ، لا شك في ذلك ، لأن أباهم منح يوسف وأخاه الأصغر، حبا أكثر لا لذاتهما، ولكن لأنهما أصغر أولاده ، وطبيعة الوالدين دائما ، تمنح الأصغر حبا أكثر .. لقد سئل والد حكيم ، أى ولدك أحب إليك .. ؟! فقال: صغيرهم حتى يكبر ، وغائبهم حتى يحضر ، ومريضهم حتى يشفى .

---

(١) قال القرطبى فى تفسيره : لم يريدوا ضلال الدين ، إذ لو أرادوه لكفروا ، وإنما أرادوا أنه فى خطأ بين فى إيثار اثنين على عشرة .

لذلك . . فالدروس المستفادة من هذه القصة :

١ـ وجوب عناية الوالدين بمداراة حبهم الأكثر لبعض أبنائهم .

٢ـ تربية أبنائهم على المحبة والاحترام فيما بينهم .

٣ـ اجتناب تفضيل بعضهم على بعض بعطاء ، أو حديث ، أو حتى القُبلة بما يعتبره المفضول إهانة له .

بعض الأبناء يمنحهم الله مواهب فطرية : كمكارم الأخلاق ، التقوى ، العلم ، الذكاء المفرط ، لتفضيل هؤلاء ينبغى على الآباء أن يسلكوا سبيل الحكمة ، ولا نخال أن يعقوب كان يخفى عليه هذا المعنى، ولكن ماذا يفعل الإنسان بغريزته، وقلبه، وروحه؟! أيستطيع أن يحول دون سلطانها على جوارحه؟! كلا، فقد كان رسول الله يقسم بين نسائه بالعدل، من حيث المبيت، بيد أنه كان يحب عائشة أكثر من كل نسائه فمن ثم كان يقول : «اللهم هذا قسمى فيما أملك ، فلا تلمنى فيما تملك ولا أملك » أخرجه البخارى .

« إن يوسف وأخاه على التوالى أصغر أبناء يعقوب الاثنى عشر ، وإنه لشىء طبيعى أن ينال صغار الأبناء من المحبة والرعاية . لاستحقاقهم لذلك وحاجتهم له أكثر من كبارهم . لقد كان خليقاً بإخوة يوسف، أن ينظروا إلى هذه المسألة من هاتين الزاويتين .

والذى حدث هو أنهم نظروا إلى المسألة نظرة عقلية صرفة ، إنهم يجعلون يوسف وأخاه فى كفة ، وهم جميعاً فى كفة أخرى . ومن زاوية هذه النظرة العقلية ، هم يستحقون ما لا يستحق يوسف وأخوه .

إن يوسف وأخاه اثنان ، وهم عشرة ، والعدل فى نظرهم يقضى بألا ينال الاثنان ما ينال العشرة ، فكيف إذا كان نصيب الاثنين أكثر من نصيب العشرة ؟!

وإن نظرتهم العقلية ، تجعلهم ينكرون هذا الحب . لهذين الغلامين الصغيرين ، اللذين لا يجلبان نفعاً ، ولا يدفعان شراً : بينما هم العشرة ، الذين تعصب بهم الأمور ، وتدفع بهم الشدائد لا ينالون حظاً كما ينال الاثنان ، والاثنان فقط » من كتاب « تأملات فى سورة يوسف » .

انتصار رأى الشيطان فى أبناء يعقوب

﴿ اقْتُلُوا يُوسُفَ أَوِ اطْرَحُوهُ أَرْضًا يَخْلُ لَكُمْ وَجْهُ أَبِيكُمْ وَتَكُونُوا مِنْ بَعْدِهِ قَوْمًا صَالِحِينَ (٩) ﴾ .

إنّا نُريدُ عقَابَه ، حتّى يَتُوبَ وَيَستَبين ٢٨
فَلَنَقتُلَنّ غُلامَه حتّى نكُونَ الفَائزين ٢٩
إذمَا قَتَلْنَا حبّهُ يَهْدأُ هَدُوءَ المُكرَهين ٣٠
ونَفُوزُ بِالحُبِّ الذى لَمْ نَلْقَهُ طُولَ السِّنين ٣١
وَلَسَوْفَ نَغْدُو بَعْدَ ذَلك فِى عِدادِ الصّالِحين ٣٢

بعد أن اقتنع أبناء يعقوب، بعد الحوار الهامس، بخطأ أبيهم ، وأن ما وصفوه به من الضلال لم يعترض عليه أحد منهم. .إذن فكلهم متفقون على رأى واحد. .لذلك فرروا بالإجماع معاقبة أبيهم ، قد قرروا معاقبته ، ولكن بطريقة غير مباشرة . . كيف . . ؟ !

تلك العقوبة هى : إبعاد يوسف من حياة أبيه ، وبأى وسيلة ممكنة ، دونما تدبر لما سوف يترتب على هذا التصرف من آثار سيئة ، وعواقب وخيمة .

فما داموا قد ارتضوا جميعاً هذا القرار ـ معاقبة أبيهم ـ إذن فلم يبق أمامهم سوى الاتفاق على صورة العقوبة ، كيف . . ؟! وبأى شكل . . ؟!

وبعد لحظات من الصمت ، كان كل واحد منهم يفكر فى صورة العقوبة ، وإذا بقائلهم يقول :

﴿ اقْتُلُوا يُوسُفَ أَوِ اطْرَحُوهُ أَرْضًا يَخْلُ لَكُمْ وَجْهُ أَبِيكُمْ . . . ﴾ . ياالله !! إنهم يريدون معاقبة أبيهم ، ولكن فى شخص حبّه يوسف . . إذن فالعقوبة بالنسبة لأبيهم معنوية، صورتها آلام وأحزان ، أما العقوبة الحقيقية ، فهى التى سوف يوقعونها بيوسف البرىء،الخالى الذهن عن أحقادهم وعدائهم وتدبيرهم . . إنه ضحية ، ولا ذنب له فى هذا كله ، إلا أن أباه أحبه ، فكان حب أبيه وبالاً عليه ، فصار بهذا كأصبع النادم حينما يعضه أسفاً وحسرة كما قال الشاعر العربى :

غيرى جنى وأنا المعاقب فيكمو : فكأننى سبّابة المتندم

لقد اتفقوا جيمعا على هذا الرأى القائل ﴿اقْتُلُوا يُوسُفَ . .﴾ إلخ، ومن ثم فأستطيع أن أقول: إن الشيطان كان معهم فى جلستهم التى اتخذوا فيها ذاك القرار ، بل كان سيد الجلسة، يتحدثون بما يرضيه ، ولا يزال يزين جريمتهم ، ويصور لهم النتيجة الحسنة التى يتمنونها جميعاً ، ظل يوسوس لهم حتى انتصر رأى الشيطان فى نفوسهم ورءوسهم ، على رأى الإيمان . . وإن جمعاً ينتصر فيه رأى الشيطان لهو جمع ضال تائه !!!

وكم للشيطان من انتصارات حققها، لا سيما بشأن انبياء الله ، فقد انتصر قبل ذلك على جمع الضلال ، أولئك الذين قرروا إلقاء إبراهيم فى النار !! وانتصر بعد ذلك على جمع أشد ضلالاً، أولئك الذين اجتمعوا فى دار الندوة، فقرروا قتل محمد[1] ﷺ . . وفى كل مرة تكون الهزيمة فى النهاية للشيطان وأعوانه . . لقد تصور إخوة يوسف ، بتفكيرهم القاصر أنهم حينما يبعدون يوسف من حياة أبيه ، سوف يخلو وجهه لهم ، فمن ثم لا يجد أمامه سواهم، وبالتالى سوف يمنحهم حبه الذى حرموه . . ولم لا ، فذلك شيء منطقى ومعقول كما تصوروا . . إنهم يشعرون بالظمأ لذلك الحب الذى يؤثر به ولديه يوسف وأخاه بنيامين ثم قالوا: وبعد أن نتخلص من يوسف : إما بقتله أو تغريبه ، سوف نتوب إلى الله ، فنكون قوماً صالحين، مصلحين لأعمالنا بما يكفر إثمها ، فيرضى عنا أبونا ، ويرضى عنا ربنا !!!

---

(١) اجتمع مشركو مكة فى دار الندوة ، للتشاور فى أمر رسول الله ﷺ ، جاءهم إبليس في صورة رجل شيخ ، مدعياً أنه من أهل نجد ، قال إنه سمع بالذى اجتمعوا له ، وأراد أن يشاركهم الرأي والنصيحة ، فأذنوا له . . وفى هذا الاجتماع اتفقوا على قتل محمد ﷺ ، كما هو مذكور فى السيرة النبوية . ابن هشام ، ابن كثير ، تغريدة السيرة النبوية . للمؤلف .

منطق العقل يهزم رأى الشيطان

﴿ قَالَ قَائِلٌ مِّنْهُمْ لا تَقْتُلُوا يُوسُفَ ﴾

لـــكـــنّ أكْبَرَهُمَ يَقُولُ ، وكَانَ ذَا عَقْلٍ فَطِين ٣٣
لا ، لا أُوافقُكُم عَلـى قَتْلِ الـغُلام المـسْتكِين ٣٤
يـــاإخْوَتَاهُ لِتَعْلَمُوا ، فَالـــقَتْلُ فِعْل المجْرِمين ٣٥
والـــرأىُ عِنْدى فَاسْمَعُوه ، وَلا تكُونُوا مُعْرِضِين ٣٦

حينما قرروا قتل يـوسف جميعهم . . ران على جمعهم ظل مـن الكآبة والرهبة ، لقد شل تفكيرهم، فلا تسمع أحداً منهم ينبس ببنت شفة . . صمت رهيب خيم عليهم ، فكأنما على رءوسهـم الطير ، ولـم لا ، فالأمر جد خـطير . . ذلك لأن الـقرار الذى اتخذوه بقـتل يوسف ، قد يكون سـهلاً ، لأنه قول يقال فـحسب . . أما التنفـيذ فهو الأمر الصعب ، هو الممارسة الفعلية لجريمة القتل . . وبعد لحظة صمت قصيرة فى قياس الزمن ، بيد أنها كانت طويلة ، طويلة جـداً فى نفوس القوم ، لما صاحبها من أحاسيس وأفكار وانفعالات شتى .

بعد هذا الصمـت الذى ساد مجلسهم ، إذا صوت أحدهم قد بـدد السكون المخيم عليهم . . إنه أخوهم الأكبر ، إنه يعترض . . . يالـله !! لقد استيقظ ضميره قبل فوات الأوان فقـال : إنى أعترض يـا إخوتى علـى هذا القرار . . . قـرار قتل يوسـف ، بل أعترض على مجرد الـتفكير فى قتل يوسف ، ما ذنب هذا الـغلام . . . ؟! لا تقتلوه يا إخوتى ، فالقتل جـريمة ينهى عنها رب السماء ، ولا يأتيـها إلا المجرمون ، أفتريدون أن تكونوا مجرمين ؟! لا ، وألف لا .

لقد فوجئـوا باعتراض أخيهم ، فتوجهـوا كلهم نحوه ، تعلقت أبـصارهم به ، ثم قالوا له : فماذا إذن ؟! لقد كانوا جميعا متحـيرين ، لقد أعمامهم الحقد ، فقرروا قتل يوسف ، ولا عجب ، فجناية قتله لم تكن مقصودة لذاتها ، والمقصود هو إبعاد يوسف فقط بالموت أو بالحياة سيان !!! فمن ثم كانوا فى حاجة إلى من يردهم ، ويوجههم إلى صواب كانوا يفتقدونه ، ورُشد كان غائبا عنهم .

قال ابن كـثير فى تفـسيره : « **﴿ لا تَقْتُلُوا يُوسُفَ ﴾** أى ، لا تصـلوا فى عـداوته

وبغضه إلى قتله ، لم يكن لهم سبيل إلى قتله لأن الله تعالى كان يريد منه أمراً لابد من إمضائه وإتمامه ، من الإيحاء إليه بالنبوة ، ومن التمكين له ببلاد مصر والحكم بها ، فصرفهم الله عنه بمقالة روبيل ، وإشارته عليهم بأن يلقوه فى غيابة الجب » .

قال الأستاذ أحمد بهجت فى كتابه القيم : « أنبياء الله » استمر الحوار بعد فكرة البئر ، غير أنهم كانوا يعودون إليها كحل من أسلم الحلول ، انهزمت فكرة القتل ، واختيرت فكرة النفى والإبعاد ، كانت أذكى فكرة . . نفهم من هذا أن الإخوة رغم شرهم وحسدهم ، كان فى قلوبهم ، أو قلوب بعضهم بعض خير لم يمت بعد » .

قال تعالى : ﴿ **قَالَ قَائِلٌ مِّنْهُمْ لا تَقْتُلُوا يُوسُفَ** ... ﴾ . إن هذا الأخ، وضع الله تعالى فى قلبه كمية ضئيلة من الود ليوسف ، ليرفض بشدة الرأيين ،ويعتبرهما قتلاً ، سواء فى ذلك قتل يوسف بطريق مباشر أو غير مباشر ، ومن ثم هو ينهاهم بقوة ووضوح ، واستقامة عن التورط فى جريمة قتل نفس ، حرم الله قتلها إلا بالحق .

وما معنى أن يسوى هذا الأخ بين الرأيين ، ويجعل الطرح أرضاً بمنزلة القتل المباشر ؟! مع أنه من المحتمل أن ينجو الغلام يوسف من الأرض المهلكة .

وهذا الاحتمال وإن كان ضئيلا جداً ، إلا أنه يظل يزاحم الاحتمال الراجح ، فلا يجعله وحيداً ، ولكن شبه وحيد ،ولا يجعله أكيداً ولكن شبه أكيد. من كتاب « تأملات فى سورة يوسف » .

استبعاد فكرة القتل والاكتفاء بإلقائه فى الجب

﴿ وَأَلْقُوهُ فِي غَيَابَةِ الْجُبِّ يَلْتَقِطْهُ بَعْضُ السَّيَّارَةِ إِن كُنتُمْ فَاعِلِينَ (١٠) ﴾

فِى قَعْرِ جُبٍّ أَنْزِلُوه ، وَعَنْه عُودُوا قَافِلِين ٣٧
بَعْضُ القَوَافِلِ علّهم إذْمَا يَكُونُوا رَاحِلِين ٣٨
إنْ يأت وَارِدُهُم ، فَسَوْفَ يَعُودُ بالصَّيْد الثَّمِين ٣٩
هَذَا هُو الرَّأْىُ الصَّوَابُ ، فَلا تَكُونُوا جَاهِلِين ٤٠

بعد أن اعترض أخوهم الأكبر على فكرة القتل ، ولم يقولوا شيئاً ، لا رفضاً ولا استحساناً ، أردف برأى آخر ، فيه رأفة ورحمة دون القتل فقال : إن التخلص من يوسف أمر سهل ، وليس صعبا يا إخوتى ، والرأى الصواب هو : أن نلقيه فى البئر ، ثم نتركه فيها ، ولا غرو فإننا حينما نلقيه فى البئر ، سوف لا يموت ، والبئر قطعاً تمر عليها القوافل الكثيرة ، غادية ورائحة ، ولسوف يأتى ورادهم لأجل الماء ، وحينئذ سوف يعثرون عليه ، وسوف ينتشلونه أيضا من البئر ، وسوف يفرحون به ، وبالتالى سوف يرحلون به معهم ، إلى حيث لا ترونه بعد ذلك أبداً ، ومن ثم يقتصر حب أبيكم عليكم ، فلا يشارككم فيه أحد . . إذا لا خيار له فى ذلك ، لأن حبّه ذهب ولن يعود ، هذا من ناحية . . ومن ناحية أخرى ، نكون قد تخلصنا من يوسف ، دون أن نزهق روحه . . فهو غلام صغير ، لا يدرى شيئاً مما نعانيه ، ولا شأن له بتفضيل أبيه علينا ، أى إن كان لابد من الخلاص منه . فاكتفوا بذلك .

هذا هو الرأى الصواب يا إخوتى ، ولا إخالكم تخالفوننى فى هذا الرأى الصائب الذى يجنبكم ارتكاب جريمة القتل الوحشية .

لقد وافقوا على رأى أخيهم الأكبر ، برفض فكرة القتل ، بل شعروا بارتياح لتلك الفكرة التى أنقذتهم من التورط فى جريمة قتل ، لم يفكروا في نتائجها ، لم يتدارسوا ما سوف يترتب عليها .

لقد انهزمت فى نفوسهم فكرة القتل ، وأيدوا فكرة أخيهم الأكبر بإلقاء يوسف فى البئر . . يالله!! لقد كانت فكرة القتل هى الوسيلة الوحيدة لإبعاد يوسف من حياة أبيه . . ضاق أفقهم وتفكيرهم عن وسيلة غيرها ، فلما وجدوا وسيلة أخرى أخف وأرحم ،

سارعوا بتأييدها . . ولولا أن أخاهم الأكبر ، أشار علـيهم بفكرته الأخيرة ، وقد كانت هى طوق النجاة ليوسف ، لأقدموا على قتله ، ما فى ذلك من شك .

قال الأستاذ عبد الكريم الخطيب فى « القصص القرآنى » : « هذا رأى رآه أحدهم فى الأمر الذى دبروه، وهو الأخذ بأحد التدبيرين اللذين دبروهما للخلاص من يوسف، وذلك فى قـولهم : ﴿ اقْتُلُوا يُوسُفَ أَوِ اطْرَحُوهُ أَرْضًا ﴾ وهذا الرأى يقضـى بالعدول عن القتل ، إلـى التطويح به فـى مجهل من مجـاهل الأرض ، فهذا على مـا به أهون من القتل ، وبه يتحقق ما أرادوه من التفرقة بين يوسف وأبيهم » .

﴿ وَأَلْقُوهُ فِي غَيَابَةِ الْجُبِّ يَلْتَقِطْهُ بَعْضُ السَّيَّارَةِ إِن كُنتُمْ فَاعِلِينَ ﴾ فما معنى قـولـه : ﴿ وَأَلْقُوهُ ... ﴾ الحقيقة أن الأخ الذى أطلق هذه الجملـة ، كان مدفوعا بحرارة مناقشة إخوته لهـذه المسألة ، إنهم يـقترحون قتل يـوسف ، أو طرحه أرضا ، وهو يـريد إنقاذ حياة يوسف ، والتخلص منه ، وإرضاء إخوته المـندفعين بحماس متطرف ، فلم يشأ أن يستعمل مثلاً جملة « واجعلوه » أو « وضعوه » فلعل الإخوة الحانقين على يوسف ، لا يرضيهـم تعبير كهـذا ، لهذا جارى إخوته فـى ابتداء عرض اقتراحـه . فاستعمل تـعبيراً مناسبـاً ، يرضى عنه إخوته المـتحمسون ، ليؤكـد أن فجوة الانتقال من رأيـهم إلى رأيه ليست كـبيرة ، وهذه براعة مـن هذا الأخ ، والذى يدل على أن هـذا هو عين المراد أن الآية القرآنية التى تشير إلى عملية التنفيذ تستعمل جملة « أن يجعلوه » فى قوله تعالى : ﴿ فَلَمَّا ذَهَبُوا بِهِ وَأَجْمَعُوا أَن يَجْعَلُوهُ فِي غَيَابَتِ الْجُبِّ ﴾ وبعد إرضاء الإخوة المـتحمسين باستعمال جملة « وألقوه » تأتى عملية توضيح الفكرة ﴿ وَأَلْقُوهُ فِي غَيَابَةِ الْجُبِّ ﴾ وإنه لا يقول « وألقوه فى الجب » وهو البئر التى لمـا تطو بعد ، فيفهم من ذلك أن المراد إغراق يوسف ، بإلـقائه فى ماء الجب ، ولا فرق بـناء على ذلك بين الرأيـين الأول والثانى ، وهذا الرأى .

أبناء يعقوب يتلطفون مع أبيهم ليعطيهم يوسف

﴿ قَالُوا يَا أَبَانَا مَا لَكَ لا تَأْمَنَّا عَلَىٰ يُوسُفَ وَإِنَّا لَهُ لَنَاصِحُونَ (١١) ﴾

كَيْفَ السَّبِيلُ لِكَى يَتمَّ مُخَطَّطُ المَتآمِرِين ؟! ٤١
جَاءُوا أَبَاهُم فِى ثِيَابِ الزّهْد كَالمتَبَتِّلِين ٤٢
قَالُوا لَه قَوْلاً كَذُوباً ، بِئْسَ قَوْماً كَاذِبين ٤٣
لِمَ لَمْ تَثِقْ فِينَا ، فَلَسْنَا يَا أَبَانَا خَائِنِين ٤٤

إن فكرة إلقاء يوسف فى البئر التى أقروها وارتضوها جميعاً ، تعتبر أخف ضرراً من جريمة القتل ، وإن كان من المحتمل أن يموت يوسف فى أعماق البئر ، جوعاً ورعباً إلا أن احتمال الحياة والبقاء ممكن أيضاً ، فى ظل هذه الفكرة .

بعد هذا الاتفاق الإجرامى ، بقى عليهم شىء هام ، وعليه يترتب نجاح الخطة أو فشلها ، ما هو هذا الشىء ؟! عليهم أن يحتالوا على أبيهم ، ليعطيهم يوسف ليذهب معهم إلى الصحراء ، حيث مراعى أغنامهم ، ليتمكنوا من إتمام جريمتهم ، التى ارتضوها وارتاحوا لها .

جلسوا حول أبيهم، تظاهروا أمامه بالوداعة ولين الجانب ، ودار الحديث بينهم وبين أبيهم، فى ودّ مصنوع، وتلطف فيه تكلّف، ثم عرجعوا بالحديث إلى ما ينشدونه، فورد ذكر يوسف على ألسنتهم ، فأثنوا عليه ثناء عاطراً ، وكل واحد منهم أبدى عطفاً عليه، وحباً له، ثم قال أحدهم: وبالنسبة ليوسف، فإننا يا أبانا عاتبون عليك أشد العتاب، ذلك لأنك لا تثق فينا، وبالتالى فلم ترسل يوسف معنا، لينطلق فى الصحراء ، حيث اللهو البرىء، واللعب الذى يمد الجسم بالنشاط والحيوية والقوة، إننا نشعر بالمهانة لكونك لا تأمنا على يوسف .

فأى شىء تبينته فى سلوكنا ، جعلك تشك فى أمانتنا ؟!

من سياق الآية نستطيع أن نقول: إن أبناء يعقوب كانوا قد طلبوا من أبيهم قبل ذلك أن يسمح ليوسف بالذهاب معهم، فأبى، لذلك قالوا: **﴿ يَا أَبَانَا مَا لَكَ لا تَأْمَنَّا عَلَىٰ يُوسُفَ ﴾** .

لقد تظاهروا أمام أبيهم بالبراءة والسذاجة ، ليخدعوه ويستميلوه ، فى حين أنهم

كانوا يخفون فى أعماقهم خبثاً وحقداً وشراً ، وتدبيراً لجريمة ظلت محفوظة فى وعى الزمان ، ولأهميتها ، صاغها المولى عز وجل قرآنا يتلى على سمع الدنيا كلها ، شاهداً على قسوة الإنسان حينما يركب الشيطان رأسه ، ويملأ الحقد صدره ، ولتكون عبرة كل معتبر يتناقلها الناس ، قصة من أعجب قصص البشر .

وأول ما يلاحظ على هذه الآية التى جاءت على لسان الإخوة : ﴿ **قَالُوا يَا أَبَانَا مَا لَكَ لا تَأْمَنَّا عَلَىٰ يُوسُفَ وَإِنَّا لَهُ لَنَاصِحُونَ** ﴾ إن كلامهم الاستفهامى هذا يشوبه شىء كبير من التعجب ، فهم يتساءلون لم لا يأمنهم يعقوب على يوسف ، مع أنهم ناصحون له أمناء عليه .

ونستطيع أن نفهم من قولهم : ﴿ **مَا لَكَ لا تَأْمَنَّا عَلَىٰ يُوسُفَ** ﴾ الذى يعتبر أول كلام مباشر مع يعقوب عن يوسف ، بعد اتفاقهم على الرأى الثالث ، أن هذه هى نظرة يعقوب إليهم بشأن يوسف ، وأن هذا الاستفهام التعجبى منهم ، ليس سؤال امتداد طبيعى لموقف يعقوب ، غير المؤتمن دائما للإخوة على يوسف ، ذلك الموقف الذى كان لا يقع منهم موقع الرضا ، مع يقينهم بأن ذلك من حق يعقوب ، لأنهم خير من يعلم بحقيقة حسدهم وبغضهم ليوسف .

أبناء يعقوب يؤكدون لأبيهم حرصهم على يوسف

﴿ أَرْسِلْهُ مَعَنَا غَدًا يَرْتَعْ وَيَلْعَبْ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ (١٢) ﴾

هَذَا أَخُونَا يُوسُفُ فِي الْبَيْتَ يَقْعُدُ كَالسَّجِين ٤٥
أَرْسِلْهُ مَعَنَا صُحْبَةَ الأَغْنَامِ نَغْدُو لاَعِبِين ٤٦
إِنَّا سَنَحْرُسُهُ ، وَسَوْفَ يَعُودُ عَوْدَ الآمِنِين ٤٧

ثم أردف متحدثهم فقال موجها حديثه إلى أبيه الذى يرفض بشدة ، السماح ليوسف بالذهاب مع إخوته : يا أبانا ! إن يوسف لم يبرح البيت ، دائماً فى جوارك ، لا تدعه يبتعد عنك ، كأنه نزيل سجن ، فاتركه لنا ، أرسله معنا يمارس حياة الانطلاق والحركة ،يلهو مع إخوته وأترابه ، يروح عن نفسه ، ألا تنظر إليه فتراه ذابلاً ، وصحته فى هزال ؟! فدعه يخرج يروض جسمه فيتعرض لضحى الشمس وهبوب الرياح .

ولتعلم أننا لن نهمله يا أبانا، سوف نحرص عليه الحرص كله، وسوف نخصه بالنصح الصادق، الخالى من الغش والتقصير، سوف نكون كلنا عيوناً حوله تحميه من كل سوء .

ويبدو أنهم كانوا قد شعروا بتغير أبيهم نحوهم، لا سيما بعد أن رأى يوسف رؤياه، وأيضا يحتمل أنهم قد علموا برؤيا يوسف : لذلك كان شعورهم بتغير أبيهم نحوهم ، وعلمهم برؤيا يوسف ، عاملين انعكسا على سلوكهم ، فتنكروا له تنكراً مستوراً ، بيد أن الشيخ استطاع أن يلمحه دون أن يدروا .

والواقع أن شعورهم بارتياب أبيهم في أمانتهم ، جعلهم يقولون هذا القول الذى يوحى لسامعه، أنهم قوم مشكوك فى أمانتهم وسلوكهم. . فهم بهذا يدفعون عن أنفسهم تهمة معلنة . . ثم أردفوا قائلين : ﴿ أَرْسِلْهُ مَعَنَا غَدًا يَرْتَعْ وَيَلْعَبْ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴾ .

عندما نخرج غداً بأغنامنا كعادتنا ، إلى الصحراء حيث مراعى الأغنام ، أعطنا يوسف يا أبانا ، يشاركنا لهونا وانطلاقنا ، فى سرور وحرية ، فنأكل ما يطيب لنا من الثمار ، ونتسابق ونتصارع ونرمى بالسهام ، وحينئذ سوف يتيسر ليوسف أن يرى مالم يكن قد رآه من قبل ، ويعلم ما لم يكن قد علمه أيضا ، وهو حبيس البيت عندك .

سوف نكون يا أبانا حريصين على يوسف ، أكثر من حرصنا على أنفسنا ، وسوف

نحفظه من كل أذى، بالله!! إنهم يؤكدون حديثهم بالحرص على يوسف، وهذا هو الحال دائما بالنسبة لكل متحدث ، حيث يشعر أن سامعيه لا يصدقون حديثه ، فإنه يلجأ إلى المؤكدات، وقد يلجأ إلى القسم، فى حين أن هذا لا يزيد السامعين له إلا شكا فى حديثه.

قوله تعالى : ﴿ **أَرْسِلْهُ مَعَنَا غَدًا يَرْتَعْ وَيَلْعَبْ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ** ﴾ لقد لمس الإخوة ببراعة ، مسألة عدم الائتمان ، وأظهروا أن ذلك لا مبرر له ، وقد اتخذوا من كل ذلك توطئة لطلبهم الصريح بأخذ يوسف ، كى يرتع ويلعب ، فإنهم له لحافظون .

هل يستطيع يعقوب أن يرفض الطلب ، مع علمه بأن ذلك قد يكون له رد فعل سيء عند الإخوة ، ويكون سبباً فى جعل كيدهم المخشى ليوسف حقيقة ؟!

ومن يدرى؟! ربما يكون الإخوة قد تبين لهم خطأ نظرتهم السابقة لأخيهم فعدلوا عنها، وعادوا إلى جادة الصواب، خاصة وأن تعبيرهم فى النصح ليوسف وحفظهم له قوى الدلالة، فنحن بصدد ـ إن ـ التى تفيد التوكيد، وقد جاءت مرتين، ولام التوكيد التى جاءت مكررة مرتين كذلك ، أعنى فى قولهم « وإنا له لناصحون » و « وإنا له لحافظون » .

وهل معنى هذا أن يعقوب يستطيع أن يلبى طلبهم ؟! فى الوقت الذى يجد نفسه أميل إلى عدم الائتمان ، لأن تحولهم إلى إظهار المودة ليوسف مفاجئ ، فهم لم يظهروا هذه المودة من قبل ، بل إنهم جعلوا ذلك توطئة لطلبهم السريع بإرسال يوسف معهم فى اليوم التالى ، فما السبب وراء هذا التحول المفاجئ ؟! هل هناك سرّ يكمن وراء ذلك ؟! وما هو هذا السر ؟! أهناك شرّ أريد به يوسف ؟! وما نوع ذلك الشرّ ؟! من كتاب « تأملات فى سورة يوسف » صفحة ١٥٣ .

يعقوب يجعل الذئب ستاراً لتخوفه على يوسف

﴿ قَالَ إِنِّي لَيَحْزُنُنِي أَن تَذْهَبُوا بِهِ وَأَخَافُ أَن يَأْكُلَهُ الذِّئْبُ وَأَنتُمْ عَنْهُ غَافِلُونَ (١٣) ﴾

فَأَجَابَهُم ، لا تَأْخُذُوه ، أَخَاف من غـدر السـنين ٤٨
الـــذّئْبُ يَأْكُلُه ، وأخْشَى أنْ تكُونُوا غَافلـــين ٤٩
قَالُوا لَه : هَذَا المــقَالُ يُسيـــئُنَا فِي الـعَالَمـــين ٥٠

بعد أن سألوا أباهم أن يرسل معهم أخاهـم يوسف، وكان سؤالهم فيه عتاب شديد لأبيهم لكونه لا يأمنهم على أخيهم يوسف، وفيه أيضا توكيد بالحرص الشديد عليه، وفيه أيضا مبررات أخرى ، ليسمح ليوسف بالذهاب معهم. . فكان جوابه على كل ما قالوه :

﴿ قَالَ إِنِّي لَيَحْزُنُنِي أَن تَذْهَبُوا بِهِ وَأَخَافُ أَن يَأْكُلَهُ الذِّئْبُ وَأَنتُمْ عَنْهُ غَافِلُون ﴾ .

أى إن ذهاب يوسف معكم ، سوف يحزننى ، فـإننى أخشى عليه من كل شىء ، ولا غرو فالـصحراء مملوءة بالـوحوش الفاتكة ، فـأخشى أن تغفلـوا عنه وأنتم تلـعبون وتمرحون ، فينقض عليه أحد الذئاب الكاسرة فيأكله .

هكذا نرى يعقوب ، لم يفصح لأولاده عن حقيقة شكوكه فى أمانتهم وسلوكهم ، فى عدم اطمـئنانه لإرسال يوسف معـهم ، بل لجأ إلى وسيلة أخـرى هى : الخوف من الذئب ، وهذا أمر محتمل الوقوع ، بيد أنه بعيد جداً ، ولكن الشيخ جعله ستاراً أخفى وراءه حقيقة شعوره وتخوفه منهم ، هم على يوسف. يالله !! إن ذكر يعقوب للذئب ، فتح البـاب أمام أبنائه ليـدافعوا عن أنفسهـم ، وليؤكدوا حرصهم وتـفانيهم جمـيعاً فى حمايـة يوسف ، من أى أذى يصـيبه ، هذا من نـاحية ، ومن نـاحية أخرى فإنـهم قد وجدوا السبب الذى يتذرعون به لأبيهم ، حين يعودون له بغير يوسف .

قال الأستاذ عبد الكريم الخطيب فى « القصص القرآنى » « ويلتقط أبناء يعقوب من فم أبيهم قوله : **﴿ أَخَافُ أَن يَأْكُلَهُ الـذِّئْبُ ﴾** ويتخذون من هذا الـذئب المتخيل ، حقيقة يضعونها بين يدى أبيهم بعد أن يمضوا أمرهـم فى يوسف ، ثم يجيئون إلى أبيهم بتأويل ما توقعه . . لقد أكله الذئب كما توقعت !! » .

قال القرطبى في قوله : ﴿ وَأَخَافُ أَن يَأْكُلَهُ الذِّئْبُ ﴾ « وذلك أنه ـ أى يعقوب ، رأى فى منامه أن الذئب شد على يوسف ، فلذلك خافه عليه قال الكلبى : وقيل إنه رأى فى منامه كأنه على ذروة جبل ، وكأن يوسف فى بطن الوادى ، فإذا عشرة من الذئاب قد احتوشته ، تريد أكله ، فدرأها عنه واحد ، ثم انشقت الأرض فتوارى يوسف فيها ثلاثة أيام ، فكانت العشرة إخوته لما تمالأوا على قتله ، والذى دافع عنه أخوه الأكبر يهوذا ، وتواريه فى الأرض ، هو مقامه فى الجب ثلاثة أيام ، قيل : إنما قال ذلك لخوفه منهم عليه ، وأنه أرادهم بالذئب ، فخوفه إنما كان من قتلهم له ، فكنى عنهم بالذئب مساترة لهم ، وإنما خاف الذئب لأنه أغلب ما يُخاف فى الصحارى » .

قال الزمخشرى : اعتذر إليهم بشيئين : أحدهما : أن ذهابهم به ومفارقته إياه مما يحزنه ، لأنه كان لا يصبر عنه ساعة ، والثانى : خوفه عليه من الذئب ، إذا غفلوا عنه برعيهم ولعبهم .

قال الدكتور حسن محمد باجوده فى كتابه ـ تأملات فى سورة يوسف ـ « ولو أن نية الإخوة حسنة، ولم يكونوا مصممين على الغدر بيوسف، لكان فى جواب يعقوب الأقرب إلى الرفض، صارف لهم عن طلبهم أخذ يوسف، وحافز لهم على العدول عن هذه الفكرة أساساً ، التى لم يرتح لها يعقوب أصلا ، وبما أنهم مصممون على أمر ما ، يتعلق نجاحه على ذهاب يوسف معهم ، لذلك استمروا فى الكلام ، مصرين على الطلب » .

أبناء يعقوب يقولون : لن يأكله الذئب ونحن عصبة

﴿ قَالُوا لَئِنْ أَكَلَهُ الذِّئْبُ وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّا إِذًا لَّخَاسِرُونَ (١٤) ﴾

تَاللّهِ إن يَأكلْ أخَانَا الذئبُ ، صِرْنَا خَاسِرِين ٥١
إنّا رِجَالٌ أقْوِيَاءُ نَقِيهِ شَرّ الكَاسِرِين ٥٢
كَذَبُوا لَقَدْ خَانُوا الأَمَانَة ، لَمْ يكُونُوا صَادِقِين ٥٣

قال أبناء يعقوب لأبيهم : إنك يا أبانا بهذا القول تهيننا إهانة بالغة ، فأى ذئب هذا الذى يستطيع أن يصل ليوسف ، ونحن عصبة عشرة رجال ، وما نحن فى نظرك إذاً إلا عصبة من النعاج أو الأطفال . . . إن الذئب لا يمكن أن يقترب من مكان فيه رجال ، وإنما يقترب من الأغنام : الضأن والماعز التى لا راعى لها .

لقد خسرنا وخبنا إذاً، إذا كان الذئب يحوم حول المكان الذى نرعى ونلعب فيه . . لا لا يا أبانا ، فنحن كفء لحماية أخينا يوسف من كل الكواسر ، وإذا كنا لا نقدر على دفع الذئب عنه ، فنحن إذاً والله أعجز من أن ندفعه عن أغنامنا .

والواقع أنهم كانوا يظهرون غير ما يبطنون ، إنهم يحتالون على أبيهم ويبدون له حرصهم وحدبهم على يوسف ، وهم في الوقت نفسه قد بيتوا له الغدر ، وقد صدق فيهم قول الله تعالى فى الحديث القدسى : « لقد خلقت خلقا ألسنتهم أحلى من العسل وقلوبهم أمر من الصبر فبى حلفت . . إلخ » (١) .

قال الأستاذ أحمد بهجت فى كتابه : « أنبياء الله » أهذا معقول ؟! نحن عشرة من الرجال، فهل نغفل عنه ونحن كثير ؟! نكون خاسرين غير أهل للرجولة ،لو وقع ذلك ، لن يأكله الذئب ، ولا داعى للخوف عليه .

قال الأستاذ عبد الكريم الخطيب فى « القصص القرآنى » : ولهذا فهم يقفون مع أبيهم من أمر هذا الذئب موقف التحدى ، وأن الذئب لا يجرؤ أن يقترب من حماهم ،

(١) عن عبد الله بن عمر عن النبى ﷺ قال : « إن الله تعالى قال : لقد خلقت خلقاً ، ألسنتهم أحلى من العسل ، وقلوبهم أمر من الصبر ، فبى حلفت لأتيحنهم فتنة تدع الحليم منهم حيران ، فبى يغترون ؟! أم علىّ يجترؤون ؟! » أخرجه الترمذى (٢٤٠٥) ، وقال : « حسن غريب » .

وهم عشـرة رجال . . . ﴿ قَالُوا لَئِنْ أَكَلَهُ الذِّئْبُ وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّا إِذًا لَّخَاسِرُونَ ﴾ اللام للقسم ، أى والله لئن أكله الذئب ونحن جـماعة أقوياء أشداء ، إنا لمستحقون أن يدعى علينا بالخسار والدمار .

فهذا رد علـى اتهام من أبيهم بـالغفلة وسوء الحـفظ ، لما معهم من أنـعام ومتاع ، حتى لتغشاهم الذئـاب ، وتعيث فساداً فى ماشيتهم ، ذلك بعد اتهـامهم بالتهاون وعدم الحرص على سلامة أخيهم .

على كل حال ، لقد ائتمنهم أبوهم عـلى أخيهم يوسف ، فخانوا الأمانة ، وتلك لعمر الـله وصمة عار يندى لـها جبين الإنسانية ، وعـاها التاريخ في ذاكرتـه الحافظة ، ولهولها وفظاعتـها وغرابتها ، ذكرها القرآن فى محكم آيـاته . . . فكون عشرة رجال : أولاد نبى مـرسل يفعلـون هذا الفعل المخـزى المخجل ، فإن جـبين الإنسانيـة لا يندى فحسب ، بل يتوارى حياء وخجلاً .

« لماذا أغفـل الإخوة حديث يعـقوب عن ذات نفسـه ، وركزوا كل جوابهـم على الذئب وذات أنفسهم ؟! والجواب على ذلك ، أن الأخـوة الذين زين لهم الشيطان سوء أعمالهم ، كان كلام يعقوب ﴿ إِنِّي لَيَحْزُنُنِي أَن تَذْهَبُوا بِهِ ﴾ بالنسبة لهم طعنة بلغت عمق أعماقهم ، لأن هذا القول يبلور السبب الذى من أجله ، هم يحسدون يوسف كل ذلك الحسد ، ألا وهو حب يعقوب غير المتناهى له .

وهـم قـد أدركوا تمام الإدراك ، أن العبارة قد تخونهم لو حاولوا الرد على يعقوب ﴿ إِنِّي لَيَحْزُنُنِي ... ﴾ لأنهـم يبـغـضون الحديث فى هذه المسألـة بالذات ، وقد عدلوا إلى الحديث عـن الجزئية الأخرى ـ تخوفه عـلى يوسف من الذئب ـ تـأملات فى سورة يوسف .

الحلقة الثانية

أبناء يعقوب يلقون أخاهم يوسف فى الجب

يعـــودون فـــى المساء إلى أبيهم يبكون

يبيعونه للتجـــار عـــلى أنه عـــبد آبــق

الآيات القرآنية التى صيغ منها شعر الحلقة الثانية

﴿ فَلَمَّا ذَهَبُوا بِهِ وَأَجْمَعُوا أَن يَجْعَلُوهُ فِي غَيَابَتِ الْجُبِّ وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِ لَتُنَبِّئَنَّهُم بِأَمْرِهِمْ هَذَا وَهُمْ لا يَشْعُرُونَ (١٥) وَجَاءُوا أَبَاهُمْ عِشَاءً يَبْكُونَ (١٦) قَالُوا يَا أَبَانَا إِنَّا ذَهَبْنَا نَسْتَبِقُ وَتَرَكْنَا يُوسُفَ عِندَ مَتَاعِنَا فَأَكَلَهُ الذِّئْبُ وَمَا أَنتَ بِمُؤْمِنٍ لَّنَا وَلَوْ كُنَّا صَادِقِينَ (١٧) وَجَاءُوا عَلَىٰ قَمِيصِهِ بِدَمٍ كَذِبٍ قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا فَصَبْرٌ جَمِيلٌ وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ (١٨) وَجَاءَتْ سَيَّارَةٌ فَأَرْسَلُوا وَارِدَهُمْ فَأَدْلَىٰ دَلْوَهُ قَالَ يَا بُشْرَىٰ هَذَا غُلامٌ وَأَسَرُّوهُ بِضَاعَةً وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِمَا يَعْمَلُونَ (١٩) وَشَرَوْهُ بِثَمَنٍ بَخْسٍ دَرَاهِمَ مَعْدُودَةٍ وَكَانُوا فِيهِ مِنَ الزَّاهِدِينَ (٢٠) ﴾ .

أشعار الحلقة الثانية

ها نحن لا زلنا مع الصديقِ يوسفَ ذاهبين ١
فى قصةِ أحداثُها ظلت حديثَ العالمين ٢
إخوانُ يوسفَ قرروا أن يأخذوه مُصَمِّمين ٣
قد قرروا أن يأخذوه وأضمَروا الفعلَ المشين ٤
الشيخُ وافقَهم ، لِتكمُلَ قصةُ المتآمرين ٥
ذهبوا به ، كانوا لفعل الشر حتما عازمين ٦
قد قرروا إلقاءه فى الجُب ليسوا هازلين ٧
لكنْ إلهُ العرشِ دوماً ينصر المستضعفين ٨
أوحى ليوسف أنه ناجٍ فصبراً فى يقين ٩
ولسوف يُنصر فى الحياةِ ، وسوف يعلو الحاقدين ١٠
بل سوف يخبرهم بهذا ، وليكونوا آسفين ١١
إخوانُ يوسفَ إنهم كانوا ليوسفَ حاسدين ١٢
الحقدُ أعماهم ، لقد صاروا جُفاةً قاتلين ١٣
قد جفّ فيهم كلُّ عَطْفٍ ، أصبحوا متحجرين ١٤
لم يرحموه وكان يبكيهم فكانوا جاحدين ١٥
فى الجُب أصبح لا أنيسَ ولا جليسَ ولا معين ١٦
عند المساءِ جميعُهم عادوا إلى الشيخِ الحزين ١٧
عادوا إليه بغيرِ يوسفَ ، قد غدوا متحازنين ١٨
قالوا : فعذراً يا أبانا ، لم نكن متوقعين ١٩
فلقد ذهبنا للتسابق ، حيث نلهو لاعبين ٢٠
وهناك يوسفُ ظلّ عند متاعِنا كالحارسين ٢١
اللهو أنسانا وقد صرنا جميعاً غافلين ٢٢
الذئبُ مزّقه وكان من الذئابِ الكاسرين ٢٣
تالله إنك لم تكنْ من قولنا فى الموقنين ٢٤
فلقد تحقق ما ظننتَ بحكمةِ الشيخِ الفطين ٢٥
يا حسرةً قد ضاعَ يوسفُ فى عِداد الراحلين ٢٦

وقميصُه قد لوثوه دماً كذوباً عامدين ٢٧
قالوا : فهاك قميصُه بدمائه كى تستبين ٢٨
أخذ القميص الشيخُ ينظُرُه بعين الفاهمين ٢٩
عرفَ الحقيقَة أنهم ليسوا جميعاً صادقين ٣٠
من ثَم قال لهم ، وكان بلهجةِ المتهكمين ٣١
الذئبُ آكلُ يوسفٍ ، ما كان فى المتوحشين ٣٢
ترك القميص بغير تمزيق يخاف اللائمين ٣٣
الذئب خير من وحوش فى ثياب الآدمين ٣٤
أنتم تواطأتم على فعلِ الجريمةِ مجمِعين ٣٥
تالله قد صرتم بهذا فى عِداد الغادرين ٣٦
ولسوف أصبرُ للمصابِ ، وبالإله سأستعين ٣٧
فى الجب يوسفُ صار يبكى ، لا أنيسَ ولا معين ٣٨
لكنَ ربَّ العرشِ أيده بجبريلَ الأمين ٣٩
فوراً أتاه وقال : لا تيأسْ ، وكن فى الصابرين ٤٠
اصبرّ فإنك عند ربك فى عداد المرسلين ٤١
ولسوف تبلغ كل مجد ، في صفوف الخالدين ٤٢
جاء القوافل عند ذاك البئر صاروا نازلين ٤٣
قد أرسلوا وُرّادَهم للبئر كانوا ظامئين ٤٤
فى الجب أدلَوا دلوهم للماء كانوا طالبين ٤٥
الدلْو أمْسَكَه الغلامُ ، وقال يغلبُه الأنين ٤٦
فلتخرجونى من ظلام الجب ، كونوا محسنين ٤٧
قد أخرجوه ، وقد غدَوا من شأنه متعجبين ٤٨
فوراً تنادوا بالبشائرِ فى القوافلِ معلِنين ٤٩
جاء الجميعُ لينظروه ، وقد غدوا متسائلين ٥٠
من أنتَ ؟! قال: فلست أدرى لا تكونوا مكثرين ٥١
إخوانه كانوا على بُعد جميعاً راصدين ٥٢
جاءوا إلى الوُراد قالوا : إنّه عبد مهين ٥٣
قالوا : فإنا نشتريه ، إذا أردتم بائعين ٥٤
باعوه بيعَ العبدِ ، قد كانوا جميعاً زاهدين ٥٥

عجلة الأقدار لا تتأثر بأحزان أناس أو أفراح آخرين

....

هـا نحـن لا زلنـا مع الـصديـقِ يوسـف ذاهبـين ١
فـى قـصـة أحـداثُهـا ظلـت حـديـثَ الـعـالمـين ٢
إخـوانُ يـوسـفَ قــرروا أن يـأخـذوه مُصَمِّمـين ٣
قـد قرروا أن يـأخذوه وأضـمَروا الـفعـلَ المشـين ٤

ها نحن أولاء لانزال مع أحداث قصة يوسف الصديـق ، تلك القصة التى تداولتها الأجيال قـديماً وحديثـاً ، مصحوبـة بالدهشـة والاستغراب ، وكـيف لا ، إنها أعـجب وأغرب قصة تمت بين بنى الإنسان !!

وبعد . . فإخـوة يوسف لم يدخروا جـهداً فى مجادلة أبـيهم ، ونفى خوفـه على ولده يوسف ، وما مصدر هذا الخوف ؟! فالخـوف على يوسف من أى كائن ، مرفوض مطلـقاً ، ويدللون عـلى هذا بأنهم عـشرة رجال عصبـة ، يحمون يوسـف لا من ذئب واحد فحسب ، بل من غابة مليئة بالذئاب .

بعد الإلحاح الشديد ، والمحاورة الطويلة ، استجاب يعقوب لطلب أولاده ، فسمح ليوسف بالذهاب مع إخوته .

يالله!! لقد استجاب يعقوب لطلب أولاده المصـحوب بالرجاء فى صورة إصرار . . لقد استجاب يعقوب،وهو فى الوقت نفسه مملوء شكاً،فمن واقع حديثه معهم، والحوار الذى دار بينه وبينهم ، نستطيع أن نقول : إن الشيخ كان يقرأ ما فى نفوس أولاده .

بيد أن يعقوب كان لابد أن يستجيب ، وما كان له أن يرفض ، وكان حتماً عليه أن يسمح لـيوسف بالذهاب مع إخـوته ، وذلك لكى يتم ما هـو مخبوء فى ضميـر الغيب بشأن يـوسف ، وفى الوقت نـفسه يتم مـخطط إخوتـه الذى رسموه لأجلـه . . وبهذا تلتقى الحلقتان : حلقة الـقدر ، وحلقة تدبير البشر . . **﴿ صُنْعَ اللَّهِ الَّذِي أَتْقَنَ كُلَّ شَيْءٍ إِنَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَفْعَلُون ﴾** [النمل : ٨٨] .

ولا غرو فعـجلة الأقدار ماضـية لا تتوقـف ، ولا تتأثر بأحـزان أناس ، أو أفراح

آخرين ، أو بالقسوة على طفل بحرمانه من والديه ، وعطفهم وحبهم ، أو .. إلخ ، ذلك لأن ظواهر الأقدار غير بواطنها .. فكم من طفل نشأ يتيم الأبوين ، فأصبح من الملوك ، وكم من طفل نشأ رافلاً فى النعمة بين أبويه ، فأصبح يتكفف الناس !!

والله عز وجل يسبب الأسباب ، ليتم ما قدره وأراده بشأن يوسف ، وليصل فى النهاية إلى كشف الغطاء عما كان محجوباً عن عيون وعقول البشر ، من مجد ينتظر يوسف ،كاليد الحانية تأسو جراحه ، وتكفكف دموعه .. تلكم هى بواطن الأقدار ، التى تكون بمثابة نتيجة لمقدمات مؤلمة .

يوسف بين وجوه كأنها وجوه الجلادين

﴿ فَلَمَّا ذَهَبُوا بِهِ وَأَجْمَعُوا أَن يَجْعَلُوهُ فِي غَيَابَتِ الْجُبِّ ... ﴾

الـشـيـخُ وافقَهـم ، لِتـكـمُلَ قـصـةُ المتـآمـريـن ٥
ذهـبوا بـه ، كانـوا لفـعل الـشر حـتمـا عازمـين ٦
قـد قـرروا إلـقـاءه فـى الجُب لـيـسـوا هـازلـين ٧

قال الأستاذ عبد الكريم الخطيب في القصص القرآنى : « فى هـذا الإطار الموجز من النظم ، تعرض أحداث كثيرة من أحداث القصة ، حيث نشهد نجاح الكيد الذى كاده أبناء يعقوب لأخيهم وأبيهم .. فقد جاء الغد ، وها هم أولاء يصحبون يوسف معهم على العزم الذى عزموه ، وهناك حيث بلغوا بماشيتهم المكان الذى يرسلونها فيه للرعى ، خلا بعضهم إلى بعض ، ليروا رأيهم فى يوسف ، وفى التخلص منه .. وأجمعوا أخيرا أمرهم على أن يلقوه فى الجب .. » (1) .

قال القرطبى فى تفسيره : ﴿ فَلَمَّا ذَهَبُوا بِهِ وَأَجْمَعُوا أَن يَجْعَلُوهُ فِي غَيَابَتِ الْجُبِّ ﴾ .

إن يعقوب عليه السلام ، لما أرسله معهم ، أخذ عليهم ميثاقاً غليظاً ليحفظنه ، وسلمه إلى روبيل وقال : يا روبيل ! إنه صغير وتعلم يا بنى شفقتى عليه ، فإن جاع فأطعمه ، وإن عطش فاسقه ، وإن أعيا فاحمله ، ثم عجّل بردّه إلى .

قال : وأخذوا يحملونه على أكتافهم ، لا يضعه واحد إلا رفعه آخر ، ويعقوب يشيعهم ميلاً ثم رجع ، فلما انقطع بصر أبيهم عنهم ، رماه الذى كان يحمله إلى الأرض حتى كاد ينكسر، فالتجأ إلى آخر فوجد عند كل واحد منهم أشد مما عند الآخر ، من الغيظ والعسف .

فاستغاث بروبيل وقال: أنت أكبر إخوتى، والخليفة من بعد والدى على، وأقرب الإخوة إلىّ ، فارحمنى وارحم ضعفى ، فلطمه لطمة شديدة وقال : لا قرابة بينى وبينك ، فادع الأحد عشر كوكباً ، فلتنجك منا ، فعلم أن حقدهم عليه من أجل رؤياه .

(1) القصص القرآنى ص ٤١٦ لعبد الكريم الخطيب .

فى وسط هذا الجو المشحون بالعداء والقسوة ، وجد يوسف نفسه غريباً بين وجوه تغيرت ، كأنه لم يرها من قبل ، وجوه يعلوها عبوس وصرامة ، كأنها وجوه جلادين ، وعيون كأنها ألسنة اللهب تحيط به لتحرقه، أو كأنها سهام موجهة إليه تخترق جسده . . وألسنة تنطق بألفاظ غريبة على مسامعه ، تعبر عن حقد أسود يملأ صدورهم . . فلما يئس من عطفهم عليه ، لجأ إلى الله عز وجل ، فكان الله معه يسمع ويرى ، إلا أن قضاء الله لابد نافذ .

قال تعالى : ﴿ فَلَمَّا ذَهَبُوا بِهِ وَأَجْمَعُوا أَن يَجْعَلُوهُ فِي غَيَابَتِ الْجُبِّ ... ﴾ ولم يكن الإخوة ليذهبوا إلا ويوسف معهم وفى صحبتهم ، وهنا يكون لجميع الإخوة العشرة ، إجماع فى الرأى على جعله فى غيابة الجب ، وفيهم الأخ الأكبر ، الذى لم يُبد أية معارضة حينما أوشكت ساعة التنفيذ ! ولعل ذهاب يوسف معهم الذى تحقق ببساطة لم يكونوا يتوقعونها ، وإمكان التخلص منه ، بسبب الذهاب معهم طمعا فى أن يخلو لهم وجه أبيهم ، ويكونوا من بعده قوماً صالحين .

وإن جملة ﴿ وَأَجْمَعُوا ﴾ تظل تدل على أن الإجماع حتى هذه اللحظة ، كان فى الرأى ، ويبقى بعد ذلك التنفيذ ، وقد ذهب البعض إلى أن للأخ العاشر الأكبر ، دوراً فعالاً فى التخفيف ، من سوء معاملة الإخوة ليوسف .

وليس ذلك بمستبعد إن أظهر الأخوة حقيقة شعورهم ليوسف ، قبل جعله فى غيابة الجب . . أما إذا كتم الأخوة رغبتهم حتى أغروا يوسف بالنزول إلى غيابة الجب ، كى يملأ لهم ماء ، وهو ما نرجحه ، فلا مجال لإساءة المعاملة ، أو تدخل الأخ الأكبر للتخفيف منها .

من كتاب ـ تأملات فى سورة يوسف ـ ص ١٦٠ .

بداية رحلة العذاب والأحزان

﴿ وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِ لَتُنَبِّئَنَّهُم بِأَمْرِهِمْ هَذَا وَهُمْ لا يَشْعُرُونَ ⟨١٥⟩ ﴾

لكنْ إلهُ العرشِ دوماً ينصر المستضعفين ٨
أوحى ليوسف أنه ناجٍ فصبراً فى يقين ٩
ولسوف يُنصر فى الحياةِ ، وسوف يعلو الحاقدين ١٠
بل سوف يخبرهم بهذا ، وليكونوا آسفين ١١

لقد استقر يوسف فى قعر الجب ، ذلك المكان الذى اختاره له إخوته ، بعد أن عدلوا عن فكرة القتل،وتمت الجريمة ،تلك الجريمة التى اهتز لها ضمير الإنسانية ، وكأنى بملائكة السماء كانت تطل من عليائها ،أثناء إلقاء يوسف فى البئر ، فرأت عجباً !! قسوة الإنسان على أخيه الإنسان ، وكأنى بها كانت تود أن يؤذن لها بالفتك بأولئك القساة .

أما بالنسبة لأبناء يعقوب ، فقد تمت الجريمة ، بل وانتهت . . وأما بالنسبة ليوسف فقد كانت هذه بداية رحلة عذاب طويلة ، توالت فيها عليه النكبات والمصائب ، وقد كانت هذه هى الحلقة الأولى من سلسلة متعددة الحلقات . . وأما بالنسبة ليعقوب ، فقد كانت بداية رحلته مع الأحزان . . الأحزان التى فاقت كل أحزان الآباء على أبنائهم .

لقد وجد يوسف نفسه فى قعر جب مظلم،لا أنيس ولا جليس،وهو فتى صغير لم يسبق له أن فارق أحضان أبيه ،يالله !! ماذا يصنع ؟!! إن قلبه الصغير يوشك أن ينفجر من شدة ما هو فيه،بيد أن الله عز وجل أدركه برحمته ولطفه ، فأوحى إليه ، أن اصبر ولا تخف من كيد أحد ، فأنت مهيأ لأمور عظام ، أما إخوتك فإنك سوف تعلوهم فى الحياة الدنيا ،وسوف تكون سيدهم ، وسوف يكونون فى مقام الذلة والتصاغر أمامك ، وسوف تكون الأقوى الذى يستطيع أن ينتقم منهم . . كل هذا سوف يكون وغيره ، حينما تخبرهم بما فعلوا بك على سبيل العتاب ، ولن ترد لهم الإساءة بمثلها .

قال القاضى بيضاوى فى تفسيره: ﴿ وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِ لَتُنَبِّئَنَّهُم بِأَمْرِهِمْ هَذَا وَهُمْ لا يَشْعُرُونَ﴾ وكان ابن سبع عشرة سنة ، وقيل : كان مراهقاً ، أوحى إليه فى صغره كما أوحى إلى يحيى وعيسى عليهما السلام فى صغرهما ، وفى القصص ، إن إبراهيم حين ألقى فى

النار ، جرد عن ثيابه فأتاه جبريل بقميص من حرير الجنة فألبسه إياه ، فرفعه إبراهيم إلى إسحاق ، وإسحاق إلى يعقوب ، فجعله فى تميمة علقها يوسف . . فأخرجه جبريل عليه السلام فألبسه إياه . . ﴿ لَتُنَبِّئَنَّهُم بِأَمْرِهِمْ هَٰذَا ﴾ لتحدثنهم بما فعلوا بل ، وهم لا يشعرون أنك يوسف ، لعلو شأنك وبعده عن أوهامهم ، وطول العهد المغير للحلى والهيئات ، وذلك إشارة إلى ما قال لهم بمصر ،حين دخلوا عليه ممتارين ،فعرفهم وهم له منكرون ، بشره بما يؤول إليه أمره إيناساً له ، وتطييباً لقلبه » .

وقال ابن كثير فى تفسيره : ﴿ وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِ ... ﴾ إلخ يقول تعالى : ذاكراً لطفه ورحمته وعائدته ، وإنزاله اليسر فى حالة الضر ، إنه أوحى ليوسف فى ذلك الحال الضيق ، تطييباً لقلبه وتثبيتاً له : إنك لا تحزن مما أنت فيه ، فإن لك من ذلك فرجاً ومخرجاً حسناً ، وسينصرك الله عليهم ، ويعليك ويرفع درجتك ، وستخبرهم بما فعلوا معك من هذا الصنيع » .

قال الصابونى فى صفوة التفاسير : ﴿ وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِ لَتُنَبِّئَنَّهُم بِأَمْرِهِمْ هَٰذَا ﴾ .

أى أوحينا إلى يوسف ، لتخبرن إخوتك بفعلهم هذا الذى فعلوه بك ، وهم لا يشعرون فى ذلك الوقت أنك يوسف .

قال الفخر الرازى: ﴿ وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِ ... ﴾ وفائدة هذا الوحى، تأنيسه وتسكين نفسه، وإزالة الغم والوحشة عن قلبه ، بأنه سيحصل له الخلاص من هذه المحنة ويصير مستولياً عليهم ، ويصيرون تحت قهره وقدرته » .

أبناء يعقوب ورثوا العداء بعضهم
لبعض عن أمهاتهم الضرائر

إخوانُ يـوسفَ إنـهم كانـوا ليوسـفَ حاسـدين ١٢
الحـقدُ أعـمـاهم ، لـقـد صاروا جُفَـاةً قـاتلـين ١٣
قد جفّ فـيهم كلُّ عَطْفٍ ، أصبـحوا متحـجرين ١٤
لم يـرحمـوه وكان يـبكيـهم فـكانـوا جاحـدين ١٥
فى الجُب أصبح لا أنيسَ ولا جـليسَ ولا مـعين ١٦

إن إخوة يوسف قد حسدوه وحقدوا عليه ، لا لذنب جناه ، أو إساءة بدرت منه فى حق أحد منهم . . . فهو صغير ، أصغرهم كلهم سناً ، ومن المعروف أن الصغير يكون دوماً موضع العطف والحب من إخوته الكبار ، غير أن إخوة يوسف بصنيعهم هذا قد خالفوا ما هو متعارف عليه من طبائع البشر .

ويبدو أن حسدهم ليوسف وحقدهم عليه ، ليس منشأه تفضيل أبيهم له عليهم فحسب ، وإنما لهذا الحقد جذور قديمة موروثة . . . !

فيوسف من أم أخرى غير أم إخوته ، ولا يخفى على كل عاقل ماذا يكون بين الضرائر من خلاف وعداء ومهاترات ، ولا غرو فالأبناء فى هذه الحالة ليسوا بعيدين عن حلبة الصراع ، فمن ثم ينشأون متأثرين بأمهاتهم ، هذا مقتنع بأن أمه على صواب ، وذاك مقتنع بأن أمه على صواب أيضاً ، بناء على هذا ، انقلب الأبناء أعداءً : بعضهم لبعض عدو .

وقد أشار إلى هذا المعنى صاحب تفسير المنار فى معرض تجهيل أبناء يعقوب فقال : « ولا غرو فهذا الحكم منهم على أبيهم ، جهل مبين وخطأ كبير ، لعل سببه اتهامهم إياه ، بإفراطه فى حب أمهما ـ أم يوسف وبنيامين ـ من قبل ، فيكون مثاره الأول ، اختلاف الأمهات بتعدد الزوجات ، ولا سيما الإماء منهن ، وهو الذى أضلهم عن غريزة الوالدين ، فى زيادة العطف على صغار الأولاد وضعافهم ، وكانا أصغر أولاده .

إذاً لقد دفعهم الحقد الموروث ، وظاهرة تفضيل أبيهم ليوسف أن يتخلصوا من يوسف ، وبالطريقة التى مرّ ذكرها آنفاً . . . لقد جف العطف من قلوبهم فتحجرت ، فتنكروا لإنسانيتهم وجبلتهم التى جبلهم الله عليها .

يالله !! يوسف الغلام الصغير ، فى الجب وحده ، لكن عناية الله كانت معه ، فحفظه من هلاك محقق ، بأن يموت خوفاً ورعباً ، وحنيناً إلى والديه ، وحزناً على ما هو فيه الآن ، بعد الرعاية والحب والعطف ، فألهمه ، وأوقع فى نفسه شعوراً قوياً بأنه ناج من هذا ومن غيره مما سوف يصادفه على درب الحياة من عقبات ، تذهل لها العقول ، وتنفطر لهولها القلوب .

قال الفخر الرازى فى (المسألة الثالثة) إذا حملنا قوله تعالى : ﴿ وَهُمْ لا يَشْعُرُون ﴾ على التفسير الأول ، أى ـ الوحى والنبوة والرسالة ، وهذا قول طائفة عظيمة من المحققين .

كان هذا أمراً من الله تعالى ليوسف ، فى أن يستر نفسه عن أبيه ، وألا يخبره بأحوال نفسه ، فلهذا السبب كتم أخبار نفسه عن أبيه طوال تلك المدة ، مع علمه بوجد أبيه به ، خوفاً من مخالفة أمر الله تعالى ، وصبر على تجرع تلك المرارة . فكأن الله سبحانه وتعالى ، قد قضى على يعقوب عليه السلام أن يرسل إليه تلك الغموم الشديدة ، والهموم العظيمة ، ليكثر رجوعه إلى الله تعالى . . وينقطع تعلق فكره عن الدنيا ، فيصل إلى درجة عالية فى العبودية ، لايمكن الوصول إليها إلا بتحمل المحن الشديدة . والله وأعلم .

أبناء يعقوب يتباكون جزعاً على يوسف

﴿ وَجَاءُوا أَبَاهُمْ عِشَاءً يَبْكُونَ (١٦) قَالُوا يَا أَبَانَا إِنَّا ذَهَبْنَا نَسْتَبِق ... ﴾

عنـد المساءِ جـميعُهـم عادوا إلى الـشيخِ الحـزين ١٧
عادوا إلـيه بغـيرِ يوسـفَ ، قد غـدوا متحـازنين ١٨
قـالوا : فـعذراً يـا أبانـا ، لـم نكـن متـوقعـين ١٩
فلـقد ذهـبنـا للـتسابـق ، حيـث نلـهو لاعـبين ٢٠

لقد عاد أبناء يعقوب فى المساء إلى أبيهم ، وقد كان أبوهم ينتظر عودتهم بفارغ الصبر، إن قلبه لا يكاد يكف عن الخفقان خوفاً على يوسف، فهو لأول مرة يتركه يخرج بعيداً عنه . . هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى، فإن ريح الشك يتسرب إلى فكره ، بأن أولاده ربما يكونون ناوين شراً ليوسف، لكنه سرعان ما يرفض هذا الشك الذى يقلقه .

بيد أن هذا الشك كان لا ينفك يعاوده وبإلحاح طوال فترة ذاك اليوم الذى حدثت فيه الجريمة ، ويقتحم عليه تفكيره ، حتى صار هو كل تفكيره ، فمن ثم ازداد قلبه انشغالاً وقلقاً على يوسف .

لقد عادوا في المساء ، وهم يبكون متظاهرين بالحزن والهلع على يوسف ، وكانوا قد هيأوا أنفسهم لإقناع أبيهم ببراءتهم ، وأن الأمر كان قضاءً وقدراً ، لقد ذهبوا للهو والتسابق والمصارعة وتركوا يوسف عند أمتعتهم ، يلهو كما يشاء بالطريقة التى يهواها ، فغافلهم ذئب ملعون كاسر فافترسه ، ولم يروا الذئب حين افترسه ، إذاً لافترسوه !!!

قال الأستاذ أحمد بهجت فى كتابه: « أنبياء الله » ﴿ وَجَاءُوا أَبَاهُمْ عِشَاءً يَبْكُونَ ﴾ .

« المشهد هنا ليل خارجى أسود ، يقطعه صوت بكاء عشرة رجال ، والأب يجلس فى بيته، فيدخل عليه أبناؤه أثناء الليل، حيث تخفى ظلمة الليل ظلمة القلوب ، وظلمة الأكذوبة التى تتهيأ للظهور، تساءل يعقوب، لماذا تبكون ؟! هل جرى فى الغنم شىء ؟! قالوا وهم يزدادون بكاءً .

فوجئنا بعد عودتنا من السباق، بأن يوسف قد استقر فى بطن الذئب، لم نجد يوسف».

قال القرطبى : ﴿ وَجَاءُوا أَبَاهُمْ عِشَاءً يَبْكُونَ ﴾ أى ليلاً ، وإنما جاءوا عشاء ليكونوا أقدر على الاعتذار ، فى الظلمة ، ولذا قيل : لا تطلب الحاجة بالليل ، فإن الحياء فى العينين ، ولا تعتذر فى النهار من ذنب ، فتتلجلج فى الاعتذار ، فروى أن يعقوب لما سمع بكاءهم قال : ما بكم ؟! أجرى فى الغنم شىء ؟! قالوا : لا ، قال : فأين يوسف ؟! قالوا : ذهبنا نستبق ، فأكله الذئب ، فبكى وصاح وقال : أين قميصه ؟!

وقال ابن كثير : ﴿ وَجَاءُوا أَبَاهُمْ عِشَاءً يَبْكُونَ ﴾ يقول تعالى مخبراً عن الذى اعتمده إخوة يوسف ، بعدما ألقوه فى غيابة الجب ، إنهم رجعوا إلى أبيهم فى ظلمة الليل يبكون ، ويظهرون الأسف والجزع على يوسف ، ويتغممون لأبيهم ، وقالوا معتذرين مما وقع فيما زعموا : ﴿ إِنَّا ذَهَبْنَا نَسْتَبِقُ ﴾ أى نترامى ﴿ وَتَرَكْنَا يُوسُفَ عِندَ مَتَاعِنَا ﴾ أى ثيابنا وأمتعتنا ، « فأكله الذئب ، وهو الذى كان جزع منه ، وحذر عليه » .

« وهكذا جاء الإخوة أباهم فى ظلمة الليل ، لأن فى عدم ظهور ملامحهم على حقيقتها في ذلك الظرف ، بسبب الظلام ، مساعدة لهم أى مساعدة ، ولذا قيل : « لا تطلب الحاجة بالليل ، فإن الحياء فى العينين ، ولا تعتذر فى النهار من ذنب فتتلجلج فى الاعتذار » .

ونستنتج من تعمد الإخوة المجىء فى الظلام، أن يعقوب عليه السلام ، صحيح الإبصار ، لأنه لو لم يكن كذلك ، لاستطاع الإخوة أن يجيئوا ، فى كل وقت ، ولما كانت هناك حاجة لتعيين الوقت بأنه فى العشاء » .

من كتاب « تأملات فى سورة يوسف » .

عودة أبناء يعقوب بغير يوسف

﴿ وَتَرَكْنَا يُوسُفَ عِندَ مَتَاعِنَا فَأَكَلَهُ الذِّئْبُ وَمَا أَنتَ بِمُؤْمِنٍ لَّنَا وَلَوْ كُنَّا صَادِقِينَ (١٧) ﴾

وهـناك يـوسفُ ظـلَّ عـند مـتـاعِنا كـالحارسـين ٢١
الـلهـو أنـسانـا وقـد صرنـا جـمـيعـاً غـافلـين ٢٢
الـذئبُ مـزّقـه وكان مـن الـذئابِ الـكـاسريـن ٢٣
تـالله إنك لـم تـكنْ مـن قولـنـا فى المـوقـنـين ٢٤

يالله !! إنهم ـ أى أبناء يعقوب ـ يعتذرون ويتظاهرون بالحزن والجزع على يوسف، والواقع أن قلوبهم ترقص طرباً ، لكونهم استطاعوا خداع أبيهم ، فأعطاهم يوسف ، فنفذوا خطتهم الدنيئة الإجرامية ، ولو أن أباهم رفض السماح ليوسف بالذهاب معهم ، لظلوا يحترقون بحقدهم الأسود ، ولكـن ما كان ليعقوب أن يمنع يوسف . . فالأمر قد أبرم فى السماء ، ولسوف يتم ما قضاه الله .

لقد قالـوا والبكاء يغلـب على قولهم : لـقد تركنا يوسـف عند متاعنـا ، لكونه لا يستطيع مشاركتنا فى اللهو واللعب ، ذلـك لضعف بنيته وصغر سنه . . وما كنا نظن أن الذئاب قد تقترب مـن مكان لهونا ومرعى أغنامنا ، لأن الذئاب وكـل الوحوش ، تبتعد عن أى مكان يتواجد فيه بنو الإنسان . . باللـه !! إنهم بهذا القول يقدمون الدليل على كذبهم ، وبطلان دعواهم . . لكنهم قالوا : أكله الذئب .

« قال القرطبـى فى تفسيره عن السـدى وابن حبان : إنه لما قالوا : أكـله الذئب ، خرّ مغشياً علـيه ، فأفاضوا عليه الماء ، فلم يتحرك ، ونـادوه فلم يجب ، قال وهب : ولقد وضع يهـوذا يده على مخارج نفس يعـقوب ، فلم يحس بنفس ، ولـم يتحرك له عرق ، فقال يهوذا : ويل لنا من ديان يوم الدين ! ضيعنا أخانا ، وقتلنا أبانا ، فلم يفق يعقوب إلا ببرد السحر ، فأفاق ورأسه فى حجر روبيل ، فقال : يا روبيل ! ألم أئتمنك على ولدى ؟! ألم أعهد إليك عهداً ؟! فقـال : يا أبت كف عنى بكاءك أخبرك ، فكف يعقوب بكاءه فقال : يا أبت ! ﴿ **إِنَّا ذَهَبْنَا نَسْتَبِقُ وَتَرَكْنَا يُوسُفَ عِندَ مَتَاعِنَا** ﴾ .

لقد فوجئنا بعـد عودتنا من التسابق واللهو ، بأن يوسف لـيس موجوداً ، لقد أكله

الذئب واستقر فى بطنه . . إنك لن تصدق قـولنا ، ولو كنا صادقين . . إننا نحكى لك ، وكلنا أسف وخجل منك لكوننا لم نستطع حماية يوسف من الذئب .

« قال ابن كثير فى تفسيره : ﴿ وَمَا أَنتَ بِمُؤْمِنٍ لَّنَا وَلَوْ كُنَّا صَادِقِينَ ﴾ تلطف عظيم فى تقرير ما يجادولونه ، يقولون : ونحن نعلم أنك لا تصدقنا ـ والحالة هذه ـ لو كنا عندك صادقين ، فكيف وأنت تتهمنا فى ذلك ، لأنـك خشيت أن يأكله الذئب ، فأنت معذور فى تكذيبك لنا ، لغرابة ما وقع ، وعجيب ما اتفق لنا فى أمرنا هذا » .

قال الصابـونى فى صفوة التـفاسير : ﴿ وَمَا أَنـتَ بِمُؤْمِنٍ لَّنَا وَلَوْ كُنَّا صَادِقِينَ ﴾ أى لستَ بمصدق لنا فى هذه المقالة ، ولو كنا فى الواقع صادقين ، فكيف وأنت تتهمنا وغير واثق بقولنـا ؟! وهذا القول منهم ، يدل عـلى الارتياب ، وكما قيل : يـكاد المريب أن يقول خذونى » .

« هناك نوع من التشابه بين قول الإخوة: ﴿ وَمَا أَنتَ بِمُؤْمِنٍ لَّنَا ﴾ وقولهم من قبل : « مالك لا تأمنـا على يوسف » ومصدر ذلك الـتشابه ، أن نفسية الإخـوة فى الموضعين متشابهة ، إذا لم يكونوا صادقين فى المناسبتين . إنهم حينما يقولون : ﴿ وَمَا أَنتَ بِمُؤْمِنٍ لَّنَا وَلَوْ كُنَّا صَادِقِينَ ﴾ إنما يعـبرون بإخلاص عن حـقيقة الموقف الـذى يتوقعون يـعقوب عليه السلام ، أى يتخذه منهم ، بناء على ما يعرفون من حقيقة عدم صدقهم ، على الرغم من محاولة إضفاء جو الصدق على فعلهم وقولهم » .

من كتاب « تأملات فى سورة يوسف » .

إخوة يوسف يقدمون لأبيهم البرهان على صدقهم

﴿ وَجَاءُوا عَلَىٰ قَمِيصِهِ بِدَمٍ كَذِبٍ ﴾

فلقد تحقق ما ظننتَ بحكمةِ الشيخِ الفطين ٢٥
يا حسرةً قد ضاعَ يوسفُ فى عِداد الراحلين ٢٦
وقميصُه قد لوثوه دماً كذوباً عامدين ٢٧
قالوا : فهاك قميصُه بدمائه كى تستبين ٢٨

ها هم أولاء أبناء يعقوب يواصلون روايتهم الكاذبة فيقولون له : ولقد صدقت نبوءتك يا أبانا حين تخوفت على يوسف من الذئب ، وحذرتنا منه ، وقد كنا نستبعد هذا حين ذكرته لنا ، فإذا الذى تخوفته قد وقع .

كانوا قد ذبحوا شاة ، أو غزالاً ، أو أرنب ، ولطخوا قميص يوسف بدمها ، ليقدموا الدليل على صدق دعواهم ، غير أن القميص كان سليماً لم يخدش نسوا أن يمزقوه كدليل على افتراس الذئب ليوسف،فليس من المعقول ،أن يفترس الذئب إنساناً ، دون أن يمزق قميصه !!!

إنهم يقدمون الدليل الذى يظنونه يؤكد دعواهم ، بيد أنهم فى الوقت نفسه قدموا ما يبطل قولهم ، ويؤكد كذبهم .

بعد أن تباكوا أمام أبيهم،ألقى أحدهم القميص أمام أبيه ثم قال: إننا يا أبانا لا نكذب، لقد أكل الذئب يوسف ، وهذا قميصه قد وجدناه ملطخاً بدمه بعد أن افترسه الذئب .

« قال القرطبى: ﴿ وَجَاءُوا عَلَىٰ قَمِيصِهِ بِدَمٍ كَذِبٍ ﴾ ، كان دم سخلة أو جدى ذبحوه ، وقال قتادة : كان دم ظبية ، أى جاءوا على قميصه بدم مكذوب فيه ، قال علماؤنا رحمة الله عليهم : لما أرادوا أن يجعلوا الدم علامة على صدقهم ، قرن الله بهذه العلامة ، علامة تعارضها ، وهى سلامة القميص من التمزيق ، من أثر أنياب الذئب ، إذا لا يمكن افتراس الذئب ليوسف ، وهو لابس القميص ، ويسلم القميص من التمزيق » .

« وقال ابن كثير : ﴿ وَجَاءُوا عَلَىٰ قَمِيصِهِ بِدَمٍ كَذِبٍ ﴾ . . أى مكذوب مفترى ، وهذا من الأفعال التى يؤكدون بها ما تمالأوا عليه من المكيدة ، وهو أنهم عمدوا إلى سخلة ، فذبحوها ولطخوا ثوب يوسف بدمها ، موهمين أن هذا قميصه الذى أكله فيه الذئب . . وقد أصابه من دمه ، ولكنهم نسوا أن يمزقوه ، فلهذا لم يَرُج هذا الصنيع على نبى الله يعقوب » .

« وقال صاحب تفسير المنار : وجاءوا على قميصه بدم كذب . . المراد من هذه الجملة الفذة فى بلاغتها ، أنهم جاءوا بقميصه ملطخاً ظاهره بدم غير دم يوسف ، يدعون أنه دمه ليشهد لهم بصدقهم ، فكان دليلاً على كذبهم ، فنكر الدم ووصفه باسم الكذب ، مبالغة فى ظهور كذبهم فى دعوى أنه دمه حتى كأنه هو الكذب بعينه ، وقال ﴿ عَلَىٰ قَمِيصِهِ ﴾،ليصور للقارئ والسامع ، أنه موضوع على ظاهره وضعاً متكلفاً ، ولو كان من أثر افتراس الذئب ، لكان القميص ممزقاً ، والدم متغلغلاً فى كل قطعة منه » .

قال الأستاذ الشيخ محمد على الصابونى فى « صفوة التفاسير » : ﴿ وَجَاءُوا عَلَىٰ قَمِيصِهِ بِدَمٍ كَذِبٍ ﴾ أى وجاءوا على ثوبه بدم كاذب ، وصف بالمصدر مبالغة ، كأنه نفس الكذب وعينه ، قال ابن عباس : ذبحوا شاة ولطخوا بدمها القميص ، فلما جاءوا يعقوب قال : كذبتم ، لو أكله الذئب لخرق القميص .

يعقوب يتبين كذب أولاده

....

أخذ القميص الشيخُ ينظُرُه بعين الفاهمين ٢٩
عرفَ الحقيقَة أنهم ليسوا جميعاً صادفين ٣٠
من ثَم قال لهم ، وكان بلهجةِ المتهكمين ٣١
الذئبُ آكلُ يوسفِ ، ما كان فى المتوحشين ٣٢

كما أسفلنا ، فإن أبناء يعقوب قدموا له قميصاً ملطخاً بالدم ، زاعمين أنه قميص يوسف . ظانين أن هذا هو الدليل والبرهان الذى يؤكد قصتهم المزعومة .

أخذ يعقوب القميص وأخذ يقلبه ، فوجده سليماً لم يخدش ، غير أنه فى الوقت نفسه ملطخ بالدم ، فقال يعقوب متهكما : يبدو أن الذئب الذى افترس يوسف وأكله ، من نوع من الذئاب المهذبة ، وليس من الذئاب المتوحشة !!! فلو كان متوحشاً ، ما ترك القميص دون أن يمزقه ، كما مزق جسد يوسف كما زعمتم .

« قال الأستاذ أحمد بهجت فى كتابه « أنبياء الله » : وألقى أحد الأبناء ما يتصور أنه دليل البراءة . . . ألقى قيمص يوسف أمام أبيه الذى كان يجلس ، وأمسك يعقوب بقميص ابنه ، ورفعه وتأمله فى ضوء المشعل الموجود فى الغرفة ، راح يقلبه في يده ، فوجده سليماً بغير خدش واحد . . . أى ذئب هذا الذى أكل يوسف ؟! هل أكله من داخل القميص بغير أن يمزق قميصه ؟!

لو كان يوسف يرتدى قميصه ، والذئب يأكله لتمزق القميص ، ولو كان قد خلع قميصه ليلعب مع إخوته ، فكيف يلطخ القميص بالدم ، ولم يكن يرتديه ، ساعتها أدرك يعقوب من دلائل الحال ، ومن نداء قلبه ، ومن الأكذوبة الواضحة ، أن يوسف لم يأكله الذئب . . . لقد ألهاهم الحقد الفائر عن سبك أكذوبتهم ، ولو كانوا أهدأ أعصاباً ، لما التقطوا حكاية الذئب من فم أبيهم ، فى حواره معهم ليلة الأمس ، ليقوموا الليلة بتمثيلها أمامه . . . أدرك الأب أنهم يكذبون » .

« قال القرطبى: روى أن يعقوب لما قالوا لن: ﴿ **فَأَكَلَهُ الذِّئْبُ** ﴾ قال لهم : ألم يترك

الذئب له عضواً فتأتونى به أستأنس به ؟! ألــم يترك له ثوباً أشم فيه رائحته ؟! قالوا : بلى ! هذا قميصه ملطوخ بدمه ، فذلك قوله تعالى : ﴿ وَجَاءُوا عَلَىٰ قَمِيصِهِ بِدَمٍ كَذِبٍ ﴾ فبكى يعقوب عند ذلك وقال لبنيه : أرونى قميصه ، فأروه فشمه وقبله ، ثم جعل يقلبه فلا يرى فيـه شقاً ولا تمزيقاً ، فقال : والـله الذى لا إله إلا هو ، ما رأيت كالـيوم ذئباً أحكم منه ، أكل ابنى واختلسه من قميصه ، ولم يمزقه عليه ، وعلم أن الأمر ليس كما قالوا ، وأن الذئب لم يأكله ، فأعرض عنهم كالمغضب باكياً حزيناً . . » .

قال الأستاذ عبد الكريم الخطيب فى « القصص القرآنى » .

﴿ وَجَاءُوا عَلَىٰ قَمِيصِهِ بِدَمٍ كَذِبٍ ﴾ . وإنه هروباً من الجريمة ، وبـحثاً عن كل وجه تبرق منه بارقة سراب للنجاة،تراهم يستكثرون من وسائل التضليل والتعمية ، حتى إنهم ليحملون معهم إلى أبيهم، قميص يوسف ملطخاً بالدم الذى نزف منه والذئب يفترسه .

أليس هـذا دليلاً مادياً على أنهـم صادقون فيـما أخبروا أبـاهم به من أمـر الذئب ويوسف ؟!

ولكن هذا التدبير قد جاء على غير ما قدروا ، فـكان شهادة قائمة عليهم بأنهم غير صادقين فيما جاءوا به من خبر يوسف فالـدم الذى جاءوا به على قميص يوسف . دليل من الأدلة القـوية على أن القصة مـلفقة . . فلماذا يحـملهم على حمـل هذا الدم إلى أبيهم ؟! أليسوا هم أولياء الدم وأهله ؟! وهل يـجد ولى الدم قدرة من نفسه على حمل إصبع أو عين أو رأس من ابـنه أو أخيه المقتول ، ثم يـطوف بها ، ويقلبهـا بين يديه ، ويعرضها على الأنظار ؟!

ذلك ما لا يكون لو أن الذئب كان حقاً هو الذى عدا على يوسف وافترسه !

ويقرر علم الإجرام،أن المجرم مهما كان ذكياً حذراً،لا بد من أن يترك أثرا يدل عليه، أو أن يقع فى تدبيره خلل ما يكون مفتاحاً للكشف عنه . القصص القرآنى ص ٤١٨ .

يعقوب لم يصدق أولاده

﴿ قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا فَصَبْرٌ جَمِيلٌ وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ ﴿١٨﴾ ﴾

ترك القميص بغير تمزيق يخاف اللائمين ٣٣
الذئب خير من وحوش فى ثياب الآدمين ٣٤
أنتم تواطأتم على فعلِ الجريمةِ مجمعين ٣٥
تالله قد صرتم بهذا فى عِداد الغادرين ٣٦
ولسوف أصبرُ للمصابِ ، وبالإله سأستعين ٣٧

إن يعقوب لم تنطل عليه أكذوبة أولاده . . . وقد كان أكبر دليل فضحهم ، وأكد كذبهم، هو القميص الذى ظنوه يؤكد ما زعموا . لذلك ، تهكم يعقوب بكلمات والحزن يمزق نياط قلبه ، وقد غلبه البكاء ثم عاد يواصل تهكمه فقال : إن الذئب حين أكل يوسف ، حرص على أن يترك القميص سليماً ، لكى ينتفع به إخوته من بعده ، فيلبسه أحدهم !!! هذا من ناحية ، ومن ناحية أخرى ، فهو يخشى من اللوم إن هو مزق القميص !!! فليس من طبيعة الوحوش تمزيق القمصان ، ولكن تمزيق الأجساد !!!

ثم حاول يعقوب أن يغير من أسلوب التهكم والسخرية، إلى أسلوب التأنيب والتقريع فقال: إن الذئب بصفته وحشاً أعجمياً ، حينما يفترس إنسانا فيأكله ، لم يكن قد خالف طبيعته التى هى أخص خصائصه ، وقد جبله الله على ذلك . . . إنه ذو ظفر وناب ، وطبيعته التى جبله الله عليها ، هى أكل اللحوم . . . هو فى هذا لم يتنكر لطبيعته .

إذن فالذئب فى هذه الحالة ، خير من وحوش البشر . . . نعم خير من وحوش يلبسون ثياب البشر . . . ذلك لأن الوحش الأعجمى لا يزعم أنه أليف أو أنيس ، لم يكذب على نفسه ولا على الآخرين ، من شاء أن يقترب منه ، أو يتعامل معه ، فليكن على حذر منه ، وليعلم أنه حيوان مفترس .

أما وحوش البشر، فإنهم يتظاهرون بغير ما يبطون ، يعلنون الحب والود والمثالية ، بينما هم ينطوون على حقد أسود ، يزعم الواحد منهم أنه حبيب ، وهو فى الواقع مملوء عداء ، ثم واجههم بالحقيقة والصراحة فقال لهم : أنتم تواطأتم على التخلص من

يوسف، كل الأدلة والقرائن تؤكد أن أيديكم قد تلوثت بالجريمة. . لقد غدرتم بيوسف ، وتلك لعمر الله شيمة الغادرين .

ثم قال : من حيرته : ماذا أصنع ؟! لاحيلة لى فى ما حدث ، إذن فلا حول ولا قوة إلا بالله، وإنى صابر لقضاء الله ، وإنى مستعين به . . وهذا معنى قوله لأولاده : **﴿ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا فَصَبْرٌ جَمِيلٌ وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ ﴾** فأصبر صبراً جميلاً على هذا الأمر الذى اتفقتم عليه ، حتى يفرجه الله بعونه ولطفه .

سئل رسول الله ﷺ عن قوله تعالى : فصبر جميل، فقال: «صبر لا شكوى فيه ».

جبريل مع يوسف فى الجب

....

فى الجب يوسفُ صار يبكى ، لا أنيسَ ولا معين ٣٨
لكـنّ ربَّ العـرشِ أيـده بـجـبـريـلَ الأمـين ٣٩
فوراً أتاه وقـال : لا تيأسْ ، وكن فى الصـابرين ٤٠
اصـبر فـإنـك عـند ربـك فـى عـداد المرسـلـين ٤١
ولسوف تـبلغ كل مجـد ، في صفوف الخـالدين ٤٢

إن إخوة يوسف ملئوا عداءً وحقداً عليه،فقست قلوبهم حتى بلغت القسوة بهم حد ارتكاب الجريمـة . . نعم لقد كان أول شيء فكـروا فيه للتخلص مـن يوسف ، أن قال قائلهـم: اقتلوا يوسف. ولكـى يتم ما قضاه الله بـشأن يوسف ، أشار عليـهم أخوهم الأكبر بإلقائه فـى الجب ، فوافقوه ، وفعلاً ألقوه فى الجب ،وياليتـهم تركوه بملابسه ، بل نزعوا عنه قميـصه ، وتركوه عريانا فى الجب ، إن لم تقتله الـهوام ، قتله البرد فى قعر البئر المملوء بالماء .

« قال القرطبـى : لما نزعوا عن يوسف قمـيصه وأدلوه فى البئر قـال : يا إخوتاه ! ردوا على قميصى أتوارى به فى هذا الجب ، فإن مت كان كفنى ، وإن عشت أوارى به عورتى ، فقالوا : ادع الشمس والقمر والأحد عشـر كوكباً فلتؤنسك وتكسك ، فأدلوه فى البئـر ، حتى إذا بلغ نصفـها ، ألقوه إرادة أن يسقـط فيموت ، فكان فى الـبئر ماء فسقط فيه ، ثم آوى إلى صخرة فقام عليها . . وكان جبريل تحت ساق العرش، فأوحى الله إليه أن أدرك عبدى .

قال جبريل : فأسرعـت وهبطت حتى عارضته بين الرمى والوقـوع ، فأقعدته على الصخرة قال : يا إخوتـاه ! إن لكل ميت وصية ، فاسمعوا وصيـتى قالوا : وما هى؟! قال: إذا اجتمعتم كـلكم وآنس بعضكم بعضاً ، فاذكروا وحشـتى ، وإذا أكلتم فاذكروا جوعى، وإذا شربتم فـاذكروا عطشى ، وإذا رأيتم غريباً ، فاذكـروا غربتى ، وإذا رأيتم شابا فاذكروا شبابى .

فقال له جبريل : يا يوسف ! كف عن هذا واشـتغل بالدعاء ، فإن الدعاء عند الله

بمكان ، ثم علمه فقال : قل:اللهم يا مؤنس كل غريب ، ويـاصاحب كل وحيد ، ويا ملجأ كل خائف ، ويا كاشف كل كربة،ويـا عالم كل نجوى ، ويا منتهى كل شكوى ، ويا حاضر كل ملإ ، يا حى يا قيوم ! أسألـك أن تقذف رجاءك فى قلبى ،حتى لا يكون لى هم ولا شـغل غيرك ، وأن تجعـل لى من أمرى فرجاً ومـخرجاً إنك علـى كل شىء قدير » .

إيه يا يوسف . . إن عناية الله ترعاك ، فاصـبر على هذا البلاء ، فالمجد ينتظرك ، والعز سوف يكون فـى ركابك ، وسوف يخلد ذكرك فى الدنيا بـالرسالة ، وفى الآخرة يبيض الله وجهك .

يوسف فى الجب يبكى

﴿ وَجَاءَتْ سَيَّارَةٌ فَأَرْسَلُوا وَارِدَهُمْ فَأَدْلَىٰ دَلْوَهُ ... ﴾

جاء القوافل عند ذاك البئر صاروا نازلين ٤٣
قد أرسلوا وُرّادَهم للبئر كانوا ظامئين ٤٤
فى الجب أدْلَوا دلوهم للماء كانوا طالبين ٤٥
الدلو أمْسَكَهُ الغلامُ ، وقال يغلبُه الأنين ٤٦
فلتخرجونى من ظلام الجب ، كونوا محسنين ٤٧

« قال الأستاذ عبد الكريم الخطيب فى « القصص القرآنى » : وتطوى الأحداث على عجل ، وينتقل المشهد فى سرعة خاطفة إلى حيث يوسف فى الجب ، يعانى من وحشة وخوف وجوع! وتتجه أبصار الذين يتابعون أحداث هذه القصة ،إلى هذا الجب ، أو القبر الذى ضُم على هذا الصبى البرىء ، وتتلفت القلوب نحوه ، وتطوف الخيالات حوله ، وإذا سيارة ـ جماعة من المسافرين ـ تلوح من بعيد ، حتى إذا دنت من الجب ، حطت رحالها ، وبعثت بمن يستقى لها من الجب .

وهكذا جاءت السيارة كما قدر أبناء يعقوب، لأن الجب كان على طريق تجارى، يصل بين الشام ومصر، ويكثر على هذا الطريق مرور القوافل المسافرة بين الشام ومصر . . وحطت القافلة رحالها ـ بعد لأى ـ على مقربة من الجب ، ثم جعلت تعالج فى تثاقل أمتعتها ، وتسوى رحالها ، وتهيئ لها منزلاً آمناً تجد فيه الراحة من عناء الرحلة .

يالله !! إن رجال القافلة من شدة التعب ، يفعلون كل شىء على مهل ، لقد أعياهم السفر الطويل، إنهم يسوون رحالهم وأمتعتهم بتؤدة ، بينما على خطوات منهم ، غلام فى قعر الجب يعانى سكرات الموت ، إنهم غافلون عنه ، إذ لا علم لهم به .

وفى هذا المعنى يقول الأستاذ عبد الكريم الخطيب : « وهنا يبلغ المشهد حداً بالغاً من التأزم ، تضطرب معه القلوب ، وتبهر الأنفاس ، وتذهل النفوس عن الحاضر الذى تعيش فيه ، لتقف وراء هذه القافلة ، تستعرضها ، وتدفع بها فى قوة لتدرك هذا الذى احتواه الجب ، وأطبق عليه » .

وأرسل القوم واردهم ليجيئهم بالماء ، فقد بلغ العطش بهم حدا لا يستطيعون الصبر عليه أكثر من هذا، وجاء الوارد فأدلى دلوه فى البئر ليمتلئ بالماء، ثم يرفعه ليملأ ما معه من أوعية أحضرها لنقل الماء، ولنترك الوارد يدلى دلوه فى الجب، هذا من ناحية . . . ومن ناحية أخرى ننظر إلى يوسف كيف حاله حين رأى الدلو ينزل عليه فى البئر . . . إنه الغوث ، فوراً بادر يوسف بكل ما تبقى لديه من قوة ، فأمسك الدلو ، وقد غلب عليه الضعف من شدة البكاء والجوع فى الجب ثلاثة أيام ، فنادى على صاحب الدلو ، بصوته الخفيض فقال : أخرجونى من هذا الجب ، ولكم عند الله الأجر والثواب ، وسوف تكونون عند الله من المحسنين .

قال ابن عباس : جاءت سيارة أى قوم ، يسيرون من مدين إلى مصر ، فأخطأوا الطريق، فانطلقوا يهيمون على غير طريق ، فهبطوا على أرض فيها جب يوسف عليه السلام ، وكان الجب فى قفرة بعيدة عن العمران ، لم يكن إلا للرعاة . الفخر الرازى .

يوسف ينجو من الجب

﴿ قَالَ يَا بُشْرَىٰ هَٰذَا غُلَامٌ وَأَسَرُّوهُ بِضَاعَةً وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِمَا يَعْمَلُونَ (١٩) ﴾

قد أخـرجوه ، وقـد غدَوا من شـأنه متـعجـبين ٤٨
فـوراً تنـادوا بالـبـشائـرِ فى الـقـوافلِ مـعلنـين ٤٩
جاء الجـميـعُ لينـظروه ، وقـد غدوا متـسائـلين ٥٠
من أنتَ ؟! قال: فلست أدرى لا تكونوا مكثرين ٥١

يوسف ينادى صاحب الدلو ،بيد أن صاحب الدلو لم يسمع صوت يوسف الخفيض الهزيل،وهو يتوسل إليه فيقول : أخرجونى من ظلام هذا الجب . . فانتشل الوارد دلوه يعتقد أنـه قد امتلأ ماء ، ولكن يوسف مـا كان ليترك الدلو يرتـفع إلى أعلى ، دون أن يتعلق بـه ، إنه الغوث والأمل بعد اليأس مـن النجاة . . إن رحمة الله جاءتـه ممثلة فى هذا الدلو . . فتعلق به ، وصار يستنشق الهواء وهو صاعد إلى أعلى مع صعود الدلو .

حتى إذا ما وصل إلى حافة البئر ، رأى الوارد شيـئاً هاله وأفزعه ، غير أنه ما لبث أن تحقق مما رآه ، ياللّه !! ما هذا ؟! إنه غلام وسيم ، حسن الطلعة ، ميمون النقيبة ، فنادى بأعلى صوتـه على القوم قائلاً : أبشروا ، هذا غلام وجدته فـى البئر ، يبدو أنه سقط فى الجب وهو يلعب عن غفلة ، أو أسقط فيه لأمر ما .

وهرع القوم ـ برغم ما بـهم من إعياء ـ متجهين نحو صوت الـوارد ، فلما وصلوا البئر ، رأوا أمامهم غلاماً لا تمل العين من النظـر إليه ، لشدة حسنه ، وجمال طلعته ، لقد أعطاه الله حسنا فاق كل حسن .

صار القوم يتساءلـون فيما بينهم . . ما شأن هذا الغـلام ؟! ثم سألوه . . من أنت وما شأنك ؟! ما سبب وجـودك فى هذا البئر ؟! فصغر سنك لا يوحـى بأنك أتيت من الأعمال ما يكون هذا جزاءً عليها .

فكان جوابه على تساؤلاتهم،لست أدرى ، أنا لا أستطيع الإجابة على ما تسألون ، لأننى متعب ، مجهد ، جائع ، فأرجو أن تعفونى الآن من الإجابة .

كان كلامه واضحاً متزناً ، برغم ضعفه وهـزاله ، وإرهاقه الشديد . . فلم يشغلوا

أنفسهم بحقيقة أمره ، وقال قائلهم : على كل حال ، إنه غلام وليس شيئاً آخر ، إنه رزق ساقه الله إلينا ، سوف نبيعه فى سوق الرقيق ، ولسوف يكون ثمنة مرضياً . . . فلنحرص عليه من أن تراه العيون . . إنه مغنم ما فى ذلك من شك .

وفعلاً ، لقد أخفوه عن الناس ، لكى لا يدعيه أحد من أهل ذاك المكان ، لأجل أن يكون بضاعة لهم ، تعود عليهم بالربح الوفير ، فذلك معنى « وأسروه بضاعة » .

قال الفخر الرازى فى قوله تعالى : ﴿ وَأَسَرُّوهُ بِضَاعَةً ﴾ .

الضمير فى ﴿ وَأَسَرُّوهُ ﴾ إلى من يعود ؟ فيه قولان :

الأول : أنه عائد إلى الوارد وأصحابه، أخفوا من الرفقة أنهم وجدوه فى الجب، وذلك لأنهم قالوا: إن قلنا للسيارة التقطناه، شاركونا فيه ،وإن قلنا اشتريناه ، سألونا الشركة ، فالأصوب أن نقول : إن أهل الماء جعلوه بضاعة عندنا ، على أن نبيعه لهم بمصر .

الثانى : نقل عن ابن عباس ، أنه تعالى قال : ﴿ وَأَسَرُّوهُ ﴾ يعنى : إخوة يوسف أسروا شأنه ، والمعنى : أنهم أخفوا كونه أخاً لهم ، بل قالوا : إنه عبدٌ لنا أبق منا ، وتابعهم على ذلك يوسف ، لأنهم توعدوه بالقتل ، بلسان العبرانية .

والأول أولى لأن قوله تعالى : ﴿ وَأَسَرُّوهُ بِضَاعَةً ﴾ يدل على أن المراد أسروه حال ما حكموا بأنه بضاعة ، وذلك إنما يليق بالوارد ، لا بإخوة يوسف .

إخوة يوسف يبيعونه لتجار القافلة

﴿ وَشَرَوْهُ بِثَمَنٍ بَخْسٍ دَرَاهِمَ مَعْدُودَةٍ وَكَانُوا فِيهِ مِنَ الزَّاهِدِينَ ﴿٢٠﴾ ﴾

إخــوانــه كانــوا عــلــى بُعد جــمــيــعاً راصــديــن	٥٢
جــاءوا إلــى الــوُراد قــالــوا : إنّه عــبــد مــهــين	٥٣
قــالــوا : فــإنــا نــشــتــريــه ، إذا أردتم بــائــعــين	٥٤
باعــوه بيــعَ العــبدِ ، قد كــانوا جــمــيــعاً زاهــدين	٥٥

بينما كان القوم ـ الذين اخرجوا يوسف من الجب ـ يحيطون بيوسف، وهم يتساءلون عن أمره، ويتعجبون من حسنه، كان إخوته غير بعيدين، يراقبون ما حدث . . فجاءوا إلى رجال القافلة عــند البئر ، فقالوا : يا قوم ! هــذا عبدٌ لنا قد أساء ، فعاقبــناه بوضعه في هذا الجب ، فإن كان لكم رغبة فى شرائه ، فإنا نبيعه لكم ، ولن نغليه عليكم .

قال القرطبى : ﴿وَأَسَرُّوهُ بِضَاعَةً﴾ قال ابن عباس : أسرّه إخوة يوسف بضاعة لما استخرج من الجب، وذلك أنهم جاءوا فقالوا: بئس ما صنعتم ! هذا عبدٌ لنا أبق ، ولقالوا ليوسف بالعبرانية: إما أن تقر لنا بالعبودية ، فنبيعك من هؤلاء ، وإما أن نأخذك فنقتلك فقال : أنا أقر لكم بالعــبودية ، فأقر لهم ، فباعوه منهم . وقيــل : إن يهوذا وصى أخاه يوسف بلسانهم ، أن اعترف لأخوتك بالعبودية ، فإنــى أخشى إن لم تفعل قتلوك . . فلعل الله أن يجعل لك مخرجاً، وتنجو من القتل ، فكتم يوسف شأنه ، مخافة أن يقتله إخوته . فقال مالك ـ كبير رجــال القافلة لإخوة يوسف ـ والله ما هذا سمة الــعبيد ! قالوا : هو تربى فــى حجورنا ، وتخــلق بأخلاقنــا ، وتأدب بآدابنــا ، فقال : ما تقــول يا غلام ؟! قال : صدقوا ، تربيت فى حجورهم، وتخلقت بأخلاقهم، فقال مالك : إن بعتموه منى ، اشتريته منكم، فباعوه منه فذلك قوله تعالى : ﴿ وَشَرَوْهُ بِثَمَنٍ بَخْسٍ دَرَاهِمَ مَعْدُودَةٍ وَكَانُوا فِيهِ مِنَ الزَّاهِدِينَ ﴾ . أى باعوه بثمن بخس ، والبخس هو الناقص المعيب .

قال ابن كثير : وباعه إخوته بثمن قليل، قال مجاهد وعكرمة : والبخس: هو النقص، كما قال تعالى : ﴿ فَلَا يَخَافُ بَخْسًا وَلَا رَهَقًا ﴾ [الجن : ١٣]، أى اعتاض عنه إخوته، بثمن دون قليل، وكانوا مع ذلك فيه من الزاهدين، أى ليس لهم رغبة فيه ، بل لو سألوه بلا شيء لأجابوا » . قال ابن عباس: « كونه بــخساً ، يريد حراماً لأن ثمن الحر حرام ، وقال : كل بخس فى كــتاب الله نقصان ، إلا هذا فإنه حــرام ، قال الواحدى : سمّوا الحرام بــخساً لأنه نــاقص البركــة ، وقال قتادة : بــخس ، ظلم ، والــظلم نقــصان ، يقال : ظلمه أى نقصه، وقال عكرمة والشعبى : قليل ، وقيل : ناقص عن القيمة نقصاناً ظاهراً ، وقيل : كانت الدراهم ، زيوفاً ناقصة العيار » الفخر الرازى .

الحلقة الثالثة

يوسف الصديق فى بيت عـزيز مـصر

العـزيز يوصـى امـرأته بيـوسف

المـرأة تـراود يـوسف عـن نفسـه

العزيز يتبين الحقيـقة بفـحص القمـيص

الآيات القرآنية التى صيغ منها شعر الحلقة الثالثة

﴿ وَقَالَ الَّذِي اشْتَرَاهُ مِن مِّصْرَ لامْرَأَتِهِ أَكْرِمِي مَثْوَاهُ عَسَىٰ أَن يَنفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا وَكَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الأَرْضِ وَلِنُعَلِّمَهُ مِن تَأْوِيلِ الأَحَادِيثِ وَاللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰ أَمْرِهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ ﴿٢١﴾ وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴿٢٢﴾ وَرَاوَدَتْهُ الَّتِي هُوَ فِي بَيْتِهَا عَن نَّفْسِهِ وَغَلَّقَتِ الأَبْوَابَ وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوَايَ إِنَّهُ لا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ ﴿٢٣﴾ وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ وَهَمَّ بِهَا لَوْلا أَن رَّأَىٰ بُرْهَانَ رَبِّهِ كَذَلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ ﴿٢٤﴾ وَاسْتَبَقَا الْبَابَ وَقَدَّتْ قَمِيصَهُ مِن دُبُرٍ وَأَلْفَيَا سَيِّدَهَا لَدَا الْبَابِ قَالَتْ مَا جَزَاءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوءًا إِلاَّ أَن يُسْجَنَ أَوْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٥﴾ قَالَ هِيَ رَاوَدَتْنِي عَن نَّفْسِي وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنْ أَهْلِهَا إِن كَانَ قَمِيصُهُ قُدَّ مِن قُبُلٍ فَصَدَقَتْ وَهُوَ مِنَ الْكَاذِبِينَ ﴿٢٦﴾ وَإِن كَانَ قَمِيصُهُ قُدَّ مِن دُبُرٍ فَكَذَبَتْ وَهُوَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴿٢٧﴾ فَلَمَّا رَأَىٰ قَمِيصَهُ قُدَّ مِن دُبُرٍ قَالَ إِنَّهُ مِن كَيْدِكُنَّ إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ ﴿٢٨﴾ يُوسُفُ أَعْرِضْ عَنْ هَذَا وَاسْتَغْفِرِي لِذَنْبِكِ إِنَّكِ كُنتِ مِنَ الْخَاطِئِينَ ﴿٢٩﴾ ﴾ .

أشعار الحلقة الثالثة

يـا ويـحَ إخـوة يـوسـف صـاروا قـسـاةً ظـالمـين ١
قـد أجرمـوا فـى حقّه ، كـانـوا لسـوء عـامديـن ٢
الحـقدُ أعـماهـم فضـلّـوا عن طـريق الـراشديـن ٣
بـاعوا أخـاهم بـالدراهـم ، وَهْوَ نسـلُ الأكرمـين ٤
قـد واصـلَ التـجـارُ رحـلتَهـم لمـصـر قاصـديـن ٥
ذهبـوا بيـوسفَ نـحو مصـر لموطـنِ المتـحضـرين ٦
وهـناك فـى سـوقِ الـرقيـقِ يُحـاط بالمتـعـجبـين ٧
لـقد اشـتراه عـزيزُ مـصـرَ من الـرجال الجـالبـين ٨
فـى بـيـته أوصـى بـه زوجاً لـهـا طـبـعٌ مـشـين ٩
مـن قولـه : فـلتـكرمـى مـثواه إكـرامَ الـبنـين ١٠
فـعـسَاه يـنفـعُنـا إذا صرنـا شـيـوخاً طـاعـنـين ١١
فـلنـتـخـذْه لـنـا ولـيـداً وارثـاً كـالـوارثـين ١٢
بيـتُ العزيزِ قـد احتواه ، فعـاش عيشَ المتـرفين ١٣
قد مـكّن المولـى ليوسـفَ ، صار فـي أمْنٍ أمين ١٤
أعطـاه ربُّ العـرشِ فضـلاً ، نعمَ ربُّ الـعالمـين ١٥
أعطـاه تأويـلَ الحديـث ، غدا بـه فى المرسَلين ١٦
ربُّ السـماء أرادَ بـالصـدّيقِ خـيراً ، عـن يقـين ١٧
للـمجـد يصعـدُ بالـبلاء ، قـضاء خيـرِ الخالـقين ١٨
مـا شاءه المـولى يـكونُ ، بـرغمِ كُرْه الـكارهـين ١٩
هـو غالـبٌ فى مـلكه والـنـاسُ ليـسوا غـالبـين ٢٠
قد شبّ يـوسفُ واستوى مثـل الشباب البـالغين ٢١
أعـطـاه ربُّ العـرشِ حُسـنـاً صار وضّاءَ الجـبـين ٢٢
بـل زاده فـضـلاً فـأصبـح فـى عداد المـرسَلـين ٢٣
زوجُ الـعزيـزِ تحـبّهُ مـن نوع حـبٍّ الـفـاسقـين ٢٤
صـارت تـناجـى نـفـسَهـا فـى حبّه كـالحـالمـين ٢٥
الـذئـبُ فى أعـمـاقِهـا يـعـوى عُواءَ الجائـعـين ٢٦

من أجلِ هذا قررت أمراً بتدبيرٍ متين ٢٧
همتْ تنفذُ خطةً من وحى إبليسَ اللعين ٢٨
فى مخدعٍ قد هيأتْهُ إلى لقاءِ العاشقين ٢٩
نادت على الصديقِ أقبلَ مسرعاً كالخادمين ٣٠
نادتُه والثوبُ الرقيقَ يشفُّ عن جسدٍ فتين ٣١
قد أغلقتْ أبوابَها منْعاً لكل القادمين ٣٢
كانت تظنُّ بأن يوسفَ كالرجالِ الفاسقين ٣٣
ما أن تشير إليه ، يأتيها مجىءَ الراغبين ٣٤
لكنّ يوسفَ كان عفًّا من سُلالةِ صالحين ٣٥
قالت : فإنى «هيت لك» أقبِلْ وكن فى الآمنين ٣٦
أقبلِ فإن الشوقَ يغلبنى إليكَ مع الحنين ٣٧
فأجابها فوراً « معاذَ الله » ربِّ العالمين ٣٨
لا ، لستُ خوَّاناً ، فهذا من صفات الخائنين ٣٩
لا ، لن أخونَ لسيدى ، قد كانَ لى فى المكرِمين ٤٠
إن الخيانةَ دون شكٍّ من صفاتِ الظالمين ٤١
والظالمون فلن يكونوا فى عدادِ المفلحين ٤٢
همت لتأخذَه ، أبَى ، فى عفةِ المتبتلين ٤٣
لما أبىَ فقدتْ صواباً ، أصبحت كالذاهلين ٤٤
جرُحت كرامتُها فصارت كالوحوشِ الكاسرين ٤٥
بالضربِ قد آذته ، هم بِمنعها كى تستكين ٤٦
أبتِ التراجعَ هم يضربُها ، رأى النور المبين ٤٧
فلقد رأى البرهانَ فى أعماقه ، هذا يقين ٤٨
معناه ، إن تضربْ زليخا ، نالك الغمز المبين ٤٩
فلتصبرنّ على أذاها ، لاتكنْ كالجاهلين ٥٠
هى دون شكٍ من ذواتِ النقصِ فى عقل ودين ٥١
فاصبرْ كصبرِ الأنبياءِ ، فقد غدواْ في الخالدين ٥٢
ولأنتَ ذو عقلٍ رجيحٍ ، فى عدادِ المرسَلين ٥٣
ذاكم هو البرهانُ فى الأعماقِ ، رؤيا المتقين ٥٤
ولنصرفنّ السوءَ والفحشاءَ عنك لتستبين ٥٥

إذ أنت صفوتُنا سُلالة أنبياء مخلصين ٥٦
لما تحققَ يوسفٌ من ذلك النصح الأمين ! ٥٧
من ثَم ولى هارباً ينجو من البطش المهين ٥٨
أختُ الفجور وراءه تعدو كعَدْو الطالبين ٥٩
وقميصُه قدتْهُ من دُبُر ليهدى الحاكمين ٦٠
وهناك عند الباب أقبل سيدُ البيت الفطين ٦١
قالت له فوراً : لتسمعنى سماع الفاهمين ٦٢
هذا يريد السوءَ منى فليكن في الصاغرين ٦٣
فَلْيُلق في سجن رهيب فى عداد المجرمين ٦٤
أو فلْيذُقْ طَعمَ العذاب لأنه فى المعتدين ٦٥
لكنّ يوسفَ قد أجابَ ، فقال قولَ الصادقين ٦٦
هى راودتنى تطلبُ الفحشاءَ فعلَ الفاسقين ٦٧
ولقد أبيتُ فنالنى ما قد يُرى للناظرين ٦٨
إنى بريءٌ من مقالتها براءةَ طاهرين ٦٩
سمعَ العزيزُ مقالةَ الاثنين سمْعَ الفاهمين ٧٠
من ثم أصبحَ دون شكٌ فى مقام الحائرين ٧١
لكنّ شاهدَهم يقولُ وكان ذا قول أمين ٧٢
إنّ القميصَ هو الدليل لتنظروه كباحثين ٧٣
إنْ كان قُدّ من الامام فإنه فى الكاذبين ٧٤
أو قُدّ من خلف فيوسفُ صادقٌ هذا يقين ٧٥
وجدوه من خلْف تمزَّقَ إثرَ عدوان مبين ٧٦
عرف العزيزُ بأن يوسفَ لم يكن فى الخاطئين ٧٧
من ثَم قال له : فكفّ عن الحديث لآخرين ٧٨
اكتمْ لهذا الأمرَ لا تذكرْه للمتساءلين ٧٩
وإلى زليخا قال قولاً فى هدوء اللائمين ٨٠
فاستغفرى مما جنيتِ فذاك فعلُ الماجنين ٨١

إخوة يوسف أجرموا فى حقه

....

يـا ويـحَ إخـوة يـوسـف صـاروا قـسـاةً ظـالمـين ١
قـد أجرمـوا فـى حقّهِ ، كـانـوا لسـوءٍ عـامديـن ٢
الحـقدُ أعـماهـم فضـلـوا عن طـريقِ الـراشديـن ٣
بـاعوا أخـاهم بـالدراهـمِ ، وَهْوَ نسـلُ الأكرمـين ٤

حينما أذكر أبناء يعـقوب ، أثناء كتابتى ، لا أستطيع منع قلمـى من غمزهم والنيل منهم،ومن قبل وبعد ذلك،لم يسلموا من تهكمه وسخريته بهم ، فى شعرى ونثرى . . بحيث ألْهَبَهم بسياط التجريح والنقد القاسى ، وذلك من واقع سلوكهم الذى قصه علينا القرآن الكريم ، ولم لا . . فهم فى رأيى قساة ، تجردوا من العواطف ، لا سيما عاطفة الأخوة ، ورابطـة النسب والدم . . ظـالمون فى حكمهـم على يوسف . . ذلـك الغلام البرىء ، الذى لا شأن له بتفضيل أبيه له عليهم ، ولا بما تنطوى عليه قلوبهم . . نتيجة لسلوك أبيهم الذى تصوروه ظالماً ، بل ضالاً .

إن الذى لا شك فيه هو:أنهم أجرموا فى حق يوسف ، والجريمة لم تكن منهم عن جهل،وليست أيضاً عن حسن نية ، بل هى جريمة مقصودة ، خططوا لها بدقة وإتقان .

لقد انتصر الشيـطان فى نفوسهم ، فاستولى على تفكيـرهم ، فصاروا يفكرون به وله،وكأنى بهم من شدة حقدهم على يوسف،قد أراحوا الشيطان من الوسوسة لهم . . وأستطـيع أن أقول ، أيضاً : إن أبـناء يعقوب ، لـو قُدر لهم أن يجـلسوا مع الشـيطان علانية ، ثم قالوا له : أشر علينا بالرأى الصواب بشأن يوسف ! لما جَرُؤَ أن يشير عليهم بقتله كما قـرروا هم ذلك أول الأمر . ذلك لأنه يخشى أن يكون قد أشـار عليهم بما لا يقبلونه ، ذلـك لعلمه أن يوسف ، أولاً وآخراً ، هو أخوهـم ، ولا يمكن أن يفكر أخ يتمتع بقواه العقلية ، فى قتل أخيه . . فهل أنا مبالغ فى هذا . . ؟! لا أعتقد .

إن الذى فعله أبناء يعقوب بأخيهم يوسف ، ليس من أعمال الخير ، ويا ليتهم اكتفوا بهذا ، بل ختموا القـصة المؤلمة ، بعمل أمرّ وأقسى على نفس يـوسف ، من إلقائه فى

البئر عـرياناً ، فى غلظة وجـفاء وتجرّد من العاطفـة والود . . . فباعوه بثمـن بخس إلى التجار ، على أنه عبد آبق .

قال الأستاذ عـبد الكريم الخطيب فى كـتابه « القصص القـرآنى » : « إن أصحاب القافلة قد ﴿ شَرَوْهُ بِثَمَنٍ بَخْسٍ ﴾ أى فيه غبن علـى البائعين ، حيث باعـوا الجوهر بيع الحصا ، ورضوا بأن يتقاضوا في مقابل يوسف ﴿ دَرَاهِمَ مَعْدُودَةٍ ﴾ ولو عرفوا قدر هذا الجوهر الكريم ، الذى فى أيـديهم ، لضنوا به على البيع ، حيـث لا يقدر بثمن ، ولو كان القناطير المقنطرة من الذهب والفضة » .

يوسف مع التجار فى مصر

....

قد واصلَ التجارُ رحلتَهم لمصر قاصدين ٥
ذهبوا بيوسفَ نحو مصر لموطنِ المتحضرين ٦
وهناك فى سوقِ الرقيقِ يُحاط بالمتعجبين ٧
لقد اشتراه عزيزُ مصرَ من الرجال الجالبين ٨

بعد أن استراحت القافلة من عناء السفر ، حيث نزلوا فى المكان الذى فيه الجب « جُبّ يوسف » وأيضا قد تمت الصفقة بينهم وبين أبناء يعقوب .. قيل : كان الطرفان زاهدين فى يوسف .. إخوته يريدون بيعه ، وبأى ثمن !!! ولو سألوه بغير ثمن ، لما ترددوا فى التنازل عنه لطالبيه .. هذا من ناحية .. ومن ناحية أخرى لم يكن تجار القافلة متحمسين لشرائه .. فليس هذا نوع تجارتهم .

فى الصباح رحلت القافلة متجهة صوب مصر .. ولا عجب، فمصر أرض الحضارة قديما، وإليها يهرع التجار للصفق .. وها هم أولاء التجار يواصلون رحلتهم الشاقة إلى مصر، يحدوهم الأمل فى تحقيق ربح وفير من تجارتهم، لاسيما من هذا الغلام الذى اشتروه فضموه إلى تجارتهم .

وصل التجار إلى مصر ، ثم توجهوا إلى سوق الرقيق ، حيث يباع الإنسان فيه كما تباع العجماوات ، يُقَوّم فيه الإنسان بالدراهم .. فمدار التفضيل فى الذكر ، هيأته وقوة بنيته .. وفى الأنثى ، الجمال وصغر السنّ .

ما إن وقف التاجر فى ذاك السوق البغيض ، ومعه يوسف معروضاً للبيع ، على أنه عبد رقيق، إذا التجار جميعاً قد التفوا حوله .. كل يريد الفوز به مهما بلغ الثمن .. وذلك منافسة عن طريق المزايدة .

احتدمت المنافسة بين التجار، حتى بلغت أشدها ، وفجأة توقفت المزايدة ، واتجهت الأنظار نحو رجل يبدو أنه من ذوى السلطان والجاه .. وبكلمات موجزة مع التاجر ، أصبح يوسف مملوكاً إلى ذلك الرجل .. ذلك الرجل هو عزيز مصر .

« قال القرطبى فى معرض الحديث عن الذى اشترى يوسف فى مصر : قيل: « تزايدوا فى ثمنه، فبلغ أضعاف وزنه مسكاً وعنبراً وحريراً وورقاً وذهباً ولآلئ وجواهر لا يعلم قيمتها إلا الله ، فابتاعه ـ اشتراه ـ قطفير وزير ملك مصر ، من مالك ، التاجر الذى اشتراه من إخوته » .

عزير مصر يوصى زوجته بيوسف خيراً

﴿ وَقَالَ الَّذِي اشْتَرَاهُ مِن مِّصْرَ لامْرَأَتِهِ أَكْرِمِي مَثْوَاهُ عَسَىٰ أَن يَنفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا ﴾

فى بيتِه أوصى به زوجاً لها طبعٌ مشين ٩
من قوله : فلتكرمى مثواه إكرامَ البنين ١٠
فعسَاه ينفعُنا إذا صِرنا شيوخاً طاعنين ١١
فلنتخذْه لنا وليداً وارثاً كالوارثين ١٢

كان عزيز مصر الذى اشترى يوسف ، ذا فراسة وفطنة ، فتوسم في يوسف الأمانة والذكاء والعفة . . وقيل : كان لا يولد له ، بل قيل : لا يأتى النساء .

قال الأستاذ عبد الكريم الخطيب فى كتابه «القصص القرآنى » وها هو ذا يوسف ، ينتقل من بلد إلى بلد ، يتحول من يد إلى يد ، حتى يقع أخيراً ليد رجل من مصر ، لا ندرى إلى الآن من هو هذا الرجل ، ولا المكانة التى له في قومه .

إذاً فيوسف الآن فى مصر ، فهل يستقر به المقام فيها ؟! أم ستتناقله الأيدى من بلد إلى بلد ، ومن مصر إلى مصر ، بيعاً وشراءً ، إنه الآن سلعة تباع وتشترى .

وتحدثنا الآية الكريمة ، بأن المصرى الذى اشترى يوسف ، قد رأى فيه رأيا آخر ، غير الذى كان يُسَوَّى حساب يوسف عليه من قبل ، لقد كان من قبل بضاعة تباع وتشترى ، ولكنه وقد صار إلى يد هذا المصرى ، سيصبح شيئاً آخر ، غير الذى كان عليه ، لقد ضمه الرجل إليه واتخذه ابناً له ، ودعا امرأته إلى أن تكرمه ، وتتولى تربيته وتنشئته على ما يتربى وينشأ عليه الأبناء .

وهكذا يجد يوسف فى مصر أهلاً بدل أهله ، وأباً وأما [1] فى مكان أبيه وأمه ، وهكذا صنع الله تعالى ليوسف ، ولطف به ، ليس هذا فحسب ، بل إن له عند الله مزيداً من الفضل واللطف ، فلقد تحرر من العبودية .

(١) ونحن نختلف مع الأستاذ الخطيب في هذا التعبير . . . لأن زوجة العزيز امرأة ماجنة ، بدليل أن قصة مجونها وعبثها . صاغها المولى عز وجل قرآنا ، لا ينفك يتلى على سمع الدنيا . . أما أم يوسف ، فلا . المؤلف .

وهكذا عزيز مـصر أوصى زوجته بيوسف فـقال لها : ﴿ أَكْرِمِي مَثْوَاهُ ﴾ احرصى على إكرامه، فلا تبخلـى عليه بشىء. .أحيطيه برعايتك ، فإننى أرى فـيه مخايل النجابة والذكاء والفطنة ، ونحن كما تعلمين ، فليس لنا أولاد ، أفلا نتخذه ولداً ، نمنحه الأبوة والرعاية ، ذلك بعد أن نعطيه الحرية ، فنعتقه وننزله منزلة الابن الحقيقى .

وبصفتنا لا يـولد لنا كما تعلمين ، فنـحن فى حاجة إلى ولد نتبنـاه ، يكون لنا فى حياتنا ،ويرثنا بعد مماتنا ،ولعمر الله إننا لن نجد خيراً من هذا الغلام ، إنه بهى الطلعة ، حسن الخلق والخلق ، ولا إخاله إلا سيكون ذا شأن عظيم فى هذه الحياة .

تمكين الله ليوسف وتعليمه تأويل الأحاديث

﴿ وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الأَرْضِ وَلِنُعَلِّمَهُ مِن تَأْوِيلِ الأَحَادِيثِ ... ﴾

بيتُ العزيزِ قد احتواه ، فعاش عيشَ المترفين ١٣
فد مكَّن المولى ليوسفَ ، صار في أمْنٍ أمين ١٤
أعطاه ربُّ العرشِ فضلاً ، نعمَ ربُّ العالمين ١٥
أعطاه تأويلَ الحديثِ ، غدا به في المرسَلين ١٦

لقد تنقل يوسف الصديق خلال محنته ، من بائع إلى مشتر ، أو من سيد قد باعه إلى سيد آخر قد اشتراه ، وقد انتهى أخيراً فى بيت من أعرق البيوت فى مصر . . إنه بيت حاكم مصر ، ولا عجب فبيت الحاكم يرفل فى النعمة ، وهو كما ذكرنا آنفاً لا يولد له ، فليس له أولاد . . وقد توسم فى يوسف النجابة والعفة ، فأوصى زوجته بيوسف خيراً فقال لها : بما أننا ليس لنا أولاد ، وبالتالى فلاغنى لنا عن الأولاد . . إذاً فلنتخذ هذا ولداً ، فلن نجد خيراً منه .

أى أن يوسف قد بدأ حياة جديدة ،فى بيت عزيز مصر ، حياة كلها ترف وبذخ . . لقد أغدق عليه سيده بلا تحفظ ، إنه يعامله معاملة الابن ، لا يرفض له طلباً ، كل ما فى البيت تحت يده ، يتصرف فيه كيف يشاء .

لقد كانت هذه الحياة الجديدة ، أولى الخطوات فى صعود يوسف نحو القمة ، برغم ما سوف يصادفه من عوامل الجذب إلى القاع ، إلا أن نجمه كان صاعداً ، كان أقوى من كل المؤثرات التى وقفت عوائق فى طريق صعوده .

قال الأستاذ رشيد رضا فى تفسيره « المنار »: ﴿ وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الأَرْضِ ﴾ أى وعلى هذا النحو من التدبير والتسخير ، جعلنا ليوسف مكانة عالية في أرض مصر ، كان هذا العطف عليه،والرجاء فيه من العزيز مبدأها ، ليقَعَ له فى بيته ثم فى السجن ما يقع من التجارب والاتصال بساقى الملك،فيكون وسيلة للوصول إليه ﴿ وَلِنُعَلِّمَهُ مِن تَأْوِيلِ الأَحَادِيثِ ﴾ كتعبير الرؤيا،ومعرفة حقائق الأمور،ما ينتهى به إلى الغاية من هذا التمكين».

قال القرطبي فـي تفسيره : ﴿ وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ ﴾ وكما أنقـذناه من إخوته ، ومن الجـب ، فكذلك مكنـا له ، أى عطفنا علـيه قلب الملك الـذى اشتراه ، حتى تمكن من الأمر والنهى فى البلد الذى الملك مسئول عليه .

﴿ وَلِنُعَلِّمَهُ مِن تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ ﴾ وقيل : المـعنى مكـناه لنوحـى إليه بكـلام منا ، ولنعلمه من تأويله وتفسيره » .

وقال الفخر الرازى فى تفسيره مفاتيح الغيب: ﴿ وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ ﴾ أى كما أنعـمنا عليه بـالسلامة من الجب ، مكـناه بأن عطفنا عـليه قلب العـزيز ، حتى توصل بذلك إلى أن صار متمكناً من الأمر والنهى فى أرض مصر .

واعلم أن الكمالات الحقـيقية ، ليست إلا القدرة والعلم ، وأنـه سبحانه لما حاول إعلاء شأن يوسف ، ذكره بهذين الوصفين ، أما تكميله في صفة القدرة والمكنة ، فإليه الإشارة بقولـه تعالى : ﴿ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ ﴾ وأما تكميله فى صـفة العلم فإليه الإشارة بقوله تعالى : ﴿ وَلِنُعَلِّمَهُ مِن تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ ﴾ .

المنحة فى ثنايا المحنة ليوسف

﴿ وَاللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰ أَمْرِهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ (٢١) ﴾

رَبُّ السماءِ أرادَ بالصديقِ خيراً ، عن يقين ١٧
للمجد يصعدُ بالبلاء ، قضاء خيرِ الخالقين ١٨
ما شاءه المولى يكونُ ، برغمِ كُرْهِ الكارهين ١٩
هو غالبٌ فى ملكِه والناسُ ليسوا غالبين ٢٠

الله خالق كل شىء ، وبيده ملكوت كل شىء ، وإليه يرجع كل شىء ، ومن ثم فأمره نافذ فى ملكه ، لا معقب لحكمه ، ولا راد لقضائه ، إذما يشأ أمراً ، فإنما يقول له كن فيكون ، أحياناً يكون المولى عز وجل ، قد أراد خيراً من خلقه ، فيجىء هذا الخير في صورة شرّ فيما يبدو للناس ، بحيث يصير الناس يتعجبون من قسوة الأقدار ، على هذا الذى أريد به الخير ، فى علم الله ، كما هو الحال بشأن يوسف ... وصدق الشاعر حيث قال :

وكم نعمة لا تستقل بشكرها ... لله فى طىّ المكاره كامنه

وكما قال ابن عطاء الله السكندرى : « ربما كمنت المنن فى ثنايا المحن ».

قال الأستاذ أحمد بهجت فى كتابه « أنبياء الله » : ﴿ **وَاللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰ أَمْرِهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ** ﴾ لقد انطبقت جدران العبودية على يوسف .. ألقى في البئر ، أهين ، حرم من أبيه ، التقط من البئر ، صار عبداً يباع فى الأسواق ، اشتراه رجل من مصر ، صار مملوكاً لهذا الرجل ، انطبقت المأساة ، وصار يوسف بلا حول ولا قوة ، هكذا يظن أى إنسان .. غير أن الحقيقة شىء يختلف عن الظن تماماً .

ما نتصور نحن أنه مأساة ومحنة وفتنة ،كان هو أول سلم يصعده يوسف في طريقة إلى مجده. .والله غالب على أمره،ينفذ تدبيره رغم تدبير الآخرين،ينفذ من خلال تدبير الآخرين ،فيفسده ويتحقق وعد الله ،وقد وعد الله يوسف بالنبوة ،وها هو يلقى محبته

على صاحبه الذى اشتراه ، وها هو السيد يقول لزوجته : ﴿ أَكْرِمِي مَثْوَاهُ عَسَىٰ أَن يَنفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا ﴾ ، وليس هذا السيد رجلاً هيّن الشأن ، إنما هو رجل مهم ، رجل من الطبقة الحاكمة فى مصر .. إنه وزير خطير سماه القرآن « العزيز » وكان قدماء المصريين يطلقون الصفات كأسماء على الوزراء .

فهذا العزيز، وهذا العادل ، هذا القوى .. إلى آخره .. وأرجح الآراء أن العزيز هو : رئيس وزراء « مصر » .

قوله تعالى : ﴿ وَاللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰ أَمْرِهِ ﴾ فيه وجهان :

الأول : غالب على أمر نفسه ، لأنه فعال لما يريد لا دافع لقضائه ، ولا مانع عن حكمه فى أرضه وسمائه .

الثانى : والله غالب على أمر يوسف ، يعنى أن انتظام أموره إلهياً ، وما كان بسعيه ، وإخوته أرادوا به كل سوء ومكروه ، والله أراد به الخير ، فكان كما أراد الله تعالى ودبر ، ولكن أكثر الناس لا يعلمون ، أن الأمر كله بيد الله [1] وقال ابن كثير فى تفسيره : ﴿ وَاللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰ أَمْرِهِ ﴾ أى إذا أراد شيئاً ولا يمانع ولا يخالف ، بل هو الغالب لما سواه .

وقال سعيد بن جبير : أى فعال لما يشاء : ﴿ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ يقول : لا يدرون حكمته فى خلقه ، وتلطفه لما يريد .

عن عبد الله بـن مسعود أنه قال : أفرس الناس ثلاثة : عزيز مصر حين قال لامرأته : ﴿ أَكْرِمِي مَثْوَاهُ ﴾ والمرأة التى قالت لأبيها : ﴿ يَا أَبَتِ اسْتَأْجِرْهُ إِنَّ خَيْرَ مَنِ اسْتَأْجَرْتَ الْقَوِيُّ الْأَمِينُ ﴾ وأبو بكر الصديق ، حين استخلف عمر بن الخطاب رضى الله تعالى عنهما .

(١) مفاتيح الغيب للفخر الرازى .

امرأة العزيز تحب يوسف

﴿ وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ (٢٢) ﴾

قد شبّ يـوسفُ واستوى مثـل الشباب البـالغين ٢١
أعـطـاه ربُّ العـرشِ حُسـنـاً صار وضَّاءَ الجـبـين ٢٢
بـل زاده فـضـلاً فـأصبـح فـى عِدادِ المـرسَلـين ٢٣
زوجُ الـعزيـزِ تحـبّهُ مـن نوع حـبٍّ الـفـاسقـين ٢٤

لقد شب يوسف عن الطوق ، فنما وترعرع فـى بيت العزيز ، بلغ مبلغ الرجال ، فاكتمل عوده ، وامتلأ حيوية وشباباً ، وقد منّ الله عليه ، فأحسن خلقه وخلُقه ، زانه بالحسن ووضاءة الجبين ، فكان أجمل الناس وجهاً .

وفى الصحيح أن يوسف الصديق أعطـى شطر الحسن. . أخبر بذلك محمد ﷺ ، ولما سئل عليه الصلاة والسلام ! أنت أحسـن أم يوسـف ؟! قال عليه الصلاة والسلام : « هو أحسن منى خلْقاً ، وأنا أحسن منه خُلقاً » .

وقد أتم الله نعمتـه على يوسف ، فأعطاه الرسالة ، فصار مـن الأنبياء المرسلين ، وتلك لعمر الله أعظم منّة منّ الله بها على يوسف الصديق ،فبينما هو فى بيت سيده ، مجهـول الشخصية والأصـل ، هو فى نظر سيـده عبد رقيق ، مـنّ عليه بالتـبنى . . . فارتفع بهـذا من العبودية إلى مقـام السيادة ، ذلك لأنه أصبح ابـناً بالتبنى للـسيد الذى اشتراه ، والابن بالتبنى كان له حقوق الابن بالنسب .

بيد أن امرأة العزيـز فى واد وزوجها فى واد آخر ، فزوجها أوصاهـا بيوسف خيراً وقال لهـا : أكرمى مثواه عـسى أن ينفعـنا أو نتخذه ولـداً ، هذه الوصية مـن زوجها ، كانت كلاماً انتهى فـى حينه ، فمن ثم كان الرجل ينظر إلى يـوسف نظرة أبوة حانية ، بينما المرأة تنظر إلـيه نظرة أخرى ، إنها تتغزل في محاسنه ، لقـد صارت تنظر إليه نظرة كلها شهـوة ، إنها تشتهيه ، ولا عـجب فهى أنثى مكتـملة الأنوثة ، وفى مقتـبل العمر أيضاً ، ويوسـف معها فى بيـتها ، كان كل يوم يزداد حـسناً ، وهو فى نظـرها ليس إلا

خادماً . . إذاً فما عليها إلا أن تأمره ، وما عليه إلا أن يطيع أمرها ، هكذا كان حديثها مع نفسها ، فالشباب والحسن والطاعة ملك لها ، وذلك كله فى يوسف !!

كان طبيعياً أن تميل إليه كامرأة . . أحبته حباً جدياً ، تمنته ، اشتهته ، فزوجها يقضى اليوم كله خارج المنزل ، أما يوسف فهو أمامها ، لا يغيب عن ناظريها .

يالله !! لقد أحبته امرأة العزيز ، وكم قاسى يوسف من عواقب الحب ، لقد أحبه أبوه قبلاً ، فأوغر ذلك صدور إخوته عليه ، ففعلوا ما فعلوه معه ، فصار من جراء ذلك الحب عبداً رقيقاً ، وهو الكريم ابن الكريم ابن الكريم ابن الكريم ، وهذا حب آخر يبتلى به يوسف ، إنه حبٌ ماجن ، يريد من يوسف أن يكون عبداً لشهواته .

قال ابن كثير فى تفسيره: ﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ﴾ أى ولما بلغ يوسف أشده : أى اكتمل عقله ، وتم خلقه : ﴿ آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا ﴾ يعنى النبوة ، إنه حباه بها بين أولئك الأقوام : ﴿ وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴾ أى أنه كان محسناً فى عمله ، عاملاً بطاعة ربه تعالى ، وقد اختلف فى مقدار المدة التى بلغ فيها أشده ، فقال ابن عباس ومجاهد وقتادة : ثلاث وثلاثون سنة . . وقال الإمام مالك وربيعة،وزيد بن أسلم والشعبى: الأشدّ الحلم ، وقيل : غير ذلك والله أعلم .

وقال القرطبى فى تفسيره: ﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ﴾ أشده،عن سيبويه جمع ، واحدة شدة ، وقال الكسائى : واحدة شدة وزعم أبو عبيد ، أنه لا واحد له من لفظه عند العرب،ومعناه استكمال القوة ، ثم يكون النقصان بعد . . وقال مجاهد وقتادة : الأشد ثلاث وثلاثون سنة .

وقال ربيعة وزيد بن أسلم ومالك بن أنس : الأشد : بلوغ الحلم ، ﴿ آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا ﴾ قيل : جعلناه المستولى على الحكم ، فكان يحكم فى سلطان الملك : أى وآتيناه علماً بالحكم ، وقال مجاهد : العقل والفهم والنبوة ، وقيل : الحكم ، النبوة ، والعلم ، علم الدين ، وقيل : علم الرؤيا ، ومن قال : أوتى النبوة صبياً قال : لما بلغ أشده زدناه فهماً وعلماً ، ﴿ وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴾ يعنى المؤمنين ، وقيل : الصابرين على النوائب كما صبر يوسف . . وقال القرطبى : هذا وإن كان مخرجه ظاهراً على كل محسن ، فالمراد به محمد ﷺ . . يقول تعالى : كما فعلت هذا بيوسف ، بعد أن قاسى ، ثم أعطيته ما أعطيته ، كذلك أنجيك من مشركى قومك ، الذين يقصدونك بالعداوة ، وأمكن لك فى الأرض .

امرأة العزيز تفكر فى استمالة يوسف

....

صارت تناجى نفسَها فى حبّه كالحالمين ٢٥
الذئبُ فى أعماقِها يعوى عُواءَ الجائعين ٢٦
من أجلِ هذا قررت أمراً بتدبيرٍ متين ٢٧

صارت امرأة العزيز، تفكر فى أمر يوسف تفكيراً جاداً، إن هذا الأمر استحوذ على عقلها ومشاعرها، تنام وهى تفكر فيه، وعندما تستيقظ من نومها، تستدعيه ليمثل أمامها ، لقد أهملت كل شىء فى حياتها ومجتمعها وبيتها ، وأولت هذا الأمر كل اهتمامها .

إنها تفكر تجهد نفسها فى التفكير ، فى كيفية احتواء يوسف واجتذابه ، ولعلها ذهبت بتفكيرها إلى أبعد من هذا . . إن الذى يقلقها ويثير حيرتها هو : أن يوسف لا يبدى نحوها أى نظرة إعجاب أو اشتهاء، كأنه متبلد المشاعر ، ليس فيه حرارة الشباب .

ثم تجيب على تلك التساؤلات فتقول لنفسها : ربما كان سلوكه هذا الذى يتّسم بالسلبية، نابعاً من منطلق شدة احترامه لى لكونى سيدته ، إذاً فهو يكتم إعجابه بى فى أعماقه ، لعدم التكافؤ بينى وبينه . . فهو فى رأيه، لا أمل لديه من التطلع إلى القمة ، بينما هو فى السفح . . ثم تتساءل . . ماذا أصنع ؟!

وانطلاقا من هذا التساؤل، أخذت تفكر فى وسيلة ناجحة لاحتواء يوسف واستمالته، وجعله ملكاً لها قلباً وقالباً . . ولاغرو فهى تملكه قالباً لكونه خادمها ، فمن ثم تريد أن تملك قلبه أيضاً .

صارت تقلب وجوه الآراء، بحثا عن رأى صائب، وأخيراً هبط عليها الوحى الشيطانى، لقد أوحى لها شيطانها بفكرة مرت بخاطرها، كموجة أثيرية ، فالتقطتها ، أمسكت بها ، تصورتها الحل السحرى لمشكلتها التى تعانى منها وتقض مضجعها .

ملخص هذه الفكرة هى : أن تتلطف مع يوسف وتُشعِرهُ بكيانه ، كشاب له رأيه وشخصيته ، بهذه الطريقة سيتحطم الحاجز الذى يفصل بينها وبين يوسف ، ثم بعد ذلك تستدرجه إلى مخدعها ، وهل هو إلا رجل ككل الرجال . . ثم تقول لنفسها :

إننى أرى نظرات الرجال تـلاحقنى بالإعجاب ، تريد أن تلتهمنـى شهوة واشتهاء ، هذا من ناحية،ومن ناحية أخرى ،فهو خادمى ، وحينما آمره سوف يزول القناع الذى يخفى وراءه مشاعره نحوى ، وبالتالى يصير رهن إشارتى .

لقد اطمأنت إلى صحة فكرتها ، فبدأت تلاطف يوسف باللين ، وتتحدث معه دون ترفع،وبصوت فيه تكسر وخلاعة . . إن فى أعماقها ناراً مشبوبة ، كلما وقع بصرها على يوسف زادت تأججاً .

امرأة العزيز بدأت فى تنفيذ خطتها

﴿ وَرَاوَدَتْهُ الَّتِي هُوَ فِي بَيْتِهَا عَن نَّفْسِهِ ... ﴾

همتْ تُنَفِّذُ خُطَّةً من وَحْى إبليسَ اللعين ٢٨
فى مَخْدَعٍ قد هيّأتْهُ إلى لِقَاءِ العاشقين ٢٩
نادت على الصّدّيقِ أقبلَ مُسْرعاً كالخادمين ٣٠
نادتُه والثوبُ الرقيقُ يَشِفُّ عن جَسَدٍ فتين ٣١

كما ذكرنا آنفاً، فإن زوجة العزيز، سلكت مسلكاً جديداً فى معاملتها ليوسف الصديق، كان وراء هذا السلوك الجديد، خطة رسمتها زينها لها شيطانها، عليه اللعنة، ولا عجب فى ذلك فإبليس اللعين هو مفكرها ، المستولى على عقلها وفكرها ، يأمرها فتطيع أمره .

وفعلا بدأت تنفذ خطتها ، بالتنازل عن كبريائها ، وملاطفة يوسف ، ثم انتقلت إلى المرحلة الثانية من الخطة وهى الأخيرة أيضاً .

تجملت وتزينت كما لم تتجمل وتتزين من قبل ، وفى غرفة نومها التى جملتها ، بحيث صارت تخلب لب كل من رآها ، وتثير فى نفسه كوامن الجنس والشبق .

لقد اضطجعت على سريرها فى وضع مثير ، بحيث تبدو مفاتن جسدها ، ثم نادت على يوسف الصديق، بصوت فيه ليونة وتكسر، ودفء ودلال أيضاً ، قالت : يا يوسف! أجابها ، لبيك يا سيدتى، وأقبل مسرعاً كعادته حينما كانت تناديه من قبل .

كانت ترتدى ثوباً رقيقاً يشف عن جسد بضّ ، مملوء حيوية وشباباً ، فيه جمال وفتنة ، ورغبة مشبوبة تتأجج فى أعماقها .

لقد استنفذت كل الوسائل لإغرائه واستمالته ، سنين طويلة ، كان ذلك كله تلميحاً . . فقد كانت قبل ذلك تستدعيه ، وهى فى غرفة نومها ، مستلقية على سريرها بملابس النوم، فتأمره أن يحضر لها شيئا ما . . وكانت تختلق الأحاديث معه ، وهى على تلك الحالة ، ليطيل المكث معها فى غرفتها ، كل هذا كان الغرض منه أن تلمح منه نظرة جانبية ، إلى جسدها الذى يحترق شوقاً وتعطشاً إلى الجنس . . الجنس الذى غلب

على عقلها ، وعلى تفكيرها ، ثم انعكس على سلوكها .

بيد أن يوسف الصديق فى كل هذا معـرض كل الإعراض ، ليس فى قلبه شىء مما يدور فى رأس امرأة العزيز وفكرها .

قال الفخر الرازى فـى تفسيره : ﴿ **وَرَاوَدَتْهُ الَّتِي هُوَ فِي بَيْتِهَا عَن نَّفْسِهِ** ﴾ اعلم أن يوسف عليه السلام كان فى غاية الجمال والحسن . فلما رأته المرأة طمعت فيه ، ويقال أيضاً : إن زوجها كان عاجزاً يـقال : راود فلان جاريته عن نفسها ، وراودتـه هى عن نفسه ، إذا حاول كل واحد منهما الوطء والجماع .

وقال ابن كثير فى تفسيره : ﴿ **وَرَاوَدَتْهُ الَّتِي هُوَ فِي بَيْتِهَا عَن نَّفْسِهِ** ﴾ أى حاولته على نفسه ، ودعته إليها ، وذلك أنها أحبته حباً شـديداً لجماله وحسنه وبهائه ، فحملها ذلك على أن تجملت له .

وقال القـرطبى فى تفـسيره : ﴿ **وَرَاوَدَتْهُ الَّتِي هُوَ فِي بَيْتِهَا عَن نَّفْسِهِ** ﴾ وهى امـرأة العزيـز ، طلبت مـنه أن يواقعـها ، وأصل المراودة ، الإرادة والـطلب برفـق ولين . . والرود والرياد ، طلب الكلأ ، وقيل : هى من رويد ، يقال : فلان يمشى رويداً ، أى يرفق ، فـالمراودة ، الرفق فى الطـلب ، يقال فى الـرجل : راودها عن نفسـها ، وفى المرأة ، راودته عن نفسه ، والرود ، التأنى ، يقال : أرودنى . أمهلنى .

امرأة العزيز أخطأت فى ظنها

﴿ وَغَلَّقَتِ الأَبْوَابَ ﴾

قد أغْلَقَت أبوابَها مَنْعاً لِكُلِّ القادمين ٣٢
كانَت تظنُّ بأن يُوسُفَ كالرجالِ الفاسقين ٣٣
ما أن تُشِيرُ إليه ، يأتيها مَجيءَ الراغبين ٣٤
لكنّ يوسُفَ كان عفّاً من سُلالةِ صالحين ٣٥

حينما قررت امرأة العزيز، أن تنفذ خطتها التى تصورتها ناجحة ، وأنها سوف تحقق حلمها الذى تحلم به ، ألا وهو : استمالة يوسف وجعله طوع بنانها ، كانت قد أغلقت كل الأبواب ، بحيث لا يستطيع أحد أن يلج داخل البيت ، دون أن يطرق الباب .

كانت تظن أن يوسف ، كأى رجل ، إذ كل الرجال يعجبهم الجمال ، وهى فى قمة الجمال ، وتعتقد أيضاً أن أى رجل ، لا يمتنع عن تلبية دعوة لقضاء وقت فى أحضان الجمال والمتعة . . ذلك لأن الجنس هو الذى يسيطر على تفكير الرجل والمرأة حينما يلتقيان ، ولا سيما إذا ما كانا إلى الشباب أقرب .

هكذا كان تصورها عن الرجال ، بصفة عامة ، وفى رأيها أن يوسف هذا ما هو إلا واحد منهم .

بيد أن سؤالاً يبرز فى أعماقها ينفى هذا التصور عن يوسف . . هذا السؤال هو : لو كان يوسف كالرجال الآخرين الذين يركعون تحت أقدام الغانيات ، طلباً للمتعة الجسدية، فلماذا لم تَرَى منه استجابة لتلميحات منك له. كانت أكثر تصريحاً من التصريح نفسه . . ؟! ولم تَرَى منه حتى مجرد نظرة اشتهاء جريئة ، أو حتى خَجلة . . ؟!

هذا السؤال ، لم تستطع أن تجيب عليه ، إنه سؤال منطقى ، وكان ينبغى عليها أن تراجع حساباتها ، فيما قررته بشأن يوسف ، غير أن صوت الوحش فى أعماقها ، طغى على عقلها ، فظلت ماضية فى تنفيذ خطتها .

هكذا فى رأيى كان تصورها، أو قريباً من هذا . . وقد خاب رأيها وتصورها أيضاً،

فيوسف الصديق كان عفاً طاهراً من سلالة طاهرة عفيفة، إنه سليل بيت النبوة ، هو الكريم ابن الكريم ابن الكريم ابن الكريم .

قال الفخر الرازى فى تفسيره : ﴿ وَغَلَّقَتِ الْأَبْوَابَ ﴾ والسبب أن ذلك العمل ، لا يؤتى به إلا فى المواضع المستورة ، لاسيما إذا كان حراماً ، ومع قيام الخوف الشديد .

وغلقت الأبواب : أى أغلقتها . . قال الواحدى : وأصل هذا من قولهم فى كل شىء تشبث فى شىء فلزمه ، قد غلق يقال : غلق في الباطل ، وغلق فى غضبه ، ومنه غلق الرهن ، ثم يعدى بالألف فيقال: أغلق الباب ، إذا جعله بحيث يعسر فتحه .

قال المفسرون : وإنما جاء « غلقت » على التكثير ، لأنها غلقت سبعة أبواب ، ثم دعته إلى نفسها .

امرأة العزيز تدعو يوسف لارتكاب الفاحشة

﴿ وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ ﴾

قالت : فإنى «هيت لك» أقبِلْ وكن فى الآمنين ٣٦
أقبلِ فإن الشوقَ يَغلبنى إليكَ مع الحنين ٣٧

لقد ظلت امرأة العزيز زمنا طويلاً ، تمنى نفسها بشيء كانت تتصوره سهل المنال ، ألا وهو : احتواء يوسف الصديق ، فيظل لها عبداً وعاشقاً فى آن واحد ، ومن ثم يظل سرّها مخفياً ، بعيداً عن دائرة الشك والظن لدى كل المحيطين بها . . كل هذا كان حديثاً مع نفسها ، وحواراً يدور فى أعماقها .

ثم خرجت من حديث النفس ، إلى العلانية . . من عوامل المد والجزر التى تتصارع في أعماقها ، إلى الواقع ، إلى الترجمة الحقيقية لكل أحاسيسها وتصوراتها ، إلى المصارحة المكشوفة . . لقد مزقت أقنعة الحياء . . فقالت ليوسف: ﴿ هَيْتَ لَكَ ﴾ .

قال الأستاذ عبد الكريم الخطيب فى كتابه « القصص القرآنى » و « هيت لك » هو صوت استدعاء لهذا الأمر الذى يكون بين الرجل والمرأة ، وقد جاء به القرآن الكريم على هذه الصورة التى لم تعرفها اللغة العربية ، فى لسانها قبل نزول القرآن وذلك أدب رفيع من أدب الشريعة الإسلامية ، وأدب كتابها الكريم ، وذلك أن هذا الأمر الذى يتحدث عنه القرآن،من شأنه أن يكون سراً بين الرجل والمرأة ،لا يطلع عليه غيرهما . . إنها لغة يفهمها الزوجان ، سواء أكانت بإشارة أم بعبارة .

هذا هو المفهوم الذى يعطيه هذا الصوت « هيت لك » ودع عنك ما ذهب إليه الذاهبون من تأويلات وتخريجات لكمة « هيت لك » وخذها على أنها حكاية صوت ، مصحوبة بإشارة يد ، أو لحظ عين ، لا على أنها من لغة التخاطب المتعامل بها فى قاموس اللغة ، إنها فى مقامها هنا ، كلمة استدعاء وإغراء وكفى !

فى القرطبى عن ﴿ هَيْتَ لَكَ ﴾ قال : « قال أبو عبيد : كان الكسائى يقول : هى لغة لأهل حوران وقعت إلى أهل الحجاز ، معناه تعالَ ، قال أبو عبيد : فسألت شيخا

عالماً من حوران ، فذكر أنـها لغتهم ، وبه قال عكرمة . وقال مجـاهد وغيره : هى لغة عربية تدعوه بها إلى نفسها ، وهى كلمة حث وإقبال على الأشياء . . » .

قال الفخر الرازى فى تفسيره : ﴿ هَيْتَ لَكَ ﴾ .

قال الواحدى : هيت لك ، اسم للفـعل نحو : رويداً ، وصه ، ومه ، ومعناه : هلم فى قول جميع أهل اللغة .

وقال الفراء : إنها لغة لأهل حوران ، سقطت إلى بكة فتكلموا بها . . . وقال ابن الأنبارى :وهذا وفاق بين لغة قريش وأهل حوران . كما اتفقت لغة العرب والروم فى ـ القسطـاس ـ ولغة العرب والفـرس فى ـ السجيل ـ ولـغة العرب والترك فـى ـ الغساق ـ ولغة العرب والحبشة فى ـ ناشئة الليل .

يوسف يستعيذ بالله ويرفض الدعوة

﴿ قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوَايَ إِنَّهُ لا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ (٢٣) ﴾

فـأجـابهـا فـوراً « مـعـاذَ الـلهِ » ربٌّ الـعـالمـين ٣٨
لا ، لسـتُ خَوَّاناً ، فهـذا من صـفات الخائـنين ٣٩
لا ، لن أخونَ لسيدى ، قد كانَ لى فى المكْرِمين ٤٠
إن الخـيـانةَ دون شـكٍّ مـن صـفـاتِ الظـالمـين ٤١
والـظالمـون فلـن يكـونـوا فى عـدادِ المفـلحـين ٤٢

بعد الحوار الذى دار بين يوسف الصديق،وزوجة العزيز،وتنازلت بعده عن كبريائها، وكشفت عن مكنون صدرها ، فصرحت ليوسف بحبها ، فدعته دعوة صريحة إلى الحب الماجن ، فقالت له ما معناه : إنى مشتـاقة إليك ، هلم إلى الحب ، إلى الشباب ، إلى العز ، إلى المجد فى أحضانى ، لاتخف من شىء مادمت معى وفى طاعتى .. إلخ .

فكان جواب يوسف على هذه الدعوة المـاجنة ، دون أدنى تردد أو تفكير أن قال : ﴿ مَعَاذَ اللَّهِ ﴾ يالله !! يوسف الصديق ، برغم مـا تهيأ له وأمامه من وسائل الإغراء .. جو مشحون بالإثارة ، أمام عينيه ، وملء أذنـيه ، وبرغم هذا كله قال : « معاذ الله » لاشك في أن قلبه عامر بالإيمان ، ومن ثم فهو لم يتأثر بكل ما هيأته له امرأة العزيز من إغراء وإثارة ، لتحقيق رغبتها المتأججة .

ثم أردف يوسف قائلاً : ﴿ إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوَايَ إِنَّهُ لا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ ﴾ .

قال الأستاذ رشيد رضا فى تـفسيره « المنار » فى ﴿ إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوَايَ ﴾ أى إنه تعالى ولى أمـرى كله ، أحسن مقامى عنـدكم ، وسخركم لى بما وفقنـى له من الأمانة والصيانة ، فهو يعيـذنى ويعصمنى من عصيانه وخيانتكـم ... ويحتمل أنه أراد بربه ، مالكه العزيز فى الصورة،وإن كان حراً مظـلوماً فى الحقيقة ، كما يقال : رب الدار .. وكان من عرفه إطلاقه على الملوك والـعظماء ، كما يأتى فى قوله عليه السلام لساقى الملك فى السجن : ﴿ اذْكُرْنِي عِندَ رَبِّكَ ﴾ .

« قال الأستاذ عبد الكريم الخطيب فى قوله : ﴿ مَعَاذَ اللَّهِ ﴾ بهذا الأسلوب الرصين الوديع،كأن رد يوسف على مادعته إليه امرأة العزيز ﴿ مَعَاذَ اللَّهِ ﴾ أى عياذاً بالله ، ولجأ إليه،واحتماء به من هذا السوء الذى يدعى إليه ﴿ إِنَّهُ رَبِّي ﴾ أى إن هذا السيد الذى أنت زوجه ، هو ربى ، أى سيدى الذى ضمنى إلى بيته ، وأكرم مثواى عنده ، وخيانته في أهله عدوان على المروءة والخلق الكريم، إذ كيف يقابل الإحسان بالإساءة ، والإكرام بالغدر والخيانة ؟! إن ذلك ظلم أى ظلم . . وإن الظالمين لا يفلحون أبداً . ويجوز أن يكون قوله : ﴿ إِنَّهُ رَبِّي ﴾ مراداً به الله سبحانه وتعالى ، هو سبحانه الذى أحسن مثوى يوسف ، وهيأ له الطريق إلى بيت هذا البيت الذى وجد فيه الطمأنينة والأمن . . » .

قال الفخر الرازى فى تفسيره :

إن المرأة لما ذكرت هذا الكلام ، قال يوسف عليه السلام : ﴿ قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوَايَ ﴾ فقوله تعالى : ﴿ مَعَاذَ اللَّهِ ﴾ أى أعوذ بالله معاذاً .

والضمير في قوله تعالى ﴿ إِنَّهُ ﴾ للشأن والحديث ﴿ رَبِّي ﴾ أى ربى وسيدى ومالكى ﴿ أَحْسَنَ مَثْوَايَ ﴾ حين قال لك : « اكرمى مثواه » فلا يليق بالعقل أن أجازيه على ذلك الإحسان بهذه الخيانة القبيحة ﴿ إِنَّهُ لا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ ﴾ الذين يجازون الإحسان بالإساءة ، وقيل : أراد الزناة لأنهم ظالمون أنفسهم ، أو لأن عملهم يقتضى وضع الشيء فى غير موضعه .

واستطرد الفخر الرازى فى قوله وتساؤلاته وأجوبته عليها إلى أن قال :

السؤال الثالث : ذكر يوسف عليه السلام فى الجواب عن كلامها ثلاثة أشياء :

الأول : قوله تعالى : ﴿ مَعَاذَ اللَّهِ ﴾ .

الثانى : قوله تعالى ﴿ إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوَايَ ﴾ .

الثالث : قوله تعالى : ﴿ إِنَّهُ لا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ ﴾ .

الجواب : هذا الترتيب فى غاية الحسن ، وذلك لأن الانقياد لأمر الله تعالى ، وتكليفه أهم الأشياء ، لكثرة إنعامه وألطافه فى حق العبد .

هم امرأة العزيز .. أن تضرب يوسف

﴿ وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ ... ﴾

همت لتأخذَه ، أبَى ، فى عفةِ المتبتلين ٤٣
لما أبىَ فقدتْ صواباً ، أصبحت كالذاهلين ٤٤
جرُحت كرامتُها فصارت كالوحوشِ الكاسرين ٤٥
بالضربِ قد آذته ، هم بمنعها كى تستكين ٤٦

كما أسلفنا ، فإن يوسف الصديق ، رفض الاستجابة لدعوة امرأة العزيز دونما تفكير ، وبغير تردد فقال : ﴿ مَعَاذَ اللَّهِ ﴾ فتصورت زليخا ـ امرأة العزيز ـ أن يوسف ما رفض الاستجابة لدعوتها ، أو الإذعان لأمرها ، للرفض ذاته .. وإنما رفض ليتأكد من صدق دعوتها ، فاقتربت منه مبدية توددا وحباً ، ثم همت لتحتويه بين أحضانها ليهدأ ويطمئن ، فلا ينفرد ولا يفر ، وليشعر بأن الحواجز بينها وبينه قد تحطمت ، وأن دعوتها له صادقة لا شك فيها ، فما عليك إلا أن يأخذ حظه من الجمال والحب ، الذى تهيأ له دونما أدنى جهد منه .

بيد أنها فوجئت به يؤكد رفضه ، ويخيب ظنها وما قد تصورته ، فابتعد عنها فى إباء وترفع ، وفى الوقت نفسه لم يملأ عينيه بالنظر إليها . .فى حين أن يوسف الصديق ، كان مكتمل الرجولة ، فهو شاب يجد من شبق الشباب ، ما يجده كل شاب لرؤيته امرأة حسناء ،لاسيما إذا ما كانت شبه عارية ، تدعوه وتشوقه إلى نفسها . . فى هذه الحالة ، نحن لا ننكر الهمَّ من يوسف ، بيد أنه هم عارض ، كالخطرة فى القلب ، وحديث النفس . . ومثال ذلك : أن الرجل الصالح الصائم في الصيف الصائف ، إذا رأى الماء البارد ، فإن طبيعته تشتهيه ، إلا أن دينه يمنعه من ذلك . . وكان هم يوسف من هذا النوع،من غير اختيار ولا عزم،فمن ثم كانت قوة إيمانه، أقوى من الهم العارض ، ومن حديث النفس،فى هذا الموقف،شعرت زليخا بإهانة عظيمة،ودار فى خاطرها هذا السؤال! كيف يجرؤ يوسف على رفض أمرها ؟! فهو لم يرفض لها أمراً من قبل ذلك.

وانطلاقاً من هذه المعانى التى تدور فى خاطرها ، وانعقد عليها فهمها وعقلها ، هاجت غاضبة ، أقبلت على يوسف ، متغيرة سحنتها ، تريد أن تفتك به ، كأن لها ثأراً عنده ، فانهالت عليه بالضرب ، حتى أوجعته وآذته ، فهى تتصور أنها تملكه ، ومن ثم فليس له الحق أن يرفض لها أمراً .

« قال الأستاذ رشيد رضا في تفسيره « المنار » ﴿ وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ ﴾ أى وتالله لقد همت المرأة بالبطش به لعصيانه أمرها ، وهى فى نظرها سيدته وهو عبدها ، وقد أذلت نفسها له بدعوته الصريحة إلى نفسها ، بعد الاحتيال عليه بمراودته عن نفسه .. ومن شأن المرأة أن تكون مطلوبة لا طالبة ، ومراودة عن نفسها لا مراوِدة .. ثم مضى فى قوله إلى أن قال: ولكن هذا العبد العبرانى ،الخارق للطبيعة البشرية فى حسنه وجماله ، وفى جلاله وكماله ، وفى إبائه وتألهه قد عكس القضية ، وخرق نظام الطبيعة والعوائد بين الجنسين ، فأخرج المرأة من طبع أنوثتها فى إدلالها وتمنعها ، وهبط بالسيدة المالكة من عزة سيادتها وسلطانها ، ودهور الأميرة من عرش عظمتها وتكبرها ، وأذلها لعبدها وخادمها .. إلخ ما قال » .

هم يوسف .. أن يضرب المرأة

﴿ وَهَمَّ بِهَا لَوْلَا أَن رَّأَىٰ بُرْهَانَ رَبِّهِ ﴾

أبتِ التراجعَ هم يضربُها ، رأى النور المبين ٤٧
فلقد رأى البرهانَ فى أعماقه ، هذا يقين ٤٨
معناه ، إن تضربْ زليخا ، نالك الغمز المبين ٤٩
فلتصبرنّ على أذاها ، لاتكنْ كالجاهلين ٥٠

كما أسلفنا ، فإن امرأة العزيز ، انهالت على يوسف الصديق تضربه ، ثأراً لكرامتها المهدرة ، لقد صارت كاللبؤة الشرسة ، تضربه بكل قوتها ، وهو يحاول منعها ودفعها عن نفسه ، فلا تمتنع ، بل تزداد عدواناً وتهوراً .

وهو مع هذا ممسك بزمام نفسه ،كاظم غيظه ، وهو قادر على رد العدوان ، لكونه رجلاً فيه القوة والشباب .. وأن التى تعتدى عليه هذه ما هى إلا امرأة ماجنة .. إنه فى صراع داخلى مع نفسه .. أيظل هكذا مكتوف الإرادة أمامها ، تضربه ولا يردها ؟! إن حاله معها يقول: نعم .. نظراً لكونه عبدها وهى سيدته ، فليس له حق الاعتراض .

أم أنه يثور لكرامته ، ويمنعها من الاعتداء عليه بكل وسيلة ممكنه .. فهو كإنسان له طاقة تحمل ، وقد آذاه الضرب وأوجعه .. وحينئذ تحركت فيه كوامن حريته المسلوبة ، فهمّ أن يبطش بالمرأة بقوم وحزم .. فلقد صبر على أذاها كثيراً .. فلا ينبغى أن يظل فى موقف المدافع عن نفسه كأنه اقترف جرماً .. بينما هو البرىء الشريف .

لقد هم أن ينفذ ما عزم عليه فى أعماقه، بيد أن الله عز وجل، تداركه بحكمته فأراه البرهان.. البرهان الذى أنقذه من خطر كان ينتظره لو أنه فعل ما عزم عليه.. هذا البرهان كان شعوراً شعر به فى أعماقه، معناه.. إياك يا يوسف أن تفعل شيئاً مما عزمت عليه فى أعماقك، فإنك إن ضربتها، قامت الحجة عليك بأنك راودتها عن نفسها، وأنك أردت بها سوءاً.

ومن ثم فلن تستطيع إثبات براءتك ،ولا غرو فهى سيدة عظيمة ذات مركز خطير ، وسوف تجد أنصاراً يؤيدونها ، ويصدقون قولها . نظراً لجاهها وسلطانها .. وأنها لا يمكن أن تقارف مثل هذا العمل ، لا سيما مع خادمها !!!

أما أنت، فنظراً لكونك فى نظر الناس، عبدها وخادمها، فسوف يصدقون ما قيل عنك؛ ذلك لأنك من طبقة الخدم والعبيد، وهم طبقة سفلى.. ولا يبالون من ارتكاب الفواحش والمساوئ.. فما عليك إلا أن تصبر على أذى هذه المرأة، لا تكن كالحمقى الجهلاء، الذين لا يقدرون للعواقب قدرها.. هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى فلتعلم يا يوسف أنك لو ضربتها، فسوف يكون مصيرك الهلاك، لأنها فى هذه الحالة سوف تأمر الحاضرين من الخدم فى البيت، بأن يقتلوك.. إذاً فالامتناع عن ضربها فيه صون لنفسك من الهلاك.

مع المفسرين فى قولهم فى : ﴿ وَهَمَّ بِهَا لَوْلَا أَن رَّأَىٰ بُرْهَانَ رَبِّهِ ﴾ :

قال القرطبى: واختلف العلماء فى همه عليه السلام، ولا خلاف في أن همها كان المعصية، وأما يوسف فهمّ بها، ولكن لما رأى البرهان، ما هم، وهذا لوجوب العصمة للأنبياء، فإذاً فى الكلام تقديم وتأخير، أى لولا أن رأى برهان ربه هم بها.. قال أبو حاتم: كنت أقرأ غريب القرآن، على أبى عبيدة، فلما أتيت على قوله: ﴿وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ وَهَمَّ بِهَا﴾ قال أبو عبيدة: هذا على التقديم والتأخير، كأنه أراد، ولقد همت به، ولولا أن رأى برهان ربه، لهم بها.. وقال أحمد بن يحيى: أى همت زليخا بالمعصية، وكانت مصرة، وهم يوسف ولم يواقع ما هم به، فبين الهمتين فرق.

وقيل: إن هم يوسف، كان معصية، وأنه جلس منها مجلس الرجل من امرأته، وإلى هذا القول ذهب معظم المفسرين وعامتهم، فيما ذكره القشيرى أبو نصر وابن الأنبارى والنحاس والماوردى وغيرهم.

قال ابن عباس: حل الهميان - شداد السراويل - وجلس منها مجلس الخاتن، وعنه: استلقت على قفاها، وقعد بين رجليها ينزع ثيابه، وقال سعيد بن جبير: أطلق تكة سراويله، وقال مجاهد: حل السراويل حتى بلغ الأليتين، وجلس منها مجلس الرجل من امرأته.

ثم عقب القرطبى على هذا الأقوال وغيرها فقال: وهذا كله على أن هم يوسف بلغ فيما روت هذه الفرقة إلى أن جلس بين رجلى زليخا، وأخذ فى حل ثيابه وتكته ونحو ذلك، وهى قد استلقت له على قفاها حكاه الطبرى.. وقال أبو عبيد القاسم ابن سلام، وابن عباس من دونه، لا يختلفون فى أنه هم بها، وهم أعلم بالله، وبتأويل كتابه.

قيل: رأى يوسف فى سقف البيت مكتوباً: ﴿ وَلَا تَقْرَبُوا الزِّنَىٰ إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَسَاءَ سَبِيلًا ﴾ [الإسراء: ٣٢] وقال ابن عباس: بدت كفٌّ مكتوب عليها: ﴿ وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ﴾ وقيل: نودى يا يوسف! أنت مكتوب فى ديوان الأنبياء، وتعمل عمل السفهاء؟! وقيل: رأى

صورة يعقوب على الجدران، عاضاً على أنملته يتوعده فسكن، وخرجت شهوته من أنامله.

هذه الأقوال موجودة فى معظم التفاسير، من المفسرين من يؤيدها، ومن ينكرها، ومنهم من يذكرها فلا ينكرها ولا يؤيدها ..!! ولا غرو، فلنا على هذه الأقوال بعض المآخذ :

١ ـ أن ابن عباس الذى يعتبر من أفقه أصحاب رسول الله ﷺ ، وذلك ببركة دعاء رسول الله له حيث قال : « اللهم فقهه فى الدين وعلمه التأويل ... » أقول إنه لا يمكن أن يقول هذا القول ، وأنفى عنه بشدة ، هذا القول المنسوب إليه .

٢ ـ أن يوسف عليه السلام سليل السلسلة الذهبية من الأنبياء، فهو يوسف نبى الله ابن نبى الله ابن نبى الله ابن خليل الله، لا يمكن أن يأتى هذا العمل، ذلك لأن من الناس، من هم ليسوا بأنبياء ولا أولياء، تنزهوا عن مقارفة هذه الجريمة مثل سليمان بن يسار وغيره كثيرون.

٣ ـ أن يوسف إن لم يكن نبياً إبّان هذه القصة، فهو موعود بالنبوة فهل يعقل أن يقدم على هذا العمل، ولا يتراجع إلا بعد رؤيته البرهان. . إن هذا البرهان أو البراهين التى ذكرت، لو رآها أشرّ الناس، ممن ألفوا ارتكاب الفاحشة، لما ظل فيه عرق ينبض للقيام بمهمة الجماع، ومن ثم فإننى أنفى بشدة، هذا القول المنسوب لابن عباس، وأنفى بأشد منه عن يوسف أنه هم بالمعصية، وما منعه من إتيانها إلا رؤية البرهان، أو البراهين المزعومة، هذه الأقوال لا إخالها إلا من الإسرائيليات التى نقلها إلينا حاطبو الليل ، الشغوفون بكل غريب .

وهاكم رأينا عن هم يوسف والبرهان الذى رآه .

البرهان ليوسف الصديق كان معنويا

....

هى دون شك من ذوات النقص فى عقلٍ ودينْ ٥١
فاصبرْ كصبرِ الأنبياء ، فقد غدوْا في الخالدين ٥٢
ولأنتَ ذو عقلٍ رجيحٍ ، فى عدادِ المرسَلين ٥٣
ذاكم هو البرهانُ فى الأعماقِ ، رؤيا المتقين ٥٤

ها نحن أولاء نواصل الحديث الذى تصورناه ، أن الله عز وجل أوحى ليوسف الصديق به . . أوحى له به فى أعماقه ، وهو :

إنها امرأة يا يوسف ، والمرأة موصوفة بالضعف ، فضلاً عما عرف عنها من النقص فى الدين والعقل معاً ، يؤيد هذا المعنى ويؤكده ما رواه الإمام مسلم عن أبى هريرة رضى الله تعالى عنه أنه قال : قال رسول الله ﷺ : « يا معشر النساء ! تَصَدَّقْن وأكثرن الاستغفار ، فإنى رأيتكن أكثر أهل النار ». فقالت امرأة منهن جزلة - فصيحة جريئة - ومالنا أكثر أهل النار يا رسول الله ؟! قال : « تكثرن اللعن ، وتكفرن العشير ، ما رأيت من ناقصات عقل ودين أغلب لبٍّ منكن » ، قالت : يا رسول الله ! ما نقصان العقل والدين ؟! قال : « أما نقصان عقلها ، فشهادة امرأتين تعدل شهادة وجل ، فهذا نقصان العقل ، وتمكث الليالى لا تصلى ، وتفطر فى رمضان ، فهذا نقصان الدين ».

ويواصل صوت الوحى نصحه ليوسف الصديق فيقول كما تصورناه : اصبر يا يوسف ، لا تتعجل ، عاملْها كامرأة وأنت رجل ونبى . . فلقد صبر الأنبياء قبلك على ما هو أشق وأمرّ من ذلك ، وإن شئت مجداً وخلوداً ، فإياك من عمل يكون فيه حماقة ، تكون نتيجته عليك لا لك .

يا يوسف ! إنك مكتمل العقل ، وقد اخترناك لأعباء الرسالة ، وأنت أيضا من سلالة كريمة ، أنت من آل بيت النبوة ، فينبغى أن تتحلى بالحكمة والحزم ، وأن تنظر إلى هذا الأمر نظرة واعية ، فيها الفطنة ، وفيها استجلاء لما سوف يترتب على ذلك الفعل الذى تفكر فيه . . . هذا هو البرهان الذى رآه يوسف فى أعماقه ، والذى معناه

ما ذكرناه . . إنه برهان أضاء قلب يوسف وعقله وفكره أيضا ، فرأى الصواب ، بعد أن كان محجوباً عنه ، تحجبه ظلمات الموقف ، ورائحة الخطيئة التى تحيط به ، توشك أن تمسك بتلابيبه ، وهو لا يكاد يرى لنفسه مفراً منها .

قال الأستاذ رشيد رضا فى تفسيره « المنار » ، « . . فكان الفرق بين همّها وهمه ، أنها أرادت الانتقام منه ، شفاءًا لغيظها من خيبتها ، وإهانته لها ، فلما رأى أمارة وثوبها عليه ، استعد للدفاع عن نفسه ، وهم بها ، فكان موقفهما موقف المواثبة ، والاستعداد للمضاربَة ، ولكنه رأي من برهان ربه وعصمته ما لم تر هى مثله ، فألهمه أن الفرار من هذا الموقف ، هو الخير الذى تتم به حكمته سبحانه وتعالى ، فيما أعده له ، فلجأ إلى الفرار ترجيحا للمانع على المقتضى » .

صرف السوء والفحشاء عن يوسف

﴿ كَذَٰلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ (٢٤) ﴾

ولنصرفنّ السُّوءَ والفَحْشَاءَ عنك لِتَسْتَبين ٥٥
إذ أنت صفوتُنا سُلالةُ أنبياءِ مُخْلَصين ٥٦
لما تحققَ يوسفٌ من ذلك النصحِ الأمين ! ٥٧

وهكذا يكون البلاء ، لاختبار معدن المبتلى ، ولا غرو فالبلاء يشبه البوتقة التى تنصهر فيها المعادن ، ليظهر نفيسها من رديئها . . . تلكم هى سنة الله فى خلقه ، أن يبتليهم ويفتنهم فى دينهم ، فقال عز وجل : ﴿ الٓمٓ (١) أَحَسِبَ النَّاسُ أَن يُتْرَكُوا أَن يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ (٢) ﴾ [العنكبوت] ثم يستدرك الله بلطفه ورحمته، عباده المخلصين ، فينصرهم ويقويهم على كل ما يصادفهم من المحن والأهوال، وإذا هم خرجوا من محنة الابتلاء ، منتصرين مرفوعى الرؤوس .

يؤيد هذا المعنى ما روى عن المعصوم محمد ﷺ أنه قال حينما سئل ، أى الناس أشد بلاءً ؟! قال : « الأنبياء ، ثم الأمثل ، يبتلى الناس على قدر دينهم ، فمن ثخن دينه اشتد بلاؤه ، ومن ضعف دينه ضعف بلاؤه ، وإن الرجل ليصيبه البلاء حتى يمشى على الأرض ما عليه من خطيئة » . رواه ابن حبان .

« وأعجبنى كلمات للأستاذ عبد الكريم الخطيب فى كتابه «القصص القرآنى »،« إن الرسل والأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم ، مبتلون بما يبتلى به الناس ، بل وأقسى وأعظم ما يبتلى به الناس، من فتن تلح عليهم بكل أثقالها، فيلقونها بعزماتهم، ويصدونها بإيمانهم ، ويستعصمون منها بكل ما فى طاقتهم من قوى ، حتى إذا استنفذوا كل ما فى كيانهم من صبر تحتمله الطاقة البشرية ، وكادوا يُهزمون فى هذا الصراع المحتدم ، جاءهم نصر الله ، وتوافدت عليهم أمداده وألطافه ، فربطت على قلوبهم ، وثبتت من أقدامهم، وإذا هم فى مقامهم الرفيع الكريم ، وإذا الفتن صرعى بين أيديهم ، معفرة بتراب الخزى والاندحار ، ثم يقول أيضا : وأى فضل لأنبياء الله ورسله ، على غيرهم

من الناس، إذا هم لم يُبتلوا أعظم ابتلاء، ولم يُمتحنوا أشد امتحان ، وإذا هم لم يجاهدوا هذا الجهاد المتصل فى قهر الفتن ، ودحر الأهواء ، ومغالبة الشهوات ، وأي فضل لهم إذا كانت الفتن لا تحوم حولهم ، والأهواء لا تتحرك فى نفوسهم ، حتى لا يكون منهم معاناة ومغالبة ، وصبر على احتمال المكاره ؟! أى فضل لهم يحمدون عليه ويستأهلون به هذا المقام العظيم الذى هم فيه ، إذا لم تتحرك فيهم دواعى الشهوات [1] ولم تنازعهم الأهواء ، ولم يبلوا البلاء أعظم البلاء فى دفعها . . إلخ » .

(١) لأن الكاتب يؤيد القول بأن هم يوسف ، كان هم فعل ، لا هم ترك .

يوسف يفر من الفتنة هارباً

﴿ وَاسْتَبَقَا الْبَابَ ... ﴾

من ثَم ولّى هارباً ينجو من البطشِ المهين ٥٨
أختُ الفجورِ وراءَهُ تعدو كعَدْوِ الطالبين ٥٩

واستبقا الباب . . أى توجه الاثنان نحو الباب ـ يوسف وامرأة العزيز ـ يعدوان كأنهما يتسابقان فى حلبة سباق، كل منهما يعدو بكل ما أوتى من قوة، بيد أنهما ليسا متسابقين، بل كان يوسف يعدو هارباً من خطر محدق به فيه هلاكه ديناً وأخلاقاً وشرفاً، لقد فر هارباً يبغى النجاة من ذلك الخطر . . كان الخطر يتمثل فى المرأة الماجنة ، التى أعدت له كميناً: لولا عناية الله تداركته ، لوقع فيه، وعناية الله كانت هى فكرة الفرار.

يوسف الصديق يعدو مسرعاً، متجهاً نحو الباب، والمرأة الفاجرة تعدو بكل قوتها لتلحق به، كأنه خطف شيئاً ثميناً لديها، تريد أن تسترده منه، كانت تود اللحاق به لتبقيه معها فى مخدعها، لا تريد أن تتركه يخرج فلعله ـ لو أبقته معها فى مخدعها ـ يستجيب لرغبتها المشبوبة إما بالتهديد والوعيد، وإما بالإغراء والملاينة ، بيد أنه آثر الفرار ، ذلك لأنها أسرفت فى الاعتداء عليه بالضرب، حتى أوجعته، ولما هم أن يرد العدوان بضربها، آنذاك رأى البرهان . . البرهان الذى تكاثرت وتعددت أقوال المفسرين فى نوعه وحقيقته . . أما نحن فقد رأينا فيه ـ الهم ـ رأيا جريئاً ، نزهنا به يوسف الصديق عن الهم السيئ للأسباب الآتية :

١ ـ أن يوسف الصديق ، نبى ابن نبىّ ، لذلك فلا يمكن أن يصدق الهم بالمعصية .

٢ ـ أن يوسف الصديق قال الله تعالى عنه : **﴿ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ ﴾** والشيطان لا سلطان له على المخلصين ، لقد قال الشيطان : **﴿ قَالَ رَبِّ بِمَا أَغْوَيْتَنِي لأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي الأَرْضِ وَلأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ (٣٩) إِلاَّ عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ (٤٠) ﴾** [الحجر] .

٣ ـ ويحضرنى فى هذا المقام، قصة المرأة التى حاولت إغراء عبد الله بن عبد المطلب ـ والد النبى ﷺ ـ لقد عرضت نفسها عليه وقالت له : أعطيك المائة بعير التى نحرت فداءً لك . على أن تواقعنى . . . فأبى وعفّ ، فقالت له : أرى فيك « نسك

أبيك » أى أبوك رجل من أهل العبادة والأخلاق ، وأنت مثله .

هذا عبد الله بن عبد المطلب ، الذى لم يكن نبياً ولا ابن نبى ، يأبى أن يأتى هذا العمل ، وأعتقد أن امتناعه هذا لم يكن تديناً ، بل كان ذلك خلقاً وسلوكاً ، لكونه من أسرة شريفة عريقة ، تحرص على الشرف والأخلاق ، ولا غرو فالأسر العريقة من قبائل العرب ، يعتبرون الزنا أسوأ طباع بنى الإنسان ، من ثم فإننى أتساءل ، أيكون عبد الله ابن عبد المطلب ،الذى لم يستمع يوماً إلى كلمة وعظ ، أو حلال أو حرام ، أو جنة أو نار ، أكثر حرصاً وعفة من يوسف الصديق ، سليل بيت النبوة كابراً عن كابر ؟! . . أيعف عبد الله بن عبد المطلب عن الفاحشة ، ويأباها دون تردد ، ويرفض العرض بمائة من الإبل !! ويوسف الصديق يهم بالمعصية ، ويجلس من المرأة الفاجرة مجلس الرجل من امرأته ، ويحل التكة والهميان و . . إلخ ما قالوا ، ولولا أنه رأى البرهان ، أو البراهين المزعومة ، التى لم يكن لها وجود إلا فى خيال القائلين بها ، لارتكب جريمة الزنا مع امرأة العزيز ، يالله !! إنهم - أى المفسرون - يتحدثون عن يوسف الصديق ، كأنهم يتحدثون عن رجل سوقى ، ونسوا أنه من سلالة عريقة شريفة ، وصفها العلماء بأنها السلسلة الذهبية . ولم لا . . فهل يوجد فى تاريخ البشرية ، من لدن آدم إلى زمن يوسف الصديق ،من يسامى تلك السلالة العريقة ، شرفاً ونسباً ؟! الجواب ، قطعاً لا .

ذلك لأن يوسف ينحدر من جده الأعلى،إبراهيم أبى الأنبياء،وهو خليل الله ، ثم جده الأدنى إسحاق نبى الله،ثم والده يعقوب نبى الله،صلى الله عليهم وسلم أجمعين، والأغرب من هذا كله ،أنهم ينسبون هذه الأقوال الفجة،التى لا يمكن أن يقولها ذو عقل أو علم ، أى - البراهين - إلى ابن عباس، ترجمان القرآن،وإلى عكرمة وسعيد بن جبير وقتادة وأضرابهم،وهؤلاء علماء السلف الذين نجلهم ونربأ بهم عن قول هذه الترهات، ونقول: ما هى إلا إسرائيليات،نقلها إلينا حاطبو الليل، الشغوفون بكل غريب .

عند الباب كانت المفاجأة

﴿ وَقَدَّتْ قَمِيصَهُ مِن دُبُرٍ وَأَلْفَيَا سَيِّدَهَا لَدَا الْبَابِ ... ﴾

وقميصُه قدَّتْهُ من دُبُرٍ ليهدى الحاكمين ٦٠
وهناك عند البابِ أقبَلَ سيّدُ البيتِ الفطين ٦١

لحقت الفاجرة بيوسف عند الباب ، فأمسكته بقوة وجذبته من الخلف ، فتمزق قيمصه فى يدها ، فكان هذا التمزق ، دليل براءة يوسف مما اتهمته به المرأة . . وبينما كان الاثنان : يوسف يريد أن يمسك برتاج الباب ليفتحه ، والمرأة تريد أن تحول بينه وبين الوصول إلى الباب ، ذلك لأنها كانت لا تزال تأمل فى إرغامه ، على تنفيذ رغبتها ، واحتوائه ليكون طوع إرادتها .

فى هذه الحالة ، فوجئ الاثنان : يوسف الصديق والمرأة ، بصاحب البيت ، قد فتح باب البيت . . كانت مفاجأة غير متوقعة . . يوسف يعلو محياه الرعب والفزع ، والعرق يتصبب من جبينه حياءً وخجلاً ، فقميصه ممزق ، وجزء كبير من جسده يبدو للعيان ، وأثر الصراع باد عليه ، لا يخفى على من رآه .

﴿ وَأَلْفَيَا سَيِّدَهَا لَدَا الْبَابِ ﴾ أى فى ذلك الوقت،حضر زوجها ، وهو المراد من قوله تعالى: ﴿ وَأَلْفَيَا ... ﴾ فوجئ الاثنان بالرجل بعل المرأة ، تقول المرأة لبعلها : سيدى . . ولم يقل القرآن سيدهما ، لأن يوسف عليه السلام ،ما كان مملوكاً لذلك الرجل فى الحقيقة .

قال القرطبى : ﴿ وَأَلْفَيَا سَيِّدَهَا لَدَا الْبَابِ ﴾ أى وجد العزيز عند الباب ، وعنى بالسيد : الزوج ، والقبط يسمون الزوج سيداً .

زليخا تلقى التهمة على يوسف

﴿ قَالَتْ مَا جَزَاءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوءًا إِلاَّ أَن يُسْجَنَ أَوْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٥﴾ ﴾

قالت له فوراً : لتسمعْنى سماعَ الفاهمين ٦٢
هذا يريدُ السوءَ منى فليكن في الصاغرين ٦٣
فَلْيُلقَ في سجنٍ رهيبٍ فى عدادِ المجرمين ٦٤
أو فلْيَذُقْ طَعمَ العذابِ لأنه فى المعتدِين ٦٥

كما كان أثر المعركة بادياً على يوسف،بحيث لا يخفى على من رآه،كانت امرأة العزيز في وضع امرأة أعدت نفسها لارتكاب الفاحشة ،فالملابس شفافة ،كاسية عارية ، متهتكة يبدو عليها هيأة المرأة التى تحللت من الأخلاق ، وخلعت برقع الحياء . . وفى الوقت نفسه تبدو عليها الهزيمة النفسية ، ومن ثم فهى تريد أن تنتقم لنفسها من خصم أهانها .

لما انفتح باب الدار ، ودخل زوج المرأة ـ عزيز مصر ـ ورأى يوسف ورأى المرأة فى وضع ليس طبيعياً ، إن منظر الاثنين يوحى للناظر لأول وهلة ، أن شيئاً ما قد حدث ، وهذا الشيء له علاقة بالشرف .

بيد أن المرأة كانت ذات فطنة وذكاء،ودهاء المرأة الماجنة،فمن ثم لم تخنها فطنتها فى تلك اللحظة الحرجة، فبادرت زوجها قائلة بسرعة ، قبل أن يسرح بأفكاره بعيداً ، وقبل أن يفتح فاه بكلمة قالت :﴿ مَا جَزَاءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوءًا إِلاَّ أَن يُسْجَنَ أَوْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ .

فوراً ألقت التهمة على يوسف الصديق ، لقد اتهمته أنه راودها عن نفسها بل حاول اغتصابها والاعتداء على عفتها . . ثم أردفت قائلة لتؤكد روايتها لزوجها:انظر ! إلى فتاك هذا ـ وأشارت إلى يوسف ـ لقد حاول أن يغتصبنى ، فقاومته بكل قوتى ، وقد تمزق قميصه وأنا أحاول الدفاع عن نفسى . . غير أنه لم ينل منى ما أراد .

ثم أردفت قائلة : لذلك أرى أن يلقى فى السجن ، بين المجرمين ليكون عبرة لكل معتبر ، جزاء له على جرأته وتطاوله على سيدته ، ذات الشرف الرفيع ، ثم قال : أو فليعذب عذاباً أليماً ، لكى لا يفكر فى هذا الأمر مرة ثانية .

وهكذا ، لقد تسرعت المرأة فى إلقاء التهمة على يوسف الصديق ، وكان عليها أن تخترع قصة بعيدة عن المعنى ، لكى تبرر لزوجها هذا المنظر : منظر المصارعة والمقاومة الذى تبدو آثاره على الاثنين : يوسف والمرأة .

إلا أن دهاءها قد خانها فى هذا الموقف ، الذى لم تكن تتوقعه . . . لو أنها ذكرت قصة بعيدة عن هذا الموضوع ، لما فكر يوسف فى ذكر القصة الحقيقية .

قال الفخر الرازى فى هذا المقام: «إن حبها الشديد ليوسف، حملها على رعاية دقيقتين فى هذا الموضع ، وذلك لأنها بدأت بذكر السجن ، وأخرت ذكر العذاب ، لأن المحب لا يسعى فى إيلام المحبوب ، وأيضاً أنها لم تذكر أن يوسف يجب أن يعامل بأحد هذين الأمرين ، بل ذكرت ذكراً كلياً ، صوناً للمحبوب عن الذكر بالسوء والألم ، وأيضاً قالت: ﴿ إِلاَّ أَن يُسْجَنَ ﴾ والمراد أن يسجن يوماً أو أقل على سبيل التخفيف ، أما الحبس الدائم فإنه لا يعبر عنه بهذه العبارة ، بل يقال : يجب أن يجعل من المسجونين » .

يوسف يدافع عن نفسه

﴿ قَالَ هِيَ رَاوَدَتْنِي عَن نَّفْسِي ﴾

لكنّ يوسفَ قد أجابَ ، فقال قولَ الصادقين ٦٦
هى راودتنى تطلبُ الفحشاءَ فعْلَ الفاسقين ٦٧
ولقد أبَيْتُ فنالنى ما قد يُرى للناظرين ٦٨
إنى برىءٌ من مقالتِها براءةَ طاهرين ٦٩

كما قدمنا آنفاً ، فإن المرأة ألقت التهمة على يوسف الصديق ، وبقى على يوسف أن يدفع عن نفسه ، وإلا أُخذ بجريمة هو منها براء ، وبالتالى فسوف يكون عقابه قاسياً مؤلما . . ومن المعروف أن يوسف الصديق ، محفوف بعناية مولاه ، ومختار للنبوة والرسالة ، وهو فى الوقت نفسه سليل النبوة .

ولا غرو فمن أخص خصائص الأنبياء والرسل ، البيان ، إذن فيوسف الصديق لا ينقصه القدرة على التعبير ، ليدفع التّهمة عن نفسه .

لما انتهت المرأة من حديثها إلى زوجها ، وقررت فى حديثها أن يوسف حاول اغتصابها . . وقد كان يوسف في الوقت نفسه ، واقفاً فى مكانه ، يسمع ما قالته المرأة عنه حرفاً حرفاً ، لم يثُر ، لم يقاطعها أثناء حديثها ، بل تركها حتى انتهت .

فلما انتهت كان هو قد هيأ نفسه للدفاع عن نفسه بكلام محدد ، هو الحق ولا شىء غير الحق . . ولم يكن فى نيته أن يقول شيئا سواه .

فتوجه يوسف بالحديث فوراً إلى العزيز ، فقال له : هى راودتنى عن نفسى ، أنا برىء من كل ما قالته المرأة عنى ، فهى التى طلبت منى أن أكون خائناً ، ولما أبيت الاستجابة لرغبتها ، انهالت على ضرباً حتى أوجعتنى .

لم يزد يوسف فى دفاعه عن نفسه ، عن هذه الكلمات القليلة ، ولم يكشف للعزيز عن حقيقة الأمر ، وتفاصيل ما فعلته المرأة ، وعن تبذلها وإغرائها له .

قال الأستاذ عبد الكريم الخطيب فى « القصص القرآنى » وإزاء هذا الاتهام الصريح

من المرأة ليوسف ،مع أنها رأس هذه الفتنة ـ لم يجد يوسف بداً من أن يدافع عن نفسه بالحق ، وقد دافعت هى عن نفسها بالباطل ، وفى كلمات قليلة وادعة النور ، قوية قوة الحق،عرض يوسف صفحة دفاعه ومنطق براءته ، ﴿ **هِيَ رَاوَدَتْنِي عَن نَّفْسِي** ﴾ هذا أقل ما يمكن أن يدفع به يوسف هذه الفرية التى تفتريها امرأة العزيز عليه . .إنه لم يكشف للعزيز عن محاولاتها العديدة معه ، ولم يحدثه عن إغرائها له ، وعرض مفاتنها عليه . . . إن أدبه العالى يحول بينه وبين أن يفضح امرأة سيده ، وحسبه أن يقف عند حدود هذا الحديث ومعالجته بحكمة،دون الكشف عن جذور المأساة وأبعادها و. . إلخ ما قال » .

قال الفخر الرازى فى هذا المقام : إن المرأة لما ذكرت هذا الكلام ، ولطخت عرض يوسف عليه السلام ، احتاج يوسف إلى إزالة هذه التهمة فقال : ﴿ **هِيَ رَاوَدَتْنِي عَن نَّفْسِي** ﴾ وأن يوسف عليه السلام ماهتك سترها في أول الأمر ، إلا أنه لما خاف على النفس، وعلى العرض ، أظهر الأمر .

الشاهد يوجه العزيز على طريقة الاستدلال

﴿ وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنْ أَهْلِهَا إِن كَانَ قَمِيصُهُ قُدَّ مِن قُبُلٍ فَصَدَقَتْ ﴾

سمعَ العزيزُ مقالةَ الاثنينِ سمْعَ الفاهمين ٧٠
من ثَم أصبحَ دون شكٍّ فى مقامِ الحائرين ٧١
لكنّ شاهِدَهم يقولُ ، وكان ذا قولٍ أمين ٧٢

لقد انتهى يوسف الصديق من الحديث إلى عزيز مصر ، بحيث دافع عن نفسه بصدق وإيجاز ، وقد كان العزيز يسمع ليوسف ، وهو مملوء دهشة واستغراباً ، فبينما كان يوسف يقص على مسامعه صورة ما حدث ، كانت الخواطر تدور فى مخيلته بصور متعددة ، وتساؤلات متعددة أيضاً .

بيد أنه قد بدا له من واقع الحال ، أن الجريمة لم تقع بعد ، وأنها لو كانت وقعت قبل ذلك ، لما حدث هذا الذى يراه ماثلاً أمامه .

ولا غرو فعزيز مصر ، رجل لا تنقصه حكمة الشيوخ وفراستهم ، وذلك بحكم موقعه كرئيس لوزراء مصر . . فمن ثم أخذ يدير بصره فى أرجاء الغرفة فاحصاً . . تلك الغرفة التى شهدت صراعاً بين العفة والفجور . . بين الفضيلة والرذيلة . . بين الاستقامة والانحراف . . بين يوسف الصديق وامرأة العزيز . . أحدهما صادق والآخر كاذب .

إن العزيز يدقق النظر فى كل شبر من الغرفة ، بحثا عن أدنى دليل ، يستطيع أن يبنى عليه حكماً ، ثم يلقى نظره على المرأة بملابسها الشفافة ، التى تكاد تنطق بكذبها وافترائها على يوسف ، ثم ينقل نظره على يوسف ، فيراه يكاد يتوارى حياءً وخجلاً مما هو فيه ، يحاول أن يستر ما بدا من جسده ، بعد أن تمزق قيمصه .

ويبدو أن العزيز عرف الحقيقة من واقع الحال الماثل أمامه ، فالمرأة أمامه بملابس شفافة ، كاسية عارية ، ووقاحة وجراة ، أدلة على مجونها وجرمها .

بيد أن العزيز لم يجد الشجاعة لإعلان الحقيقة بنفسه، فأراد أن يشرك معه رجلاً ، ذا عقل وحكمة ، فى الرأى ، وهذا الرجل من أقارب المرأة ، لقوله تعالى ﴿ وَشَهِدَ

شَاهِدٌ مِّنْ أَهْلِهَا ﴾ فتناقشا معاً فى هذا الأمر ، فقال الرجل : إن الدليل يكمن فى قميص يوسف الممزق ، فلننظره ، ومن ثم فلن نجد صعوبة فى الاهتداء للحقيقة .

فإن كان القميص ممزقاً من الأمام ، فهذا شيء طبيعى ، أنها هى التى مزقته ، دفاعاً عن شرفها وحينئذ تكون هى صادقة وهو كاذب ، وإن كان القميص ممزقاً من الخلف ، فهى التى مزقته أيضاً ، لأن الفتى قد فر هارباً أمامها ، فلحقته فأمسكته من قميصه من الخلف ، فتمزق القميص ، وفى هذه الحالة تكون هى الكاذبة وهو الصادق .

قال الفخر الرازى فى : ﴿ وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنْ أَهْلِهَا ﴾ ليكون أولى بالقبول فى حق المرأة ، لأن الظاهر من حال من يكون من أقربائها أو من أهلها ، ألا يقصدها بالسوء والإضرار ، فالمقصود بذكر ذلك الرجل من أهلها ، تقوية قول ذلك الرجل ، وهذه الترجيحات ، إنما يصار إليها عندما تكون الدلالة ظنية ، ولو كان هذا القول صادراً عن الصبى الذى فى المهد ، لكان قوله حجة قاطعة ، ولا يتفاوت الحال بين أن يكون من أهلها ، وبين ألا يكون من أهلها ، وحينئذ لا يبقى لهذا القيد أثر .

الاختلاف فى شخصية الشاهد

﴿وَهُوَ مِنَ الْكَاذِبِينَ (٢٦) وَإِن كَانَ قَمِيصُهُ قُدَّ مِن دُبُرٍ فَكَذَبَتْ وَهُوَ مِنَ الصَّادِقِينَ (٢٧)﴾

إنّ القميصَ هو الدليلُ ، لتنظروه كباحثين ٧٣
إنْ كان قُدّ من الأمام فإنه فى الكاذبين ٧٤
أو قُدّ من خلفِ فيوسفُ صادقٌ هذا يقين ٧٥

لا شك أن الدليل الأكيد ، فى هذه القضية ، هو قميص يوسف الممزق ، وقد نطق الشاهد الوحيد بهذا !

ولقد تكاثرت الآراء والأقوال عن هذا الشاهد ﴿ وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنْ أَهْلِهَا ﴾ أول هذه الأقوال هو حديث شريف ، ينص على أن ذلك الشاهد ، كان طفلاً فى المهد .

عن ابن عباس عن النبى ﷺ أنه قال : « تكلم أربعة وهم صغار : ابن ماشطة فرعون ، وشاهد يوسف ، وصاحب جريج ، وعيسى بن مريم . . » رواه أحمد وابن جرير والبيهقى .

إن صح هذا الحديث،فهذه بغير شك معجزة. . وفى هذه الحالة يبطل الاجتهاد ، غير أن العلماء لم يكتفوا بهذا . . فأدلى كل منهم برأيه وتصوره عن ذلك الشاهد .

قال القرطبى : هو رجل حكيم ذو عقل ، كان الوزير يستشيره فى أموره ، وكان من جملة أهل المرأة ، كان مع زوجها فقال : قد سمعت الاستبدار والجلبة من وراء الباب ، وشق القميص ، فلا أدرى أيكما كان قدام صاحبه ، فإن كان شق القميص من قدامه فأنت صادقة ، وإن كان من خلفه فهو صادق .

قال ابن كثير : وقد اختلفوا فى هذا الشاهد ، هل هو صغير أو كبير على قولين للعلماء من علماء السلف ، فقال عبد الرزاق : أخبرنا إسرائيل عن سماك عن عكرمة عن ابن عباس في ﴿ وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنْ أَهْلِهَا ﴾ قال : ذو لحية ، وفى قول آخر عن ابن عباس ، كان من خاصة الملك،وقول : كان ابن عمها ، وقول : إنه كان من أمر الله ، ولم يكن إنسيا . . وهذا أغرب ما قيل .

قال القاضى بيضاوى : ﴿ وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنْ أَهْلِهَا ﴾ قيل : ابن عمها ، وقيل : ابن خالها ، وكان صبياً فى المهد ، وعن النبى ﷺ ، تكلم أربعة صغار : ابن ماشطة فرعون ، وشاهد يوسف ، وصاحب جريج وعيسى بن مريم عليه السلام ، وإنما ألقى الله الشهادة على لسان أهلها ، ليكون ألزم عليها .

الأستاذ عبد الكريم الخطيب فى كتابه «القصص القرآنى» يختلف عن كل السابقين، وينفرد برأى لم يقل به أحد . . فهو يقرر أن الشاهد فى قوله تعالى : ﴿ وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنْ أَهْلِهَا ﴾ هو العزيز نفسه ، ويدلل على هذا بقوله : ولا تنظر لما قيل من أن العزيز استدعى أهل الرأى والحكمة فى دولته وأخذ رأيهم فى هذا الحدث . . فإن ذلك عمل لا يعمله عاقل أبداً ، فيفضح نفسه وأهله على الملأ . . ولا تنظر كذلك إلى ما قيل من أن طفلاً فى المهد نطق ببراءة يوسف،وشهد بأنها هى التى راودته ، فما كان الأمر محتاجاً إلى هذه المعجزة المتحدية ، وجسم الجريمة ـ كما يقولون ـ ماثل للعيان !!

العزيز يوجه التهمة لجنس النساء جميعا

﴿ فَلَمَّا رَأَىٰ قَمِيصَهُ قُدَّ مِن دُبُرٍ قَالَ إِنَّهُ مِن كَيْدِكُنَّ إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ ﴿٢٨﴾ ﴾

وجَدُوهُ من خَلْف تمزَّقَ إثرَ عدوان مُبين ٧٦
عَرَفَ العزيزُ بأن يُوسُفَ لم يكنْ فى الخاطئين ٧٧

هذا عزيز مصر والشاهد معه ، يفحصان قميص يوسف الصديق ـ المفترى عليه ـ يفحصان قميصه ليتبينا فيه الحقيقة الضائعة .. الضائعة بين امرأة ماجنة تدعى زوراً وبهتاناً على شاب برىء، أنه حاول اغتصابها ، وبين يوسف الذى نفى عن نفسه التهمة ، وواقع الحال أيد نفيه ، وأكد براءته .

وبإلقاء نظرة على القميص ، وُجد أنه قُدّ من دُبر .. إذن فقد وضح الأمر ، وكُشفت الحقيقة تماماً أمام العزيز .

عرف العزيز أن يوسف صادق وعـفّ أيضاً . وأن المرأة هى الكـاذبة فى دعوتها . ولم يبق أمامه سوى أن يتخذ القرار المناسب ، فى هذا الموقف الخطير ، الذى قد يُعرض بيت العزيز لعاصفة تزلزل أركانه ، إذا لم يكن ذاك القرار حكيماً .

اتجه العزيز إلى المرأة التى ثبت لديه خيانتها، وقبل أن ينطق بأى كلمة، صمت قليلاً، إنه يفكر فى الأمر. تُرى فى أى نوع من أنواع القرارات، يفكر العزيز بشأن المرأة الخائنة؟! هل يفكر فى طلاقها، لكونها فكرت فى خيانته، ولولا عفة يوسف ونزاهته، لتلطخ شرف العزيز فى الوحل؟! أم تراه يفكر فى قتلها، لتكون عبرة لكل امرأة تفكر فى خيانة زوجها؟!

أم تراه سيأمر بعزلها ـ وهذا أيسر الأمور ـ فى جناح من أجنحة القصر ، تأكل وتشرب فقط، ولا صلة لها بسيد البيت.. تظل معذبة بالهجر والحرمان مدى الحياة ؟!

تمخـض الجبل فولد فأراً !!! أخيراً نطـق العزيز بحكمة لقمان !!! فقال للخائنة : ﴿ إِنَّهُ مِن كَيْدِكُنَّ إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ ﴾ يالله !! يبدو أن العزيز قد سكن غضبُه أثناء فترة صمته ، فلم يواجه المرأة بجريمتها ، بل وجه التهمة لبنات جنسها كلهن ، وكأنه أشفق على المرأة من أن تغضب !!!

قال الأستاذ أحمد بهجت فى كتابه «أنبياء الله»: نسب ـ العزيز ـ ما فعلته المرأة إلى كيد النساء عموماً، وصرح بأن كيد النساء عموماً عظيم، وهكذا سيق الأمر كما لو كان ثناء يساق.

ولا نحسب أنه يسوء المرأة أن يقال لها : ﴿ إِنَّهُ مِن كَيْدِكُنَّ ﴾ ، فهو دلالة فى حسها على أنها أنثى كاملة ، مستوفية لمقدرة الأنثى الكاملة على الكيد .

العزيز يأمر يوسف بكتمان الأمر

﴿ يُوسُفُ أَعْرِضْ عَنْ هَذَا وَاسْتَغْفِرِي لِذَنْبِكِ إِنَّكِ كُنتِ مِنَ الْخَاطِئِينَ ﴿٢٩﴾ ﴾

من ثَمَّ قال لَهُ : فَكُفَّ عن الحديثِ لآخَرين ٧٨
اكتمْ لهذا الأمرِ ، لا تذكُرْه للمتساءلين ٧٩
وإلى زُلَيْخَا قال قولاً فى هُدوء اللائمين ٨٠
فاستغفرى مما جَنَيْتِ فذاك فِعْلُ الماجنين ٨١

ها نحن أولاء لا نزال مع العزيز ، وقد أصدر قراره الذى جاء مخالفاً لكل ما يتصوره إنسان !!! فقال ليوسف : ﴿ يُوسُفُ أَعْرِضْ عَنْ هَذَا ﴾ إنه يأمر يوسف بكتمان هذا .. !! لا تذكر هذا الأمر لأحد يا يوسف ، وانس ما حدث تماماً .

ثم عاد بالحديث إلى المرأة ، وكأنه يستدرك حديثه السابق إليها ، أنه كان ليِّنا ، إذن فليوجه اللوم لها،لكى لا يتهمه الآخرون بالضعف أمام امرأته..فقال لها: ﴿ وَاسْتَغْفِرِي لِذَنْبِكِ إِنَّكِ كُنتِ مِنَ الْخَاطِئِينَ ﴾ .

يالله!! أهذا يكون حديث رجل لامرأته،بعد أن اكتشف خيانتها له؟! هذا بغير شك يدل على أن العزيز كان بليد الطبع ، ليس فيه حرارة الرجال ، الذين يثورون عندما تنتهك حرماتهم ، أو يعتدى على شرفهم .. ولنستمع إلى ما قاله علماء التفسير عنه .

« قال ابن كثير: ﴿ وَاسْتَغْفِرِي لِذَنْبِكِ ﴾ يقول لامرأته وقد كان ليِّن العريكة سهلاً ، أو أنه عذرها لأنها رأت ما لا صبر لها عنه » .

« قال الأستاذ رشيد رضا فى تفسيره «المنار»:وقد استدل الكرخى بقول هذا الوزير لزوجه ، على أنه كان قليل الغيرة .. ثم قال : وزعم أبو حيان فى « البحر المحيط » أن هذا مقتضى طبيعة تربة مصر وبيئتها ، وأنها لرخاوتها لا ينشأ فيها الأسد، ولو دخل فيها لا يبقى، وهذا كلام غير مبنى على علم صحيح، فأما سبب عدم نشوء الأسد فى هذا القطر ، فهو خلوّه من الغابات والأدغال التى يعيش فيها ، وأما كونه إذا أدخل لا يبقى ، فإن صح بالتجربة فى الماضى ، فسببه عدم وجود المأوى له .. وها نحن أولاء

نرى الأسود والفهود والنمور ، تعيش وتتناسل فى حديقة الحيوان بالجيزة . . ».

« قال القرطبى : وقيل : إن القائل ليوسف : أعرض ، ولها استغفرى، زوجها الملك ، وفيه قولان : أحدهما ـ أنه لم يكن غيوراً ، فلذلك كان ساكتا ، وعدم الغيرة فى كثير من أهل مصر موجودة . الثانى ـ أن الله تعالى سلبه الغيرة ، وكان فيه لطف بيوسف، حتى كُفى بادرته وعفا عنها » .

قال الفخر الرازى : ﴿إِنَّكِ كُنتِ مِنَ الْخَاطِئِينَ﴾ نسبة لها إلى أنها كانت كثيرة الخطأ فيما تقدم، وهذا أحد ما يدل على أن الزوج عرف فى أول الأمر، أن الذنب للمرأة لا ليوسف ، لأنه كان يعرف عنها إقدامها على ما لا ينبغى.

قال أبو بكر الأصم: إن ذلك الزوج كان قليل الغيرة ، فاكتفى منها بالاستغفار .

وقال صاحب الكشاف : وإنما قال ﴿ مِنَ الْخَاطِئِينَ ﴾ تغليبًا للذكور على الإناث ، ويحتمل أن يقال : المراد أنك من نسل الخاطئين ، فمن ذلك النسل ، سرى هذا العرق الخبيث فيك . والله أعلم.

الحلقة الرابعة

نساء مصر يتحدثن عن غرام امرأة العزيز بفتاها

امرأة العزيز تدعوهن إلى مـأدبة فـي منزلـها

النساء ينبهرن من حسن يوسف ويقطعن أيديهن

المرأة تعترف أمام ضـيوفها بمـراودة يوسف

الآيات القرآنية التى صيغ منها شعر الحلقة الرابعة

﴿ وَقَالَ نِسْوَةٌ فِي الْمَدِينَةِ امْرَأَةُ الْعَزِيزِ تُرَاوِدُ فَتَاهَا عَن نَّفْسِهِ قَدْ شَغَفَهَا حُبًّا إِنَّا لَنَرَاهَا فِي ضَلالٍ مُّبِينٍ (٣٠) فَلَمَّا سَمِعَتْ بِمَكْرِهِنَّ أَرْسَلَتْ إِلَيْهِنَّ وَأَعْتَدَتْ لَهُنَّ مُتَّكَأً وَآتَتْ كُلَّ وَاحِدَةٍ مِّنْهُنَّ سِكِّينًا وَقَالَتِ اخْرُجْ عَلَيْهِنَّ فَلَمَّا رَأَيْنَهُ أَكْبَرْنَهُ وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ وَقُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ مَا هَذَا بَشَرًا إِنْ هَذَا إِلاَّ مَلَكٌ كَرِيمٌ (٣١) قَالَتْ فَذَلِكُنَّ الَّذِي لُمْتُنَّنِي فِيهِ وَلَقَدْ رَاوَدتُّهُ عَن نَّفْسِهِ فَاسْتَعْصَمَ وَلَئِن لَّمْ يَفْعَلْ مَا آمُرُهُ لَيُسْجَنَنَّ وَلَيَكُونًا مِّنَ الصَّاغِرِينَ (٣٢) ﴾ .

أشعار الحلقة الرابعة

وهناكَ من قالوا عن البرهانِ قولَ المفترين ١
قالوا : فيوسفُ همَّ يأتى ذلكَ الفعلَ المشين ٢
فأتاه برهانُ الإلهِ رآه رؤيةَ مبصرين ٣
لما رأى البرهانَ فرَّ أمامَها كالهاربين ٤
هذى المقالةُ تظلمُ الصّديقَ نسلَ المكرمين ٥
هُم قد أساءوا القولَ فيه ، ولم يكونوا منصفين ٦
لو أنصفُوه لراجعوا ما قيلَ فى الذكر المبين ٧
اللهُ كرمَه وقال بأنهُ فى المخلَصين ٨
أخبارُ يوسفَ معْ زليخَا ، ندرة المتحدثين ٩
ونساءُ مصرَ لقد غَدَونَ على رءوسِ الخائضين ١٠
قد قلنَ فيما بينهنَّ مقالةَ الغمزِ المهين ١١
قالوا : زليخا قد أحبّت عبدَها كالعاشقين ١٢
قد ضاعَ منها رُشدُها ضلّت طريقَ الراشدين ١٣
وترددتْ أصداءُ هذا القول بين الشامتين ١٤
وصل الحديثُ إلى زليخا مثلَ كل السامعين ١٥
صنعتْ طعامًا كالوليمة، كافيًا للمدعوين ١٦
ودعت إليه نساءَ مصرَ من البيوتِ الموسرين ١٧
هذى الأرائك قد أُعدتْ راحةً للجالسين ١٨
بعد الطعامِ أتت بفاكهةٍ لكلِّ الحاضرين ١٩
وعلى الموائد كل سكينٍ لها حدٌّ متين ٢٠
يقطعنَ بالسكينِ من أشهى الفواكه آكلين ٢١
كانتْ زليخا خططتْ لتفاجئَ المتلومين ٢٢
قد أصدرتْ أمرًا إلى خُدَّامها والعاملين ٢٣
قالتْ لهم : قوموا على تجميلِ يوسفَ مجمعين ٢٤
قد جملوه فزاد حُسنًا فوق وصفِ الواصفين ٢٥

من بعدِ ذا قالت ليوسفَ : فاستمعْ كي تستبين ٢٦
اخرجْ على جمعِ النساءِ لكي يَرَيْنكَ أجمعين ٢٧
فأطاعَها ، فرأينه في الحسنِ ليس له قرين ٢٨
وأصابهُن من الذهولِ ودهشة المتعجبين ٢٩
قد صِرنَ أيضًا كالسكارى، ذاكم الوصف الأمين ٣٠
ودماؤهن غدتْ تسيلُ من المُدى ، هذا يقين ٣١
هتفَ النساءُ وقلن قولاً جاءَ في الذكرِ المبين ٣٢
هذا لعمرُ اللهِ ملك في ثيابِ الآدمين ٣٣
لكن زليخا قررتْ لنسائها كي تستبين ٣٤
هذا الذي لمتنَّني في حبِّه في اللائمين ٣٥
تالله قدْ راودتُه فأبىَ إباءَ الرافضين ٣٦
إني عجبتُ لأمرِه وغدَوت في المتحيِّرين ٣٧
ماذا يريد فتَايَ هذا؟! إنه كالمستهين ٣٨
إنْ لم يطعْ أمري فسوفَ ينالُه السجنُ المهين ٣٩
ويذوقُ طعمَ الذلِّ بين النازلين المجرمين ٤٠
هب النساءُ يقلنَ للصديقِ قولَ الناصحين ٤١
لِمَ لَمْ تطعْها؟! إن هذا من فعالِ الجاهلين ٤٢
إنْ لم تطعْها فهو سجنٌ في غياهبَ مظلمين ٤٣
وتذوقُ ويلاتِ العذابِ ، وحسرةَ المتندمين ٤٤

رأى آخر عن البرهان

....

وهناكَ من قالوا عن البرهانِ قولَ المفترين ١
قالوا : فيوسفُ همَّ يأتى ذلك الفعلَ المشين ٢

أقوال بعض المفسرين عن البرهان :

قال القرطبى : «وهذا البرهان غير مذكور فى القرآن، فروى عن على بن أبى طالب، أن زليخا قامت إلى صنم مكلّل بالدّر والياقوت فى زاوية البيت، فسترته بثوب ، فقال: ما تصنعين ؟! قالت : أستحيى من إلهى هذا أن يرانى فى هذه الصورة ، فقال يوسف: أنا أولى أن أستحيى من الله؛ وهذا أحسن ما قيل فيه ، لأن فيه إقامة الدليل ، وقيل:

رأى مكتوبا فى سقف البيت : ﴿ وَلَا تَقْرَبُوا الزِّنَىٰ إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَسَاءَ سَبِيلًا ﴾ . وقال ابن عباس : بدت كف مكتوب عليها ﴿ وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ ﴾ وقال قوم : تذكر عهد الله وميثاقه ، وقيل : نودى يا يوسف ! أنت مكتوب فى ديوان الأنبياء، وتعمل عمل السفهاء؟! وقيل : رأى صورة يعقوب على الجدران عاضًا على أنملته يتوعده ، فسكن، وخرجت شهوته من أنامله . . إلخ ».

تفسير الجلالين: ﴿ وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ ﴾قصدت منه الجماع ﴿وَهَمَّ بِهَا﴾ قصد ذلك ﴿ لَوْلَا أَن رَّأَىٰ بُرْهَانَ رَبِّهِ ﴾ قال ابن عباس : مثل له يعقوب ، فضرب صدره ، فخرجت شهوته من أنامله ، وجواب لولا ، لجامعها ﴿ كَذَٰلِكَ ﴾ أريناه البرهان ﴿ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ ﴾ .

البيضاوى : ﴿وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ وَهَمَّ بِهَا﴾ قصدت مخالطته ، وقصد مخالطتها ، والهم بالشىء قصده والعزم عليه ، ومنه الهمام ، وهو الذى إذا هم بشىء أمضاه ، والمراد بهمّه عليه السلام ، ميل الطبع ومنازعة الشهوة ، لا القصد الاختيارى ، وذلك مما لا يدخل تحت التكليف ، بل الحقيق بالمدح والأجر الجزيل من الله من يكف نفسه عن الفعل ، عند قيام هذا الهم ومشارفة الهم ، كقولك : قتلته لو لم أخف الله ﴿ لَوْلَا أَن رَّأَىٰ بُرْهَانَ رَبِّهِ ﴾ فى قبح الزنا وسوء مغبته لخالطها لشبق الغلمة ، وكثرة المبالغة ، ولا يجوز أن يجعل وهم بها ، جواب لولا ، فإنها فى حكم

أدوات الشرط، فلا يتقدم عليها جوابها، بل الجواب محذوف يدل عليه وقيل : . .».

وهذا إنصاف ليوسف !!

ابن كثير : قال وأفاض فى النقل عن ابن جرير الطبرى، الذى نقل قول ابن عباس ومجاهد وسعيد بن جبير وابن سيرين والحسن وقتادة وغيرهم. . وكل هؤلاء قالوا: لقد هم يوسف بالمعصية ، لولا أنه رأى البراهين المتعددة التى ذكرها القرطبى وابن جرير والجلالين ، وتلك البراهين كانت لعمر الله كافية لردع أعتى الفساق المعتادى الفاحشة.

القول بأن البرهان ليوسف كان ماديا

....

فأتاه برهانُ الإلهِ رآه رؤيةَ مبصرين ٣
لما رأى البرهانَ فرَّ أمامَها كالهاربين ٤

لقد أبديت رأيى فى الصفحات الماضية، عن هم يوسف، وهم امرأة العزيز، وقد جمعت بعض الآراء التى تؤيد صحة ما رأيته، بأن يوسف الصديق، برىء مما ذهب إليه بعض المفسرين، وما نسبوه إليه من أقوال تسىء إلى نبى كريم، من سلالة أنبياء كرام، إذ هو الرابع فى السلسلة الذهبية.. فهو نبى كريم ابن نبى كريم ابن نبى كريم ابن أبى الأنبياء إبراهيم خليل الله !!.

فكثير من المفسرين ، انزلقوا فى النقل ، فتحدثوا عن يوسف الصديق ، كما يتحدثون عن معتادى الفاحشة ، ونسوا أنهم يتحدثون عن يوسف الصديق !!!

لقد نقلوا من الإسرائيليات ، روايات لا يمكن أن يصدقها عاقل ، والعجيب فى هذا الأمر ، أن أسوأ الأقوال التى نقلوها ، منسوبة لابن عباس ، فقد قيل: إنه سئل عن هم يوسف فقال : استلقت له وجلس بين رجليها ينزع ثيابه، فصرف الله تعالى عنه ما كان هم به من السوء بما رأى من البرهان الذى أراه الله ، وهو : صورة أبيه عاضًا على أصبعه، أو نودى من جانب البيت، أتزنى فتكون كالطير وقع ريشه، فذهب يطير ولا ريش له، أما صاحب تفسير المنار ، فقد تصدى للدفاع عن يوسف الصديق ، بحرارة وجرأة ، بل وسخر من المفسرين الذين حشوا تفاسيرهم بمثل هذه الأقوال الباطلة فقال:

«ذهب الجمهور والمخدوعون بالروايات ، إلى أن المعنى ، أنها همت بفعل الفاحشة، ولم يكن لها معارض ولا مانع منها، وهم هو بمثل ذلك، ولولا أنه رأى برهان ربه لاقترفها، ولم يستح بعضهم أن يروى من أخبار اهتياجه وتهوكه فيه، ووصف انهماكه وإسرافه فى تنفيذه، وتهتك المرأة فى تبذلها بين يديه ، ما لا يقع مثله إلا من أوقح الفساق ، المسرفين المستهترين الذين طال عليهم عهد استباحة الفواحش، وألفتها حتى خلعوا العذار، وتجردوا من جلابيب الحياء، وأمسوا عراة من لباس التقوى ، وحلل الآداب ، إلى أن قال : وقد بلغ ببعضهم «كالسدى الصغير وأمثاله» الوقاحة وقلة الأدب، أن يزعموا أن يوسف عليه السلام لم ير برهانًا واحدًا، بل رأى عدة براهين: من رؤية والده متمثلاً له منكرًا عليه، وتكرار وعظه له، ومن رؤية بعض الملائكة، ونزولهم عليه بأشد زواجر القرآن بآيات من سوره ، فلم تنه من شبقه، ولم تنه عن غيه، حتى كان أن خرجت شهوته من أظافره !!!

بعض المفسرين يقولون : هم يوسف هم فعل

....

هذى المقالةُ تظلمُ الصّديقَ نسلَ المكرمين ٥
هُم قد أساءوا القولَ فيهِ ، ولم يكونوا منصِفين ٦
لو أنصفُوه لراجعوا ما قيلَ فى الذكر المبين ٧
اللهُ كرمَه وقال بأنهُ فى المخَلصين ٨

بعض المفسرين ، فسروا «هم» يوسف الصديق أنه «هم» الاستجابة والموافقة على دعوة امرأة العزيز . . هذا القول فى رأيى فيه تجن على يوسف الصديق ، لقد نسوا أنهم يتحدثون عن نبى من أنبياء الله ، هو سلالة آباء كرام ، والأنبياء معصومون ، حتى قبل النبوة ، ولننقل هنا عبارة القاضى عياض فى كتابه القيم « الشفاء بتعريف حقوق المصطفى» قال عن الأنبياء جميعا :

« وأما عصمتهم من هذا الفن قبل النبوة ،فللناس فيه خلاف. .والصواب أنهم معصومون قبل النبوة ،من الجهل بالله وصفاته،والتشكك فى شىء من ذلك،وقد تعاضدت الأخبار والآثار عن الأنبياء ، بتنزيههم عن هذه النقيصة منذ ولدوا ، ونشأتهم عن التوحيد والإيمان ، بل على إشراق أنوار المعارف ، ونفحات ألطاف السعادة » جـ٢ صفحة ٩٣ .

ولو أن الذين قالوا هذا القول ، قرأوا القرآن بأناة وتفكر ، لأدركوا الحقيقة التى لا تقبل الجدل ، إذ أن فى آيات القرآن الكريم ، دليل براءة يوسف مما نسب إليه . . وهذا أحد عمالقة المفسرين يضع يده على هذه الحقيقة فيقول الإمام الفخر الرازى فى تفسيره:

« إن يوسف قد شهد الله ببراءته بقوله تعالى: ﴿ **إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ** ﴾ وشهد الشيطان ببراءته بقوله : ﴿ **فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ (٨٢) إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ (٨٣)** ﴾ [ص] وشهد ببراءته الشاهد من أهل العزيز إذ قال: ﴿ **إِن كَانَ قَمِيصُهُ قُدَّ مِن قُبُلٍ فَصَدَقَتْ وَهُوَ مِنَ الْكَاذِبِينَ (٢٦) وَإِن كَانَ قَمِيصُهُ قُدَّ مِن دُبُرٍ فَكَذَبَتْ وَهُوَ مِنَ الصَّادِقِينَ (٢٧) فَلَمَّا رَأَىٰ**

قَمِيصَهُ قُدَّ مِن دُبُرٍ قَالَ إِنَّهُ مِن كَيْدِكُنَّ إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ (٢٨) يُوسُفُ أَعْرِضْ عَنْ هَذَا وَاسْتَغْفِرِي لِذَنْبِكِ إِنَّكِ كُنتِ مِنَ الْخَاطِئِينَ (٢٩) ﴾. وشهد ببراءته النسوة اللاتى قطعن أيديهن بقولهن: ﴿ **مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِن سُوءٍ** ﴾، وشهد ببراءته امرأة العزيز بقولها: ﴿ **الآنَ حَصْحَصَ الْحَقُّ أَنَا رَاوَدتُّهُ عَن نَّفْسِهِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ** ﴾ .

فالذى يريد أن يتهم يوسف بالهم ، عليه أن يختار أن يكون من حزب الله، أو من حزب الشيطان، وكلاهما شهد ببراءة يوسف، فلا مفر له من الإقرار بالحق على أى حال، وهو براءة يوسف من الهم، عن مفاتيح الغيب للإمام المفسر فخر الدين الرازى بتصرف.

قصة يوسف مع زليخا حديث النساء فى مصر

﴿ وَقَالَ نِسْوَةٌ فِي الْمَدِينَةِ امْرَأَةُ الْعَزِيزِ تُرَاوِدُ فَتَاهَا عَن نَّفْسِهِ قَدْ شَغَفَهَا حُبًّا ﴾

أخبارُ يوسفَ معْ زليخَا ، ندرة المتحدثين ٩
ونساءُ مصرَ لقد غَدَوْنَ على رءوسِ الخائضين ١٠
قد قلنَ فيما بينهنَّ مقالةَ الغمزِ المهين ١١
قالوا : زليخا قد أحبّت عبدَها كالعاشقين ١٢

تناثر القول هنا وهناك، عن قصة يوسف مع زليخا ، وسرعان ما شاع الخبر فى مصر، حتى صار حديث الناس فى البيوت والأسواق والمنتديات ، يذكرونه متندرين ، كما هى طبيعة الشعب المصرى، فإنه يعبر عن أفراحه وأتراحه بالنادرة والنكتة، وعن احتجاجه وانتقاده وإعجابه أيضًا بالنادرة والنكته .

ومن المؤكد أن النساء، لاسيما نساء الطبقة الحاكمة ، هن اللواتى كن يقدن حملة التنديد بامرأة العزيز ، ويلمنها أشد اللوم لكونها ترخصت فأحبت عبدها . . وقيل: بلغهن حسن يوسف ، فأحببن رؤيته ، فقلن هذا القول ، ليتوصلن إلى رؤيته ومشاهدته . . وقد كان ذلك .

ولا غرو فعيون الشعب دائما تحصى حركات الحكام وتصرفاتهم ، بحيث لا تخفى على الناس خافية من أفعال الحكام ، صغيرة كانت أم كبيرة . . إذن فخطأ امرأة العزيز كبير مهما صغر ؛ لأن عيب الكبير كبير .

وحول هذا المعنى يقول الأستاذ عبد الكريم الخطيب فى كتابه القيم : « القصص القرآنى » :

« فالحدث يكبر أو يصغر ، وتتسع دائرته أو تضيق ، تبعًا لمن تعلق به الحدث، إذ قد يقتل الرجل من عامة الناس ، دون أن يشعر به أحد ممن حوله، على حين قد يصاب الحاكم أو السيد من سادة القوم ، بخدش أو جرح ، فيكون ذلك حديث الناس، فى الأندية والمحافل ، ليوم أو لبضعة أيام .

فعيون الناس وآذانهم متعلقة بأصحاب السلطان والسيادة فيهم ، يتسمعون إلى أخبارهم ويرقبون أحوالهم ، ويشغلون بالحديث عنهم ، في كل ما يتصل بهم ، من صغير أمورهم وكبيرها .

وعلى الرغم من أن حادثة امرأة العزيز ، كانت في دائرة ضيقة ، لا تتعدى المرأة ويوسف ، والعزيز زوجها ، فإنه سرعان ما نفذت العيون من خدم القصر إلى هذا السر، ووقعت الآذان عليه ، فكان همسًا على الشفاه ، ثم حديثًا دائرًا على الألسنة، أقرب إلى الإشاعة منه إلى الحقيقة » .

قال القرطبي في تفسيره :

﴿ وَقَالَ نِسْوَةٌ فِي الْمَدِينَةِ ﴾ ملخصه : وذلك أن القصة انتشرت في أهل مصر، فتحدث النساء قيل: امرأة الحاجب وامرأة الساقي وامرأة الخباز وامرأة صاحب دوابه ، وامرأة صاحب سجنه.

وعن ابن عباس وغيره : ﴿ تُرَاوِدُ فَتَاهَا عَن نَّفْسِهِ﴾ الفتى في كلام العرب : الشاب، والمرأة : فتاة، قلت:والأصح : « الفتاة : هي الجارية الشابة» قيل: شغفها : غلبها وقيل:دخل حبه في شغافها،أو تحت شغافها ، وقال الحسن : الشغف : باطن القلب ، وقيل : الشغف : باطن القلب ، أو وسط القلب ، وهذه كلها أقوال متقاربة .

وروى عن الشعبي أنه قال : الشغف بالغين المعجمة : حب ، والشعف بالعين غير المعجمة : جنون .

قلت : تملك حبه من قلبها ، وأحاط به إحاطة الشغاف بالقلب ، فذهب بها كل مذهب ، فاشتغل قلبها بحبه شغلاً منعها أن تفكر في سواه ، ولا يخطر ببالها إلا إياه.

النساء فى مصر تلمن امرأة العزيز

﴿ إِنَّا لَنَرَاهَا فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ۝٣٠ ﴾

قد ضاعَ منها رُشدُها ضلّت طريقَ الراشدين ١٣
وترددتْ أصداءُ هذا القولِ بين الشامتين ١٤
وصل الحديثُ إلى زليخا مثلَ كل السامعين ١٥

الحديث عن امرأة العزيز وقصتها مع خادمها ـ يوسف الصديق ـ صار على كل الألسنة ، والنساء هن اللواتى يثرنه كلما خمد أو كان يخبو . . ولسان حال النسوة جميعًا ،كيف تنازلت هذه السيدة العظيمة عن كبريائها؟! إلى هذا الحد يصل بهذه المرأة تهاونها بمركزها، فتحب عبدها؟! تطارحه الغرام كأنه سيد من علية القوم!!

والأغرب من هذا أن العبد الذى أحبته ، لم يبادلها حبًا بحب ، بل رفض الاستجابة لما دعته إليه ، فتكون بذلك قد أهينت مرتين : مرة عندما تنازلت فأحبته، والأخرى عندما رفض الاستجابة لمبادلتها حبًا بحب.

يبدو أن المرأة قد أصابها خبل فى عقلها ، لقد أذلت كبرياءها، واستهانت بمكانتها، لماذا؟! أنسيت أنها زوجة عزيز مصر؟! والإهانة التى تلحقها تكون كأنها لحقت بكل نساء مصر . . ﴿ إِنَّا لَنَرَاهَا فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴾ .

وصل الخبر امرأة العزيز ، بما يدور من حديث بين جماعات النساء، لاسيما نساء القصور فى مصر ، ولا شك أن الحديث ملأ الأسماع قبل أن يصل صاحبته . . ولنستأنس بقول الأستاذ رشيد رضا فى تفسيره « المنار » فى هذا المعنى قال:

﴿ إِنَّا لَنَرَاهَا فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴾ أى إنا لنراها بأعين بصائرنا وحكم رأينا ، غائصة فى غمرة من الضلال ، البين الظاهر البعيد ، عن محجة الهدى والصواب.

وهن ما قلن هذا إنكارًا للمنكر ، وكرها للرذيلة ، ولا حبًا فى المعروف ونصرًا للفضيلة ، وإنما قلنه مكرًا وحيلة ، ليصل إليها ، فيحملها على دعوتهن ، وإراءتهن

بأعين أبصارهن ، ما يبطل ما يدعين رؤيته بأعين بصائرهن ، فيعذرنها فيما عذلنها عليه. فهو مكر لا رأى ».

ويقول القرطبى فى قوله تعالى : « ﴿ إِنَّا لَنَرَاهَا فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴾أى فى هذا الفعل ، وقال قتادة : « فتاها » وهو فتى زوجها ، لأن يوسف كان عندهم فى حكم المماليك ، وكان ينفذ أمرها فيه ، وقال مقاتل : عن أبى عثمان النهدى، عن سلمان الفارسى قال: إن امرأة العزيز ، استوهبت زوجها يوسف ، فوهبه لها وقال: ما تصنعين به ؟ قالت: أتخذه ولدًا قال : هو لك ، فربته حتى أيفع وفى نفسها منه ما فى نفسها، فكانت تتكشف له، وتتزين له وتدعوه من وجه اللطف ، فعصمه الله ».

امرأة العزيز تدعو نساء عظماء مصر لبيتها

﴿ فَلَمَّا سَمِعَتْ بِمَكْرِهِنَّ أَرْسَلَتْ إِلَيْهِنَّ وَأَعْتَدَتْ لَهُنَّ مُتَّكَأً ﴾

صنعتْ طعامًا كالوليمةِ، كافيًا للمدعوين ١٦
ودعت إليه نساءَ مصرَ من البيوتِ الموسرين ١٧
هذى الأرائك قد أُعدتْ راحةً للجالسين ١٨
بعد الطعامِ أتت بفاكهةٍ لكلِّ الحاضرين ١٩
وعلى الموائدِ كل سكينٍ لها حدٌّ متين ٢٠

علمت امرأة العزيز ، بما يتحدث به الناس عنها فى مصر، يتحدثون عنها حديثًا لا يخلو من اللوم ، لكونها أحبت خادمها أو عبدها يوسف الصديق .

لقد صار الحديث على كل فم، وفى كل بيت ، لاسيما نساء الطبقة العليا . . فمن ثم أخذت تفكر فى حيلة ترد بها على الجميع . . فماذا فعلت ؟!.

لقد أعدت وليمة، واخترعت لها مناسبة ما ، لتبرر بها إقامة تلك الوليمة ، ودعت إليها سيدات المجتمع المعروفات اللاتى بلغها أنهن يتزعمن قيادة الحديث عنها وعن يوسف، ويؤججن ناره ، ويشعلن أواره كلما خبا أو كاد يخبو .

أعدت لاستقبال ضيوفها الأرائك الوثيرة ليجلسن عليها، وربما شهد هذه الوليمة بعض الرجال من خدم القصر ، الذين لا يلتفت إليهم ، وليس لهم ولا منهم خطورة، بل هم ممن صدرت الأوامر إليهم ، بعدم الخوض فى ذكر هذا الحدث ، لكونهم عرفوه عن كثب، وبرغم ذلك فقد تسرب الخبر خارج قصر العزيز.

وهكذا ، لقد جلس النسوة المدعوات ، ووضعت الأطعمة على الموائد أمامهن، فأخذن يأكلن ، وقد كان الحديث يدور همسًا ، أثناء تناول الطعام ، على كل مائدة كان هناك حديث. . فعلى أى شىء يا ترى كن يتحدثن؟!.

لا إخالنى أبعدت النجعة إن قلت : كان معظم حديثهن تساؤلات. . ماذا تريد امرأة

العزيز من وراء هذا الاجتماع الذى دعت إليه هذا العدد من النسوة؟!.

وأحسبهن كن يجبن فيما بينهن على تساؤلاتهن الحائرة، بأجوبة متعددة ، وأستدرك فأقول : لا شك أن أفكارهن كانت تحوم حول قصة المضيفة مع خادمها يوسف.

بعد تناول الطعام الشهى ،جيء بالفاكهة ناضجة شهية ، كما هى عادة سراة القوم ، فإنهم يتناولون الحلوى أو الفاكهة بعد الطعام .. أو هما معًا متتاليان .

كانت الحضارة فى مصر قد بلغت أوجها ، فى ذاك العصر .. بحيث أنهم كانوا يستعملون السكين على المائدة والملعقة و ... إلخ .

قال القرطبى فى قوله تعالى : ﴿ **فَلَمَّا سَمِعَتْ بِمَكْرِهِنَّ** ﴾ : أى بغيبتهن إياها ، واحتيالهن فى ذمها ، وقيل: إنها أطلعتهن واستأمنتهن ، فأفشين سرها ، فسمى ذلك مكرًا وقوله : ﴿ **أَرْسَلَتْ إِلَيْهِنَّ** ﴾ فى الكلام حذف ، أى أرسلت إليهن تدعوهن إلى وليمة ، لتوقعهن فيما وقعت فيه .

قال مجاهد عن ابن عباس : إن امرأة العزيز قالت لزوجها : إنى أريد أن أتخذ طعامًا ، فأدعو هؤلاء النسوة ؛ فقال لها : افعلى ؛ فاتخذت طعامًا ، ثم نجدت لهن البيوت، نجدت : أى زينت ... إلخ ، وأرسلت إليهن أن يحضرن طعامها ، ولا تتخلف منكن امرأة ممن سميت ، قال وهب بن منبه : إنهن كن أربعين امرأة ، فجئن على كره منهن ﴿**وَأَعْتَدَتْ لَهُنَّ مُتَّكَأً**﴾ أى هيأت لهن مجالس يتكئن عليها،قال ابن جبير ، فى كل مجلس جام فيه عسل وأترج وسكين حاد.

امرأة العزيز تأمر بتجميل يوسف

﴿ وَآتَتْ كُلَّ وَاحِدَةٍ مِّنْهُنَّ سِكِّينًا ﴾

يقطعنَ بالسكينِ من أشهى الفواكه آكلين ٢١
كانتْ زليخا خططتْ لتفاجئَ المتلومين ٢٢
قد أصدرتْ أمرًا إلى خُدَّامها والعاملين ٢٣
قالتْ لهم : قوموا على تجميلِ يوسفَ مجمعين ٢٤
قد جملوه فزاد حُسنًا فوق وصفِ الواصفين ٢٥

لقد جيء بالحلوى والفاكهة بعد انتهاء الطعام ، وكانت السكاكين موضوعة على الموائد ، أمام كل امرأة من المدعوات سكين ، وذلك لاستعمالها فى قطع الفاكهة، كان هذا هو ظاهر الغرض من وضع السكاكين ، أمام المدعوات ، بيد أن امرأة العزيز ، كانت تبغى من وراء هذا أمراً آخر .

لقد قدرت أمرًا ، بإحساسها كامرأة ، وقد أصابت فى تقديرها ، لقد تحقق فعلاً ما قدرته ، فقد كانت ذكية ، وتعلم حقيقة ما تنطوى عليه نفوس النساء العاذلات لها ، لكونها أحبت يوسف . . وقد قلن فى حقها ما قلن ، لومًا وتجريحًا .

لقد قدرت أن هؤلاء النسوة العاذلات ، حينما تقع أنظارهن على يوسف ، سوف يبهرهن حسنه الأخاذ ، وسوف يذهلن عما في أيديهن ، وحينئذ سوف يقطعن أيديهن بالسكاكين ، بدلاً من قطع الفاكهة . . !.

وإتماما للمكيدة التى دبرتها،والغرض الذى ترمى إليه من وراء دعوتها هؤلاء النسوة، كانت قد أصدرت أمرها إلى خدم القصر، أن يهيأوا يوسف ، ليبدو أكثر بهاءً وحسنًا . . وأن يرجلوا شعره ، بما يشبه عملية «الماكياج» وأن يلبسوه أحسن الملابس . . ففعلوا ما أمرتهم به سيدة القصر . . فازداد حسنًا على حسنه الذى منحه الله إياه . . ذلك لأنه أعطى شطر الحسن ؛ فقد ثبت فى الحديث الصحيح،فى حديث الإسراء والمعراج :أن رسول الله ﷺ ، مر بيوسف عليه السلام ، فى السماء الثالثة قال: « فإذا هو قد أعطى شطر الحسن » رواه مسلم فى كتاب الإيمان .

وفى رواية عند الطبرى: أن رسول الله ﷺ قال: « أعطى يوسف وأمه شطر الحسن ».

وعند الطبرى أيضا ، عن النبى ﷺ أنه قال: « أعطى يوسف وأمه ثلث حسن أهل الدنيا ، وأعطى الناس الثلثين ـ أو قال : أعطى يوسف وأمه الثلثين ، والناس الثلث».

قال القرطبى فى قوله تعالى : ﴿ وَآتَتْ كُلَّ وَاحِدَةٍ مِّنْهُنَّ سِكِّينًا ﴾ . لأن حضور النساء، معهن سكاكين ، إنما هو لطعام يقطع بالسكاكين هكذا فى كتاب « إعراب القرآن » له: وقال فى كتاب «معانى القرآن » له « المتكأ » الطعام وقيل: « المتكأ » كل ما اتكئ عليه عند طعام أو شراب أو حديث ؛ وهذا هو المعروف عند أهل اللغة، إلا أن الروايات قد صحت بذلك، وحكى القتبى أنه يقال: اتكأنا عند فلان ، أى أكلنا، والأصل فى «متكأ» موتكأ، ومثله مُتزن ومُتعد، لأنه من وزنت ووعدت ووكأت .

ويقال : اتكأ يتكئ إتكاء ، حكى الكسائى والفراء أن السكين يذكر ويؤنث ، وقال الجوهرى : والغالب عليه التذكير . والأصمعى : لا يعرف فى السكن إلا التذكير.

انبهار النسوة من حسن يوسف

﴿ وَقَالَتِ اخْرُجْ عَلَيْهِنَّ فَلَمَّا رَأَيْنَهُ أَكْبَرْنَهُ وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ ﴾

من بعدِ ذا قالت ليوسفَ : فاستمعْ كى تستبين ٢٦
اخرجْ على جمعِ النساءِ لكى يَرَيْنكَ أجمعين ٢٧
فأطاعَها ، فرأينه فى الحسنِ ليس له قرين ٢٨
وأصابهُن من الذهولِ ودهشة المتعجبين ٢٩
قد صِرنَ أيضًا كالسكارى، ذاكم الوصف الأمين ٣٠
ودماؤهن غدتْ تسيلُ من المُدى (١) ، هذا يقين ٣١

بعد أن تمت عملية التجميل ليوسف الصديق خبأته امرأة العزيز فى إحدى غرف القصر ، ثم قال له : يا يوسف ! اسمع لما أقول لك . . إننى آمرك فاطع أمرى، فإننى لم أعهد فيك مخالفة لأمرى.

ثم أردفت قائلة: هذا الأمر يا يوسف ،ليس فيه إساءة لك ، ولن يكلفك شيئا . . .
وهو : أننى دعوت سيدات الوزراء والأعيان فى مصر فى بيتى كلهن ، وقد أبدين رغبتهن فى أن يرينك.

ولا غرو فهن ضيوفى ، والضيف لا يدخر جهدًا فى إكرام ضيوفه ، وتلبية رغبة الضيف جزء من إكرامه ، فأحب أن ألبى رغبتهن . . فإياك يا يوسف أن ترفض أمرى، فتكون بهذا قد أسأت إلى إساءة بالغة ، بخذلانى أمام ضيوفى، فضلا عن إساءتك لضيوفى أنفسهن.

فماذا قال يوسف للمرأة جوابًا عن أمرها له : أنا على استعداد لتلبية رغبة ضيوفك أيتها السيدة ، فقالت له : إذن، اخرج من هذا الباب ، وسوف تجد نفسك وسط بهو كبير ، مملوء بالضيوف هن كل سيدات الطبقة العليا فى مصر.

دخل يوسف من الباب ، فوجد نفسه بين جمع من النساء فوقف بينهن ينظر يمنة ويسرة ، قبيل دخول يوسف ، كانت الفاكهة قد وضعت أمام المدعوات وأخذن يقطعن

(١) المدى : السكاكين .

التفاح والأترج بالسكاكين . . وبينما كان النساء يتلذذن بأكل الفاكهة ، وإذا صوت امرأة العزيز يقرع أسماعهن كالإنذار تقول: انظرن ! هذا يوسف . ﴿ فَلَمَّا رَأَيْنَهُ أَكْبَرْنَهُ ﴾ أى أعظمن شأنه ، وأجللن قدره . . فى تلك الأثناء كانت كل امرأة منهن فى يدها سكين ، تستعملها فى قطع الفاكهة . . ﴿ وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ ﴾ . . وهن يظنن أنهن يقطعن الفاكهة بالسكاكين ، والمراد أنهن أحدثن جروحًا بأيديهن من السكاكين ، وهن منصرفات بالنظر إلى حسن يوسف الذى خلب ألبابهن سحره . . فصارت الدماء تنزف من أيديهن ، دون أن يشعرن بذلك .

قال الفخر الرازى فى تفسيره ﴿ فَلَمَّا رَأَيْنَهُ أَكْبَرْنَهُ وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ ﴾ : وههنا مسائل:

المسألة الأولى : فى ﴿ أَكْبَرْنَهُ ﴾ قولان :

الأول : أعظمنه . . الثانى : « أكبرن » بمعنى حضن . . قال الأزهرى : والهاء للسكت ، يقال : أكبرت المرأة إذا حاضت ، وحقيقته دخلت فى الكبر، لأنها بالحيض تخرج من حد الصغر إلى حد الكبر .

وفيه وجه آخر،وهو أن المرأة إذا خافت وفزعت ،فربما أسقطت ولدها فحاضت ، فإن صح تفسير الإكبار بالحيض ، فالسبب فيه ما ذكرناه، قوله تعالى : ﴿ وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ ﴾ كناية عن دهشتهن وحيرتهن.والسبب فى حسن هذه الكناية ،أنها لما دهشت ، فكانت تظن أنها تقطع الفاكهة ، وكانت تقطع يد نفسها ، أو يقال : إنها لما دهشت صارت بحيث لا تميز نصابها من حديدها ، وكانت تأخذ الجانب الحاد من ذلك السكين بكفها ، فكان يحصل الجراحة فى كفها.

المسألة الثانية : اتفق الأكثرون على أنهن إنما أكبرنه ، بحسب الجمال الفائق والحسن الكامل، قيل : كان فضل يوسف على الناس ؛ فى الفضل والحسن ، كفضل القمر ليلة البدر على سائر الكواكب ، وعن النبى ﷺ قال: «مررت بيوسف عليه السلام ليلة عُرج بى إلى السماء ، فقلت لجبريل عليه السلام :من هذا ؟ فقال: هذا يوسف ، فقيل : يا رسول الله ، كيف رأيته ؟! قال: كالقمر ليلة البدر ».

وقيل : كان يوسف إذا سار فى أزقة مصر ، يُرى تلألؤ وجهه على الجدران ، كما يُرى نور الشمس ، من السماء عليها ، وقيل : كان يشبه آدم يوم خلقه ربه ، وهذا القول ، هو الذى اتفقوا عليه .

انبهار النسوة من حُسن يوسف

﴿ ... وَقُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ مَا هَذَا بَشَرًا إِنْ هَذَا إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ ﴿٣١﴾ ﴾

هتفَ النسَاءُ وقلن قولاً جاءَ في الذكرِ المبين ٣٢
هذا لعَمْرُ اللهِ ملكٌ في ثِيَابِ الآدمين ٣٣

ها نحن أولاء لا نزال نتحدث عن جمع النسوة اللاتى دعتهن امرأة العزيز إلى منزلها ، هذه الدعوة كان ظاهرها ، تناول الطعام فى صورة التكريم والضيافة ، لسيدات علية القوم . فى حين كانت الحقيقة غير ذلك . . . هى أن النسوة ما دعتهن امرأة العزيز إلا لكى يرين فتاها فى طلعته البهية ، وحسنه الساحر الأخاذ .

ولا غرو فإنهن إذا ما رأينه فسوف يكففن عنها لومهن ويعذرنها فى حبه ، ذلك لأن جماله لا يمكن أن تصبر المرأة أمامه أو تتماسك ، لا سيما إذا ما كانا معاً يجمعهما بيت واحد . وفعلاً لقد كانت المرأة صادقة فى إحساسها ، صائبة فى تقديرها ، ذلك لأن النسوة حينما رأين يوسف انبهرن من حسنه الذى لم يرين مثله فى أحد من البشر مطلقاً ، وأصابهن من الذهول ما أفقدهن الشعور بالدماء تنزف من أيديهن ، من عمل السكاكين الحادة التى استعملنها فى قطع التفاح والأترج .

عند ذلك هتف النساء جميعهن ، فأبدين إعجابهن دون تحفظ . . وانطلقت ألسنتهن بعبارات الغزل والإعجاب . . وكأن المتنبى كان حاضراً هذا المشهد حينما هتف قائلاً :

خَفَ الله واستر ذا الجمال ببرقع   إذا لحت حاضت فى الخدور العواتق

ولنتصور ونتخيل ماذا قال النسوة فى هذا الموقف . . فإحداهن مثلاً : قالت : إن وجهه يتلألأ برجولة نادرة ، وجمال ملائكى ، وعيناه تعكس تعبيراً من الصفاء المطلق . . وقالت امرأة أخرى : سبحان الله ! ما أجمل هذه الصورة ! لقد أبدع الله حسنه ، فجعله آية ! ، وقالت ثالثة : لا شك أن هذا ليس من البشر ، وأحسب أنه من الملائكة الكرام فى ثياب الآدمين !

لقد اطمأنت امرأة العزيز ، وشعرت بسعادة غامرة لنجاح خطتها ، فقد وقع فى قلوب النسوة من حسن يوسف ، ما أفقدهن رشدهن ، بحيث قطعن أيديهن وهن لا يدرين ،

وأن يوسف التى لاموها فى حبّه ، وقالوا عنها : ﴿ تُرَاوِدُ فَتَاهَا عَن نَّفْسِه ﴾ لم يكن عبداً أو خادماً كما زعمن ، ولكنه فى الواقع فوق مستوى البشر ، ومن ثم فلا حرج عليها فى حبّه ، وحينئذ رأت امرأة العزيز ، أن لا بأس عليها من أن تصرح ، أمام هؤلاء النسوة ، بمكنون حبها لهذا الإنسان الذى جمعتها الأقدار وإياه ، فى بيت واحد ، يغدو ويروح صباحاً ومساءً أمام عينيها ، وهى تحترق فى داخلها . . . ومن ثم فلا عار عليها فى إعلان حبها ليوسف ، وتعترف به أمامهن جميعاً .

قال الفخر الرازى فى تفسيره ﴿ قُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ مَا هَذَا بَشَرًا إِنْ هَذَا إِلاَّ مَلَكٌ كَرِيمٌ ﴾ :

قرأ أبو عمرو « وقلن حاشا لله » بإثبات الألف بعد الشين ، وهى رواية الأصمعى عن نافع ، وهى الأصل لأنها من المحاشاة ، وهى التنحية والتبعيد ، والباقون بحذف الألف ، للتخفيف ، وكثرة دورانها على الألسن ، اتباعاً للمصحف .

وحاشا ، كلمة تفيد معنى التنزيه . . والمعنى ههنا تنزيه الله تعالى عن العجز ، حيث قدر على خلق جميل مثله . . وأما قوله تعالى: ﴿ حَاشَ لِلَّهِ مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِن سُوءٍ ﴾ فالتعجب من قدرته على خلق عفيف مثله . قوله تعالى : ﴿ مَا هَذَا بَشَرًا إِنْ هَذَا إِلاَّ مَلَكٌ كَرِيمٌ ﴾ فيه وجهان : الوجه الأول ، وهو المشهور : أن المقصود منه إثبات الحسن العظيم له ، قالوا : لأنه تعالى ركز فى الطباع أن لا حى أحسن من الملك ، كما ركز فيها أن لا حيّ أقبح من الشيطان .

فلما أرادت النسوة المبالغة فى وصف يوسف عليه السلام بالحسن،لا جرم شبهنه بالملك.

الوجه الثانى ، وهو الأقرب عندى : أن المشهور عند الجمهور أن الملائكة مطهرون عن بواعث الشهوة ، وجواذب الغضب ، ونوازع الوهم والخيال ، فطعامهم توحيد الله تعالى ، وشرابهم الثناء على الله تعالى .

ثم إن النسوة لما رأين يوسف ، لم يلتفت إليهن البتة ، ورأين عليه هيبة النبوة ، وهيبة الرسالة وسيما الطهارة قلن : إنا ما رأينا فيه أثراً من أثر الشهوة . ولا شيئاً من البشرية ، لقد ترقى عن حد الإنسانية ودخل فى الملكية ، فإن قالوا : فإن كان المراد ما ذكرتم ، فكيف يتمهد عذر تلك المرأة عند النسوة ؟!

قلنا : قد تقرر أن الممنوع متبوع ، فكأنها قالت لهن : مع هذا الخلق العجيب ، وهذه السيرة الملكية المطهرة ، فحسنه يوجب الحب الشديد ، وسيرته الملكية توجب اليأس عن الوصول إليه ، فلهذا السبب وقعت فى المحبة والحسرة والأرق والقلق . وهذا الوجه فى تأويل الآية أحسن . . والله أعلم .

امرأة العزيز تعترف أمام النسوة

﴿ قَالَتْ فَذَٰلِكُنَّ الَّذِي لُمْتُنَّنِي فِيهِ وَلَقَدْ رَاوَدتُّهُ عَن نَّفْسِهِ فَاسْتَعْصَمَ ﴾

لكن زليخا قررتْ لنسائها كى تستبين ٣٤
هذا الذى لمتنَّنى فى حبِّه فى اللائمين ٣٥
تالله قدْ راودتُه فأبىَ إباءَ الرافضين ٣٦

واقع الحال يوحى بصدق المقولة التى ترددت فى مصر ، لا سيما بين نساء الطبقة الحاكمة ، بأن امرأة العزيز قد راودت فتاها عن نفسه .

وبما أن امرأة العزيز ، قد اطمأنت بأن النسوة اللاتى لمنها قبلاً ، سوف يلتمسن لها عذراً ، لا سيما بعد أن رأين يوسف الصديق ، فانبهرن من حسنه الذى حدا بهنّ أن يصفنه بقولهن : ﴿ حَاشَ لِلَّهِ مَا هَٰذَا بَشَرًا إِنْ هَٰذَا إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ ﴾ .

ولاغرو فلو قدر لأى واحدة منهن ، أن تكون مكان امرأة العزيز ، لما كان لها مندوحة عما حدث . . أى لسوف تفعل ما فعلته !!

هذه المعانى كلها كانت تدور فى رأس امرأة العزيز ، من ثم فالموقف قد تهيأ للبوح بمكنون صدرها ، إذ لا مناص لها من الاعتراف ، أمام جمع النسوة بالحقيقة بما حدث ، فهتفت قائلة ـ وكأنها تلقى حملاً ثقيلاً كانت تحمله :

﴿ قَالَتْ فَذَٰلِكُنَّ الَّذِي لُمْتُنَّنِي فِيهِ وَلَقَدْ رَاوَدتُّهُ عَن نَّفْسِهِ فَاسْتَعْصَمَ ﴾ أرأيتن إلى حسنة ؟! ألا ترون أنه ظاهرة غير طبيعية، فى حسنه، فى قوامه، فى تكوينه ؟! هذا الذى لاكتنى الألسنة بسببه ، هذا الذى أفقدنى صوابى حسنه ، كما أفقدكن أيضاً فقطعتن أيديكن وأنتن ذاهلات ، لمجرد رؤيتكن له مرة واحدة ، نعم لقد راودته عن نفسه ، فأبى فى عفة وكبرياء ، وأنفة ، فصرت أمامه كالجارية، وهو السيد ، أتوسل إليه فيأبى .

قال القرطبى فى تفسيره : ﴿ قَالَتْ فَذَٰلِكُنَّ الَّذِي لُمْتُنَّنِي فِيهِ ﴾ لما رأت افتتانهن بيوسف أظهرت عذر نفسها بقولها ﴿ لُمْتُنَّنِي فِيهِ ﴾ أى بحبه و « ذلك » بمعنى « هذا » وهو اختيار الطبرى . . . وقيل : الهاء للحب : و « ذلك » على بابه ، والمعنى :

ذلكن الحب الذى لمتننى فيه، أى حب هذا هو ذلك الحب ، واللوم والوصف بالقبيح ، ثم أقرت وقالت : ﴿ وَلَقَدْ رَاوَدتُّهُ عَن نَّفْسِهِ فَاسْتَعْصَمَ ﴾ أى امتنع .

قال الفخر الرازى فى تفسيره ﴿ قَالَتْ فَذَٰلِكُنَّ الَّذِي لُمْتُنَّنِي فِيهِ ﴾ فإن قيل : فلم قالت ﴿ فَذَٰلِكُنَّ ﴾ مع أن يوسف عليه السلام كان حاضراً ؟! الجواب من وجهين :

الأول: قال ابن الأنبارى: أشارت بصيغة «ذلكن» إلى يوسف بعد انصرافه من المجلس.

الثانى : وهو الذى ذكره صاحب الكشاف ، وهو أحسن ما قيل : أن النسوة كن يقلن : إنها عشقت عبدها الكنعانى ، فلما رأينه ووقعن فى تلك الدهشة قالت : هذا الذى رأيتموه ، هو ذلك العبد الكنعانى الذى لمتننى فيه ، يعنى أنكن لم تتصورنه حق تصوره . . . فلما أظهرت عذرها عند النسوة فى شدة محبتها له ، كشفت عن حقيقة الحال فقالت : ﴿ وَلَقَدْ رَاوَدتُّهُ عَن نَّفْسِهِ فَاسْتَعْصَمَ ﴾ .

امرأة العزيز تهدد يوسف بالسجن

﴿ ... وَلَئِن لَّمْ يَفْعَلْ مَا آمُرُهُ لَيُسْجَنَنَّ وَلَيَكُونًا مِّنَ الصَّاغِرِينَ (٣٢) ﴾

إنى عجبتُ لأمرِهِ وغدَوت فى المتحيِّرين ٣٧
ماذا يريد فتَاىَ هذا؟! إنه كالمستهين ٣٨
إنْ لم يطعْ أمرى فسوفَ ينالُه السجنُ المهين ٣٩
ويذوقُ طعمَ الذلِّ بين النازلين المجرمِين ٤٠

ها نحن أولاء لا نزال مع امرأة العزيز ، وهى تفضى بمكنون صدرها ، وتبوح بأعز أسرارها التى كانت دفينة بين جوانحها . . إنها تخرج كنوز أعماقها أمام ضيوفها اللاتى دعتهن إلى منزلها لغرض ما فى نفسها .

لقد اعترفت بحبها ليوسف الصديق ، وأنها هى التى راودته عن نفسه ، فأبى فى عزة وعفة دونما تردد .

ثم تتساءل المرأة أمام جمع النسوة ، فتعبر عن حيرتها ودهشتها من هذا الفتى الذى أذلها برفضه فتقول : إننى فى دهشة ، متعجبة من هذا الفتى العبرانى ، لا أستطيع أن أصل إلى ما يدور فى رأسه ، ولا أعرف نوعية أحاسيسه ، أهو متبلد العاطفة ، لا يدرى ما هو الحب ؟! أم هو يحتقرنى ، ويتعالى على لكونه فريداً فى حسنه ؟!

إن امرأة العزيز حينما أفضت أمام النسوة ، بخاص سرها ، قد أجابت على كثير من التساؤلات التى كانت تدور فى رءوس وأفكار ضيوفها عن هذا الموضوع ، من ناحية ، ومن ناحية أخرى ، أراحت نفسها ، فكأنها حينما تفوهت بهذا السر ، ألقت بحمل ثقيل كان يرهقها .

وهنا شعرت المرأة أنها قد تنازلت وترخصت، أكثر مما ينبغى، فمن ثم حاولت أن تستعيد شيئاً من كبريائها الجريح ، فتقول متوعدة يوسف ، من خلال حديثها لجمع النسوة .

إن هذا الفتى المغرور ، الذى رفض كل دواعى المودة والحب ، سوف يندم على رفضه هذا . . ومع ذلك فأمامه فرصة يفكر فيها ، يراجع نفسه ، فلعله يهتدى إلى

الصواب ، فيقرر ما يراه فيه مصلحة له .

فإذا ما اعتدل في تفكيره ، واستجاب إلى ما أدعوه إليه ، فبها ونعمت ، ومن ثم سوف ينعم فى الخير ، ويرفل فى النعيم ، فى أحضان الحب والجمال .

وإن أصر على عناده ، وتمادى فى غروره ، وأبى أن يستجيب لما أدعوه إليه ، فسوف أجعله عبرة لكل معتبر ، سوف آمر به فيوضع في السجن ، وحينئذ يذوق العذاب والهون بين القتلة والسفاحين من عتاة المجرمين .

قال الفخر الرازى في تفسيره :

﴿ وَلَئِن لَّمْ يَفْعَلْ مَا آمُرُهُ لَيُسْجَنَنَّ وَلَيَكُونًا مِّنَ الصَّاغِرِينَ ﴾ والمراد أن يوسف عليه السلام إن لم يوافقها على مرادها ، يوقع فى السجن وفى الصَّغار ، ومعلوم أن التواعد بالصغار له تأثير عظيم فى حقوق من كان رفيع النفس ، عظيم الخطر ، مثل يوسف عليه السلام .

النساء ينصحن يوسف أن يأتى الفاحشة

....

هب النساءُ يقلنَ للصديقِ قولَ الناصحين ٤١
لِمَ لَمْ تطعْها؟! إن هذا من فعالِ الجاهلين ٤٢
إنْ لم تطعْها فهو سجنٌ فى غياهبَ مظلمين ٤٣
وتذوقُ ويلاتِ العذابِ ، وحسرةَ المتندمين ٤٤

كما أسلفنا فإن امرأة العزيز ، كشفت القناع عن أخص وأهم أسرارها ، وهذا يدل على أنها تجردت من الحياء ،فلم تحتفظ لنفسها بشىء من الأسرار ، حتى ما يتعلق بالعفة وقدسيتها .. ولا غرو فحينما يكون للحديث صلة بالعفة ، فإنه يكون بكل الحرص والحذر ، من الجنسين معاً ، بحيث يحومان حوله تلميحاً أو كناية .

أما هذا المرأة فإنها تجردت من الحياء ، بتصريحها أنها هى التى راودت يوسف عن نفسه فتشابهت بهذا مع البغايا اللاتى يبذلن كل شىء .. !!

فى هذا الجو الذى اتسم بالحديث عن المراودة وما يتصل بها ، تحلل النسوة من كل قيد وألقين عذار الحياء ، ثم التففن حول يوسف ، يمطرنه بوابل من نصحهن .. ملخص هذا النصح منهن كلهن: لماذا لم تطع سيدتك فيما أمرتك به؟! ألم تر إلى جمالها ؟! إنها امرأة جميلة ، وكل رجل يتمناها بل ويركع تحت قدميها ، ليحظى بنظرة ودّ من عينيها الجميلتين .

إنك بهذا التصرف الأحمق ، تجعل الجميع ينظرون إليك على أنك لا تتمتع بذكاء يؤهلك لمعرفة ما ينفعك وما يضرك .

ألا تعلم أنك خادمها وتحت رحمتها ؟! إنها تستطيع أن تنكل بك لان زوجها ذو مركز خطير فى الدولة كما تعلم ، فهو يحبها وبالتالى لا يرفض لها طلباً .

استدرك يا يوسف قبل أن تفوتك الفرصة ، واقبل من سيدتك ما عرضته عليك ، ففى ذلك الخير كله لك .

وإذا ظللت مصراً على رفض مبادلتها حباً بحب ، وطاعتها فيما عرضته عليك ، فإنك سوف تلقى فى غياهب السجن ، وتعامل معاملة المجرمين ، فى الأعمال الشاقة ، فضلاً عن التعذيب ، وما يترتب على ذلك من ذل وهوان .

هلم يا يوسف قبل أن تفوتك الفرصة ، وحينئذ تندم . . ولات ساعة مندم .

يالله !! إن هؤلاء النسوة اللائى انبرين يسدين النصح ليوسف الصديق ، ويحرضنه على ارتكاب الفاحشة ، ويزينّها له ، بل يخوفنه من عدم الاستجابة لنصحهن ، وقد عبرن بصدق عن كونهن لا يعرفن عن الحياء والعفة شيئاً ، وبالتالى فهن أبعد وأجهل من أن يعرفن عن الدين والحلال والحرام . ما يردعهن .

الحلقة الخامسة

امرأة العزيز وضيوفها يدعون يوسف للفاحشة

يوسف يتضرع إلى مولاه ليصرف عنه كيدهن

يوسف في السجن يفسر الأحلام

يوسف يدعو إلى توحيد الله

تحقق تفسير يوسف للأحلام

الآيات القرآنية التى صيغ منها شعر الحلقة الخامسة

﴿ قَالَ رَبِّ السِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ وَإِلاَّ تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُن مِّنَ الْجَاهِلِينَ (٣٣) فَاسْتَجَابَ لَهُ رَبُّهُ فَصَرَفَ عَنْهُ كَيْدَهُنَّ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (٣٤) ثُمَّ بَدَا لَهُم مِّنْ بَعْدِ مَا رَأَوُا الآيَاتِ لَيَسْجُنُنَّهُ حَتَّىٰ حِينٍ (٣٥) وَدَخَلَ مَعَهُ السِّجْنَ فَتَيَانِ قَالَ أَحَدُهُمَا إِنِّي أَرَانِي أَعْصِرُ خَمْرًا وَقَالَ الآخَرُ إِنِّي أَرَانِي أَحْمِلُ فَوْقَ رَأْسِي خُبْزًا تَأْكُلُ الطَّيْرُ مِنْهُ نَبِّئْنَا بِتَأْوِيلِهِ إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ (٣٦) قَالَ لا يَأْتِيكُمَا طَعَامٌ تُرْزَقَانِهِ إِلاَّ نَبَّأْتُكُمَا بِتَأْوِيلِهِ قَبْلَ أَن يَأْتِيَكُمَا ذَلِكُمَا مِمَّا عَلَّمَنِي رَبِّي إِنِّي تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لاَّ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَهُم بِالآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ (٣٧) وَاتَّبَعْتُ مِلَّةَ آبَائِي إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ مَا كَانَ لَنَا أَن نُّشْرِكَ بِاللَّهِ مِن شَيْءٍ ذَلِكَ مِن فَضْلِ اللَّهِ عَلَيْنَا وَعَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَشْكُرُونَ (٣٨) يَا صَاحِبَيِ السِّجْنِ أَأَرْبَابٌ مُّتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ (٣٩) مَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِهِ إِلاَّ أَسْمَاءً سَمَّيْتُمُوهَا أَنتُمْ وَآبَاؤُكُم مَّا أَنزَلَ اللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَانٍ إِنِ الْحُكْمُ إِلاَّ لِلَّهِ أَمَرَ أَلاَّ تَعْبُدُوا إِلاَّ إِيَّاهُ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ (٤٠) يَا صَاحِبَيِ السِّجْنِ أَمَّا أَحَدُكُمَا فَيَسْقِي رَبَّهُ خَمْرًا وَأَمَّا الآخَرُ فَيُصْلَبُ فَتَأْكُلُ الطَّيْرُ مِن رَّأْسِهِ قُضِيَ الأَمْرُ الَّذِي فِيهِ تَسْتَفْتِيَانِ (٤١) وَقَالَ لِلَّذِي ظَنَّ أَنَّهُ نَاجٍ مِّنْهُمَا اذْكُرْنِي عِندَ رَبِّكَ فَأَنسَاهُ الشَّيْطَانُ ذِكْرَ رَبِّهِ فَلَبِثَ فِي السِّجْنِ بِضْعَ سِنِينَ (٤٢) ﴾ .

أشعار الحلقة الخامسة

مع يوسف الصّديق لازلنا جميعًا ذاهبين ١
مع قصة عصماء فى أحداثها ، هذا يقين ٢
الحقّ فيها صَار مهزومًا أمام المبطلين ٣
فلنستمع لضراعة الصديق حتى نستبين ٤
يرجو الإله فإنه المرجو للمتضرعين ٥
يارب من كيد النساء فإننى فى الخائفين ٦
السجن خير من حياة فى عداد الفاسقين ٧
يارب فاصرف كيدهنّ ، فإننى عبد أهين ٨
إن لم تُجب لضراعتى ، فقد انهزَمْتُ وأستكين ٩
وأبوءُ بالخسران ، ثم أعدُّ بين الجاهلين ١٠
رب السماء يجيب للمضطر بين الضارعين ١١
قد كان يوسف فى ضراعته صدوقًا إذ يبين ١٢
رب السماء أجابه ، هو ناصر المستضعفين ١٣
أنجاه من كيد النساء، فإنه كيد متين ١٤
الظلم طبع كامن فى نفس بعض الحاكمين ١٥
وعزيز مصر فلم يكن مثل الرجال الحازمين ١٦
عرف الحقيقة مثل ضوء الشمس عند المبصرين ١٧
لكن تجاهلها ومال إلى فعال الظالمين ١٨
قد أودعوا الصديق سجنًا مظلمًا كالمجرمين ١٩
رحماك رب العرش بالصديق نسل الأكرمين ٢٠
من كيد إخوته نجا ، قد كان من حقد دفين ٢١
والآن فى كيد جديد ، صار فى سجن مهين ٢٢
يا ابن الكرام فأنت فى عين العناية عن يقين ٢٣
السجن مكتوب عليك فلا تكن فى الساخطين ٢٤
فاصبر على البلوى تَفُزْ بالمجد بين الخالدين ٢٥
قد كان قبلك أنبياء فلم يكونوا مترفين ٢٦

لاقوا من الأهوال ما قد فاق وصف الواصفين ٢٧
اثنان دخلا معه سجن الظالمين المفترين ٢٨
فى السجن قد لاقى رجالاً صادقين وكاذبين ٢٩
عرفوه ذا خلق كريم من سلالة صالحين ٣٠
أَنِسُوا به وقد اطمأنوا أنه رجل فطين ٣١
السِجن تَكثر فيه أحلام لكل النازلين ٣٢
ونبوة الصديق ، تأويل الرؤى للحالمين ٣٣
فأبوه بَشَّرَه بهذا قبل عشرات السنين ٣٤
لما رأى الرؤيا التى أودته للذل المهين ٣٥
فى السجن صار يفسر الأحلام بالقول الأمين ٣٦
هذا السجين رأى منامًا ، وهو بين النائمين ٣٧
فأتى إلى الصديق قال له : أتيتك أستبين ٣٨
إنى رأيت الخمر أعصرها لأجل الشاربين ٣٩
ماذا ترى ؟! إنى أحس براحة المستبشرين ٤٠
أما الأخير فقال : جئت لأسمع القول المبين ٤١
إنى رأيت الخُبْزَ أحْمِلُه لأجل الآكلين ٤٢
الطير تأكل منه كانوا كثرة للناظرين ٤٣
هيا فأخبرنى ، فإنك فى عداد المحسنين ٤٤
هذا هو الصديق يسدى نصحه للسامعين ٤٥
هى فرصة للنصح حتى لا يظلوا جاهلين ٤٦
يدعو إلى التوحيد بالحسنى وبالقول المبين ٤٧
إن يأتكم رزق ، فذا أدريه قبلاً عن يقين ٤٨
ذاكم لأن الله علمنى من العلم المكين ٤٩
إنى تركت القوم ما كانوا بحق مؤمنين ٥٠
كفروا بدين الله ما كانوا بِبَعْثٍ موقنين ٥١
لاشك هم يوم القيامة فى عداد الخاسرين ٥٢
وسلكت درب السابقين من الجدود الأولين ٥٣
درب الخليل ونسله ، كانوا هداة مهتدين. ٥٤
يدعون للتوحيد أهل الجهل ثم المشركين ٥٥

الله يعطى فضله من شاء كونوا فاهمين ٥٦
والناس أكثرهم على النعماء ليسوا شاكرين ٥٧
يا إخوة السجن اسمعوا قولى وكونوا مدركين ٥٨
إن تؤمنوا بتعدد الأرباب لستم راشدين ٥٩
اللهُ ربُّ الخَلْق ليس له شريكٌ أو معين ٦٠
هو واحدٌ ، هو قادرٌ ، هو قاهرٌ لا يستكين ٦١
فلقد عبدتم دونه أسماء صنع الآدمين ٦٢
أنتم كذا آباؤكم كنتم جميعًا جاهلين ٦٣
كل الذين عبدتموهم دون رب العالمين ٦٤
لا يملكون النفع أو ضرًا لكل العابدين ٦٥
والناس أكثرهم فليسوا للحقيقة عارفين ٦٦
من بعد ذلك قال يوسف : إذ يجيب السائلين ٦٧
عما رأى الساقى فقال : نجوت من سجن لعين ٦٨
فلسوف تخرج من ظلام السجن والمستضعفين ٦٩
والخَمْرَ تَسْقِيها العزيزَ ، وتغتدى فى الآمنين ٧٠
عما رأى الخباز قال : كأنه وحى مبين ٧١
إنى أراك تموت صلبًا ، بئس صَلْبُ المجرمين ٧٢
والطير تأكل رأسك المصلوب أكل الجائعين ٧٣
قد تمت الفتوى ، وتم القول كونوا مدركين ٧٤
من بعد ذلك قال للساقى : مقال السائلين ٧٥
اذكُرْ لدى مولاك شأنى ، فهو لاه عن يقين ٧٦
إنى سُجِنْتُ بغير ذنبٍ ، علّه أن يستبين ٧٧
ساقى المليك غدا طليقًا ، فى عداد الآمنين ٧٨
لكنه نَسِىَ الوصية صار فى المتشاغلين ٧٩
إن الذى أنساه شيطان يضل الذاكرين ٨٠
قد ظل يوسف قابعًا فى السجن بضعًا من سنين ٨١
قالوا : فتلك عقوبة ، من عند رب العالمين ٨٢
لسؤاله الساقى فهذا ليس للمتوكلين ٨٣

يوسف يهرع إلى مولاه ضارعا

....

مع يوسف الصّديق لازلنا جميعًا ذاهبين ١
مع قصة عصماء فى أحداثها ، هذا يقين ٢
الحقّ فيها صَار مهزومًا أمام المبطلين ٣
فلنستمع لضراعة الصديق حتى نستبين ٤
يرجو الإله فإنه المرجو للمتضرعين ٥

ها نحن أولاء نواصل الحديث عن يوسف الصديق ، متابعين أحداث قصته بكل الاهتمام ، ولا غرو فهى قصة فريدة فى أحداثها وظروفها وملابساتها ، لذلك نالت اهتمام الباحثين قديمًا وحديثا ، ومرجع الاهتمام بها هو : كون طرفى الخصومة فيها ،أو أبطال القصة ، من مشاهير شخصيات المجتمع آنذاك : فالمرأة أحد طرفى الخصومة ، هى امرأة العزيز ، أى رئيس وزراء مصر كما قيل ، والطرف الثانى ، هو يوسف الصديق خادم المرأة ، أو فتاها فى ظاهر الأمر . . بيد أنه فى الوقت نفسه مساو للمرأة فى الشهرة ، لكونه خادمها وطرفًا فى القضية معها ، إذًا فشهرته مستمدة من شهرتها .

وشتان ما بين شهرة وشهرة فشهرتها هى أنها امرأة خائنة ، خانت زوجها ولوثت شرفه وهو من هو ،من حيث المسئولية والجاه والسلطان . . أما شهرة يوسف الصديق ، فهى الشرف والعفة والطهارة ، شاب فى عنفوان الشباب والفتوة ، عفّ وأبى أن يأتى الفاحشة ، وحافظ على شرف سيده الذى آواه فى بيته وأكرم مثواه .

إن يوسف بسلوكه هذا ، أبان عن معدنه الأصيل الذى ينزع به إلى آباء كرام ، لكونه الرابع فى السلسلة الذهبية ، من آل بيت النبوة . . فهو يوسف نبى الله ابن يعقوب نبى الله ابن إسحاق نبى الله ابن إبراهيم خليل الله!!

والواقع أن الناس منذ نزول القرآن الكريم ، إلى وقتنا هذا ، يقرأون أو يستمعون سورة «يوسف » بشغف ، وبعد قراءتها أو الاستماع إليها ، يدور الحديث بين السامعين عن أحداثها التى سجلها القرآن الكريم وحيًا يتلى على سمع الدنيا كلها . . ولا غرو فهى تحكى قصة خالدة . . بطلاها يمثلان خطين متناقضين تمامًا .

أحدهما :يوسف الصديق ، يمثل الإيمان والطهارة والعفة فى أسمى وأروع الصور.

الثانى : امرأة العزيز ، تمثل الفجور والمجون والانحلال فى أعلى الصور.

ومع هذا فقد انتصر صوت الباطل الذى تمثله امرأة العزيز الماجنة . . وهزم صوت الحق الذى يمثله يوسف الصديق ، سليل النبوة !!

ولنعد إلى جوهر الموضوع الذى طالما أجهد الباحثين قبلنا ،فكما أسلفنا ، فقد التف النساء حول يوسف الصديق ينصحنه بالاستجابة لما عرضته عليه سيدته، وهنّ فى الوقت نفسه ، قد ألقين أقنعة الحياء، فصار حديثهن يدور حول الجنس صراحة دون كناية.

ولا إخالك أخى القارئ الكريم - حفظك الله من كل سوء - قد غاب عن خيالك الواعى ، منظر النسوة حين التففن حول يوسف . . كيف كان حالهن؟!

لقد رأى يوسف نفسه بين جمع من النسوة ، قد تحللن من كل وازع دينى أو خلقى ، فحيثما التفت وقع نظره على امرأة قد كشفت عن جزء من جسدها ، توشك أن تلتهمه بنظراتها ، بل تريد أن تحتويه بين ذراعيها . . هنالك شعر يوسف فى أعماقه بشىء من الضعف الإنسانى قد انتابه ، فخشى على نفسه أن ينهار أمام هذا الحشد من الإغراءات التى تحيط به .

من ثم اتجه إلى مولاه ، هاتفًا من أعماقه بأصدق ضراعة ، مناجيًا رب السماء والأرض ، لأنه أهل للرجاء ، وهو الذى قال : « ادعونى أستجب لكم ».

﴿ وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ ﴾ [غافر : ٦٠] وهو سبحانه وتعالى يجيب المضطر إذا دعاه .

﴿ أَمَّن يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ ﴾ [النمل : ٦٢] .

قال الفخر الرازى حول هذا المعنى :

كان قد حصل فى يوسف عليه السلام ، جميع الأسباب المرغبة فى تلك المعصية ، وهو الانتفاع بالمال والجاه ، والتمتع بالمنكوح والمطعوم ، وحصل فى الإعراض عنها جميع الأسباب المنفرة .

ومتى كان الأمر كذلك ، فقد قويت الدواعى فى الفعل ، وضعفت الدواعى فى الترك، فطلب من الله سبحانه وتعالى، أن يحدث فى قلبه أنواعًا من الدواعى المعارضة النافية لدواعى المعصية ، إذ لو لم يحصل هذا المعارض ، لحصل المرجح للوقوع فى المعصية ، خالياً عما يعارضه . . وذلك يوجب وقوع الفعل ، وهو المراد بقوله تعالى : ﴿ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُن مِّنَ الْجَاهِلِينَ ﴾ .

يوسف يفضل السجن على مقارفة الفاحشة

﴿ قَالَ رَبِّ السِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ وَإِلاَّ تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُن مِّنَ الْجَاهِلِينَ (٣٣) ﴾

يارب من كيد النساء فإننى فى الخائفين ٦
السجن خير من حياة فى عداد الفاسقين ٧
يارب فاصرف كيدهنّ ، فإننى عبد أهين ٨
إن لم تُجب لضراعتى ، فقد انهزَمْتُ وأستكين ٩
وأبوءُ بالخسران ، ثم أعدُّ بين الجاهلين ١٠

لقد لجأ يوسف الصديق إلى مولاه ضارعًا ، أن ينقذه من هذا الموقف الذى خشى على نفسه فيه من الانهيار ، أما إغراءات النساء اللاتى أحطن به من كل جانب ، كل واحدة منهن تريد منه ما أرادته امرأة العزيز من قبل .. فمن ثم هتف قائلاً : ﴿ رَبِّ السِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ ﴾ .

ولنقرأ معًا ما كتبه الأستاذ رشيد رضا فى هذا المعنى :

﴿ قَالَ رَبِّ السِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ ﴾ أى قال : أى ربى الغالب على أمرى، العالم بسرى وجهرى ، إن الحبس والاعتقال فى السجن، مع المجرمين حيث شظف العيش، أحب إلى نفسى ، وآثر عندى على ما يدعوننى إليه هؤلاء النسوة ، من الاستمتاع بهن فى ترف هذه القصور وزينتها ، والاشتغال بحبهن عن حبك ، وبقربهن عن قربك ، وبمغازلتهن عن مناجاتك .. واسم التفضيل هنا لا مفهوم له ، أو على غير بابه كما يقال : فليس المراد أن ما يدعوننى إليه ، محبوب عندى ، والسجن أحب إلى منه، وإنما معناه أن هذين الأمرين ، إذا تعارضا وكان لابد من أحدهما ، فالسجن آثر وأولى بالترجيح ؛ لأن ما فيه من المشقة ، له فائدة عاجلة ، وعاقبة صالحة ، وأما مجاهدة هؤلاء النسوة ، مع المكث معهن ، فهو أشق على المؤمن العارف بربه ، وليس له من الفائدة والعاقبة ما للسجن فهو - أى اسم التفضيل - من قبيل قول المحدثين فى بعض الأحاديث الضعيفة : هو أصح ما فى هذا الباب .

وقيل : يجوز أن يكون المراد من التفضيل ، ترجيح الأحب بمقتضى الإيمان وحكم الشرع ، على المحبوب بمقتضى الغريزة وداعية الطبع ، فإن الأنبياء والصلحاء، كسائر البشر ، يحبون النساء ، ويشتهون الاستمتاع بهن ، ولكنهم يكرهون أن يكون من غير الوجه المشروع . . إلخ ما قال » تفسير المنار جـ١٢ .

ويواصل يوسف الصديق ضراعته إلى خالقه العظيم ، بأن يتداركه قبل أن يضعف ويستسلم ، قبل أن يغرق فى تيار الشهوات، الذى تهفو إليه نفوس البشر ، لاسيما الذين هم فى غضارة الشباب مثل يوسف الصديق . . يارب إن لم تنقذنى من كيدهن بقدرتك ، فإننى ضعيف وأخشى على نفسى الانقياد لهن ، ومن ثم أكون من الخاسرين وأعد بين الجاهلين .

قال الفخر الرازى فى تفسيره :

﴿ قَالَ رَبِّ السِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ وَإِلاَّ تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُن مِّنَ الْجَاهِلِينَ (٣٣) ﴾ .

اعلم أن المرأة لما قالت ﴿وَلَئِن لَّمْ يَفْعَلْ مَا آمُرُهُ لَيُسْجَنَنَّ وَلَيَكُونًا مِّنَ الصَّاغِرِينَ (٣٢)﴾ فعند ذلك اجتمع فى يوسف عليه السلام ، أنواع من الوسوسة:

أحدها : أن زليخا كانت فى غاية الحسن.

ثانيها : أنها كانت ذات مال وثروة ، وكانت على عزم أن تبذل الكل ليوسف ، بتقدير أن يساعدها على مطلوبها .

ثالثها : أن النسوة اجتمعن عليه ، وكل واحدة منهن كانت ترغبه وتخوفه بطريق آخر ، ومكر النساء فى هذا الباب شديد .

رابعها : أنه عليه السلام كان خائفًا من شرها ، وإقدامها على قتله وإهلاكه ، فاجتمع فى حق يوسف جهات الترغيب على موافقتها ، وجميع جهات التخويف على مخالفتها ، فخاف عليه السلام أن تؤثر هذه الأسباب القوية الكثيرة فيه ، واعلم أن القوة البشرية ، والطاقة الإنسانية ، لا تفى بحصول هذه العصمة القوية ، فعند هذا التجأ إلى الله تعالى وقال : ﴿رَبِّ السِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ ﴾ .

وفيه سؤالان : السؤال الأول : السجن فى غاية المكروهية ، وما دعونه إليه فى غاية المطلوبية ، فكيف قال المشقة أحب إلى من اللذة؟!.

الجواب : أن تلك اللذة كانت تستعقب آلامًا عظيمة ، وهى الذم فى الدنيا والعقاب

فى الآخرة ، أما المكروه وهو اختيار السجن ، فيستعقب سعادات عظيمة ، وهى المدح فى الدنيا والثواب الدائم فى الآخرة ، فلهذا السبب قال: ﴿ السِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ ﴾ .

السؤال الثانى : أن حبسهم له معصية ، كما أن الزنا معصية ، فكيف يجوز أن يحب السجن مع أنه معصية؟! .

الجواب : تقدير الكلام أنه إذا كان لابد من التزام أحد الأمرين: أعنى الزنا أو السجن ، فهذا أولى ، لأنه متى وجب التزام شيئين كل واحد منهما شرٌ فأخفهما أولاهما بالتحمل.. قال تعالى : ﴿ وَإِلاَّ تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ ﴾ أمل إليهن ، يقال : صبا إلى اللهو يصبو صبوًا إذا مال.

استجابة الله لضراعة يوسف

﴿ فَاسْتَجَابَ لَهُ رَبُّهُ فَصَرَفَ عَنْهُ كَيْدَهُنَّ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (٣٤) ﴾

رب السماء يجيب للمضطر بين الضارعين ١١
قد كان يوسف فى ضراعته صدوقًا إذ يبين ١٢
رب السماء أجابه ، هو ناصر المستضعفين ١٣
أنجاه من كيد النساء، فإنه كيد متين ١٤

إن الإنسان حينما تنزل به نازلة، أيا ما كان نوعها ، فعليه أن يتخذ الأسباب المادية المتاحة لدفعها . . حتى إذا ما استنفد كل ما هو مستطاع من الأسباب ، ولما تنكشف تلك النازلة ، فعليه حينئذ أن يلجأ إلى خالق الأسباب والمسببات ، فليلجأ إلى مولاه ، يتضرع إليه ليكشفها عنه.

من ثم سوف يبادر الله بالاستجابة لضراعته ، ويكشف الضرَّ عنه ، وما ألم به ، وذلكم كان شأن يوسف الصديق ، مع امرأة العزيز أول الأمر ، حينما دعته لارتكاب الفاحشة قال : معاذ الله . . لقد رفض دعوتها دونما أدنى تردد أو تفكير .

وها هو ذا الآن مع جمع من النسوة ، كل واحدة منهن تريد منه ما أرادته امرأة العزيز من قبل . . ولا غرو فكل واحدة منهن كانت متجملة ، بحيث بدت فى أبهى وأحسن ما يمكن أن تكون ، وكل منهن تبدى مفاتنها إمعانًا فى إغراء يوسف واستمالته.

ولا ينبغى أن ننسى أن يوسف بشر ، وفى ريعان الشباب ، وللاحتمال البشرى حدود. . وهو فى وضعه الذى نتحدث عنه، فى موقف لا يقاوم ، ومن ثم فهو عرضة للاستسلام ، لذلك هرع إلى مولاه بأصدق مناجاة ، وقد كان مولاه معه ، يسمع ويرى. . ويعلم الصدق منه. . فاستجاب لضراعته ، فصرف كيدهن عنه .

ولنقرأ معًا ما كتبه الأستاذ عبد الكريم الخطيب فى كتابه «القصص القرآنى. .» قال:

« وسنرى كيف صرف الله تعالى السوء عن يوسف ، وبم صرفه ؟!.

فى السجن حصن الأمان :

لقد كان مما اختاره يوسف لنفسه ، فرارًا من الوقوع فى الفتنة ، السجن الذى تهددته به امرأة العزيز ، إن هو لم يستجب لها، حين قالت فى وجهه : ﴿ وَلَئِن لَّمْ يَفْعَلْ مَا آمُرُهُ لَيُسْجَنَنَّ وَلَيَكُونًا مِّنَ الصَّاغِرِينَ ﴿٣٢﴾﴾ لقد اختار البلاء مع الاحتفاظ بدينه ، وخلقه، ومروءته ، على العافية فى نفسه، ومع الإفساد لدينه ، وخلقه والسقوط بمروءته إلى أن قال :

لقد كان السجن هو الصارف الذى صرف الله تعالى به هذا الكيد ، الذى يراد بعبد من عباده المخلصين ، فلقد عزله هذا السجن عزلاً تامًا عن موطن الفتنة ، وباعد بينه وبين مهابها التى تهب عليه منها ».

قال القرطبى فى تفسيره : « فاستجاب له ربه » وكأنه قال: اللهم اصرف عنى كيدهن، فاستجاب له دعاءه ولطف به ، وعصمه من الوقوع فى الزنا «كيدهن» قيل: لأنهن جمع قد راودنه عن نفسه ، وقيل : يعنى كيد النساء ، وقيل : يعنى كيد امرأة العزيز ، على ما ذكر فى الآية والعموم أولى.

عزيز مصر يأمر بإيداع يوسف فى السجن

....

الظلم طبع كامن فى نفس بعض الحاكمين ١٥
وعزيز مصر فلم يكن مثل الرجال الحازمين ١٦
عرف الحقيقة مثل ضوء الشمس عند المبصرين ١٧
لكن تجاهلها ومال إلى فعال الظالمين ١٨

من واقع دراسة التاريخ ، لاسيما تاريخ الحكام والملوك، فإن الظلم يقع منهم على الآخرين ، وهو دائما ينسب إليهم ، ويواكب مسيرة حياتهم خلال مدة حكمهم. . ولا غرو فمنهم من يظلم لأن الظلم يشبع نهمه ، ويملأ فراغ نفسه ، ويغذى غروره وكبرياءه، فهو يشعر بسعادة غامرة حينما يرى ضحاياه ، عاجزين ، مستضعفين ، يجأرون بالشكوى ، فهذا أشر الحكام .

ومنهم من يظلم فى لحظة ثورة غضب ، فإذا ما هدأت ثورة غضبه ، عاد إليه صوابه، فمن ثم بادر إلى رفع الظلم عمن ظلمهم .

ومنهم من يظلم لكونه لم يستطع أن يكون عادلاً، وذلك لتأثير واقع عليه ، من جهة أخرى هى أقوى منه، لضعف فى شخصيته. . ويبدو أن عزيز مصر كان من الصنف الأخير!!

ذلك لأنه عرف الحقيقة من واقع الحال . . لقد عرف أن يوسف برىء من الدعوى الباطلة التى ادعتها عليه المرأة . . وأن المرأة هى التى راودته عن نفسه .

يالله !! لقد وضحت الحقيقة أمام عزيز مصر، وضوح الشمس فى رابعة النهار، ومع ذلك تجاهلها . . فبدلاً من أن يضع الحق فى نصابه ، فينصف يوسف ، ويعيد إليه الطمأنينة التى افتقدها ، فى هذا الموقف الرهيب الذى يقفه ، فى مواجهة الخائنة ، أمر بإيداعه فى غياهب السجن ، ولم يكتف بذلك ، بل قال له : إياك أن تتفوه بكلمة واحدة عن هذا الأمر لأحد من الناس .

أليس هذا هو الظلم بعينه ؟! بلى، إنه لظلم صارخ . . ومن ثم فقد ظلم يوسف فى هذا الأمر مرتين : مرة حينما اتهمته المرأة أنه راودها عن نفسها، كذبًا وافتراءً ، والثانية حينما تبين العزيز براءته ، ثم أمر بإيداعه السجن.

وبرغم هذا ، فلم يعترض يوسف على قرار عزيز مصر الظالم . . بل قبله راضيًا، ذلك لأن السجن فى تصوره ، كان حصن الأمان له ؛ لينجو من كيد امرأة العزيز ، والنسوة الأخريات .

يوسف فى السجن ظلما

﴿ ثُمَّ بَدَا لَهُم مِّنْ بَعْدِ مَا رَأَوُا الآيَاتِ لَيَسْجُنُنَّهُ حَتَّىٰ حِينٍ ﴿٣٥﴾ ﴾

قد أودعوا الصديق سجنًا مظلمًا كالمجرمين ١٩
رحماك رب العرش بالصديق نسل الأكرمين ٢٠
من كيد إخوته نجا ، قد كان من حقد دفين ٢١
والآن فى كيد جديد ، صار فى سجن مهين ٢٢

فى بيت العزيز ، تمت مشاورات ، وحدثت مناقشات ، تتعلق بمصير يوسف الصديق، ويبدو أن مجلس الشورى الذى كان مجتمعا لمناقشة تقرير مصير يوسف، كان فيهم من يعترض على إلحاق الضرر بيوسف ، بيد أنه صوت ضعيف فيما يبدو، أو ربما كانوا جميعًا يفكرون فى مصير يوسف ، وأخيرًا اهتدوا إلى أن قرروا إيداعه السجن لفترة ما ، وبعد ذلك قد يرون رأيا آخر بشأنه.

وهكذا ، فالأقدار تسير فى فلك القدرة الإلهية ، ومن ثم فهى لا تتفق مع مفاهيم البشر ، ولا غرو فإخوة يوسف كادوا له ، وهموا بقتله حقدًا عليه، ثم تراجعوا عن فكرة القتل ، استجابة لرأى أحدهم، إلى فكرة أخرى أخف من القتل ، فألقَوْهُ فى الجب ، لكن العناية الإلهية تداركته ، فنجا على يد أحد وراد القافلة التجارية .

وها هو ذا الآن فى محنة جديدة . . إنه طرف فى خصومة، طرفها الآخر شخصية لها خطورتها فى المجتمع . . إنها امرأة عزيز مصر .

لقد ادعت المرأة أنه راودها عن نفسها . . وبعد البحث والتحرى والتحقيق، تبين للعزيز وبطانته ، براءة يوسف الصديق ، مما نسبته إليه تلك المرأة ، وبرغم هذا ، فقد قرروا إيداعه السجن . . !!

يالله !! لقد أظلمت نفوس القوم ، عن رؤية الحق ، وبمعنى أدق ، لقد رأوا الحق، لكنهم بخلوا به ، أن يعطوه لأهله . . !!

فبدلاً من أن يكرمه عزيز مصر ؛ لكونه صان عرضه فى غيبته ، وتمسك بالفضيلة

والشرف، عاقبه بالسجن .. إنه منطق معكوس .

وبهذا نستطيع أن نقول : إن الظلم يلازم يوسف منذ طفولته ، ويلاحقه أينما حل وسار ، ويواكب مسيرة حياته .. هذا فيما يبدو للناس ، بيد أنه كان فى منطق الاقدار، طريقه إلى المجد ، والجاه ، والسلطان ، والنبوة فيما بعد .

قال الفخر الرازى في تفسيره : ﴿ ثُمَّ بَدَا لَهُم مِّنۢ بَعْدِ مَا رَأَوُا۟ ٱلْـَٔايَـٰتِ لَيَسْجُنُنَّهُۥ حَتَّىٰ حِينٍ ﴿٣٥﴾ ﴾ البداء عبارة عن تغير الرأى عما كان فى الأول.

والمراد من الآيات ، براءته بقد القميص من دُبر ، وخمش الوجه ، وإلزام الحكم إياها بقوله تعالى : ﴿ إِنَّهُۥ مِن كَيْدِكُنَّ ۖ إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ ﴿٢٨﴾ ﴾ وظهرت أنواع أخر من الآيات ، بلغت مبلغ القطع ، ولكن القوم سكتوا عنها ، سعيًا فى إخفاء الفضيحة .

لسان حال الكون يواسى يوسف

....

يا ابن الكرام فأنت فى عين العناية عن يقين ٢٣
السجن مكتوب عليك فلا تكن فى الساخطين ٢٤
فاصبر على البلوى تفُزْ بالمجد بين الخالدين ٢٥
قد كان قبلك أنبياء فلم يكونوا مترفين ٢٦
لاقوا من الأهوال ما قد فاق وصف الواصفين ٢٧

فى هذه الأبيات، نسمع لسان حال الكون ينادى يوسف الصديق، مواسيًا له فى محنته، فيذكره بأن هذا البلاء الذى أصابه، لم يكن قد أصابه صدفة أو خبط عشواء، لا، بل هو مكتوب عليه، فلا يتبرم بالقضاء ولا يسخط ، وعليه أن يصبر ، لأن الصبر من الإيمان .

ولا غرو فللصابرين عاقبة حسنة ، فى الدنيا وفى الآخرة .

أما عاقبة الصبر فى الدنيا ، فهى وصف الصابرين بالعقل الراجح والحكمة ، وأكثر الرجال شهرة فى التاريخ ، هم الذين صبروا على مرارة المصائب التى نزلت بهم ، ولا يزال الناس يتناقلون قصصهم بكل استحسان وإعجاب . . حتى فى ميادين القتال ، فإن أكثر الخصمين صبرًا ، يكون الأجدر بإحراز النصر .

وأما عاقبته فى الآخرة، فهى الفوز بدخول الجنة . . لقوله عز وجل: ﴿إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ ⑩﴾[الزمر] وتلك لعمر الله أسمى ما تتطلع إليه نفوس المؤمنين .

ها نحن أولاء لا نتصور لسان حال الكون يخاطب يوسف الصديق فيقول : هيه يا يوسف ؛ يا ابن الأكرمين ! أنت لست أول المبتلين فى هذه الدنيا . . فلقد سجل التاريخ فى صفحاته ، ما لاقاه عظماء الرجال من الأهوال ، وما نزل بهم من المصائب ، لاسيما الذين اصطفاهم واختارهم لحمل أعباء رسالاته .

ولا غرو فأنت نبى مرسل يا يوسف ، والأنبياء فى كل الأزمان ، عرضة للابتلاء، فطريقهم ليس مفروشًا بالورود ، وحياتهم لا تعرف الراحة والدعة ، وليس فى حياتهم ترف ، بل هى حياة الجهاد والصبر والمصابرة ، بحيث يعجز البيان عن تصوير ما لاقوه من أهوال ، فصبروا وصمدوا حتى حققوا ما أرسلوا من أجله.

فعليك أن تتأسى بإخوانك الأنبياء الذين سبقوك ، الذين أوذوا فى سبيل الله فصبروا ، ثم رحلوا عن هذه الدنيا ، فلقوا ربهم وهو عنهم راض .

يوسف فى السجن بين المجرمين

﴿ وَدَخَلَ مَعَهُ السِّجْنَ فَتَيَانِ ﴾

اثنان دخلا معه سجن الظالمين المفترين ٢٨
فى السجن قد لاقى رجالاً صادقين وكاذبين ٢٩
عرفوه ذا خلق كريم من سلالة صالحين ٣٠
أَنِسُوا بهِ وقد اطمأنوا أنه رجل فطين ٣١

فى اليوم الذى سيق فيه يوسف الصديق ظلمًا ، إلى السجن ، كان معه اثنان ، دخلا معه السجن، فى نفس اليوم ، ولذلك ذكرهما القرآن الكريم فقال: ﴿ وَدَخَلَ مَعَهُ السِّجْنَ فَتَيَانِ ... ﴾ والفتى مشتق من الفتوة ، وهو الذى يوصف بالجرأة والإقدام والحزم أيضًا ، ويتمتع بحيوية الشباب .

أخيرًا : استقر يوسف الصديق فى غياهب السجن ، بين معتادى الإجرام والبرءاء معًا، والصادقين والكاذبين، والخبيثين وحسنى النية . . إنه السجن الذى يجمع الأخلاط من الناس ، من كل أنواع ومعادن البشر .

بيد أن يوسف الصديق ، سرعان ما أثبت وجوده بين نزلاء السجن ، لقد تبينوا فطنته ، ورجاحة عقله ، أدركوا أنه معدن طيب ، هو غريب على مجتمع السجون ، ليس من نوع معتادى الإجرام ، بل تبينوا أنه من سلالة آباء كرام، ولا غرو فكثير من المجرمين فيهم فراسة قلما تخطئ فى الحكم على الآخرين .

فمن ثم أَنِسُوا به ، لكونهم وجدوا عنده ما يفتقدونه فى أنفسهم ، فصاروا يفضون إليه بأسرارهم ، ويستشيرونه فى أهم أمورهم وأخطرها .

قال القرطبى فى تفسيره : « واستأنس به أهل السجن ، فكان إذا خرج الرجل من السجن رجع حتى يجلس فى السجن مع يوسف ، وأحبه صاحب السجن ، فوسع عليه ثم قال له : يا يوسف ! لقد أحببتك حبًا لم أحب شيئًا حبك ، فقال يوسف : أعوذ بالله من حبك ، قال: ولم ذلك؟! فقال:أحبنى أبى،ففعل بى إخوتى ما فعلوه.. وأحبتنى سيدتى ، فنزل بى ما ترى» .

وقال ابن كثير : « ولما دخل هذان الفتيان إلى السجن ، تآلفا به وأحباه حبًا شديدًا وقالا له: والله لقد أحببناك حبًا زائدًا قال: بارك الله فيكما ، إنه ما أحبنى أحد إلا دخل على من محبته ضرر ، أحبتنى عمتى فدخل على الضرر بسببها ، وأحبنى أبى فأوذيت بسببه ، وأحبتنى امرأة العزيز فكذلك ، فقالا : والله ما نستطيع إلا ذلك . . ».

يوسف يحبه نزلاء السجن

....

السجن تكثر فيه أحلام لكل النازلين ٣٢
ونبوة الصديق ، تأويل الرؤى للحالمين ٣٣
فأبوه بَشَّرَه بهذا قبل عشرات السنين ٣٤
لما رأى الرؤيا التى أودته للذل المهين ٣٥
فى السجن صار يفسر الأحلام بالقول الأمين ٣٦

مما لا شك فيه ، أن ليس ثمة شيء أحب إلى نزلاء السجون ، من الحرية ، فأسمى ما تتطلع إليه نفس السجين هو : أن يبارح أسوار السجن اللعينة .. تلك الأسوار التى تحد من حركته ،وتقيد من خطوته ، كل نزلاء السجون دون استثناء، ينشدون الحرية .. إذن فليس غريبًا أن تكون معظم أفكار السجناء، تدور حول اليوم الذى ينعمون فيه بالحرية .. فلا غرو أن يكون ذاك اليوم هو : حلم يقظتهم .

ومن المعروف علميًا أن معظم أحلام الناس فى نومهم ، تكون ترجمة للأعمال اليومية التى يباشرونها فى يقظتهم [(١)] ، سواء أكانت أعمالاً فكرية أو جسمية . لذلك ، فإن نزلاء السجون تكثر أحلامهم ، فيصبح الواحد منهم يقص ما رآه فى نومه على الذين معه ، عساه يجد فيهم من يبشره ، بأن فى رؤياه ما يوحى بقرب انبلاج فجر حريته .. ونبوة يوسف الصديق هى: تأويل الأحاديث ، والأحاديث هى : ما يراه الناس فى المنام ، وهى معجزة له ، فإنه لم يلحقه فيها خطأ .

لقد بشره أبوه بهذه البشارة ، وذلك حينما قص رؤياه المشهورة عليه ، تلك الرؤيا التى أثارت عليه حقد إخوته ، فكادوا له ، وهموا بقتله ، ثم اكتفوا بإلقائه فى الجب.. وقد خرج من الجب إلى بيت العزيز رقيقًا .. وأخيرًا إلى السجن مظلومًا.

وبشرى يعقوب لولده هى فى قوله تعالى: ﴿ **وَكَذَٰلِكَ يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ وَيُعَلِّمُكَ مِن تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ وَيُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَعَلَىٰ آلِ يَعْقُوبَ** ﴾ إلخ الآية .

عاش يوسف الصديق حياته الجديدة بين نزلاء السجن كل صباح يجلس بينهم، يفسر لهم ما قد رأوه من رؤى وأحلام فى نومهم .. وكما ذكرنا آنفا فهو الذى لم يلحقه خطأ فى تفسير الرؤى .. لأن تفسير الأحلام معجزة له كما قيل .

---

(١) روى عوف بن مالك عن رسول الله ﷺ قال: « الرؤيا ثلاثة : منها أهاويل الشيطان ليحزن ابن آدم، ومنها ما يهتم به فى يقظته فيراه فى منامه ، ومنها جزء من ستة وأربعين جزءا من النبوة.. » تفسير القرطبى.

أحد النزلاء يحكى ليوسف رؤياه

﴿ قَالَ أَحَدُهُمَا إِنِّي أَرَانِي أَعْصِرُ خَمْرًا ﴾

هذا السجين رأى منامًا ، وهو بين النائمين ٣٧
فأتى إلى الصديق قال له : أتيتك أستبين ٣٨
إنى رأيت الخمر أعصرها لأجل الشاربين ٣٩
ماذا ترى ؟! إنى أحس براحة المستبشرين ٤٠

برغم كثرة الرؤى التى فسرها يوسف الصديق ، لنزلاء السجن ، إذ لا يمر يوم دون أن يفسر فيه ، رؤيا أو أكثر.

إلا أن اثنين من النزلاء رأيا منامين ، فسرهما يوسف ، فلم يخطئ تفسيره لهما من الحقيقة شيئا . . ولا غرو فالقرآن الكريم لم يذكر الرؤى الكثيرة التى فسرها يوسف ، لنزلاء السجن ، سوى رؤيا هذين الفتيين ، هما ساقى الملك وخبازه .

جاءه أحدهما فقال له : إنى رأيت رؤيا ، فاعبرها لى . . وقيل : كان يوسف قال لنزلاء السجن: إنى أعبر الأحلام. . قال يوسف للرائى: خيراً، فما ذا رأيت؟! قال: رأيت نفسى أعصر خمرًا ـ أى عنبًا ـ قال القرطبى فى تفسيره : « قيل : إن أحد الفتيين قال لصاحبه : تعالى حتى نجرّب هذا العبد العبرانى ، فسألاه من غير أن يكونا رأيا شيئا . . هذا قول ابن مسعود.

وقال الطبرى: لقد سألاه عن علمه فقال: إنى أعبر الرؤيا ، فسألاه عن رؤياهما . . قال ابن عباس ومجاهد: كانت رؤيا صدق رأياها، وسألاه عنها ، ولذلك صدق تأويلها. . وفى الصحيح عن أبى هريرة عن النبى ﷺ أنه قال: «إن أصدقكم رؤيا أصدقكم حديثا ».

وقيل : إن المصلوب منهما كان كاذبًا ، والآخر كان صادقًا .

وقال ابن عباس: لما رأيا رؤياهما، أصبحا مكروبين، فقال لهما يوسف : مالى أراكما مكروبين ؟! قالا : يا سيدنا ! إنا رأينا ماكرهنا ، قال: فقصّا علىّ، فقصا عليه».

قال الفخر الرازى : قال مجاهد : كانا قد رأيا حين دخلا السجن رؤيا ، فأتيا يوسف عليه السلام فسألاه عنها، فقال الساقى : أيها العالم ، إنى رأيت كأنى فى بستان ، فإذا بأصل عنبة حسنة فيها ثلاثة أغصان ، عليها ثلاثة عناقيد من عنب ، فجنيتها وكان كأس الملك بيدى فعصرته فيه وسقيتها الملك فشربه ، فذلك قوله تعالى : « إنى أرانى أعصر خمراً ».

الفتى الثانى يقص رؤياه على يوسف

﴿ وَقَالَ الآخَرُ إِنِّي أَرَانِي أَحْمِلُ فَوْقَ رَأْسِي خُبْزًا تَأْكُلُ الطَّيْرُ مِنْهُ نَبِّئْنَا بِتَأْوِيلِهِ إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ (٣٦) ﴾

أما الأخير فقال : جئت لأسمع القول المبين ٤١
إنى رأيت الخُبْزَ أحْملُه لأجل الآكلين ٤٢
الطير تأكل منه كانوا كثرة للناظرين ٤٣
هيا فأخبرنى ، فإنك فى عداد المحسنين ٤٤

ما إن انتهى الفتى الأول ـ ساقى الملك ـ من قص رؤياه على يوسف الصديق ، حتى تقدم الفتى الثانى ـ الخباز ـ فقال : أنا أيضًا ، رأيت رؤيا ، فاعبرها لى ، فأنت رجل تبدو على محياك سمات الخير والصلاح .

قال له يوسف : خيرًا رأيت ؟! هات ما عندك ! قال: رأيت كأنى أحمل فوق رأسى خبزًا ، وقد اجتمعت الطيور ـ وقد كانت كثيرة ـ تأكل من الخبز الذى كان على رأسى .

هذه الرؤيا أيها السيد ، جعلتنى أهتم بها دون غيرها ، برغم كثرة الرؤى التى رأيتها قبلاً ـ وهى كثيرة ـ بيد أننى لا أكاد أذكر منها شيئًا . . ذلك لأننى بعد أن أستيقظ من نومى أنساها تماما .

﴿ إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ (٣٦) ﴾ . أى إن الذى حملنا على سؤالك، وقص رؤيانا عليك، هو اطمئناننا إليك، واستئناسنا بك ، واعتقادنا فيك الخير ، فضلا عن الصدق الذى عرفناه عنك ، فهات أيها الصديق ما عندك ، من تأويل الأحاديث ، فماذا ترى تأويلا لرؤياى ، فإنى مشغول بها كثيرًا؟!

ولا إخالك ـ فيما أعتقد ـ تخطئ معناها وتفسيرها ، وذلك مما يبدو عليك واضحًا، فى سمعتك ،وفى سلوكك ، وفى أخلاقك . . أخلاقك التى نلت بها إعجاب كل نزلاء السجن دون استثناء.

والواقع أننا لم نعهد عليك الكذب قط. . فليس غريبا أن تكون عالما بتفسير الرؤى.

قال البيضاوى فى تفسيره: وقال الآخر: أى الخباز «إنى أرانى أحمل فوق رأسى خبزًا تأكل الطير منه ـ تنهش منه ـ نبئنا بتأويله إنا نراك من المحسنين» من الذين يحسنون تأويل الرؤيا، أو من العالمين، وإنما قالا ذلك لأنهما رأياه فى السجن يذكر الناس، ويعبر رؤياهم ، أو من المحسنين إلى أهل السجن ، فأحسن إلينا بتأويل ما رأينا إن كنت تعرفه ».

يوسف يكشف عن قدرته العلمية

﴿ قَالَ لا يَأْتِيكُمَا طَعَامٌ تُرْزَقَانِهِ إِلاَّ نَبَّأْتُكُمَا بِتَأْوِيلِهِ قَبْلَ أَن يَأْتِيَكُمَا ﴾

هذا هو الصديق يسدى نصحه للسامعين ٤٥
هى فرصة للنصح حتى لا يظلوا جاهلين ٤٦
يدعو إلى التوحيد بالحسنى وبالقول المبين ٤٧
إن يأتكم رزق ، فذا أدريه قبلاً عن يقين ٤٨

لقد انتهى الاثنان من قص رؤياهما على سمع يوسف الصديق، الذى استمع لهما، وهو يزن كل كلمة من كلام كل منهما. . ولم لا ؟!

فهو يسمع بأذنيه ، ثم يفكر بعقله ، ثم يستعمل علمه وفراسته ، فى حل رموز ومعانى الكلمات ، وفى النهاية يصدر قوله الذى يراه مناسبًا ، ومتمشيًا مع أحداث الرؤيا التى قُصَّت عليه .

ولا غرو فتأويل الأحلام ، ليس علمًا ذا قواعد يرجع إليها المفسر ، وإنما هو فراسة يمنحها الله لبعض عباده الذين يتصدون لتفسير الأحلام.

ولا غرو فالمفسر له أكثر من وسيلة ، لمعرفة تفسير الرؤيا التى تُقَصُّ عليه، منها: أنه يرى فى شخص الرائى جزءًا من تفسير رؤياه ! ومنها أيضًا :

الثقافة الواسعة ، والإلمام بأخبار السابقين ، ومعرفة الأمثال ، كل هذه الوسائل يستعملها المفسر فى تفسير الأحلام مع حفظ القرآن الكريم،ومعرفة الأحاديث الشريفة. . هذه كلها وسائل ينبغى أن تتوفر فى الذى يتصدى لتفسير الأحلام،أما يوسف الصديق ، فقد آتاه الله علم تأويل الأحاديث!!

بعد أن استمع يوسف للاثنين ، اغتنم فرصة احتياجهما له ، واعتباره فى نظرهما واعظًا ، أو معلمًا ، فقال لهما :

﴿ لا يَأْتِيكُمَا طَعَامٌ تُرْزَقَانِهِ إِلاَّ نَبَّأْتُكُمَا بِتَأْوِيلِهِ قَبْلَ أَن يَأْتِيَكُمَا . . . ﴾

أراد أن يدعوهما إلى توحيد الله ، ويرشدهما إلى الطريق القويم ، قبل أن

يخبرهما بتفسير رؤياهما ، وهذا لعمر الله منتهى الذكاء، إذ قدم لهما ما يريده ، قبل أن يعطيهما ما يريدانه .

قال الأستاذ عبد الكريم الخطيب فى كتابه « القصص القرآنى . . . ».

فهذا مما عند يوسف من علم ، إنه لا يعرف تأويل الأحلام وحدها، ولا ينبئ عن الغائب بالتوسم فى وجه الشاهد وحسب ، بل إنه يخبر عن الغائب الذى لا يرى الناس منه شاهدًا أو دليلاً ، إنه يخبر عن الطعام الذى سيأتيهما من خارج السجن ، اليوم ، أو غدًا ، أو بعد غد ، إلى ما شاء الله من أيام مقبلة ، وهذا العلم هو مما كان لعيسى عليه السلام كما يقول سبحانه على لسان عيسى لبنى إسرائيل :

﴿ وَأُنَبِّئُكُم بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ فِي بُيُوتِكُمْ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾
[آل عمران : ٤٩]

يوسف يدعو إلى توحيد الله

﴿ ذَلِكُمَا مِمَّا عَلَّمَنِي رَبِّي إِنِّي تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لاَّ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَهُم بِالآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ (٣٧) ﴾

ذاكم لأن الله علمنى من العلم المكين ٤٩
إنى تركت القوم ما كانوا بحق مؤمنين ٥٠
كفروا بدين الله ما كانوا ببَعْث موقنين ٥١
لاشك هم يوم القيامة فى عداد الخاسرين ٥٢

ويستطرد يوسف الصديق ، مواصلا حديثه إلى الاثنين ، فيلفت أنظارهما إلى شىء هام هو : وحدانية الله عز وجل ، والاعتراف بربوبيته ، والتفانى فى عبادته وطاعته ، ثم يضرب لهما مثلاً حيًا عنه هو شخصيًا فيقول : ﴿ لا يَأْتِيكُمَا طَعَامٌ تُرْزَقَانِهِ إِلاَّ نَبَّأْتُكُمَا بِتَأْوِيلِهِ قَبْلَ أَن يَأْتِيَكُمَا . . . ﴾ .

- وهذه منزلة عظيمة ، أتدرون كيف وصلت إليها ؟! ﴿ ذَلِكُمَا مِمَّا عَلَّمَنِي رَبِّي ﴾ .

- لأننى أعبد الله وحده ، ولا أعبد ربًا سواه ، فمن ثم منحنى علم التأويل ، هو علم بعيد عن التكهن والتنجيم والسحر ، وإنما هو نورانية يقذفها الله فى قلب كل مخلص فى عبادة مولاه .

ثم أردف قائلاً : ﴿ إِنِّي تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لاَّ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَهُم بِالآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ ﴾ .

قال البيضاوى فى تفسيره هذه الآية : « تعليل لما قبله ، أى علمنى ذلك لأننى تركت ملة أولئك » ، وقال ابن كثير فى تفسيره هذه الآية : « عن ابن عباس قال: ما أدرى لعل يوسف كان يعتاف - يتنبأ بواسطة علامات يعرف بها ذلك - وهو كذلك .

يخبرهما يوسف عليه السلام أنهما مهما رأيا فى نومهما من حلم ، فإنه عارف بتفسيره ، ويخبرهما بتأويله قبل وقوعه ، ولهذا قال : ﴿ لا يَأْتِيكُمَا طَعَامٌ تُرْزَقَانِهِ إِلاَّ نَبَّأْتُكُمَا بِتَأْوِيلِهِ قَبْلَ أَن يَأْتِيَكُمَا ﴾ .

قال القرطبى فى تفسيره :« وكان هذا من علم الغيب الذى خص به يوسف ، وبين أن الله خصه بهذا العلم لأنه ترك ملة قوم لا يؤمنون بالله ، يعنى دين الملك .

ومعنى الكلام عندى : العلم بتأويل رؤياكما ، والعلم بما يأتيكما من طعامكما ، والعلم بدين الله، فاسمعوا أولاً ما يتعلق بالدين لتهتدوا ، ولهذا لم يعبر لهما حتى دعاهما إلى الإسلام».

قال الفخر الرازى فى تفسيره : ﴿ ذَلِكُمَا مِمَّا عَلَّمَنِي رَبِّي إِنِّي تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لاَّ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَهُم بِالآخِرَةِ هُمْ كَافِرُون ﴾ أى لست أخبركما على جهة الكهانة والنجوم ، وإنما أخبركما بوحى من الله ، وعلم حصل بتعليم الله ، ﴿ إِنِّي تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لاَّ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَهُم بِالآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ ﴾ .

فيه مسألتان :

المسألة الأولى : لقائل أن يقول : فى قوله تعالى : ﴿ إِنِّي تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لاَّ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ ﴾ توهم أنه عليه السلام ، كان فى هذه الملة .

فنقول : جوابه من وجهين :

الأول : أن الترك عبارة عن عدم التعرض للشىء وليس من شرطه أن يكون قد كان خائضًا فيه .

الثانى : وهو الأصح : أن يقال : إنه عليه السلام كان عبدًا لهم بحسب زعمهم واعتقادهم الفاسد، ولعله قبل ذلك، كان لا يظهر التوحيد والإيمان خوفًا منهم، على سبيل التقية ، ثم إنه أظهره فى هذا الوقت، فكان هذا جاريًا مجرى ترك ملة أولئك الكفرة بحسب الظاهر.

المسألة الثانية : تكرير لفظ « هم » فى قوله تعالى : ﴿ وَهُم بِالآخِرَةِ هُمْ كَافِرُون ﴾ لبيان اختصاصهم بالكفر ، ولعل إنكارهم للمعاد أشد من إنكارهم للمبدأ ، فلأجل مبالغتهم فى إنكار المعاد، كرر هذا اللفظ للتأكيد .

واعلم أن قوله تعالى: ﴿ إِنِّي تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لاَّ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ ﴾ إشارة إلى علم المبدأ وقوله تعالى : ﴿ وَهُم بِالآخِرَةِ هُمْ كَافِرُون ﴾ إشارة إلى علم المعاد ، ومن تأمل فى القرآن المجيد ، وتفكر فى كيفية دعوة الأنبياء عليهم السلام ، علم أن المقصود من إرسال الرسل ، وإنزال الكتب ، صرف الخلق إلى الإقرار بالتوحيد وبالمبدأ أو المعاد ، وأن ما وراء ذلك عبث .

يوسف يذكر فضل الله على آبائه

﴿ وَاتَّبَعْتُ مِلَّةَ آبَائِي إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ مَا كَانَ لَنَا أَن نُّشْرِكَ بِاللَّهِ مِن شَيْءٍ ذَلِكَ مِن فَضْلِ اللَّهِ عَلَيْنَا وَعَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَشْكُرُونَ (٣٨) ﴾.

وسلكت درب السابقين من الجدود الأولين ٥٣
درب الخليل ونسله ، كانوا هداة مهتدين ٥٤
يدعون للتوحيد أهل الجهل ثم المشركين ٥٥
الله يعطى فضله من شاء كونوا فاهمين ٥٦
والناس أكثرهم على النعماء ليسوا شاكرين ٥٧

ها نحن أولاء لا نزال مع يوسف الصديق ، وهو يواصل حديثه إلى الاثنين اللذين قصا عليه رؤياهما، إنه يسدى لهما النصح الثمين ؛ ليؤمنا بالله الواحد الأحد الذى لا معبود فى الكون بحق سواه.

ومن خلال نصحه لهما يغتنم فرصة إصغائهما لحديثه ، فيتحدث عن نفسه، وعن آبائه: إبراهيم وإسحاق ويعقوب . . فهؤلاء كانوا أنبياء مرسلين ، وقد أفنوا حياتهم فى الدعوة إلى توحيد الله.

ومع هذا فهو لم ينس أن يتبرأ من الشرك،هو وآباؤه الأولون . . ثم يردف قائلاً : ذلك هو فضل الله يعطيه من يشاء من عباده، وقد كان لنا نحن ـ أى إبراهيم وذريته ـ النصيب الأوفى من ذلك الفضل الذى امتن الله به على عباده ، ولكن معظم الناس يجحدون نعم الله ، فلا يؤدون الشكر لمانح النعم.

﴿ وَاتَّبَعْتُ مِلَّةَ آبَائِي إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ ﴾ قال ابن كثير فى تفسيره هذه الآية: يقول: هجرت طريق الكفر والشرك ، واتبعت الطريق القويم على نهج آبائى وأجدادى ـ صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين ـ وهكذا يكون حال من سلك طريق الهدى، واتبع المرسلين، وأعرض عن طريق الظالمين، فإنه يهدى قلبه ما لم يكن يعلمه ، ويجعله إمامًا يقتدى به فى الخير ، وداعيًا إلى سبيل الرشاد .

﴿ مَا كَانَ لَنَا أَن نُّشْرِكَ بِاللَّهِ مِن شَيْءٍ ﴾ هذا هو التوحيد ـ وهو الإقرار بأنه لا إله إلا هو وحده لا شريك له **﴿ ذَلِكَ مِن فَضْلِ اللَّهِ عَلَيْنَا ﴾** أى أوحاه إلينا، وأمرنا به، **﴿وَعَلَى النَّاسِ﴾** إذ جعلنا دعاة لهم إلى ذلك **﴿ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَشْكُرُونَ ﴾** أى لا يعرفون نعمة الله عليهم، بإرسال الرسل إليهم بل **﴿بَدَّلُوا نِعْمَتَ اللَّهِ كُفْرًا وَأَحَلُّوا قَوْمَهُمْ دَارَ الْبَوَارِ (٢٨)﴾**[إبراهيم] .

يوسف يناقش النزلاء فى توحيد الله

﴿ يَا صَاحِبَيِ السِّجْنِ أَأَرْبَابٌ مُّتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ (٣٩) ﴾

يا إخوة السجن اسمعوا قولى وكونوا مدركين ٥٨
إن تؤمنوا بتعدد الأرباب لستم راشدين ٥٩
الله ربُّ الخَلْق ليس له شريكٌ أو معين ٦٠
هو واحدٌ ، هو قادرٌ ، هو قاهرٌ لا يستكين ٦١

لا يزال يوسف الصديق يتحدث إلى الفتيين اللذين قصّا عليه رؤياهما ، ولا غرو فبرغم أنه يتحدث إلى الاثنين ، إلا أن حديثه كان موجهًا إلى كل المصريين آنذاك ، ذلك لأنهم كانوا يؤمنون بتعدد الآلهة . . وربما كان مع بعض نزلاء السجن،آلهة من أصنامهم يعبدونها على طريقتهم ، وهذا ما حدا بيوسف أن يقول لهم جميعًا : ﴿أَأَرْبَابٌ مُّتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ ﴾ . هذه الآلهة التى تعبدونها ، هى من صنع أيديكم ، وبالتالى فهى لا تسمع ولا تبصر، ولا تنفع ولا تضر.

أهى خير أم الله الواحد القهار، خالق السموات والارضين، والشجر والدواب والطير، وخلق الناس جميعًا . . هذه المخلوقات كلها ، أفلا تدل على وحدانية الله، وعظمته وهيمنته وقدرته ، وأنه قادر قاهر . . ولا ينبغى أن يكون له شركاء فى ملكه.

قال ابن كثير فى تفسيره هذه الآية :﴿يَا صَاحِبَيِ السِّجْنِ ... ﴾ إلخ . ثم إن يوسف أقبل على الفتيين بالمخاطبة، والدعاء لهما إلى عبادة الله وحده لا شريك له، وخلع ما سواه من الأوثان التى يعبدها قومهما فقال: ﴿ أَأَرْبَابٌ مُّتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ (٣٩) ﴾ الذى ولى كل شىء بعز جلاله ، وعظمة سلطانه ».

قال القرطبى فى تفسيره : ﴿ يَا صَاحِبَيِ السِّجْنِ ﴾ أى يا ساكنى السجن، وذكر الصحبة لطول مقامها فيه كقولك : أصحاب الجنة وأصحاب النار ﴿ أَأَرْبَابٌ مُّتَفَرِّقُونَ ﴾ أى فى الصغر والكبر والتوسط ، أو متفرقون فى العدد ﴿ خَيْرٌ أَمِ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ ﴾ .

وقيل: الخطاب لهما ولأهل السجن، وكان بين أيديهم أصنام يعبدونها من دون الله تعالى، فقال ذلك: إلزامًا للحجة، أى آلهة شتى لا تضر ولا تنفع ﴿أَأَرْبَابٌ مُّتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ ﴾ . الذى قهر كل شىء نظيره «﴿آللَّهُ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ وقيل: أشار بالتفرق إلى أنه لو تعدد الإله، لتفرقوا فى الإرادة، ولعلا بعضهم على بعض، وبين أنها إذا تفرقت لم تكن آلهة » .

يوسف يندد بما يعبده الناس من دون الله

﴿ مَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِهِ إِلاَّ أَسْمَاءً سَمَّيْتُمُوهَا أَنتُمْ وَآبَاؤُكُم مَّا أَنزَلَ اللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَانٍ إِنِ الْحُكْمُ إِلاَّ لِلَّهِ أَمَرَ أَلاَّ تَعْبُدُوا إِلاَّ إِيَّاهُ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ (٤٠) ﴾ .

فلقد عبدتم دونه أسماء صنع الآدمين ٦٢
أنتم كذا آباؤكم كنتم جميعًا جاهلين ٦٣
كل الذين عبدتموهم دون رب العالمين ٦٤
لا يملكون النفع أو ضرًا لكل العابدين ٦٥
والناس أكثرهم فليسوا للحقيقة عارفين ٦٦

ها نحن أولاء لا نزال مع يوسف الصديق، وهو يتحدث إلى الفتيين اللذين قصا عليه رؤياهما ، ناصحًا لهما ، مبينًا خطأ معتقدهما ، لا هُمَا الاثنان فحسب ، وإنما كل الذين هم على شاكلتهما لاسيما آباءهم وأجدادهم الذين ورثوا عنهم هذا المعتقد الخاطئ.

ثم يردف قائلاً : إن الآلهة التى تعبدونها من دون الله ، ليس لها أدنى وجود أو حقيقة إلا فى عقولكم أنتم . . فى حين أن العبادة لا ينبغى أن تكون إلا لله الواحد الأحد ، الذى لم يلد ولم يولد ، وليس له شريك فى ملكه . . هذا هو الدين الحقيقى الذى ارتضاه المولى عز وجل لكل خلقه ، بيد أن الناس معظمهم لا يعلمون الحقيقة .

قال ابن كثير فى تفسيره هذه الآية ﴿ مَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِهِ إِلاَّ أَسْمَاءً سَمَّيْتُمُوهَا ﴾ إلخ ثم بين لهما - أى يوسف - أن التى يعبدونها ويسمونها آلهة ، إنما هو جهل منهم ، وتسمية من تلقاء أنفسهم ، تلقاها خلفهم عن سلفهم ، وليس لذلك مستند من عند الله، ولهذا قال: ﴿ مَّا أَنزَلَ اللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَانٍ ﴾ أى حجة ولا برهان.

ثم أخبرهم أن الحكم والتصرف والمشيئة والملك كله لله، وقد أمر عباده قاطبة أن لا يعبدوا إلا إياه، ثم قال: ﴿ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ ﴾ أى هذا الذى أدعوكم إليه من توحيد الله، وإخلاص العمل له ، هو الدين المستقيم الذى أمر الله به ، وأنزل به الحجة والبرهان الذى يحبه ويرضاه ﴿ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ ﴾ .أى فلهذا كان أكثرهم مشركين».

قال البيضاوى فى تفسيره : ﴿ مَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِهِ ﴾ خطاب لهما ولمن على دينهما

من أهل مصر ﴿ إِلاَّ أَسْمَاءً سَمَّيْتُمُوهَا أَنتُمْ وَآبَاؤُكُم مَّا أَنزَلَ اللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَانٍ ﴾ أى الأشياء باعتبار أسامى أطلقتم عليها من غير حجـة تدل على تحقق مسمياتها ، فيها ، فكأنكم لا تعبدون إلا الأسماء المجردة، والمعنى أنكم سميتم ما لم يدل على استحقاقه الألوهية عقل ولا نقل آلهة ، ثم أخذتم تعبدونها باعـتبار ما تطلقون عليها ﴿ إِنِ الْحُكْمُ ﴾فى أمر العبادة ﴿ إِلاَّ لِلَّهِ ﴾ لأنه المستحق لها بالذات من حيث أنـه الواجب لذاته ، الموجد للكل والمالك لأمره ﴿ أَمَرَ أَلاَّ تَعْبُدُوا إِلاَّ إِيَّاهُ ﴾ على لسان أنبيائه، الذى دلت عليه الحجج ﴿ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ﴾ الحق وأنتـم لا تميزون المعـوج من القويم ، وهذا مـن التدرج فى الـدعوة وإلزام الحجة ، بين لهم أولا رجحان التوحيد على اتخاذ الآلهة . . .إلخ ما قال».

تعبير رؤيا الأول ، الخروج من السجن

﴿ يَا صَاحِبَيِ السِّجْنِ أَمَّا أَحَدُكُمَا فَيَسْقِي رَبَّهُ خَمْرًا ﴾

من بعـد ذلك قال يوسف : إذ يـجيب السـائلين ٦٧
عما رأى السـاقى فقال : نجوت من سـجن لعين ٦٨
فلَسـوْفَ تَخْرجُ مِنَ ظَلاَم السّجـن والمسْتضْعَفـين ٦٩
والخَمْرَ تَسْقِيهـا العـزيزَ ، وتـغتـدى فى الآمـنين ٧٠

لقد تحدث يوسف الصديق إلى الفتيين حديثًا مستفيضًا . . حدثهم عن الإيمان بالله وحده ، أنه لا شريك له فى ملكه . . وعن تعدد الآلهة التى يعبدونها من دون الله أنها لا تنفع ولا تضر ، لكونها من الجمادات، لا تسمع ولا تبصر ، وبين لهم ضلال معتقدهم الذى ورثوه عن آبائهم وأجدادهم ، لكونهم تنكروا لعقولهم بعبادتهم آلهة من دون الله لا يملكون ضرًا ولا نفعًا .

كان حديث يوسف الصديق ، موجهًا إلى كل المصريين من خلال الفتيين ، وبعد أن أدى ما عليه من حق الدعوة إلى الله ، شرع فى تأويل رؤياهما ، وقد كان الاثنان ينتظران التأويل بفارغ الصبر ، بيد أنهما لبثا يستمعان حديث يوسف إلى النهاية ، لا لكونهما راضيين مقتنعين بما يقول . . بل لكونهما مضطرين . . فقال موجها حديثه للاثنين معًا : ﴿ أَمَّا أَحَدُكُمَا فَيَسْقِي رَبَّهُ خَمْرًا ﴾ . أى أبشر أيها الساقى ، لقد جاءك الغوث والفرج من عند الله ، لسوف تخرج من ظلمات هذا السجن ، وتعود إلى عملك الأول ، ساقيا للملك ، تسقيه الخمر بيدك ، وتكون مقربًا إليه ، مرضيًا عنده .

قال القرطبى فى تفسيره : ﴿أَمَّا أَحَدُكُمَا فَيَسْقِي رَبَّهُ خَمْرًا ﴾ أى قال للساقى : « إنك ترد إلى عملك الذى كنت عليه من سقى الملك ، بعد ثلاثة أيام. . ».

قال البيضاوى فى تفسيره : ﴿ أَمَّا أَحَدُكُمَا فَيَسْقِي رَبَّهُ خَمْرًا ﴾ يعنى الشرابى ، فيسقى ربه خمرًا كما كان يسقيه قبل ، ويعود إلى ما كان عليه.

قال صاحب تفسير المنار : ﴿ يَا صَاحِبَيِ السِّجْنِ أَمَّا أَحَدُكُمَا ﴾ وهو الذى رأى أنه يعصر خمرًا ، ﴿ فَيَسْقِي رَبَّهُ خَمْرًا ﴾ يعنى بربه : مالك رقبته ، وهو الملك ، لا ربوبية العبودية ، فملك مصر فى عهد يوسف لم يدع الربوبية والألوهية كفرعون موسى وغيره ، بل كان من ملوك العرب الرعاة الذين ملكوا البلاد عدة قرون .

ورؤيا الثاني ، الحكم عليه بالموت صلبا

﴿... وَأَمَّا الآخَرُ فَيُصْلَبُ فَتَأْكُلُ الطَّيْرُ مِن رَّأْسِهِ قُضِيَ الأَمْرُ الَّذِي فِيهِ تَسْتَفْتِيَانِ (٤١)﴾

عـمّا رأى الخبّاز قال : كـأنـه وحـي مـبـين ٧١
إني أراك تموت صلبًا ، بئس صَلْبُ المجرمين ٧٢
والطير تـأكل رأسك المصلوب أكل الجائعين ٧٣
قد تمت الفتوى ، وتم القول كونوا مدركين ٧٤

لقد فرح الساقى فرحًا لا مزيد عليه ، ولم لا ؟! فهو سيبارح عالم الأسوار إلى عالم الحرية . . أما الخباز فإنه لا يزال ينتظر ما سوف ينطق به يوسف الصديق ، وقد كانت عيناه ترمقان يوسف ، بينما ازدادت دقات قلبه . . إنها لحظات انتظار ، كل دقيقه منها تعدل يومًا بأكمله. بعد أن بشر يوسف الصديق ، الساقى ، لم يلبث طويلاً ، بل أردف قائلاً وقد بدت على محياه صرامة القاضى فقال: ﴿وَأَمَّا الآخَرُ فَيُصْلَبُ فَتَأْكُلُ الطَّيْرُ مِن رَّأْسِهِ قُضِيَ الأَمْرُ الَّذِي فِيهِ تَسْتَفْتِيَانِ﴾ . فى هذه اللحظة التى نطق فيها يوسف بما نطق، أسقط فى يد الخباز ، وقد كان يتصور أن رؤياه توحى بشىء سار . . ففوجئ بما خيب ظنه ، وأبطل تصوره.

قال القرطبى فى تفسيره : ﴿وَأَمَّا الآخَرُ فَيُصْلَبُ فَتَأْكُلُ الطَّيْرُ مِن رَّأْسِهِ﴾ وأما أنت فتدعى بعد ثلاثة أيام فتصلب، فتأكل الطير من رأسك . . قال: والله ما رأيت شيئًا ، قال: رأيت أو لم تر ﴿ قُضِيَ الأَمْرُ الَّذِي فِيهِ تَسْتَفْتِيَانِ ﴾ .

ثم قال : قال علماؤنا : إن قيل : من كذب فى رؤياه ، ففسرها العابر له ، أيلزمه حكمها ؟! قلنا : لا يلزمه ، وإنما كان ذلك فى يوسف لأنه نبى ، وتعبير النبى حكم ، وقد قال : إنه يكون كذا وكذا ، فأوجد الله تعالى ما أخبر ، كما قال تحقيقًا لنبوته.

فإن قيل : فقد روى أن رجلاً جاء إلى عمر بن الخطاب فقال: إنى رأيت كأنى أعشبت، ثم أجدبت ، ثم أعشبت ثم أجدبت، فقال عمر : أنت رجل تؤمن ثم تكفر ، ثم تؤمن ثم تكفر ، ثم تموت كافرًا .

فقال الرجل: ما رأيت شيئًا ، فقال له عمر: قضى لك ما قضى لصاحب يوسف . . قلنا : ليست لأحد بعد عمر ، لأن عمر كان محدثا ، وكان إذا ظن ظنًا كان .

يوسف يطلب ممن خرج أن يذكره عند الملك

﴿ وَقَالَ لِلَّذِي ظَنَّ أَنَّهُ نَاجٍ مِّنْهُمَا اذْكُرْنِي عِندَ رَبِّكَ فَأَنسَاهُ الشَّيْطَانُ ذِكْرَ رَبِّهِ ﴾

من بـعد ذلـك قال لـلسـاقى : مـقال الـسائـلين ٧٥
اذكُرْ لـدى مولاك شـأنى ، فـهو لاهٍ عـن يقـين ٧٦
إنـى سُجِنْتُ بـغـيـر ذنبٍ ، عـلّه أنَ يـسـتـبـين ٧٧
ساقـى المـليك غـدا طلـيقًا ، فـى عداد الآمـنين ٧٨
لـكـنه نَسِى الـوصـيـة صار فـى المـتـشاغـلـين ٧٩

بعد أن نطق يوسف الصديق بتأويل رؤيا الخباز ، توجه إلى الساقى الذى عرف من تأويل الرؤيا أنه خارج من السجن . . فقال له يوسف : ﴿ اذْكُرْنِي عِندَ رَبِّكَ ﴾ يبدو أن الساقى لم ينس فى غمار فرحته أن يقول ليوسف الصديق ما معناه : سلنى ما شئت . . كلفنى بأى أمر أستـطيع القيام به لأجلك، فبادر يوسف قائـلاً له. . اذكرنى عند ربك ـ الملك ـ ذَكّرْهُ بأمرى ، فهو يـعلم أننى مظلوم ، وسجنت بغير ذنـب . . وما منع المليك من إصدار أمره بإخراجى من السجن، إلا كثرة مشاغله ،فمن ثم نسى قضيتى وشأنى . . فالذى أرجوه منك أن تذكـره بأمرى. وخرج الساقى فعلاً ، أصبح طلـيقًا فى قصر الملك يسقيه الخمر، قريبًا منه، ساهرًا لاهيًا معه ليل نهار، لا يكاد يجد لحظة فراغ يفكر فيها . . لقد أنساه الشيطان أن يذكر للملك قصة يوسف الصديق .

قال ابن كثير فى تفسيره: « لما ظن يوسف عليه السلام ، نجاة أحدهما ، وهو الساقى، قال له يوسف خفية عن الآخر ، والله أعلـم ، لئلا يشعره أنه المصلوب قال له: ﴿ اذْكُرْنِي عِندَ رَبِّكَ ﴾ يقول: اذكر قصتى عند ربك، وهو الملك، فنسى ذلك الموصى أن يذكر مولاه بذكر، وكان من جملة مكايد الشيطان، لئلا يطلع نبى الله من السجن » .

قال الأستاذ رشـيد رضا فى تفسـيره المنار : ﴿ اذْكُرْنِي عِنـدَ رَبِّكَ ﴾ أى عند سيدك الملك، بما رأيت وسمعت وعلمت من أمرى، عسى أن ينصفنى ممن ظلمونى، ويخرجنى من السجن . . وهذا الذكر يشمل دعوته إياهم إلى التوحيد ، وتأويله للرؤيا، وإنباءهم بكل ما يأتيهم من طعام وغيره قبل إتيانه . . وآخره فتواه الصريحة، فهى جديرة بأن تذكره به كلما قدم للملك شرابه. ﴿ فَأَنسَاهُ الشَّيْطَانُ ذِكْرَ رَبِّهِ ﴾ أي أنسى الساقى تذكر ربه ، وهو أن يذكر يوسف عنده ».

يوسف يمكث فى السجن بضع سنين

﴿ فَلَبِثَ فِي السِّجْنِ بِضْعَ سِنِينَ (٤٢) ﴾

إن الـذى أنـسـاه شـيـطان يـضـل الـذاكـريـن ٨٠
قد ظل يوسـف قابعًا فى السجن بضـعًا من سنين ٨١
قالـوا : فتلـك عقوبـة ، من عـند رب العـالمين ٨٢
لـسؤالـه الـسـاقى فـهـذا لـيس لـلـمـتوكـلـين ٨٣

لقد نَسى الساقى أن يذكر يـوسف عند سيده الملك ﴿ فَلَبِثَ فِي السِّجْنِ بِضْعَ سِنِينَ ﴾ أى مكث يوسف فـى السجن سبع سنين . . قـيل : إنه لبث فى السجـن بضع سنين ، لأنه اعتمد ووثق بالمخلوق ، وغفل أن يرفع حاجته إلى الخالق العظيم جل وعلا .

هذا القول ، مـردود عليه . . لقد خلق الـله الأسباب والمسببـات ، وأمر عباده أن يتخذوا الأسباب ، فإذا مـا نزلت بالإنسان نازلة ما ، فليتخذ لـها الأسباب المتاحة ، ولا ينبغى له أن يتـرك سببًا ، ما دام ذلك السبب مستطاعًا . ويوسف الـصديق ما طلب من الساقى أن يذكره عند ربه ، إلا من هذا الـقبيل ـ أى الأخذ بالأسباب . ذلك لأنه أُدخل السجن بأمر الملك ، وبالتالى فلم يـخرج هو من السجن إلا بأمر الملك أيضًا . . وما أمر الملك بإخراجه من السجن ، إلا بعد أن ذكره الساقى بأمره ، وذلك بسبب الرؤيا الفظيعة التى رآها الملك !!

فإذا كان هذا هو ما فعله يوسف ، وهو ما كان ينطوى عليه قلبه وعقله ووجدانه ، فلا يعقل أن يعاقبـه ربه على ذلك ، فليس ذلك ذنبًا يستحق العـقاب عليه . وتمشيًا مع منطق القائلين : بأن الله عاقب يوسف على سؤاله الساقى.

روى أن جبريل عليه السلام جاء يوسف الصديق ، وهو فى السـجن معاتبًا فقال له :« يا يوسف! من خلصـك من القتل من أيدى إخوتك ؟ ! قال : الله تـعالى ، قال : فمن أخرجك من الجب ؟! قال: الـله تعالى ، قال : فمن عصمك مـن الفاحشة ؟! قال : الله تعـالى ، قال : فمن صرف عـنك كيد النساء؟! قـال : الله تعالى ، قـال : فكيف تركت ربك فلم تسأله ، ووثقت بمخلوق ؟! قال : يارب كلمة زلت منى ، أسألك يا إله إبراهيم ، وإله الشيخ يعقوب أن ترحمنى ، فقال له جبريل : فإن عقوبتك أن تلبث فى السجن بضع سنين ».

الحلقة السادسة

رؤيا ملك مصر الخالدة

تفسير يوسف للرؤيا

رفض يوسف الخروج من السجن إلا بعد ظهور براءته

الملك يتبين براءة يوسف

الآيات القرآنية التي صيغ منها شعر الحلقة السادسة

﴿ وَقَالَ الْمَلِكُ إِنِّي أَرَىٰ سَبْعَ بَقَرَاتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعَ سُنْبُلاتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَاتٍ يَا أَيُّهَا الْمَلأُ أَفْتُونِي فِي رُؤْيَايَ إِن كُنتُمْ لِلرُّؤْيَا تَعْبُرُونَ (٤٣) قَالُوا أَضْغَاثُ أَحْلامٍ وَمَا نَحْنُ بِتَأْوِيلِ الأَحْلامِ بِعَالِمِينَ (٤٤) وَقَالَ الَّذِي نَجَا مِنْهُمَا وَادَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ أَنَا أُنَبِّئُكُم بِتَأْوِيلِهِ فَأَرْسِلُونِ (٤٥) يُوسُفُ أَيُّهَا الصِّدِّيقُ أَفْتِنَا فِي سَبْعِ بَقَرَاتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعِ سُنْبُلاتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَاتٍ لَّعَلِّي أَرْجِعُ إِلَى النَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَعْلَمُونَ (٤٦) قَالَ تَزْرَعُونَ سَبْعَ سِنِينَ دَأَبًا فَمَا حَصَدتُّمْ فَذَرُوهُ فِي سُنْبُلِهِ إِلاَّ قَلِيلاً مِّمَّا تَأْكُلُونَ (٤٧) ثُمَّ يَأْتِي مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ سَبْعٌ شِدَادٌ يَأْكُلْنَ مَا قَدَّمْتُمْ لَهُنَّ إِلاَّ قَلِيلاً مِّمَّا تُحْصِنُونَ (٤٨) ثُمَّ يَأْتِي مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ عَامٌ فِيهِ يُغَاثُ النَّاسُ وَفِيهِ يَعْصِرُونَ (٤٩) وَقَالَ الْمَلِكُ ائْتُونِي بِهِ فَلَمَّا جَاءَهُ الرَّسُولُ قَالَ ارْجِعْ إِلَىٰ رَبِّكَ فَاسْأَلْهُ مَا بَالُ النِّسْوَةِ اللاَّتِي قَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ إِنَّ رَبِّي بِكَيْدِهِنَّ عَلِيمٌ (٥٠) قَالَ مَا خَطْبُكُنَّ إِذْ رَاوَدتُّنَّ يُوسُفَ عَن نَّفْسِهِ قُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِن سُوءٍ قَالَتِ امْرَأَتُ الْعَزِيزِ الآنَ حَصْحَصَ الْحَقُّ أَنَا رَاوَدتُّهُ عَن نَّفْسِهِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ (٥١) ذَلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ بِالْغَيْبِ وَأَنَّ اللَّهَ لا يَهْدِي كَيْدَ الْخَائِنِينَ (٥٢) وَمَا أُبَرِّئُ نَفْسِي إِنَّ النَّفْسَ لأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ إِلاَّ مَا رَحِمَ رَبِّي إِنَّ رَبِّي غَفُورٌ رَّحِيمٌ (٥٣) ﴾ .

أشعار الحلقة السادسة

مَلِكُ البلاد لقد رأى رؤيا تهم العالمين ١
رؤياه كانت مثل فلق الصبح للمتأولين ٢
فأفاق مذعورًا فنادى أهله ومقربين ٣
قال: اسمعوا قولى ، وكونوا للمقالة مدركين ٤
رؤيا رأيتُ ولا أزال لها من المتحيرين ٥
من سبع بقرات عجاف فى عيون الناظرين ٦
يأكلن سبعًا مِثْلهنّ من السّمان المشْحمين ٧
وسنابلٌ سبعَ وسبع مثلهنْ متناقضين ٨
اليابسات أكَلْنَ سَبعَ اليانعات على اليقين ٩
هذا المليك يحدثُ العلماء والمتفقهين ١٠
من ثَم قال لهم : فأفتونى ، وكونوا صادقين ١١
قالوا له : أضغاث أحلام تجىء النائمين ١٢
بل إننا لسنا بتأويل الحديث بعالمين ١٣
قد كان صاحب يوسف فى القوم بين الحاضرين ١٤
سمع الحديث ، تذكر الأحلام فى السجن المهين ١٥
وتذكر الصّدّيقَ فى تأويله للحالمين ١٦
تأويله ، قد كان صدقًا ، يشبه الوحى المبين ١٧
فورًا توجه للمليك فكان ساقيه الأمين ١٨
أوحى له عن يوسف الصديق ذى العلم المتين ١٩
بل قال : أرسلنى إليه ، لكى أراه وأستبين ٢٠
فورًا أتى الساقى إلى الصديق فى السجن اللعين ٢١
قد كان يوسف قابعًا فى السجن بين المجرمين ٢٢
ناداه هيا أفتنا بالصدق فُتيا عالمين ٢٣
فى سبع بقرات سمان ، ثم سبع عاسفين ٢٤
العاسفات أكلن للسبع السمان على اليقين ٢٥
أيضًا وسبع سنابلٍ خُضر لعين الناظرين ٢٦

مع يابسات مثلهنّ ، أكلنهنّ ، لمستبين ٢٧
يا صاح هيا أفتنا ، فلقد غدونا حائرين ٢٨
كى أرجعنّ إلى المليك ليعلمنّ ويستبين ٢٩
والناس كل يعلمون ، ولم يظلوا جاهلين ٣٠
فأجابه الصديق من علم النبوة ، إذ يُبين ٣١
رؤيا المليك نذير سوء للبرية أجمعين ٣٢
إن تفهموا أسرارها ، لا لن تكونوا هالكين ٣٣
أوفا لهلاك إذا أبيتم أن تكونوا فاهمين ٣٤
تأويلها ، خصبٌ يعمّ الأرض كونوا حاذرين ٣٥
ويكون ذلك سبع أعوام تباعًا كاملين ٣٦
لكن سأوصيكم ، فكونوا للوصية مدركين ٣٧
عند الحصيد ذروا السنابل دون درس سالمين ٣٨
بعد السنين الخصب يأتى الجدب كالقدر المبين ٣٩
فيكون سبعًا مثل سبع الخصب عند الحاسبين ٤٠
فيعم كل الأرض ، صار الناس كلاً جائعين ٤١
الجدب يأكل كل مخزون القديم من السنين ٤٢
إلا قليلاً سوف يبقى حيث كنتم محصِنين ٤٣
الخصب ثم الجدب من تقدير رب العالمين ٤٤
كل العوالم للإله تضرعوا متجردين ٤٥
ويجىء عام بعد هذا فيه غوث الضارعين ٤٦
الناس قد نعموا فصاروا للفواكه عاصرين ٤٧
عاد الرسول إلى المليك ، ويحمل القول المبين ٤٨
أفضى إليه بقول يوسف ، ذلك الرجل الفطين ٤٩
قال المليك : فأحضِروه ، فنعمت الرجل الأمين ٥٠
فلتحضِروه لكى أراه وأسمعنّ وأستبين ٥١
عاد الرسول ليوسف فى السجن عود مُبشرين ٥٢
ناداه ! أبشر يا سليل المجد يا ابن الأكرمين ٥٣
الغوث جاء إليك يسعى ، كنت بين المهملين ٥٤
هيا أجب ملك البلاد ، تنلْ أمان الآمنين ٥٥

لكنّ يوسف لم يُجب ، وأبى إباء الرافضين ٥٦
بل قال للساقى: فلستُ بخارج كالمستكين ٥٧
عُدْ واسأل الملك العظيم ، تساؤل المستفهمين ٥٨
عن نسوة قطعن أيْديَهن دهشًا أجمعين ٥٩
الله يعلم كيدهنّ ، وفوق كيد الكائدين ٦٠
أنعم بيوسف إنه قد كان ذا عقل رزين ٦١
لم يُسرِعَنّ إلى الخروج بلهفة المتعجلين ٦٢
هل يَخرجَنّ ويرتضى بإشاعة المتقولين؟! ٦٣
قد كان يبغى أن يُبَرأ من مقال الشائعين ٦٤
من أجل ذا أثنى عليه محمدٌ كالمعجبين ٦٥
جمع المليك نساء مصر وقال: إنى مستبين ٦٦
ما شأن يوسف؟! أخْبِرنّى بالحقيقة واليقين ٦٧
هل كان يوسف صادقًا؟! أم قارف الفعل المشين ٦٨
فأجبنه بالحق، يوسف لم يكن فى الخائنين ٦٩
لا ما علمنا عنه سوءًا ، فهو ذو شرف أمين ٧٠
لكنْ زليخا أعلنت فى سمع كل الحاضرين ٧١
الحق سوف أقوله : كى أنصف المستضعفين ٧٢
فأنا الذى راودت يوسف ، أطلب الفعل المشين ٧٣
ولقد أبى أن يستجيب ، فكان ذا خُلق ودين ٧٤
فليطمئن عزيز مصر ، وليكن فى الموقنين٧٥
ما خنته فى عرضه ، والله خير الشاهدين ٧٦
لا أدعى أنى برئت من الذنوب الأصغرين ٧٧
لكننى أخشى الخيانة ، أو سلوك الخائنين ٧٨
فالخائنون فلن يكونوا فى عداد المهتدين ٧٩
أما النفوس فإنها من صنع رب العالمين ٨٠
هى للهوى والسوء تدعو بئس دعوى المفسدين ٨١
لكننى لم أقترف لكبيرة كالماجنين ٨٢
الله يغفر كل ذنب إن يشأ للتائبين ٨٣

رؤيا ملك مصر

﴿ وَقَالَ الْمَلِكُ إِنِّي أَرَىٰ ...﴾

مَلِكُ البلاد لقد رأى رؤيا تهم العالمين ١
رؤياه كانت مثل فلق الصبح للمتأولين ٢
فأفاق مذعورًا فنادى أهله ومقربين ٣
قال: اسمعوا قولى ، وكونوا للمقالة مدركين ٤
رؤيا رأيتُ ولا أزال لها من المتحيرين ٥

فى إحدى الليالى التى أعقبت خروج ساقى الملك من سجنه، وكان قد رأى رؤيا منامية ، ففسرها له يوسف الصديق ، وبشره بالخروج من ظلمات السجن إلى عالم الحرية . . وصدق يوسف الصديق فى تفسيره .

فى إحدى تلك الليالى ، رأى عزيز مصر رؤيا منامية ، وقد كانت أحداث تلك الرؤيا توحى بمفاهيم هامه . . ولا غرو فهو ملك البلاد ، ورؤياه لها أهمية خاصة ، غير رؤى السوقة ، وعامة الشعب. إذ ربما تكون رؤياه لأجل الشعب الذى يتولى قيادته وحكمه ، وليست لأجله ولأسرته فحسب ، كشان عامة الناس . لقد استيقظ الملك مذعورًا من أحداث تلك الرؤيا التى رآها . . فاستدعى الحكماء والعلماء ، من المتخصصين فى فروع العلم والمعرفة .

الملك فى حيرة ، أعصابه مشدودة متوترة من تأثير الرؤيا على نفسه . . ونفسه مرهقة متعبة ، لا يكاد يهدأ أو يستقر .

لقد اجتمع العلماء والحكماء عند الملك فى قصره ، جلس إليهم ، تحدث معهم حديثًا مستفيضًا عن الأحلام ، وعن اعتقاد الناس فيها ، وتأثيرها وعلاقتها بأحداث الحياة، وعن كونها تشف عن المستقبل فى حياة الأفراد والمجتمعات، ثم قال لهم : لقد رأيت رؤيا هامة فى ليلتى هذه ، وهذه الرؤيا أخالها من الرؤى الخطيرة ؛ لأن أحداثها توحى بأشياء هامة لها خطورتها ، لكن لا أدرى ما هى؟!

إننى فى حيرة من أحداثها . . فكم رأيت من الرؤى قبل ذلك ، بيد أننى لم ألتفت لأى منها ، لأننى لم أشعر بأهمية أى منها آنذاك .

الملك يقص رؤياه على جلسائه

﴿ ... سَبْعَ بَقَرَاتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعَ سُنْبُلاتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَاتٍ ﴾

من سبع بقرات عجاف فى عيون الناظرين ٦
يأكلن سبعًا مثلهنّ من السّمان المشْحمين ٧
وسنابلٌ سبع وسبع مثلهنْ متناقضين ٨
اليابسات أكَلْنَ سَبعَ اليانعات على اليقين ٩

بعد أن جمع الملك ، الحكماء والعلماء والفقهاء، من خواص رجال دولته ، وتحدث إليهم عن مقدمات رؤياه التى رآها، وأبدى لهم من أحداثها، بدأ يقص عليهم الرؤيا فقال: رأيت فى نومى شيئًا عجبًا !! رأيت سبع بقرات سمان غلاظ ، وسبع بقرات عجاف مهازيل ، البقرات السبع العجاف ، اقبلن على السبع السمان ، فأكلنهن جميعًا بحيث لم يبقين منهن شيئًا . . حدث هذا فى رؤياى ، ولا أزال أتمثله أمامى الآن.

ورأيت سبع سنبلات خضر ، قد أقبل عليهن سبع سنبلات يابسات ، فأكلنهن أيضًا حتى أتين عليهن ، فلم يبق منهن شىء. والأغرب من هذا أن البقرات العجاف ، لم يَبْد عليهن تضخمًا أو زيادة فى حجمهن ، بعد أكلهن السبع السمان . . وكذلك السنابل السبع اليابسات، فلم يتغير منهن شىء بعد أكلهن السنابل الخضر اليانعات.

« قال القرطبى فى تفسيره: « لما دنا فرج يوسف عليه السلام، رأى الملك رؤياه، فنزل جبريل فسلم على يوسف وبشره بالفرج وقال: إن الله مخرجك من سجنك ، وممكّن لك فى الأرض، يذل لك ملوكها، ويطيعك جبابرتها، ومعطيك الكلمة العليا على إخوتك، وذلك بسبب رؤيا رآها الملك، وهى كيت وكيت، وتأويلها، كذا وكذا، فما لبث فى السجن أكثر مما رأى الملك الرؤيا حتى خرج، فجعل الله الرؤيا أولاً ليوسف ، بلاء وشدة ، وجعلها آخرًا ، بشرى ورحمة ، وذلك أن الملك الأكبر الريان بن الوليد، رأى فى نومه ، كأنما خرج من نهر يابس سبع بقرات سمان، فى أثرهن سبع عجاف، وقد أقبلت العجاف على السمان فأخذن بآذانهن ، فأكلنهن إلا القرنين ، ورأى سبع سنبلات خضر قد أقبل عليهن سبع يابسات فأكلنهن ، حتى أتين عليهن ، فلم يبق منهن شىء . . إلخ .

قال الفخر الرازى فى تفسيره :

﴿ ... سَبْعَ بَقَرَاتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعَ سُنْبُلاتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَاتٍ ﴾ .

« المسألة الثانية : أنه تعالى جعل تلك الرؤيا سببًا لخلاص يوسف عليه السلام من السجن ، وذلك لأن الملك لما قلق واضطرب بسببها ؛ لأنه شاهد أن الناقص الضعيف استولى على الكامل القوى، فشهدت فطرته بأن هذا ليس بجيد ، وأنه منذر بنوع من أنواع الشر ، إلا أنه ما عرف كيفية الحال فيه ، والشىء إذا صار معلومًا من وجه وبقى مجهولاً من وجه آخر ، عظم تشوف الناس إلى تكميل تلك المعرفة ، وقويت الرغبة في إتمام الناقص ، لاسيما إذا كان الإنسان عظيم الشأن ، واسع المملكة ، وكان ذلك الشىء دالاً على الشر من بعض الوجوه ، فبهذا الطريق قوى الله داعية ذلك الملك فى تحصيل العلم ، بتعبير هذه الرؤيا .

الملك يطلب تأويل رؤياه من العلماء

﴿ يَا أَيُّهَا الْمَلأُ أَفْتُونِي فِي رُءْيَايَ إِن كُنتُمْ لِلرُّءْيَا تَعْبُرُونَ ﴿٤٣﴾ ﴾

هذا المليك يحدثُ العلماء والمتفقهين ١٠
من ثَم قال لهم : فأفتونى ، وكونوا صادقين ١١

برغم كثرة ما يراه الملك من رؤى فى نومه كل ليلة ، فهو لا يكاد يذكر منه شيئًا ، فمنذ أن يستقيظ ، تتبخر أحداث ما يراه فى نومه .. إلا هذه الرؤيا ، فإنها أثارت انتباهه ، وجعلته يستدعى العلماء والفقهاء والحكماء، وربما السحرة ، أملاً فى أن يجد لدى أحد منهم ، أو لديهم كلهم تفسيرًا لرؤياه تلك ، يطمئن إليه.

لقد قص الرؤيا عليهم جميعًا ثم قال : هيا أفتونى فى رؤياى هذه ، ولا غرو فأنتم صفوة الشعب، فاعبروا هذه الرؤيا إن كان لديكم علم بتأويل الأحلام. بيد أنهم وجموا جميعًا ،فلم يجيبوا بما كان يتوقع أن يجده لديهم جميعًا ، بل خيبوا ظنه حينما تكلموا .

لقد أعجز الله ذلك الجمع الكبير من صفوة القوم ، والذين استدعاهم الملك ليعبروا له رؤياه ، أعجزهم عن فهم تعبير هذه الرؤيا الغريبة ، ليس لدى أحدهم جوابًا شافيًا .. لقد عمّى الله عليهم فهمها ؛ ليصير ذلك سببًا لخلاص يوسف من محنته.

قال الصابونى فى « صفوة التفاسير » : ﴿ يَا أَيُّهَا الْمَلأُ أَفْتُونِي فِي رُءْيَايَ إِن كُنتُمْ لِلرُّءْيَا تَعْبُرُونَ ﴾ أى يا أيها الأشراف من رجالى وأصحابى ، أخبرونى عن تفسير هذه الرؤيا ، إن كنتم تجيدون تعبير الأحلام ، وتعرفون مغزاها .

قال ابن كثير فى تفسيره : ﴿ يَا أَيُّهَا الْمَلأُ أَفْتُونِي فِي رُءْيَايَ إِن كُنتُمْ لِلرُّءْيَا تَعْبُرُونَ ﴾ هذه الرؤيا من ملك مصر ، مما قدر الله تعالى، أنها كانت سببًا لخروج يوسف من السجن، معززًا مكرمًا ، وذلك أن الملك رأى هذه الرؤيا فهالته وتعجب من أمرها ، وما يكون فى تفسيرها ، فجمع الكهنة والحزأة - جمع حاز ، هو المتكهن - وكبراء دولته وأمراءه ، وقص عليهم ما رأى، وسألهم عن تأويلها .

قال القاضى بيضاوى فى تفسيره :﴿ كُنتُمْ لِلرُّءْيَا تَعْبُرُونَ ﴾ إن كنتم عالمين بعبارة الرؤيا ، وهى الانتقال من الصور الخيالية ، إلى المعانى النفسانية ، التى هى مثالها من العبور ، وهى المجاوزة .

لم يجد الملك تفسيرا لرؤياه

﴿ قَالُوا أَضْغَاثُ أَحْلَامٍ وَمَا نَحْنُ بِتَأْوِيلِ الْأَحْلَامِ بِعَالِمِينَ (٤٤) ﴾

قالوا له : أضغاث أحلام تجيء النائمين ١٢
بل إننا لسنا بتأويل الحديث بعالمين ١٣

كما أسلفنا، فإن الملك قص رؤياه على الحاضرين، من صفوة القوم: علماء وحكماء وفقهاء ومفكرين . ولبث منتظرًا إجابة منهم جميعًا ، أو حتى من أحدهم . . كان ينتظر الإجابة بفارغ الصبر ، لقد كان قلقًا غير مستقر فى تفكيره ، وأعصابه مشدودة .

فماذا كانت إجابتهم ؟! إجابة سجلها القرآن الكريم وحيًا يتلى على سمع الدنيا : ﴿ قَالُوا أَضْغَاثُ أَحْلَامٍ وَمَا نَحْنُ بِتَأْوِيلِ الْأَحْلَامِ بِعَالِمِينَ ﴾ . أى هذه الرؤيا التى رأيتها ، وقصصت علينا أحداثها ، لعلها أضغاث أحلام مما يراها النائمون وما أكثرها !! وهى عادة تكون عالقة فى ذهن النائم ، من أثر أحداث مرت به فى يومه ، فيراها فى نومه . وعلى كل حال، فتأويل الأحلام ، علم خطير ليس ميسرًا لكل ذى علم ، فهو علم له قواعده وأصوله ، ومن ثم فلا ينبغى لنا أن نقول فيه بغير دراية أو دراسة .

قال الفخر الرازى فى تفسيره: ﴿قَالُوا أَضْغَاثُ أَحْلَامٍ وَمَا نَحْنُ بِتَأْوِيلِ الْأَحْلَامِ بِعَالِمِينَ﴾ . واعلم أن القوم ما نفوا عن أنفسهم ، كونهم عالمين بعلم التعبير ، بل قالوا: إن علم التعبير على قسمين : منه ما تكون الرؤيا فيه متسقة منتظمة ، فيسهل الانتقال من الأمور المتخيلة ، إلى الحقائق العقلية الروحانية ، ومنه ما تكون فيه مختلطة مضطربة ، ولا يكون فيها ترتيب معلوم ، وهو المسمى بالأضغاث . والقوم قالوا إن رؤيا الملك من قسم الأضغاث ، ثم أخبروا أنهم غير عالمين بتعبير هذا القسم ، وكأنهم قالوا : هذه الرؤيا مختلطة من أشياء كثيرة ، وما كان كذلك فنحن لا نهتدى إليها، ولا يحيط عقلنا بها ، وفيه إيهام أن العالم فى هذا العلم ، والمتبحر فيه ، قد يهتدى إليها.

قال القاضى بيضاوى فى تفسيره : ﴿ وَمَا نَحْنُ بِتَأْوِيلِ الْأَحْلَامِ بِعَالِمِينَ ﴾ . أى هذه أضغاث أحلام، وهى تخاليط جمع ضغث، وأصله مما جمع من أخلاط النبات وحزم . . يريدون بالأحلام ، المنامات الباطلة خاصة ، أى ليس لها تأويل عندنا ، وإنما التأويل للمنامات الصادقة ، فهو كأنه مقدمة ثانية للعذر فى جهلهم بتأويله .

الذى خرج من السجن يتذكر يوسف

﴿ وَقَالَ الَّذِي نَجَا مِنْهُمَا وَادَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ ﴾

قد كان صاحب يوسف فـى القوم بين الحاضرين ١٤
سمع الحديث ، تذكر الأحـلام فى السجن المهين ١٥
وتـذكـر الـصّدّيـقَ فـى تـأويـلـه لـلـحـالـمـين ١٦
تأويـله ، قـد كان صدقًا ، يـشبه الـوحى المبين ١٧

فى الوقت الذى تحدث فيـه ملك مصر ، للعلماء ، والحكماء والـفقهاء والسحرة، عن رؤياه التى أهمته بغرابة أحداثها ، فضلاً عن تصوره أنها رؤيا هامة ، وأهميتها تتعلق بدولته وشعبه، وربما لكل الأمم المعاصرة آنذاك . فى ذلك الوقت ، كان ساقى الملك ، الذى خرج من السجن ، شاهدًا وسامعًا لكل ما دار بين الملك وجميع الحاضرين .

فى ذلك الوقت ، تذكر الساقى ، يوسـف الصديق ، الذى فسر له رؤياه ، وبشره بالخروج من السجن ، وقـد كان تفسيره صدقًا كأنه وحى منزل مـن عند الله ، وقد كان تذكُّره هذا بعد سنين قضاها يوسف فى السجن ، برغم أنه أوصاه عند خروجه فقال له: ﴿اذْكُرْنِي عِندَ رَبِّكَ﴾ أى عند سـيدك الملك ، غـير أن إرادة الله قـد سبقت ، أن يـظل يوسف فى السجن ، إلـى أن يرى الملك رؤياه تلك ، فيعبرها يـوسف . . إنها الأسباب والمسببات التى تنظم حركة الكون!!

قال الأستاذ رشيد رضا فى تفسيره « المنار : ﴿وَقَالَ الَّذِي نَجَا مِنْهُمَا وَادَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ ﴾ أى من صاحبى السجن ، وهو الساقى أحد أركان القصة ، وادكر بعد أمة ، أى والحال أنه تذكر بعد طائفة طويلة من الزمن ، وصية يوسف إياه ، بأن يذكره عند سيده الملك، فأنساه الشيطان ذلك .

قال الأستاذ عبـد الكريم الخطيب فى كتـابه « القصص القرآنى » وتـكثر الأحاديث حول حلم الملك،وتدور فى محيطه التخريجات والتخرصات ، وترجف المدينة بالتكهنات والأراجيف ، ويشارك ساقى الملك ، صاحب يوسـف فى سجنه ، هذا الذى يخب فيه الناس ويضعون،وهنا يصحو هذا الغافى من غفوته ، ويفيق من سكرته ، فيذكر يوسف

وماله من قدرة خارقة على تأويل الأحاديث والأحلام..».

قال الفخر الرازى فى تفسيره: ﴿وَادَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ﴾ بعد أمة أى بعد حين ، وذلك لأن الحين إنما يحصل عند اجتماع الأيام الكثيرة ، كما أن الأمة إنما تحصل عند اجتماع الجمع العظيم ، فالحين كان أمة من الأيام والساعات .. إلى أن قال : وحاصل الكلام أنه إما أن يكون المراد وادّكر بعد وجدان النعمة عند ذلك الملك ،أو المراد وادكر بعد النسيان .

الساقى يذهب ليوسف فى السجن

﴿ أَنَا أُنَبِّئُكُم بِتَأْوِيلِهِ فَأَرْسِلُونِ (٤٥) ﴾

فوراً توجه للمليك فكان ساقيه الأمين ١٨
أوحى له عن يوسف الصديق ذى العلم المتين ١٩
بل قال : أرسلنى إليه ، لكى أراه وأستبين ٢٠
فوراً أتى الساقى إلى الصديق فى السجن اللعين ٢١
قد كان يوسف قابعًا فى السجن بين المجرمين ٢٢

لقد تذكر الساقى بعد نسيانه، وأفاق من غفلته، ولا غرو فهو يعيش حياة القصور ، بين اللهو والشرب ، وسهر الليالى فى مجلس الملك . تذكر يوسف الصديق الشاب المهذب الذى اجتمعت كل قلوب السجناء على حبه لحلاوة منطقه وحسن خلقه وتعاطفهم معه لأنه مظلوم .

يوسف الصديق هذا ، هو الذى فسر رؤيا الساقى والخباز ، فأصاب بتفسيره عين الصواب .. ولم لا ، فيوسف الصديق ، أوتى علم تأويل الأحلام من لدن مولاه العظيم ، أعطاه شفافية وفراسة وعلما ، بحيث يستطيع أن يستشف من أحداث الرؤيا وخيالاتها ، ما ترمز إليه بما يكون واقعًا وحقيقة . فمن ثم توجه الساقى إلى الملك فقال له : أنا أعرف رجلاً يستطيع أن يفسر هذه الرؤيا ، تفسيراً صادقًا ، وهو رجل معروف مجرب، قد جربته فى ذلك فكان صادقًا فى تفسيره .. قال الملك: من هو ؟! وأين ؟! قال الساقى: هو يوسف ، أيها الملك ، ذلك الشاب العبرانى ، رهين السجن الذى كان قد نشأ فى بيت العزيز ، وكان له شأن مع امرأة العزيز ، مرنى أيها الملك لأذهب إليه ، فأقص عليه رؤياك ، فلعلى أجد عنده علم من تأويلها ، وأنا واثق أننى سأجد عنده التفسير الحقيقى لرؤياك أيها الملك العظيم .. قال له الملك : اذهب إليه. ذهب الساقى، فجاء يوسف فى سجنه، ولا غرو فيوسف يعيش حياته بين نزلاء السجن، من كل فئات الناس، المختلفى الأهواء والطباع . ومن منطلق الوفاء والعرفان بالجميل ، كان ينبغى على الساقى أن يجىء يوسف زائرًا له فى سجنه، إلا أنه نسى .. أنساه الشيطان ، وقد كان ذلك بتقدير من الله عز وجل، بيد أنه جاء إليه ، محتاجًا لعلمه وفهمه وفطنته.

قال الصابونى فى تفسيره « صفوة التفاسير » ﴿ أَنَا أُنَبِّئُكُم بِتَأْوِيلِهِ فَأَرْسِلُونِ ﴾ أى أنا أخبركم عن تفسير هذه الرؤيا ممن عنده علم بتأويل المنامات، فأرسلونى إليه لآتيكم بتأويلها، خاطب الملك بلفظ التعظيم، قال ابن عباس: لم يكن السجن فى المدينة، ولهذا قال: فأرسلون.

الساقى يقص على يوسف رؤيا الملك

﴿ يُوسُفُ أَيُّهَا الصِّدِّيقُ أَفْتِنَا فِي سَبْعِ بَقَرَاتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعِ سُنْبُلَاتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَاتٍ ﴾ .

نـاداه هـيـا أفـتـنـا بـالـصـدق فُـتـيـا عـالمـين ٢٣
فـى سبـع بقـرات سمـان ، ثم سـبع عـاسفـين ٢٤
العـاسفـات أكلن لـلسبـع السـمان علـى اليـقين ٢٥
أيـضًا وسبـع سـنابـلٍ خُضـر لـعين الـنـاظريـن ٢٦
مـع يابـسات مـثـلهـنّ ، أكـلـنـهنّ ، لمـستبـين ٢٧

بينما كان يوسف الصديق ، قابعًا فـى سجنه ، جاءه الساقى فناداه قائلا : **﴿ يُوسُفُ أَيُّهَا الصِّدِّيقُ أَفْتِنَا فِي سَبْعِ بَقَرَاتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعِ سُنْبُلَاتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَاتٍ ﴾** . هيا يا صديقى ، أفـتنا فى هذه الرؤيا ، إنها رؤيا ملك الـبلاد ، وقد أهمته وأقلقـته ، وعلماء مـصر وحكماؤهـا وفقهاؤها ، عـجزوا جميعـا عن تأويلهـا ، ولقد تذكرتك بـعد نسيان طويل ، وتذكـرت قدرتك على الرؤى ، تأويلاً صـادقًا ، بحيث لا تخطـئ من الحقيقـة شيئًا ، ومن ثم جئـتك أملاً في أن أجد لـديك تفسيـرًا لها ، ولا إخالك تجهل معناها، أنت شاب مبارك، وليـس غريبًا أن يكون الله قد أفاض عليك من فضله ، فأعطاك مالم يعطه غيره.

قال الأستـاذ عبد الكريم الخطـيب فى « القصص الـقرآنى » : وفى لحظة خـاطفة كلمح البصر نـراه ـ الساقى ـ وجها لوجه مع يوسف فى السجـن الذى خرج منه ، منذ بضع سنين،وفى لهفة ينسى معها الرجل كل شىء ، إلا أن يعرض الحلم على يوسف ، ويطلب تأويله . **﴿ يُوسُفُ أَيُّهَا الصِّدِّيقُ أَفْتِنَا فِي ﴾** ولم يعتب يوسـف على الرجل، أنه نسى ما عهد به إليه حين قال له: **﴿ اذْكُرْنِي عِندَ رَبِّكَ ﴾** ولم يحجب عنه خبر هذا العلم الذى علمه الله ، ولا يخزيه بما فعل ، فيرده . . بل يضع بين يديه الحقيقة سافرة .

قال الشـيخ على الصابـونى فى « أعلام المفـسرين » **﴿ أَيُّهَا الصِّدِّيقُ ﴾** فى الكلام محذوف، دل عليه الساقى،وتقديره: فأرسلوه،فانطلق الساقى إلى السجن ، ودخل على يوسف وقـال له: يا يوسـف ! يا أيها الـصديق ، وسمـاه صديقًا ، لأنه كـان قد جرب صدقه فـى الرؤيا التى رآها فـى السجن : والصـديق مبالغة مـن الصدق **﴿أَفْتِنَا فِي سَبْعِ بَقَرَاتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ ...﴾**إلخ أى أخبرنا عن تأويل هذه الرؤيا العجيبة».

الساقي يحث يوسف بالإسراع في التأويل

﴿ لَعَلِّي أَرْجِعُ إِلَى النَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَعْلَمُونَ (٤٦) ﴾

يا صاح هيا أفتنا ، فلقد غدونا حائرين ٢٨
كي أرجعنّ إلى المليك ليعلمنّ ويستبين ٢٩
والناس كل يعلمون ، ولم يظلوا جاهلين ٣٠

لا يزال الساقي مع يوسف الصديق ، يتحدث معه ، فيستعجله فيقول : هيا يا صديقي . . أيها الصديق . . ! أفتنا وأسرع بفتياك التي سوف تبدد الظلام الذي يخيم على عقول وأفكار، العلماء والحكماء والفقهاء ، الذين استدعاهم الملك في هذا اليوم ، ليفسروا له رؤياه العجيبة،فلم يجد عندهم ما كان يظنه من العلم والحكمة والفراسة . . بل وجد لديهم جهلاً ، فقد قالوا له : ﴿ أَضْغَاثُ أَحْلَامٍ ﴾ ثم أردفوا قائلين : حتى وإن لم يكن حلمك هذا من أضغاث الأحلام ، فما نحن بتأويل الأحلام بعالمين.

إن الملك والناس جميعًا ينتظرون عودتي إليهم ، ومعي التأويل الحقيقي الصادق لتلك الرؤيا التي أهمت ملك البلاد ، وبالتالي فقد انسحبت أهمية تلك الرؤيا على عامة الناس ، والناس تبع لملوكهم.

قال الأستاذ رشيد رضا في تفسيره « المنار » : ﴿ لَعَلِّي أَرْجِعُ إِلَى النَّاس ﴾ أولى الأمر، وأهل الحل والعقد ، بما تلقيه إلى من التأويل والرأي ﴿ لَعَلَّهُمْ يَعْلَمُونَ ﴾ مكانتك من العلم ، فينتفعون به ، أو يعلمون ما جهلوا من تأويل رؤيا الملك ، وما يجب أن يعلموا بعد العلم به . . فلعل الأولى ، تعليل لرجوعه إليهم بإفتائه ، ولعل الثانية ، تعليل لما يرجوه من علمهم بها ، والرجاء توقع خير بوقوع أسبابه .

قال الشيخ محمد على الصابوني في «مع أعلام المفسرين » :﴿ لَعَلِّي أَرْجِعُ إِلَى النَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَعْلَمُونَ ﴾ أي لأرجع إلى الملك وأصحابه ،وأخبرهم بها ليعلموا فضلك وعلمك ، ويخلصوك من محنتك .

قال الإمام الفخر الرازي : وإنما قال : ﴿لَعَلِّي أَرْجِعُ إِلَى النَّاس﴾ لأنه رأى عجز سائر المعبرين،عن جواب هذه المسألة،فخاف أن يعجز هو أيضًا عنها،فلهذا السبب قال: لعلي.

يوسف يحذر من رؤيا الملك

....

فـأجابـه الصـديـق من عـلـم النـبوة ، إذ يُـبين ٣١
رؤيـا المـليـك نـذيـر سوء لـلـبـريـة أجمـعـين ٣٢
إن تفـهـمـوا أسرارها ، لا لـن تكونـوا هالـكين ٣٣
أوفـالـهلاك إذا أبـيـتـم أن تـكـونوا فـاهـمـين ٣٤

بعد أن انتهى سـاقى الملك من قص رؤيا الملك ، على يـوسف الصديق ، وتحدث معه عن أشـياء تدور حول الرؤيا وتعـبيرها ، واهتمـام الملك بها ، واهتمـام الناس أيضًا برؤيا الملـك ، تبعًا لاهتمامه. فـقال يوسف الصديـق للساقى : وهو واثق مـن صحة ما يقول - يا صديقى. . رؤيا سيدك هذه توحى بشـىء خطير ، إنها بمثابة ناقوس خطر يدق فى سمع الدنيا . . هى بغير شك نذير سوء، لا لهذا البلد فحسب، بل للعالم أجمع، إنها تشير إلى خطر يهدد الإنسانية بالهلاك ، فإذا فهمتم وأدركتم حقيقتها ، وعملتم ما ينبغى أن يعمل فى مثل هذه الأحوال ، فقد تنجو الإنسانية من الهلاك المحقق ، المحدق بها.

وإذا لم تفهموا سرها ومعناها، وتشاغلتم عنها بأحداث الحياة الجارية ، فالهلاك بغير شك يحبو نحو هذا البلد أولاً ، ثم كل من حوله من الأصقاع، هو كما أتصوره هلاك ، لا ينجو منه أحد. لا غرو أن يوسف الصديق، يتحدث للساقى، وكأنه يتحدث للملك نفسه، أو الدولة كلها، ومن ثم فهو يحذر الجميع من خطر هذه الرؤيا، ويبين لهم ما يجب عليهم عمله ، لتلافى ما تدل عليه هذه الرؤيا من الخطر على البلاد والعباد ، قبل وقوعها.

وهذا بلا شك من يوسف الصديق ، يعتبر ضربا من ضروب البلاغة والإيجاز معًا ، لا نجدهما فى غـير القرآن الكريم. إن يوسف الـصديق ، برغم ما عاناه مـن الظلم فى سجنـة، وهو البرىء كل الـبراءة، لم يبخـل بتفسيـر رؤيا الملك، وبادر بـتفسيرهـا وأخبر الساقى عـما توحى إليه رؤيا المـلك لم يطلب من السـاقى مقايضة: أى يتـم الإفراج عنه ليعبر رؤيا الملك ، وكان هذا يعتبر طلبًا متواضعًا منه لو هو أراده . . لكنه لم يفعل !!

من ثم فإن الكون كله ليـعجب من عزة نفس يوسف عليه السلام ، ويحنى هامته إجلالاً وإكبارًا له !!

يوسف يفسر رؤيا الملك: جزأها الأول

﴿ قَالَ تَزْرَعُونَ سَبْعَ سِنِينَ دَأَبًا فَمَا حَصَدتُّمْ فَذَرُوهُ فِي سُنبُلِهِ إِلاَّ قَلِيلاً مِّمَّا تَأْكُلُونَ (٤٧) ﴾

تأويـلها ، خـصبٌ يعـمّ الأرض كونوا حـاذرين ٣٥
ويـكـون ذلـك سـبـع أعـوام تـبـاعًا كـامـلـين ٣٦
لكـن سأوصـيكم ، فـكونـوا للوصـية مـدركين ٣٧
عنـد الحصـيد ذروا الـسنـابل دون درس سـالمين ٣٨

بعد أن قدم يوسف بين يدى تفسيره للرؤيا كلاما ،هم فى حاجة إليه ،ليدركوا مدى الخطر الـذى يحدق بالـناس ،شرع فى تفـسير الرؤيا قـال: سوف تزرعون الأرض سـبعة أعوام متوالية، تلك الأعوام السبعة سوف تكون خصباً، يعم البلاد من أقصاها إلى أقصاها، بيد أن هذا الخير الذى سوف يكون نتيجة ذلـك الخصب، فى حاجة إلى عقول حكيمة، تتصرف فى توزيعـه بحكمة على عامة الناس، دون إسراف، انتظـاراً لما سوف يعقب هذه السنين. إذن فأنا أوصيكم وصية، وعلكيم أن تأخذوا بها، إن شئتم نجاحاً فى تلك المهمة.

فى الأعوام السبعة التى ستكون أعوام خير وخـصب ،اتركوا القمح فى سنابله بعد أن تحصدوه لا تدرسوا كما تصنعون كل عـام، ذروا القمح كما هو بسنابله دون درس، لا تدرسوا منه إلا على قدر احتياجكم للطعام فقط. . فدلك أبقى له وأصون.

قال القرطبى فى تفسيره هذه الآية: **﴿ قَالَ تَزْرَعُونَ ﴾** لما أعلمه الساقى بالرؤيا ،جعل يفسرهـا له فقال: السبع من الـبقرات السمان، والسـنبلات الخضر سبع مخـصبات ،وأما البقرات العجاف ،والسنبلات اليابسات ،فسبع سنين مجدبات، فذلك قوله: **﴿ تَزْرَعُونَ سَبْعَ سِنِينَ دَأَبًا ﴾**، أى متوالية متتابعة **﴿ فَمَا حَصَدتُّمْ فَذَرُوهُ فِي سُنبُلِهِ ﴾** قيل: لئلا يتسوس وليكون أبقى، وهكذا الأمر فى ديار مصر **﴿ إِلاَّ قَلِيلاً مِّمَّا تَأْكُلُونَ ﴾** أى استخرجوا ما تحتاجون إليه ، بقدر الحاجه، وهذا القول منه ـ من يوسف ـ أمر. . الخ .

قال ابن كـثير : **﴿ تَزْرَعُونَ سَبْعَ سِنِينَ دَأَبًا ﴾** أى يأتيكـم الخصب والمطر سبـع سنين متواليات ،ففسر الـبقر بالسنين ،لأنها الأرض التى تستغل مـنها الثمرات والزروع ،وهن السنبلات الخـضر ،ثم أرشدهم إلى ما يعـتمدونه فى تلك السـنين فقال: **﴿ فَمَا حَصَدتُّمْ فَذَرُوهُ فِي سُنبُلِهِ إِلاَّ قَلِيلاً مِّمَّا تَأْكُلُونَ ﴾** أى مهما استغللتم فى هذه السنين السبع الخصب ، فاخزنـوه فى سنبـله، ليكـون أبقى له، وأبعـد عن إسراع الفـساد إليه ،إلا المـقدار الذى تأكلونه ،وليكن قليلاً ،لا تسرفوا فيه .

ويفسر الجزء الثانى

﴿ثُمَّ يَأْتِي مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ سَبْعٌ شِدَادٌ يَأْكُلْنَ مَا قَدَّمْتُمْ لَهُنَّ إِلاَّ قَلِيلاً مِمَّا تُحْصِنُونَ (٤٨)﴾

بعـد السنين الخـصب يأتى الجـدب كالقدر المـبين ٣٩
فيكـون سبعًا مثـل سبع الخصـب عند الحاسـبين ٤٠
فيـعم كـل الأرض ، صار الـناس كـلاً جائـعين ٤١
الجدب يـأكل كـل مخـزون القـديم من الـسنـين ٤٢
إلا قلـيلاً سـوف يبـقى حـيث كـنتـم محـصِنين ٤٣

بعد سنـى الخصب السبع التى سـوف تأتيكم متتـابعة ،سوف تأتيكم سـبع سنوات أخرى جافات ،سبع سنوات من الجدب ،لازرع ولا خضرة بـحيث أنهن سوف يستنفدن كل ماخزنتم ،مـن غلال وخير خلال سنى الخصب السبع الأولـى. ومن ثم سوف تعم المجاعة كـل أنحاء الأرض،ولن يقـيكم شر تلك المجـاعة إلا ماخزنتـموه وأبقيتـموه فى سنابله ،توقياً للجدب الذى كان منتظراً.

قال الأستاذ محمد رشيد رضا فى تفسيره «المنار»: **﴿ثُمَّ يَأْتِي مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ سَبْعٌ شِدَادٌ﴾** أى سبع سنين شداد،فى محلهن وجدبهن، **﴿يَأْكُلْنَ مَا قَدَّمْتُمْ لَهُنَّ﴾** أى يأكل أهلهن كل ما قدمتم لهم،وهو من إسـنادهم إلى الزمان والدهر ما يقع فيه،يكـثر إسناد العسر والجوع إلى سنى الجدب يقال: أكلت لنا هذه السنة كل شىء،ولم تبق لنا خفاً ولا حافراً،ولا سبداً ولا لبداً. أى لا شعراً ولا صوفـاً. وهذا تأويل للبقرات السبع الـعجاف ، وأكلهن للسبع السمان،وللسنبلات اليابسات **﴿إِلاَّ قَلِيلاً مِمَّا تُحْصِنُونَ﴾** أى تحرزون وتدخرون للبذر .

قال البيضاوى فى تفسيره: **﴿ثُمَّ يَأْتِي مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ سَبْعٌ شِدَادٌ يَأْكُلْنَ مَا قَدَّمْتُمْ لَهُنَّ﴾** أى يأكل أهلـهن ،ما ادخرتم لأجلهـن ،فأسند إليهـن على المجاز تطبـيقا بين المعبـر والمعبر به **﴿إِلاَّ قَلِيلاً مِمَّا تُحْصِنُونَ﴾** تحرزون لبذور الزراعة .

قال القرطبى فى تفسيره: **﴿سَبْعٌ شِدَادٌ﴾** يعنى السـنين المجدبات **﴿ يَأْكُلْنَ ﴾** مجاز ، والمعنى يأكل أهلهن **﴿ مَا قَدَّمْتُمْ لَهُنَّ﴾** أى ما ادخرتم لأجلهن ،ونحوه قول القائل:

نهارك يا مغرور سهو وغفلة وليلك نوم والردى لك لازم

والنهار لا يسهو والليل لاينام ،وإنما يسهى فى النهار ،وينام فى الليل ،وقيل: إن يوسف كان يصنع طعام الاثنين فيقربه إلى رجل واحد فيأكل بعضه ،حتى إذا كان يوم قربه له فأكله كله. فقال يوسف: هذا أول يوم من السبع الشداد ﴿إِلاَّ قَلِيلاً مِّمَّا تُحْصِنُونَ﴾ أى مما تحبسون لتزرعوا ،لأن فى استبقاء البذر تحصين الأقوات .

ويضيف إلى الرؤيا شيئاً من علمه

﴿ ثُمَّ يَأْتِي مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ عَامٌ فِيهِ يُغَاثُ النَّاسُ وَفِيهِ يَعْصِرُونَ (٤٩) ﴾

الخصب ثم الجدب من تقدير رب العالمين ٤٤
كل العوالم للإله تضرعوا متجردين ٤٥
ويجيء عام بعد هذا فيه غوث الضارعين ٤٦
الناس قد نعموا فصاروا للفواكه عاصرين ٤٧

بعد أن تحدث يوسف إلى ساقى الملك ،ففسر له رؤيا سيده ملك مصر ،فذكر له سنى الخصب السبع،ومن بعدهن السبع الجدب اللواتى سوف يأكل الناس فيهن كل شىء،مما خزن خلال سنى الخصب .قال: **﴿ثُمَّ يَأْتِي مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ عَامٌ فِيهِ يُغَاثُ النَّاسُ وَفِيهِ يَعْصِرُونَ﴾** أى أن الله عز وجل ،سوف يتدارك مخلوقاته برحمته ،لن يتركهم يهلكون جوعاً ،ولا غرو فالناس فى المحن والأزمات،يلجأون إلى السماء ضارعين ،وضراعتهم فى هذه الأحوال تكون صادقة.فمن ثم يستجيب المولى عز وجل ،لضراعة عباده حينما يعلم الصدق منهم ،وأنهم ما لجأوا إليه بعد أن عجزوا عن دفع الضر عن أنفسهم ،بما لديهم من الوسائل المادية المتاحة.وفعلا لقد استجاب المولى سبحانه وتعالى ،فأرسل الخير إلى الناس،وعم الأرض الخصب بعد الجدب والجفاف ،فشبع الناس بعد الجوع، والدواب قد استحيت بعد الهلاك،فكثرت الألبان والسمن..وكثرت الثمار بحيث صار الناس يعصرون الزيوت والفواكه لكثرتها.

قال الشيخ محمد على الصابونى فى « مع أعلام المفسرين » : **﴿ ثُمَّ يَأْتِي مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ عَامٌ فِيهِ يُغَاثُ النَّاسُ وَفِيهِ يَعْصِرُونَ ﴾** أى يأتى بعد سنى القحط والجدب العصيبة ،عام رخاء ،فيه يمطر الناس ويغاثون ،وفيه يعصرون الأعناب وغيرها لكثرة خصبه..قال الزمخشرى:تأول عليه السلام البقرات السمان والسنبلات الخضر بسنين مخاصيب ،والعجاف واليابسات بسنين مجدبة،ثم بشرهم بأن العام الثامن يجىء مباركاً خصيباً كثير الخير ،غزير النعم،وذلك من جهة الوحى. بعد أن فسر يوسف عليه السلام،رؤيا الملك أضاف: **﴿ ثُمَّ يَأْتِي مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ عَامٌ فِيهِ يُغَاثُ النَّاسُ وَفِيهِ يَعْصِرُون ﴾** هذا زائد على تأول الرؤيا،لم يعرفه يوسف إلا بوحى من الله عز وجل إذ لا مقابل له فى رؤيا الملك،ولا هو لازم من لوازم تأويلها بهذا التفصيل.

الملك يأمر بإحضار يوسف

﴿وَقَالَ الْمَلِكُ ائْتُونِي بِهِ﴾

عاد الرسول إلى المليك ، ويحمل القول المبين ٤٨
أفضى إليه بقول يوسف ، ذلك الرجل الفطين ٤٩
قال المليك : فأحضروه ، فنعمت الرجل الأمين ٥٠
فلتحضِروه لكى أراه وأسمعنّ وأستبين ٥١

ما إن انتهى يوسف الصديق من تأويل رؤيا ملك مصر،وإسداء النصح للملك وأولى الأمر بما ينبغى أن يتخذوه ،فى مواجهة الخطر الذى سوف يدهم البلاد بالدمار والهلاك ،كل هذا كان من خلال الساقى. عاد الساقى إلى الملك مسروراً ،حيث لم يخب ظنه فى يوسف الصديق،لقد فسر له يوسف،رؤيا الملك،تفسيرا يشبه الإعجاز ،بل هو الإعجاز نفسه،وقد كان يخشى ألا يجد عند يوسف التفسير الحقيقى لرؤيا سيده.

المهم ،لقد قص الساقى على سمع الملك ،ما قاله له يوسف الصديق من تأويل لرؤياه. .لقد استنبط يوسف من أحداثها،الوقائع الخطيرة المستقبلة،هذا لعمر الله أمر خطير. .لقد أعجب الملك بفطنة يوسف ،وبراعته فى استنباطه إعجاباً وصل إلى حد الانبهار.فمن ثم أمر فوراً بإحضار يوسف من السجن،لم يكتف بكلام الساقى الذى نقله عن يوسف ،بل أراد أن يسمع منه مشافهة دون واسطة. .فقال:هاتوا لى يوسف،أخرجوه من السجن. .أريد أن أراه وأسمع منه.

قال ابن كثير فى قوله تعالى : ﴿ وَقَالَ الْمَلِكُ ائْتُونِي بِهِ ﴾ يقول تعالى إخبارًا عن الملك لما رجعوا إليه بتعبير رؤياه التى رآها ، بما أعجبه وأيقنه ، فعرف فضل يوسف عليه السلام وعلمه ، وحسن اطلاعه على رؤياه ، وحسن أخلاقه على من ببلده من رعاياه فقال: ﴿ ائْتُونِي بِهِ ﴾ أى أخرجوه من السجن وأحضروه . . إلخ .

قال الأستاذ رشيد رضا فى « المنار » : ﴿ وَقَالَ الْمَلِكُ ائْتُونِي بِهِ ﴾ لأسمع كلامه بأذنى ، وأختبر تفصيل رأيه ودرجة عقله بنفسى .

قال الأستاذ عبد الكريم الخطيب فى «القصص القرآنى»: وينطلق الرجل ـ الساقى ـ انطلاق السهم ، فيلقى بين يدى الملك بهذا التأويل الذى يقع من الملك موقع الحق المستيقن ، وعندئذ يهتف الملك بالملأ حوله ، طالبًا إحضار هذا الذى عنده هذا العلم الذى تفرد به .

الرسول يذهب لإحضار يوسف من السجن

﴿ فَلَمَّا جَاءَهُ الرَّسُولُ... ﴾

عادَ الرسولُ ليوسفٍ فى السجنِ عَوْدَ مُبَشِّرين ٥٢
ناداه! أبشر يا سليلَ المجدِ يا ابنَ الأكرَمين ٥٣
الغَوْثُ جاءَ إليك يسعَى كنتَ بينَ المهمَلين ٥٤
هيَّا أجبْ ملكَ البلادِ تَنَلْ أمانَ الآمِنين ٥٥

ما إن سمع الساقى الأمر من الملك ، بإخراج يوسف الصديق عليه السلام من السجن، فرح فرحًا شديدًا لا مزيد عليه ، ولم لا ، فهو سوف يكون بشير خير، ويدخل السرور على قلب إنسان يحبه ويجله ، ويتمنى أن يمد له يد العون ، وما لم يستطع ذلك فعلى الأقل أن يكون بشيرًا له بما يفرحه ويسعده . توجه فورًا صوب السجن الذى يضم بين جدرانه : المظلومين والمجرمين معًا . . ويوسف الصديق قضى عليه بأن يعيش بين أولئك الأخلاط من البشر ، ولا غرو فهذه حكمة الله أرادها ليوسف ، ليتم له المعرفة التامة بفئات الناس . ولم لا . . فهو نبى ورسول ، ومن لوازم النبوة ، الإلمام والمعرفة بأخلاقيات وطباع الناس ، شريفهم ووضيعهم ، ليستطيع التعامل مع الجميع عن علم ودراية ، وفى الحديث الشريف : « المؤمن كيْس فطن » . لقد كان الساقى يعلم أن يوسف الصديق عليه السلام مظلوم ، ومكانه الحقيقى ينبغى أن يكون في أرفع المناصب فى الدولة ، وذلك لما يتمتع به من رجاحة العقل ، وفضل العلم ، وليس فى السجن . . إن الدولة فى حاجة إلى فكر وعلم وفطنة يوسف عليه السلام .

ويستأذن الساقى حراس السجن ، لكى يرى يوسف الصديق بعد بضع سنين ، فأذنوا له ، ما إن رأى الساقى صديقه يوسف ، هتف قائلا : أبشر يا صديقى ! أبشر يا سليل المجد والشرف ، يا ابن الأكرمين ، لقد جئتك بأحسن خبر ، لقد جاءك الفرج ، لسوف تبارح أسوار السجن البغيض ، إلى دنيا الحرية . لقد أمر الملك بإخراجك من السجن يا يوسف ، لقد انتهت الأيام السود فى هذا السجن الرهيب ، سوف تودع عالم الظلام إلى عالم النور . هيا أيها الصديق ، ملك البلاد يدعوك لتكون فى مجلسه، يريد أن يتحدث معك ، ويستمع إليك،ومن ثم فسوف تنال رضاءه واحترامه،وبالتالى سوف تكون مقربًا عنده . إنك جدير بكل خير أيها الصديق ، أهنئك يا صديقى بطلوع شمس حريتك بعد الليل الطويل ، ولسوف تظهر براءتك مما نسب إليك ، وأدخلت السجن بسببه، ومن ثم فسوف تعيش آمنًا أمينًا .

يوسف يرفض أن يخرج من السجن إلا بظهور براءته

﴿ قَالَ ارْجِعْ إِلَىٰ رَبِّكَ فَاسْأَلْهُ مَا بَالُ النِّسْوَةِ اللَّاتِي قَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ إِنَّ رَبِّي بِكَيْدِهِنَّ عَلِيمٌ (٥٠) ﴾

لكنّ يوسفَ لم يُجبْ ، وأبَى إباءَ الرافضين ٥٦
بل قالَ للساقى : فلستُ بخارجٍ كالمستكين ٥٧
عُدْ واسألِ الملك العظيمَ تساؤلَ المستفهمين ٥٨
عن نسوةٍ قطَّعنَ أيديهن دهْشًا أجمعين ٥٩
اللهُ يعلمُ كيدَهنَّ وفوقَ كيدِ الكائدين ٦٠

ياالله !! لقد فوجىء الساقى بما لم يكن يدور بخلده ، ولم يَحُم بتفكيره نحوه قط.. هو رفض يوسف الخروج من السجن ، وفى هذا المقال تتجلى عظمة الرجال فى أروع صورها ، فيوسف حينما جاءته البشرى بالخروج من السجن ، لم يَبْدُ عليه أنه سُر بهذا الخبر ، ومن ثم فلم يبادر بالخروج .

ذلك لأنه لا يريد أن يخرج من السجن ، بينما التهمة التى أدخل السجن بسببها ظلت لاصقة به ، فهو كريم من سلالة آباء كرام ، ومن ثم رفض الخروج ، فقال للساقى بكل هدوء ، عد إلى سيدك ، واسأله عن أمر هام ، يتعلق به شرفى وكرامتى وسمعتى . . اسأله عن النسوة اللاتى قطعن أيديهن .

فليبحث سيدك هذا الأمر بدقة وحرص ، فهو خاص بى ، ولن أخرج من السجن قبل أن تظهر براءتى ، مما اتهمت به ظلمًا وعدوانًا .

قال الأستاذ أحمد بهجت فى كتابه «أنبياء الله » : رفض يوسف أن يخرج من السجن إلا إذا ثبتت براءته ، يبدو أنهم كانوا قد اتهموه بشىء يدور حول النساء اللاتى قطعن أيديهن.لعلهن قالوا مثلاً : إنه حاول الاعتداء عليهن ، فدافعن عن أنفسهن ، ومزقن أيديهن بالسكاكين ، لعلهم افتروا عليه أى افتراء متهافت ، يستحيل هضمه ، كل شىء جائز فى القصور . . إلخ .

قال القرطبى فى تفسيره : ﴿ ارْجِعْ إِلَىٰ رَبِّكَ فَاسْأَلْهُ مَا بَالُ النِّسْوَةِ ﴾ أى حال النسوة

﴿ **اللاَّتِي قَطَّعْنَ أَيْدِيَهُن** ﴾ فأبى أن يخرج إلا أن تصح براءته عند الملك مما قذف به، وأنه حبس بلا جرم .

قال الصابونى فى « صفوة التفاسير » : ﴿ **ارْجِعْ إِلَىٰ رَبِّك** ﴾ أى قال يوسف للرسول: ارجع إلى سيدك الملك ﴿ **فَاسْأَلْهُ مَا بَالُ النِّسْوَةِ اللاَّتِي قَطَّعْنَ أَيْدِيَهُن** ﴾ أى سله عن قصة النسوة اللاتى قطعن أيديهن ، هل يعلم أمرهنّ ؟ ! وهل يدرى لماذا حبست ودخلت السجن؟! وأنى طلمت بسببهن؟! أبى عليه السلام أن يخرج من السجن حتى تبرأ ساحته ، من تلك التهمة الشنيعة ، وأن يعلم الناس جميعًا أنه حبس بلا جرم ﴿ **إِنَّ رَبِّي بِكَيْدِهِنَّ عَلِيم** ﴾ أى إنه تعالى هو العليم بخفيات الأمور وبما دبّرن من كيدٍ لى.

محمد ﷺ يثنى على يوسف

....

أنعم بيوسف إنه قد كان ذا عقل رزين ٦١
لم يُسرِعَنّ إلى الخروج بلهفة المتعجلين ٦٢
هل يَخرجَنّ ويرتضى بإشاعة المتقولين؟! ٦٣
قد كان يبغى أن يُبَرأ من مقال الشائعين ٦٤
من أجل ذا أثنى عليه محمدٌ كالمعجبين ٦٥

يالله!! لقد رفض يوسف الصديق أن يخرج من السجن ، إلا إذا ثبتت براءته مما نسب إليه ظلمًا وعدوانًا ، وأدخل السجن بسببه ، لقد كان يوسف فى موقفه هذا ، موفقًا كل التوفيق ، ناضج الفكر ، حكيمًا فى تصرفاته ، إن مفاجأة الخبر لم تُنْسه كرامته وسمعته ، إنه لأمر يثير إعجاب كل ذى عقل . بل كأنى بكل عقلاء الدنيا ، يحنون رءوسهم إجلالاً ليوسف ، إزاء تصرفه هذا !! نعم ، يوسف لا يريد أن يخرج من السجن ، ليجد الشائعات تنتظره ، بل تلاحقه أينما حل وأينما سار ، أصابع الاتهام تشير إليه . . هذا الذى من شأنه كيت وكيت ؟! ولا غرو فيوسف الصديق بتصرفه هذا نال إعجاب محمد ﷺ وثناءه.

عن أبى هريرة رضى الله تعالى عنه قال: قال رسول الله ﷺ : « نحن أحق بالشك من إبراهيم إذ قال : رب أرنى كيف تحيى الموتى؟! قال : أو لم تؤمن؟! قال: بلى ، ولكن ليطمئن قلبى، ويرحم الله لوطًا، لقد كان يأوى إلى ركن شديد ، ولو لبثت فى السجن ما لبث يوسف ، لأجبت الداعى » البخارى ومسلم .

وعن عكرمة رضى الله تعالى عنه قال: قال رسول الله ﷺ: « لقد عجبت من يوسف وصبره وكرمه ، والله يغفر له حين سئل عن البقرات العجاف والسمان، ولو كنت مكانه ، ما أجبتهم حتى أشترط أن يخرجونى، ولقد عجبت من يوسف وصبره وكرمه والله يغفر له ، حين أتاه الرسول ، ولو كنت مكانه ، لبادرتهم الباب، ولكنه أراد أن يكون له العذر » من تفسير الطبرى.

وفى رواية للإمام أحمد أنه ﷺ قال : « لو كنت أنا لأسرعت الإجابة وما ابتغيت العذر ». وفى رواية أخرى عند الطبرى أيضًا ، يرحم الله يوسف ، لو كنت أنا المحبوس ، ثم أرسل إلىّ ، لخرجت سريعًا ، إن كان لحليمًا ذا أناة ».

قال الأستاذ رشيد رضا : وفى هذا التريث والسؤال فوائد جليلة فى أخلاق يوسف عليه السلام ، وعقله وأدبه فى سؤاله ، منها دلالته على صبره وأناته ، وجدير بمن لقى ما لقى من الشدائد أن يكون صبورًا حليمًا ، فكيف إذا كان نبيًا وارثًا لإبراهيم الذى وصفه الله تعالى بقوله : ﴿ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لأَوَّاهٌ حَلِيمٌ ﴾ .

الملك يسأل النساء عن يوسف فينفين عنه السوء

﴿ قَالَ مَا خَطْبُكُنَّ إِذْ رَاوَدتُّنَّ يُوسُفَ عَن نَّفْسِهِ قُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِن سُوءٍ ﴾

جمع المليك نساء مصر وقال: إنى مستبين ٦٦
ما شأن يوسف؟! أَخْبِرْنِّى بالحقيقة واليقين ٦٧
هل كان يوسف صادقًا؟! أم قارف الفعل المشين ٦٨
فأجبنه بالحق، يوسف لم يكن فى الخائنين ٦٩
لا ما علمنا عنه سوءًا ، فهو ذو شرف أمين ٧٠

لقد عاد الساقى إلى سيده الملك .. عاد إلى سيده وليس معه يوسف، وقد كان الملك ينتظر عودة الساقى بفارغ الصبر ، ذلك لأنه سوف يعود ومعه الرجل الذى أعجب الملك به قبل أن يراه ، لعلمه وفطنته وفراسته. لما رأى الملك الساقى مقبلاً نحوه ، وليس معه أحد ، صرخ الملك فى الساقى قائلاً ويحك ! أين صاحبك يوسف؟! قال الساقى : أيها الملك ! لقد أبى يوسف أن يخرج من السجن ، ثم أخبره سبب رفضه الخروج من السجن. تعجب الملك من تصرف يوسف الصديق ، لكونه رفض الخروج من السجن .. ثم قال لنفسه : لابد أن هذا الرجل ، قد ظلم ظلمًا فظيعًا ، لابد أنه يخشى من شىء ينتظره خارج السجن ، أكبر من خشيته من السجن نفسه .ويبدو أنه أيضًا من سلالة آباء كرام، لأجل ذلك أثر البقاء فى غياهب السجن، على أن يسير بين الناس مخدوش الكرامة ، مطعونًا فى سلوكه وشرفه .فورًا أمر الملك باستدعاء امرأة العزيز ، صاحبة القصة الشهيرة التى ملأت الأسماع، ولاكتها الألسن آنذاك ، واستدعى أيضًا كل نساء الوزراء اللواتى أبقاهن الموت، ممن كن حاضرات مأدبة امرأة العزيز ، وحدث فيها ما حدث،إذ قطعن أيديهن عند رؤيتهن يوسف. النسوة كلهن حاضرات فى مجلس الملك ، فسألهن قائلا : أخبرننى بالحقيقة ! ما هو موقف يوسف ، يوم أن كنتن فى بيت امرأة العزيز ، وقد راودتنه عن نفسه يومذاك؟! فهل كان يوسف من النوع الذى يميل إلى المجون ، ويغازل النساء؟! أم أنه عف شريف ؟! فأجبنه جميعا قائلات : ﴿**حَاشَ لِلَّهِ مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِن سُوءٍ**﴾ لقد كان يوسَف عفا شريفا ، ذا خلق كريم.. كان فى ذاك اليوم فى قمة السمو والترفع، كان كأنه مَلَكٌ طاهر ، بين نساء متحللات من قيود العفة والشرف.. إن يوسف برىء من أى صفة ذميمة أيها الملك.

امرأة العزيز تعترف أمام الملك

﴿ قَالَتِ امْرَأَتُ الْعَزِيزِ الآنَ حَصْحَصَ الْحَقُّ أَنَا رَاوَدتُّهُ عَن نَّفْسِهِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ (٥١) ﴾

لكنْ زليخا أعلنت فى سمع كل الحاضرين ٧١
الحق سوف أقوله : كى أنصف المستضعفين ٧٢
فأنا الذى راودت يوسف ، أطلب الفعل المشين ٧٣
ولقد أبى أن يستجيب ، فكان ذا خُلق ودين ٧٤
فليطمئن عزيز مصر ، وليكن فى الموقنين ٧٥

لقد استمع الملك إلى النسوة اللاتى جمعهن فى قصره، وسألهن عن يوسف الصديق ،وما يعرفنه عن سلوكه وأخلاقه ! لقد أجبنه كلهن بالثناء والمدح على يوسف ، بما هو أهل له. . بيد أن امرأة العزيز لم تشترك فى الحديث مع النسوة،لا مدحًا ولا ذمًا، فاتجه الملك نحوها ـ وقد كان يعرفها لأنها زوجة رئيس وزرائه ـ اتجه نحوها كأنه يستنطقها،والنسوة كلهن أيضًا اتجهن نحوها، ينتظرن منها أن تبوح بما هى منطوية عليه. . فماذا عساها أن تقول؟! الواقع أن امرأة العزيز ، سبق أن اعترفت بمراودتها ليوسف الصديق، وكان ذلك أمام هؤلاء النسوة . . إذن فهى لم تكن فى حاجة إلى شجاعة لكى تكرر اعترافها، لاسيما أمام ملك البلاد الذى يبحث عن الحقيقة، بغية إنصاف إنسان ظُلم ، هو يوسف الصديق ،ذلك الإنسان الذى أحبته حبًا ملك عليها كل مشاعرها وحواسها ، كيف لا ؟! وهى التى أعلنت قبلاً أمام هؤلاء النسوة قائلة : ﴿ وَلَقَدْ رَاوَدتُّهُ عَن نَّفْسِهِ فَاسْتَعْصَمَ وَلَئِن لَّمْ يَفْعَلْ مَا آمُرُهُ لَيُسْجَنَنَّ وَلَيَكُونًا مِّنَ الصَّاغِرِينَ (٣٢) ﴾ .

ولا غرو فهى لا تزال تحب يوسف،بيد أن حبها له اليوم،غير حب الأمس. .لأن حب الأمس كان حبا جسديًا شهوانيًا ، أما حب اليوم،فهو حب الاحترام، حب الإنسان الذى احتقر كل وسائل الإغراءات الجسدية. . حب الإنسان الذى يرفض الاستجابة لنداء الجسد جعلها الآن تبدو شريفة،لم تقترف إثمًا ولا فاحشة،قالت: ﴿ أَنَا رَاوَدتُّهُ عَن نَّفْسِهِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ (٥١) ﴾ .

قال الأستاذ أحمد بهجت فى كتابه « أنبياء الله »: شهادة كاملة بإثمها هى، وبراءته ونظافته وصدقه هو،شهادة لا يدفع إليها خوف أو خشية،أو أى اعتبار آخر،يشى السياق القرآنى بحافز أعمق من هذا كله ، حرصها على أن يحترمها الرجل الذى أهان كبرياءها الأنثوية ، ولم يعبأ بفتنتها الجسدية ، ومحاولة يائسة لتصحيح صورتها فى ذهنه.لا تريده أن يستمر على تعاليه واحتقاره لها كخاطئة ، تريد أن تصحح فكرته عنها.

امرأة العزيز تبرأ من خيانة زوجها

﴿ ذَلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ بِالْغَيْبِ وَأَنَّ اللَّهَ لا يَهْدِي كَيْدَ الْخَائِنِينَ (٥٢) ﴾

ما خنته فى عرضه ، والله خير الشاهدين ٧٦
لا أدعى أنى برئت من الذنوب الأصغرين ٧٧
لكننى أخشى الخيانة ، أو سلوك الخائنين ٧٨
فالخائنون فلن يكونوا فى عداد المهتدين ٧٩

وتواصل زوج العزيز - زليخا - اعترافها أمام الملك وجمع النسوة ، بعد أن برأت يوسف من الاتهام الذى ألصق به ، ولأجله أدخل السجن ظلمًا فتقول: ﴿ ذَلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ بِالْغَيْبِ ﴾ تقصد زوجها ، أى أنا أعترف بذنبى، فأنا التى راودت يوسف عن نفسه،لكن أبى ورفض . . من ثم فليطمئن زوجى، فأنا ما خنته فى شرفه ، ولم أدنس عرضه ، فالجريمة الكبرى التى يندى لها جبين الشرف والعفة لم تقع ، ولا غرو فأنا لا أدعى البراءة ، بل أقول الحق برغم مرارته ، فالنفس تدعو دائما إلى السوء. . وقد كنت آنذاك شابة فى ريعان الشباب ، وقد لعب الشيطان برأسى، فزين لى ما كان محرمًا . ولكن حمدًا لله، أننى ما قارفت الفاحشة ، فقد كان يوسف بعفته وطهارته عونا لى على أن أظل عفيفة طاهرة ، وذلك فضل علىّ اعترف به .

قال ابن كثير فى قوله تعالى ﴿ ذَلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ بِالْغَيْبِ ﴾: تقول :اعترفت بهذا على نفسى، ذلك ليعلم زوجى أنى لم أخنه فى نفس الأمر ، ولا وقع المحذور الأكبر، وإنما راودت هذا الشاب مراودة ، فامتنع ، فلهذا اعترفت، ليعلم أنى بريئة ﴿وَأَنَّ اللَّهَ لا يَهْدِي كَيْدَ الْخَائِنِينَ (٥٢) ﴾ .

قال الأستاذ محمد رشيد رضا فى تفسيره « المنار » فى قوله تعالى :﴿ذَلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ بِالْغَيْبِ ﴾:أى ذلك الإقرار بالحق له ، والشهادة بالصدق الذى علمته منه، ليعلم الآن - إذ يبلغه عنى - أنى لم أخنه بالغيب منذ سجن إلى الآن،بالنيل من أمانته، أو الطعن فى شرفه وعفته،بل صرحت لجماعة النسوة بأننى راودته فاستعصم، وهو شاهد، وها أنذا أقر بهذا أمام الملك وملئه وهو غائب ﴿وَأَنَّ اللَّهَ لا يَهْدِي كَيْدَ الْخَائِنِينَ (٥٢) ﴾ من النساء والرجال،بل تكون عاقبة كيدهن الفضيحة والنكال،ولقد كدنا له، فصرف ربه عنه كيدنا ، وسجناه فبرأه وفضح فكرنا ، حتى شهدنا له فى هذا المقام السامى على أنفسنا.

من الذى قال: وما أبرئ نفسى؟! يوسف أم المرأة؟!

﴿ وَمَا أُبَرِّئُ نَفْسِي إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّي إِنَّ رَبِّي غَفُورٌ رَّحِيمٌ (٥٣) ﴾

أما النفوس فإنها من صنع رب العالمين ٨٠
هى للهوى والسوء تدعو بئس دعوى المفسدين ٨١
لكننى لم أقترف لكبيرة كالماجنين ٨٢
الله يغفر كل ذنب إن يشأ للتائبين ٨٣

ها نحن أولاء لا نزال مع امرأة العزيز - زليخا - وهى تتحدث بكل صراحه أمام ملك مصر، معترفة على نفسها أنها هى التى راودت يوسف عن نفسه، فأبى ورفض فى عفة وتسام، ثم تقول: ولئن كنت فى هذا المقام أبرئ يوسف من تلك الجريمة التى لم يكن هو فيها سوى ضحية ، فإننى فى الوقت نفسه ، لا أبرئ نفسى ، ولا غرو فالنفس تميل إلى الهوى، وتأمر وتلح على صاحبها بفعل السوء، إلا من عصمه الله، وأراد له الخير .

قال ابن كثير فى تفسيره فى قوله تعالى ﴿ وَمَا أُبَرِّئُ نَفْسِي إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ﴾ : تقول المرأة: ولست أبرئ نفسى، فإن النفس تتحدث وتتمنى، ولهذا راودته لأنها أمارة بالسوء ﴿إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّي﴾ أى إلا من عصمه الله تعالى ﴿إِنَّ رَبِّي غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ .وهذا القول هو الأشهر والأليق والأنسب، بسياق القصة ومعانى الكلام، وقد حكاه الماوردى فى تفسيره، وانتدب لنصره العلامة أبو العباس ابن تيمية رحمه الله ، فأفرده بتصنيف على حدة.

قال الشيخ محمد الصابونى فى تفسيره « مع أعلام المفسرين » فى قوله تعالى ﴿وَمَا أُبَرِّئُ نَفْسِي إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ﴾: أى لا أزكى نفسى ولا أنزهها، فإن النفس البشرية ميالة إلى الشهوات، قال يوسف على وجه التواضع ، قال الزمخشرى : أراد أن يتواضع لله ، ويهضم نفسه ، لئلا يكون لها مزكيا ، وبحالها معجبًا ومفتخرًا ﴿إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّي﴾ أى إلا من رحمه الله بالعصمة ﴿ إِنَّ رَبِّي غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ أى عظيم المغفرة واسع الرحمة .

قال الأستاذ عبد الكريم الخطيب فى كتابه « القصص القرآنى»: ﴿ وَمَا أُبَرِّئُ نَفْسِي إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ ﴾ إنها نفس بشرية ، من شأنها أن تميل مع الهوى ، وأن تغرى بالسوء ﴿ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّي ﴾ أى إلا ما كان من رحمة الله ، ودفعه هذا السوء عن عباده المخلصين ﴿ إِنَّ رَبِّي غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ يتجاوز عن سيئات المسيئين، الذين يجيؤون إليه تائبين ، هذا من قول يوسف ، فيعترف على نفسه بأنه قد كان منه هم .

الحلقة السابعة

الملك يطلب أن يكون يوسف أمينه ومستشاره

تولية يوسف خزائن مصر

مجيء إخوة يوسف ضمن الوفود للميرة لمصر

يوسف يعرف إخوته وهم لم يعرفوه

يوسف يطلب منهم إحضار أخيهم من أبيهم

يعقوب يستوثق من بنيه ليرسل بنيامين معهم

الآيات القرآنية التى صيغ منها شعر الحلقة السابعة

﴿ وَقَالَ الْمَلِكُ ائْتُونِي بِهِ أَسْتَخْلِصْهُ لِنَفْسِي فَلَمَّا كَلَّمَهُ قَالَ إِنَّكَ الْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ ﴿٥٤﴾ قَالَ اجْعَلْنِي عَلَىٰ خَزَائِنِ الْأَرْضِ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ ﴿٥٥﴾ وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ يَتَبَوَّأُ مِنْهَا حَيْثُ يَشَاءُ نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَن نَّشَاءُ وَلَا نُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ ﴿٥٦﴾ وَلَأَجْرُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ ﴿٥٧﴾ وَجَاءَ إِخْوَةُ يُوسُفَ فَدَخَلُوا عَلَيْهِ فَعَرَفَهُمْ وَهُمْ لَهُ مُنكِرُونَ ﴿٥٨﴾ وَلَمَّا جَهَّزَهُم بِجَهَازِهِمْ قَالَ ائْتُونِي بِأَخٍ لَّكُم مِّنْ أَبِيكُمْ أَلَا تَرَوْنَ أَنِّي أُوفِي الْكَيْلَ وَأَنَا خَيْرُ الْمُنزِلِينَ ﴿٥٩﴾ فَإِن لَّمْ تَأْتُونِي بِهِ فَلَا كَيْلَ لَكُمْ عِندِي وَلَا تَقْرَبُونِ ﴿٦٠﴾ قَالُوا سَنُرَاوِدُ عَنْهُ أَبَاهُ وَإِنَّا لَفَاعِلُونَ ﴿٦١﴾ وَقَالَ لِفِتْيَانِهِ اجْعَلُوا بِضَاعَتَهُمْ فِي رِحَالِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَعْرِفُونَهَا إِذَا انقَلَبُوا إِلَىٰ أَهْلِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٦٢﴾ فَلَمَّا رَجَعُوا إِلَىٰ أَبِيهِمْ قَالُوا يَا أَبَانَا مُنِعَ مِنَّا الْكَيْلُ فَأَرْسِلْ مَعَنَا أَخَانَا نَكْتَلْ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴿٦٣﴾ قَالَ هَلْ آمَنُكُمْ عَلَيْهِ إِلَّا كَمَا أَمِنتُكُمْ عَلَىٰ أَخِيهِ مِن قَبْلُ فَاللَّهُ خَيْرٌ حَافِظًا وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ ﴿٦٤﴾ وَلَمَّا فَتَحُوا مَتَاعَهُمْ وَجَدُوا بِضَاعَتَهُمْ رُدَّتْ إِلَيْهِمْ قَالُوا يَا أَبَانَا مَا نَبْغِي هَٰذِهِ بِضَاعَتُنَا رُدَّتْ إِلَيْنَا وَنَمِيرُ أَهْلَنَا وَنَحْفَظُ أَخَانَا وَنَزْدَادُ كَيْلَ بَعِيرٍ ذَٰلِكَ كَيْلٌ يَسِيرٌ ﴿٦٥﴾ قَالَ لَنْ أُرْسِلَهُ مَعَكُمْ حَتَّىٰ تُؤْتُونِ مَوْثِقًا مِّنَ اللَّهِ لَتَأْتُنَّنِي بِهِ إِلَّا أَن يُحَاطَ بِكُمْ فَلَمَّا آتَوْهُ مَوْثِقَهُمْ قَالَ اللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٌ ﴿٦٦﴾ ﴾ .

أشعار الحلقة السابعة

هذى صواحب يوسف أقررن بالصديق المبين ١
برأنه من كل عيب من سلوك الفاسقين ٢
وكذا زليخا حيث قالت : إنه عفٌّ أمين ٣
سمع المليك مقالهنّ فصار مثل الذاهلين ٤
من ثم قال لجنده من حوله والحارسين ٥
فلتحضروا لى يوسف الصديق فوراً مسرعين ٦
كى أصطفيه فإننى فى حاجة للمخلصين ٧
الشوق يغلبنى لرؤيته لكيما أستبين ٨
قد أحضروا الصديق فوراً كان فى سجن مهين ٩
مذ جاء قال له المليك: غدوت فى أمن أمين ١٠
وكرامة نعطيكها ، ولقد أمنت الكائدين ١١
وتفوز بالتمكين بعد السجن بين المجرمين ١٢
قد كان يوسف حاذقاً ، بل كان ذا عقل رصين ١٣
فوراً تحدث للمليك ،وقال قول العارفين ١٤
يا أيها الملك العظيم ، هديت للرأى الفطين ١٥
الرأى عندى والصواب أراه كالنور المبين ١٦
إن البلاد بحاجة للمخلصين الحازمين ١٧
كى يحفظوا خير البلاد من البغاة المفسدين ١٨
إنى على هذا قدير من خيار الحافظين ١٩
فلتعطنى شرفاً لأحفظ مال مصر من السنين ٢٠
سمع المليك مقالة الصديق سمع الفاهمين ٢١
من ثم قال له بحق : أنت ذو عقل ودين ٢٢
أنى أرى فيك النجابة والذكاء المستبين ٢٣
ولقد جعلتك خازنا للمال دون العالمين ٢٤

كى تحفظ الأموال من أيدى البغاة العابثين ٢٥
ثقة المليك بيوسف كانت جزاء الصابرين ٢٦
قد صار يوسف سيداً فى مصر أرض الخالدين ٢٧
بالأمس كان مكبلاً بالذل بين المجرمين ٢٨
واليوم صار مكرماً تكريم رب العالمين ٢٩
هذا جزاء الله فى الدنيا لكل المخلصين ٣٠
وهناك يوم الحشر خير للرجال المتقين ٣١
القحط قد عم القرى والناس صاروا جائعين ٣٢
لكنهم هرعوا إلى أرض الكنانة ذاهبين ٣٣
هرعوا لأخذ القوت حتى لا يصيروا هالكين ٣٤
قد كان إخوة يوسف بين الوفود القادمين ٣٥
لما رآهم صار عارفهم، وليسوا عارفين ٣٦
قد سُرَّ يوسف إذ رأى إخوانه فى الوافدين ٣٧
ناداهم الصديق، من أنتم ! أجابوا قائلين ٣٨
إنا بنو يعقوب آل البيت نسل المرسلين ٣٩
قحط البلاد أصابنا ،جئنا مجىء المكرهين ٤٠
جئنا لكى نكتال ثم نعود عود الغانمين ٤١
كى نطعم الأفواه من جوع فنعم المطعمين ٤٢
قد أردف الصديق يسألهم سؤال المستبين ٤٣
إنى أراكم عشرة، أى إخوة متآلفين! ٤٤
فلتخبرونى هل تركتم خلفكم متخلفين؟! ٤٥
قالوا: تركنا الشيخ معه صغيره وبه ضنين ٤٦
هو حبّه كأخيه يوسف كان من خير النبيين ٤٧
اثنان إخوتنا ، وليس لأمنا ، هذا يقين ٤٨
لكن يوسف لم يعش وأبوه ظل على الأنين ٤٩
قد أنزل الصديق إخوته كخير المنزلين ٥٠
أعطى لهم من خير ما أعطى لقوم آخرين ٥١

قد جهزوا أوثاقهم كيما يعودوا قافلين ٥٢
لكن يوسف قال يوصيهم وصية ناصحين ٥٣
فلتسمعوا قولى وكونوا للمقالة مدركين ٥٤
إذ ما أردتم عودة للكيل عود الراغبين! ٥٥
هاتوا أخاكم من أبيكم فليكن فى الوافدين ٥٦
أفليس قد أوفيتكم كيلاً وكنتم مكرمين؟! ٥٧
إن لم يجئ معكم فلا تأتوا لكيل طالبين ٥٨
فلتدركوا نصحى وكونوا للنصيحة فاهمين ٥٩
قالوا : فلن يرضى أبوهُ، لأنه شيخٌ حزين ٦٠
من بعد يوسف لم يكفّ عن البكاءِ مدَى السنين ٦١
لكن سنسأله ونرجو أن يجيب وأن يلين ٦٢
فلعلهُ يرضى ويعطينا الغلام المستكين ٦٣
فتيان يوسف حوله كانوا جميعاً واقفين ٦٤
أوحى لهم ، دُسوا البضاعة فى رحال العائدين ٦٥
إذ ما رأوها عند عودتهم يصيروا لائمين ٦٦
فيكون هذا دافعاً لمجيئهم ، هذا يقين ٦٧
فوراً أطاعوا أمره كانوا بحق فاهمين ٦٨
قد عاد إخوة يوسف للأهل عود الغانمين ٦٩
وصلوا لأهليهم، وكانوا من رحيل متعبين ٧٠
واستقبل الشيخ الكبير بنيه كانوا غائبين ٧١
عن قول يوسف أخبروه، ولم يكونوا كاذبين ٧٢
قالوا: فإن عدنا لمصر لأجل كيل طالبين! ٧٣
لا بدْ يصحبنا أخونا ، وهوفى أمن أمين ٧٤
أرسله معنا سوف نحفظه من المتطاولين ٧٥
الشيخ قال لهم: فكفوا، لا تكونوا جاهلين ٧٦
هل تذهبون به كما كنتم بيوسف ذاهبين؟! ٧٧
لكن لأجل العيش قد أرضى رضاءَ المكرهين ٧٨

والله يحفظكم جميعاً ،فهْو خيرُ الحافظين ٧٩
فتحوا المتاع إذا بضاعتهم! غدوا متسائلين ٨٠
فتلاوموا من كونهم قد أشبهوا للسارقين ٨١
من ثم قالوا: يا أبانا ، قد غدونا حائرين ٨٢
هذى بضاعتنا أتتْ معنا ،ولسنا فاهمين ٨٣
هيا فسوف نعيدها لعزيز مصر ، مبادرين ٨٤
هذا إذا شئنا العدالة ، أو سنغدو ظالمين ٨٥
أما أخونا فهو فى أمن من الكيد المهين ٨٦
ونصيبه سيكون حملا من طعام الآكلين ٨٧
الحمل سوف يزاد مع أحمالنا ، هذا يقين ٨٨
الشيخ قال لهم: فكونوا للمقالة مدركين ٨٩
إنى المجيب لما طلبتم بالشروط الحازمين ٩٠
أن تقسموا بالله ربِّ العرش ربّ العالمين ٩١
أن تحفظوه من الأذى ما لم تكونوا عاجزين ٩٢
قد أقسموا للشيخ حتى يطمئن ويستكين ٩٣
لما اطمأن الشيخ صاروا كلهم متوكلين ٩٤

ثبوت براءة يوسف أمام الملك

....

هـذى صواحـب يوسـف أقررن بـالـصديـق المبـين ١
بـرأنـه مـن كل عـيـبٍ مـن سـلـوك الفـاسـقـين ٢
وكـذا زلـيـخـا حـيـث قـالـت : إنـه عـفٌّ أمـين ٣
سـمع المـلـيك مـقـالهـنّ فـصـار مثـل الـذاهلـين ٤

بعد أن استمع ملك مـصر شهادة النسوة اللواتى جمعهن فـى قصره ، وسألهن عن شأن يـوسف الصـديق ، ماذا يعـلمن عـنه ! عن سـلوكه . . عن أخـلاقه ؟! فكـانت إجابتهن جميعاً ، البراءة ليوسف من كل عيب ، بحيث لم يتصف بصفة ذميمة مطلقاً . العفة كلها . .الطهر كله . .الإيمان الذى يسمو بصاحبه إلى قمة المثالية ،وتأتى بعد ذلك ، امرأة العزيز،فتؤيد شهادتها شهادة النسوة،بل تضيف إليها ما هو أكثر صراحة، فتتوج كل ما قيل بالاعتراف الصريح ، فتقر أمام الملك ، أنها هى التى راودت يوسف عن نفسه .

وتزداد صراحتها فتقول : إنها حاولت إغراءه واستمالته ، بكل وسيلة ممكنة ،فأبى فى عفة وترفع .

ـ قال الفخر الرازى تعـليقاً على شهادة امرأة العزيز : هذه شـهادة جازمة من تلك المرأة،بأن يوسف صلوات اللّه وسلامه عليه،كان مبرأ من كل الذنوب،مطهراً من جميع العيوب . . وهاهنا دقيقة : وهى أن يوسف راعى جانب امرأة العزيز، حيث قال :﴿ مَا بَالُ النِّسْوَةِ اللاَّتِي قَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ ﴾ فذكرهن ، ولم يذكر تلك المـرأة ألبتة فعرفت المرأة أنه إنما ترك ذكرها رعاية لحقـها ،وتعظيماً لجانبها ، وإخفاء للأمر علـيها، فأرادت أن تكافئه على هذا الفعل الحسن ، ،فلا جرم أزالت الغـطاء والوطاء واعترفت بأن الذنب كله كان من جانبـها ، وأن يوسف عليه السلام كان مبرأ عـن الكل ،ورأيت فى بعـض الكتب ، أن امرأة جاءت بزوجها إلى الـقاضى ،وادعت عليه المهر، فأصر القـاضى بأن يكشف عن وجهها ، حتى تتمكن الشهود ،مـن إقامة الشهادة ، فقال الزوج : لا حاجة إلى ذلك، فإنى مقر بصدقها فى دعواها .

قالت المرأة : لما أكرمتنى إلى هذا الحد ، فاشهدوا أنى أبرأت ذمتك من كل حق لى عليك .بعد هذا كـله ، شعر الملك برغبة شديدة ، أن يرى ذلك الإنـسان الذى اكتملت فيه كل صفات الكمال . كان هذا كله من خلال شهادة النسوة وامرأة العزيز .

قال الأستاذ عبد الكريم الخطيب فى كتابه «القصص القرآنى »:وتشتد رغبة الملك ، فى لقاء يوسف بعد أن قامت الأدلة ، ناطقة بعفته ومروءته ويقع يوسف من نفسه موقعاً متمكناً ، إذ رأى فيه الرجل الذى يجد عنده من سداد الرأى ، وصدق النصح ، وحسن التدبير ، مـا يقيم ملكه على دعائـم قوية ،وخاصة عند هبوب هـذا الإعصار المزلزل ، الذى سيمر بالبلاد عما قليل .

الملك يطلب إحضار يوسف ليكون مستشاره وأمينه

﴿ وَقَالَ الْمَلِكُ ائْتُونِي بِهِ أَسْتَخْلِصْهُ لِنَفْسِي ... ﴾

مِن ثَمّ قال لجنده من حوله والحارثين ٥
فلتحضروا لى يوسف الصديق فوراً مسرعين ٦
كى أصطفيه فإننى فى حاجة للمخلصين ٧
الشوق يغلبنى لرؤيته لكيما أستبين ٨

لقد انجلت الصورة ووضحت، وثبتت براءة يوسف الصديق لدى الملك ، مما نسب إليه،وأدخل السجن بسببه. .فمن ثم عظمت فى نفسه منزلته،وبالتالى شعر بشوق شديد لرؤيته . فقال لحراسه: هيا احضروا يوسف من السجن ، أريده أن يكون قريباً منى، أريده مستشاراً لى فى كل شئون الدولة،أريد أن أشركه معى فى تدبير أمر ملكى . ذلك لأننى أتصوره رجلاً بلغ الكمال فى مثاليته ، ورجاحة عقله ، وإخلاصه وقوة إيمانه وفطنته .اذهبوا إليه فى السجن ، لا تزعجوه ، خاطبوه بكل احترام ، إنه أمل مصر الذى سوف يحميها من عوادى الدهر ، وسوف تتحقق آمالها على يديه .

قال القرطبى فى تفسيره : ﴿ وَقَالَ الْمَلِكُ ائْتُونِي بِهِ أَسْتَخْلِصْهُ لِنَفْسِي ... ﴾ لما ثبتت براءته مما نسب إليه ، وتحقق فى القصة أمانته ، وفهم أيضاً صبره وجلده ، عظمت منزلته عنده ، وتيقن حسن خلاله قال: ﴿ ائْتُونِي بِهِ أَسْتَخْلِصْهُ لِنَفْسِي ﴾.

فانظر إلى قول الملك أولا ـ حين تحقق علمه ـ ﴿ ائْتُونِي بِهِ ﴾ فقط ، فلما فعل يوسف ما فعل ثانياً قال: ﴿ائْتُونِي بِهِ أَسْتَخْلِصْهُ لِنَفْسِي ﴾ .

قال الشيخ محمد على الصابونى فى تفسيره « مع أعلام المفسرين » : « ﴿ وَقَالَ الْمَلِكُ ائْتُونِي بِهِ أَسْتَخْلِصْهُ لِنَفْسِي ﴾ .أى ائتونى بيوسف ، أجعله من خاصتى وخلصائى، قال ذلك لما تحقق براءته، وعرف عفته وشهامته وعلمه . . » .

قال الفخر الرازى: لما ظهر للملك هذه الأحوال من يوسف ، رغب أن يتخذه لنفسه فقال : ﴿ ائْتُونِي بِهِ أَسْتَخْلِصْهُ لِنَفْسِي ﴾ روى أن الرسول قال ليوسف عليه السلام ، قم إلى الملك متنظفاً من درن السجن ، بالثياب النظيفة والهيئة الحسنة ، فكتب على باب السجن: هذه منازل البلوى، وقبور الأحياء ،وشماتة الأعداء ،وتجربة الأصدقاء .

الملك يطمئن يوسف ويؤمنه

﴿فَلَمَّا كَلَّمَهُ قَالَ إِنَّكَ الْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ (٥٤)﴾

قد أحـضروا الـصديـق فوراً كـان فى سـجن مـهين ٩
مذْ جـاء قال لـه الملـيكُ : غـدوت فى أمـنٍ أمين ١٠
وكـرامةٌ نـعطـيكـها ، ولـقـد أمنـت الكـائديـن ١١
وتـفوز بـالتـمـكين بـعد الـسـجن بـين المجرمـين ١٢

لقد ذهب رجال الملك فوراً مسرعين، إلى السجن، تنفيذاً لأمر الملك ، لقد أخرجوا يوسف من غياهب السجن المظلمة، بيد أنه كان ينير السجن بفكره وعقله، وخلقه، وحسن تعامله مع النزلاء من كل الفئات . وصل يوسف عليه السلام، قصر الملك معززاً مكرماً ، فلما وقف بباب الملك، أدى التحية اللائقة للملك ، مع احتفاظه بكرامته وسلامة دينه ، أى لم يسجد للملك كما يسجد الآخرون عند دخـولهم على الملك لتحيته . فلما رآه الملك، عرفه من سمته وجمال صورته ، فقال له: مرحباً بك فى قصرنا يا يوسف ، لقد نالك ما تكره من جانب الدولة . . ولم نكن على علم به ، ولسوف نعوضك عما أصابك ، ونمسح آلامك ونرد لـك كرامتك ، ونعطيك ما تـستحقه من التكريم ، وعـلو المنزلة . ولسوف تكون منذ الآن فصاعداً، آمناً من جانبنا، ولن نطيع فيك الوشاة والحاقدين.

قال ابن كـثير فى تفـسيره: ﴿ فَلَمَّا كَلَّمَهُ ﴾ أى خاطبـه الملك وعرفه، ورأى فـضله وبراعته، وعلم ما هو عليه من خلق وخُلق، وكما قال: ﴿ إِنَّكَ الْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ (٥٤) ﴾ أى إنك عندنا بقيت ذا أمانة ومكانة .

ـ قال الفخر الرازى فى قوله تعالى: ﴿ فَلَمَّا كَلَّمَهُ ﴾ فيه قولان:

أحدهما : أن المراد، فلـما كلم الملـك يوسف عليه السلام ، قالـوا : لأن فى مجـالس الملوك، لا يحسن لأحد أن يبتدئ بالكلام ، وإنما الذى يبتدئ به هو الملك.

ثانيهما :أن المراد ، فلما كلم يوسفُ الملك؛ قيل :لما صار يوسف إلى الملك، وكان ذلك الوقت ابن ثلاثين سـنة ، فلما رآه الملك حدثاً شاباً قال لـلشرابى : هذا هو الذى علم تأويـل رؤياى ، مع أن السحرة والـكهنة ما علمـوها ؟! قال : نعم ، فأقـبل على

يوسف وقال: إنى أحب أن أسمع تأويل الرؤيا منك شفاهاً ، فأجاب بذاك الجواب شفاهاً، وشهد قلبه بصحته. فعند ذلك قال له: ﴿ إِنَّكَ الْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ (٥٤) ﴾ يقال : فلان مكين عند فلان، بيّن المكانة أى المنزلة ، وهى حالة يتمكن بها صاحبها مما يريد .

وقوله تعالى: ﴿ مَكِينٌ أَمِينٌ (٥٤) ﴾ كلمة جامعة لكل ما يحتاج إليه من الفضائل والمناقب ، وذلك لأنه لا بد فى كونه مكيناً ، من القدرة والعلم . أما القدرة، فلأن بها تحصل المكنه. . وأما العلم، فلأن كونه متمكناً من أفعال الخير ، ولا يحصل إلا به .

يوسف يتحدث للملك

....

قد كـان يوسف حاذقـاً ، بل كان ذا عقـل رصين ١٣
فـوراً تحدث لـلـمـلـيـك ،وقـال قـول العـارفـين ١٤
يا أيـها الملـك العـظيم ، هـديت للـرأى الفـطين ١٥
الـرأى عـنـدى والـصواب أراه كـالـنـور المـبـين ١٦

إن يوسف الصديق، ذو لسان فصيح ، يتمتع بمنطق فريد ، قل أن يوجد من يدانيه فصاحة ورجـاحة عقل فى مصر كـلها . . كيف لا ! فهـو نبى من أنبياء الـله ، بل هو سلالة آباء كرام ، هو حفيد الخليل إبراهيم عليه السلام ، مؤيد بوحى الله ، وهو أيضا داعية إلى توحيد الله . . إذن فلا بد أن يكون أفصح أهل زمانه ، وأبلغهم بياناً.

بعد أن استـقبله الملك بالـترحاب، وأوسع له فى مجلـسه ، وأجلسه بجانـبه على سريره ،فى مكان الصـدارة ، وطمأنه بكلام ينبض بالصدق فى كـل كلمة ، بل فى كل نبرة من نبراته ، قال له : أنت اليوم آمن ولن ينالك ما تكره، لما انتهى الملك من حديثه ليوسـف . . أخذ يوسف يتـحدث إلى الملك ، فـكان حديثـه يصل إلى أسمـاع الملك، كلحن محبب يشجى سامعه، أو كالماء البارد على قلب الظمآن .

كان النور يشع من منطقه الفصيح الصادق ، والملك يستمع إليه بكل اهتمام ، كل كلمة من كلام يوسف ، كانت تؤكد للملك أن يوسف هذا ينبغى أن يكون هو سيد هذه الأمة . . فهذا العقل وتلك الأخلاق ليست للسوقة ، بل هى للسادة والملوك .

قال القاضى بـيضاوى فى تفسيره : « دخـل يوسف على الملك،تحدث المـلك معه بلغته،وأجاب يوسف . . تحدث الملك بلغة ثانية ، فجاوبه يوسف بالعربية، سأله الملك! أى لـسان هـذا ؟! قال يـوسف :هـذا لـسان إسـماعـيـل عم أبـى،تحدث مـع المـلـك بالـعبرانيـة،سأله الملـك! ما هذا اللـسان ؟! قال: هـذا لسان آبائـى: إبراهيم وإسـحاق ويعقوب . .وكان الملك يتكلم أكثر من لسان ، كان يجيد أكثر من لغة ،ووجد يوسف ، يجيد أكثر من لغة » .

يوسف يطلب من الملك أن يكون خازن المال

﴿ قَالَ اجْعَلْنِي عَلَىٰ خَزَائِنِ الأَرْضِ ... ﴾

إن البلاد بحاجة للمخلصين الحازمين ١٧
كى يحفظوا خير البلاد من البغاة المفسدين ١٨
إنى على هذا قدير من خيار الحافظين ١٩
فلتعطنى شرفاً لأحفظ مال مصر من السنين ٢٠

لا يزال الحوار مستمراً متصلاً دون انقطاع ، بين الملك ، وبين يوسف عليه السلام ، وأخيراً لقد اكتفى الملك بما سمعه من حديث يوسف المقنع ، فلقد وجد عنده مالم يجده عند غيره، من رجال بطانته الذين يحيطون به ، بل لم ير فى حياته كلها رجلاً ، اجتمعت فيه كل صفات الكمال، رجاحة عقل ،وسداد رأى ،وعلم غزير لا نظير له بين العلماء ، وفطنة وصدق لهجة مثل يوسف عليه السلام . . .ولم لا . . . ! أليس هو يوسف نبى اللّه ،ابن يعقوب نبى اللّه ، ابن اسحاق نبى اللّه ، ابن إبراهيم خليل الله؟! لقد كان تأثير حديث يوسف عليه السلام ، على الملك قويا مقنعاً ، فأسلم الملك ليوسف القياد ، وسأله الرأى الصائب ، بالنسبة لمستقبل مصر ، وماذا يرى فى شعب مصر.

قال يوسف عليه السلام : أيها الملك! إن مصر بلد حضارى عريق، وشعبها شعب طيب وذكى،بيد أن رجال الحكم فيها ليسوا أمناء،فخيرات مصر تضيع فى غير ما هى مخصصة لها ،إن مصر بحاجة إلى رجال مخلصين يضعون مصلحة الشعب نصيب أعينهم ، يتوخون العدل والحق فى ما يتولونه من أعمال ، فى سلوكهم،وفى شئون حياتهم . لذلك فأنا أطلب منك أيها الملك،أن تشرفنى بإسناد أمر أموال مصر وخزائن أرضها وشئون الناس فيها إلىّ ،فإننى بإذن اللّه أستطيع إدارة هذا الأمر بنجاح وحزم واقتدار .

ـ قال ابن كثير فى تفسيره : ﴿ قَالَ اجْعَلْنِي عَلَىٰ خَزَائِنِ الأَرْضِ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ (٥٥) ﴾ مدح نفسه ـ أى يوسف ـ ويجوز للرجل ذلك إذا جُهل أمره ، للحاجة : وذكر أنه خازن أمين ، ذو علم وبصر بما يتولاه .

قال شيبة بن نعامة : حفيظ لما استودعتنى ، عليم بسنى الجدب « رواه ابن أبى حاتم وسأل العمل ،لعلمه بقدرته عليه ، ولما فى ذلك من المصالح للناس ،وإنما سأل أن يُجعل على خزائن الأرض ، وهى الأهرام التى يجمع فيها الغلات ، لما يستقبلونه من السنين التى أخبرهم بشأنها ،لينصرف لهم على الوجه الأحوط والأرشد ، فأجيب إلى ذلك ، رغبة فيه وتكرمة له » .

تبرير طلب يوسف من الملك

﴿ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ ﴾

فلتعطني شرفاً لأحفظ مال مصر من السنين ٢٠

قال الفخر الرازى : روى ابن عباس رضي الله عنهما ،عن النبى ﷺ فى هذه الآية: ﴿ قَالَ اجْعَلْنِي عَلَىٰ خَزَائِنِ الْأَرْضِ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ ﴾ .

رحم الله أخى يوسف ،لو لم يقل: « اجعلنى على خزائن الأرض لاستعمله من ساعته ، لكنه لما قال ذلك ، أخره عنه سنة ».

وأقول :هذا من العجائب ، لأنه لما تأبى عن الخروج من السجن ، سهل الله عليه ذلك ،على أحسن الوجوه ، ولما تسارع فى ذكر الالتماس ،أخر الله تعالى ذلك المطلوب عنه ، وهذا يدل على أن ترك التصرف والتفويض بالكلية إلى الله تعالى أولى.

ثم قال:لقائل أن يقول : لم طلب يوسف الإمارة، والنبى ﷺ ، قال لعبد الرحمن ابن سمرة : « لاتسأل الإمـارة » ،وأيضاً فكيف طلب الإمارةمن سلـطان كافر ، وأيضاً لم لمْ يصـبر مدة ، ولم أظهر الرغبـة فى طلب الإمارة فى الحال؟!.. وأيضـاً لم طلب أمر الخزائن فى أول الأمر ، مع أن هذا يورث نوع التهمة .

وأيضاً كيف جوز من نفسه بقوله تعالى ﴿ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ ﴾مع أنه تعالى يقول:

﴿ فَلَا تُزَكُّوا أَنفُسَكُمْ ﴾ [النجم:٣٢] وأيضاً فما الفائدة فى قوله تعالى:﴿ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ ﴾وأيضاً لم ترك الاستـثناء فى هذا ، فإن الأحسن أن يقول :إنى حـفيظ عليم إن شاء الله ؟ ! فهذه أسئلة سبعة لا بد من جوابها .

الأول: أنه كان رسولاً حـقاً من عند الله تعـالى إلى الخلق ،والرسول يجـب عليه رعاية مصالح الأمة بقدر الإمكان .

الثانى :وهو أنه عليه السلام ،علم بالوحى أنـه سيحصل القحط والضيـق الشديد الذى ربما أفضى إلى هلاك الخلق العظيم ، فلعله تعالى أمره بأن يدبر فى ذلك، ويأتى بطريق لأجله يقل ضرر ذلك القحط، فى حق الخلق .

الثالث :أن السعى فى إيصال النفع إلى المستحقين،ودفع الضرر عنهم أمر مستحسن فى العقول . وإذا ثبت هذا فنقول: إنه عليه السلام كان مكلفاً برعاية مصالح الخلق من هذه الوجوه وما كان يمكنه رعايتها إلا بهـذا الطريق،وما لا يتم الواجب إلا به ،فهو واجب، فكان هذا الطريق واجباً عليه، ولما كان واجباً ، سقطت الأسئلة بالكلية .

وأما ترك الاستثناء فقال الواحدى : كان ذلك من خطيئة أوجبت عقوبة ،وهى أنه تعالى أخر عنه حصول ذلك المقصود سنة .

وأقول : لعل السبـب فيه أنه لو ذكر هذا الاستـثناء،لاعتقد فيه المـلك أنه إنما ذكره لعلمـه بأنه لا قدرة له علـى ضبط هذه المصلـحة كما ينبـغى ، فلأجل هذا المعـنى ترك الاستثناء .وأما قوله لـم مدح نفسه فجوابه : لا نسلّم أنه مدح نفسـه ، لكنه بيّن كونه موصوفاً بـهاتين الصفتين الـنافعتين ،وفى حـصول هذا المطلوب ، وبين الـبابين فرق ، وكأنه قد غلب على ظنه أنه يحتاج إلى ذكر هذا الوصف ، لأن الملك ، وإن علم كماله فى علوم الدين،ولكنه ما كان عالماً بأنه يفى بهذا الأمر. ثم نقول: هب أنه مدح نفسه ، مدح النفس إنما يكون مذموماً ، إذا قصد الرجل بـه التطاول والتفاخر والتوصل إلى غير ما يحل . فـأما على غير هـذا الوجه، فلا نسلـم أنه محرم ، فقولـه تعالى﴿ **فَلَا تُزَكُّوا أَنفُسَكُمْ**﴾ [النجم:٣٢] المراد منه ، تزكية الـنفس ما يعلم كونها متزكـية ، والدليل على قوله تعالـى بعد هذه الآية : ﴿**هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اتَّقَىٰ** (٣٢)﴾. أما إذا كان الإنسان عـالماً بأنه صدق وحق،فهذا غير ممنوع والله أعلم .

قوله: ما الفائدة فـى وصفه نفسه بأنه حـفيظ عليم ؟! .قلنـا : إنه جار مجرى أن يقول حفيظ بـجميع الوجوه التى منها يمـكن تحصيل الدخل والمال، عليـم بالجهات التى تصلـح لأن يصرف المال إليهـا . ويقال : حفيظ بـجميع مصالـح الناس،عليم بـجهات حاجاتهـم . أو يقال:حفيظ لوجوه أيـاديك وكرمك ، عليم بـوجوب مقابلتها بـالطاعة والخضوع، وهذا باب واسع جداً ، يمكن تكثيره لمن أراده .

تمكين الله ليوسف فى الأرض

﴿ وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ ﴾

سمعَ المليكُ مقالةَ الصديقِ سمْعَ الفاهمين ٢١
من ثَم قال له بحقٍّ : أنت ذو عقل ودين ٢٢
إنى أرى فيك النجابةَ والذكاءَ المستبين ٢٣
ولقد جعلتك خازناً للمالِ دون العالمين ٢٤
كى تحفظ الأموال من أيدىَ البُغاةِ العابِثين ٢٥

الملك يصغى لحديث يوسف الصديق ،كمن يستمع لحناً محبباً أثار كوامن نفسه ، إنه لا يسمع بأذنيه فحسب ، بل عقله وأفكاره ، كانا يشاركان أذنيه الإستماع، كل كلمة كان ينطق بها يوسف الصديق ،كانت تجد طريقها إلى أذنى الملك فيستقبلها عقله وفكره استقبال الظامىء للماء البارد ، فى هجير الصيف . وبرغم هذا فيوسف الصديق، لم يُطِل فى حديثه للملك، لأنه كان كلاماً مركزاً متقناً ، لا حشو فيه ولا لغو ، ثم ختم يوسف الصديق، حديثه للملك بالجملة الخالدة التى سجلها القرآن الكريم هى: ﴿ اجْعَلْنِي عَلَىٰ خَزَائِنِ الْأَرْضِ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ (٥٥) ﴾ .

حينئذ هتف الملك قائلا بكل إعجاب: أنت رجل عبقرى، بل أنت الإنسان الذى يفتقر إليه ملكى، فذكاؤك، ورجاحة عقلك، وحلو منطقك، وحسن تدبيرك، كل هذه الصفات، تجعلك جديراً بأن تكون الرجل الأول أعتمد عليه فى كل شىء. ثم أردف قائلا: من واقع تفسيرك لرؤياى ، أشعر بخطر يهدد مصر ، وشعب مصر، أليس قد قلت فى تفسيرك للرؤيا : هناك سبع سنوات قحط ، سوف تعقب سنى الخصب السبع؟!

قال يوسف : بلى . . قال الملك: إذن فهذا الأمر يحتاج إلى حساب دقيق ،وتدبير محكم، ولا أعلم أن أحداً ممن يحيطون بى ،له القدرة على القيام بتلك المهمة الخطيرة .

إذن، فإنى أوليك على خزائن مصر كلها ، تتصرف فيها بما تراه مصلحة مصر ، وشعب مصر ، فأنت الحارس الأمين ، الذى ساقتك الأقدار لإنقاذ هذا البلد من أعدائه الذين يتربصون به الدوائر ، أولئك الذين لا هم لهم ، إلا إشباع رغباتهم ، وتحقيق مصالحهم الشخصية ، بهذا القرار ، أصبح يوسف الصديق، ممكناً فى مصر كلها، وصاحب الكلمة النافذة فيها .

يوسف له أجران :فى الدنيا والآخرة

﴿ يَتَبَوَّأُ مِنْهَا حَيْثُ يَشَاءُ نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَن نَّشَاءُ وَلَا نُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ (٥٦) وَلَأَجْرُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ (٥٧) ﴾ .

ثقة المليك بيوسف كانت جزاء الصابرين ٢٦
قد صار يوسف سيداً فى مصر أرض الخالدين ٢٧
بالأمس كان مكبلاً بالذل بين المجرمين ٢٨
واليوم صار مكرماً تكريم رب العالمين ٢٩
هذا جزاء الله فى الدنيا لكل المخلصين ٣٠
وهناك يوم الحشر خير للرجال المتقين ٣١

لقد أصدر ملك مصر قراره الخالد ، بتولية يوسف الصديق، خزائن مصر، وإدارة أموالها وأعمالها ،والتصرف فيها، بحيث لا قيود عليه،ولا رقباء إلا ضميره. ولا غرو ، فملك مصر لا يصدر هذا القرار جزافاً ، فهو رجل ذو فطنة ،فراسة وعقل راجح وحكمة،فهو قد تفرس فى يوسف الصديق ، فرأى الفطنة كلها ، والذكاء كله ، والعقل الراجح ، والإيمان القوى الراسخ ، هذا فضلاً عن تفرده بعلم لا يوجد فى مصر كلها من يساويه فيه ، ألا وهو علم تفسير الأحلام ، الذى يعتبر من كنوز العلوم والمعارف .

إن قرار الملك يتوليه يوسف ، هذا المنصب الخطير ، يعتبر تكريماً فاق كل تكريم ، لقد أعاد هذا القرار ليوسف حريته التى كانت مسلوبة ، وكرامته التى كانت مهدرة جريحة . . فهو بالأمس كان فى غياهب السجن المظلمة ، بين فئات نزلاء السجن، المختلفى النزاعات والمفاهيم والأهواء .إنها رحمة من الله ، امتن بها على يوسف الصديق فى الدنيا ، مسح بها آلامه، وآسى بها جراحه ، فلقد أوذى يوسف كثيراً ، فصبر وأحسن فى صبره . . بحيث لم يكن ملولا متبرماً .

قال القرطبى فى تفسيره :﴿ نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَن نَّشَاءُ ﴾ أي بإحساننا ،والرحمة النعمة والإحسان ﴿ وَلَا نُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ (٥٦) ﴾ أى ثوابهم .

وقال ابن عباس ووهب : يعنى الصابرين ، لصبره فى الجب ، وفى الرق، وفى

السجن ،وصبره عن محارم اللّه،عما دعتـه إليه المرأة . . وقال الماوردى :واختلف فيما أوتيه يوسف من هـذه الحال على قولين: أحدهما : أنه ثواب من الـلّه على ما ابتلاه . الثانى : أنه أنعم الله عليه بذلك تفضلا منه عليه، وثوابه باق على حاله فى الآخرة.

﴿وَلأَجْرُ الآخِرَةِ خَيْر﴾ أى ما نعطيه فى الآخرة خير وأكثر مما أعطيناه فى الدنيا ،لأن أجر الآخرة دائم ، وأجر الدنيا منقطع .

يوسف يعرف إخوته ،وهم لا يعرفونه

﴿ وَجَاءَ إِخْوَةُ يُوسُفَ فَدَخَلُوا عَلَيْهِ فَعَرَفَهُمْ وَهُمْ لَهُ مُنكِرُونَ (٥٨) ﴾

القحط قد عم القرى والناس صاروا جائعين ٣٢
لكنهم هرعوا إلى أرض الكنانة ذاهبين ٣٣
هرعوا لأخذ القوت حتى لا يصيروا هالكين ٣٤
قد كان إخوة يوسف بين الوفود القادمين ٣٥
لما رآهم صار عارفهم ، وليسوا عارفين ٣٦
قد سُرَّ يوسف إذ رأى إخوانه فى الوافدين ٣٧

لما ولى الملك أمر مصر وشئونها ، لا سيما الاقتصادية منها إلى يوسف الصديق، سار فى الناس بالعدل والحق ، فأحبه أهل مصر كلهم .. وذلك خلال سنى الخصب. وانتهت السنون السبع المخصبة ، وكان يوسف قد أصدر أوامره لكل الزارعين ، بأن يتوسعوا فى زراعة القمح، وذلك انتظار لسنى القحط المجدبة المرتقبة .. وقد جمع كل ما أنتجته المزارع، فى السنوات السبع المخصبة، بحيث ضاقت عن استيعابها ما لدى الدولة من أماكن لتخزين الغلال. وجاءت سنون القحط، وكان يوسف قد أعد العدة لمواجهتها ، وذلك فى مصر فحسب، أما بقية البلاد خارج حدود مصر، فلم يكونوا على علم بالقحط المرتقب ، ليتخذو التدابير والاحتياطات اللازمة لمواجهته . لقد عمت المجاعة فى أنحاء الأرض، فمن ثم هرع الناس من كل مكان متجهين صوب مصر ، بحثاً عن الطعام، وتطايرت الأنباء ،أن مصر فيها طعام . صار الناس يأتون مصر وفوداً ،معهم الإبل لحمل الطعام، ثم يعودون إلى أهليهم مسرعين، معهم الطعام إلى ذويهم. .الطعام الذى هو قوام الحياة ..وكان إخوة يوسف قد أقبلوا ضمن الوفود القادمين .. فلما رآهم يوسف، عرفهم .. أما إخوته فلم يعرفوه ، ذلك لأنه كان صغيراً حين تركوه فى الجب ، وكانوا يظنون أنه قد مات ، وإن لم يكن قد مات ، فليس معقولاً أن يصل إلى هذه المكانة !

قال ابن كثير: «ذكر السدى ومحمد بن إسحاق وغيرهما من المفسرين: أن السبب الذى أقدم إخوة يوسف بلاد مصر، أن يوسف عليه السلام، لما باشر الوزارة بمصر، ومضت السبع السنين المخصبة، ثم تلتها سنين الجدب، وعم القحط بلاد مصر بأكملها، ووصل إلى بلاد كنعان، وهى التى فيها يعقوب عليه السلام وأولاده، وحينئذ احتاط يوسف عليه السلام للناس، فى غلاتهم، وجمعها أحسن جمع، فحصل من ذلك مبلغ عظيم، وأهراء متعددة هائلة، وورد عليه الناس من سائر الأقاليم والمعاملات يمتازون لأنفسهم وعيالهم ، وكان لا يعطى الرجل أكثر من حمل بعير فى السنة » .

يوسف يسأل إخوته

....

ناداهم الصديق : من أنتم ! أجابوا قائلين ٣٨
إنا بنو يعقوب آل البيت نسل المرسلين ٣٩
قحط البلاد أصابنا ،جئنا مجيء المكرهين ٤٠
جئنا لكى نكتال ثم نعود عود الغانمين ٤١
كى نطعم الأفواه من جوع فنعم المطعمين ٤٢

لما دخل أبناء يعقوب على أخيهم يوسف الصديق،فى المكان المعد لاستقبال الوفود، وقد رآهم فعرفهم ،أما هم فلم يعرفوه . . فسألهم يوسف ، من أنتم ؟! ومن أين قدمتم ؟! قالوا : أيها العزيز ، نحن أبناء يعقوب ، نبى الله . . نحن آل بيت النبوة ، أحفاد إبراهيم خليل الله . قدمنا إليكم من بلاد الشام ، جئنا لأجل الميرة ـ نجلب الطعام لأهلينا ـ لقد أصاب القحط بلادنا ،وصار الناس فى مجاعة ، وقد جعل الله الخير فى مصر ، وجعلك خازناً تعطى الناس ما يحتاجونه بالحق والعدل ،ولولا المجاعة ما جئنا مصر،ذلك لأن ليس لنا بها من حاجة،وقد خلفنا وراءنا شيوخاً وأطفالا ونساء ، الجوع يهدد حياتهم،ويوشك أن يقضى عليهم، إن لم نسرع لهم بالغوث .

قال الأستاذ أحمد بهجت فى كتابه « أنبياء الله »:جاء الإخوة الذين ألقوه فى البئر، جاء أولاد يعقوب فى صفوف الجماهير الطويلة صاحبة الحاجة ، وهو يجلس على عرش مصر،حاكماً مطاعاً،يأمر وينهى ويتحكم فى لقمة عيش الناس ، يحف من حوله وزراؤه وجنده وأبهته . عرف يوسف إخوته على الفور ، ولم يعرفوه هم ، يستحيل أن يعبر طيف يوسف أفكارهم الآن ، لقد تخلصوا منه،من زمان بعيد . . وضاق بهم الحال، فجاءوا من فلسطين يبحثون عن الطعام فى مصر . وأجرى يوسف حواره مع أخوته ، بغير أن يكشف لهم عن نفسه ، كان عدد الإخوة عشرة ، وكان معهم أحد عشر بعيراً ، سألهم يوسف ـ مستخدماً أحد المترجمين لكى لا يتحدث لغتهم العبرانية ـ نظامنا يقضى بإعطاء كل إنسان قدر بعير من الطعام ، كم عددكم ؟! قالوا : نحن أحد عشر .

يوسف يبادل إخوته الحديث ويعرف منهم حال أبيه

....

قد أردف الصديق يسألهم سؤال المستبين ٤٣
إنى أراكم عشرة، أى إخوة متآلفين! ٤٤
فلتخبرونى هل تركتم خلفكم متخلفين؟! ٤٥
قالوا: تركنا الشيخ معه صغيره وبه ضنين ٤٦
هو حِبّه كأخيه يوسف كان من خير النبيين ٤٧
اثنان إخوتنا ، وليس لأمنا ، هذا يقين ٤٨
لكن يوسف لم يعش وأبوه ظل على الأنين ٤٩

يوسف الصديق يواصل سؤال إخوته، لما قالوا له : نحن أحد عشر أخاً، قال لهم: لقد ذكرتم أنكم أحد عشر أخاً ، لكننى أراكم عشرة فحسب! فهل تركتم وراءكم أحداً فى دياركم ؟!

قالوا : نعم تركنا أبانا يعقوب ، هو شيخ كبير ، ومعه ولده ، هو أصغرنا سناً ، ظل عنده يؤنسه ويسليه ،لينسى همومه وأحزانه على ولده يوسف ،لقد كان يحبه حباً لا مزيد عليه ، لكنه مات منذ زمن بعيد ، ومن ثم فهو حزين عليه ، منذ أن افتقدناه من سنين طويلة حتى الآن . وأخونا الأصغر الذى ظل عند أبيه ، هو ويوسف أخوان لنا ، لكن من أم أخرى، فلما مات يوسف ، ازداد أبونا تمسكاً بالثانى ، من زوجته الثانية، فهو أثير لديه ،لايقدر على بعده عنه أبداً. . ولا يحب مفارقته مطلقاً . قال لهم يوسف:إن النظام الموضوع هنا ، لتوزيع الطعام على الناس، أن لكل رجل حمل بعير ، وأنتم عشرة فقط . . ومع هذا سأعطيكم أحد عشر حملاً ،لأجل أخيكم الغائب الذى قلتم ظل عند أبيه ليؤنسه ويسليه عن أحزانه على ولده يوسف المفقود .

قال ابن كثير فى تفسيره: « إنه ـ أى يوسف ـ شرع يخاطبهم ،فقال لهم كالمنكر عليهم:ما أقدمكم بلادى ؟! قالوا :أيها العزيز ! إنا قدمنا للميرة ،قال: فلعلكم عيون؟! جواسيس ـ قالوا: معاذ الله ،قال : فمن أين أنتم؟! قالوا:من بلاد كنعان، وأبونا يعقوب ،نبى الله ،قال: وله أولاد غيركم ؟! قالوا نعم، كنا اثنى عشر،فذهب أصغرنا،هلك فى البرية، وكان أحبنا إلى أبيه ، وبقى شقيقه ، فاحتبسه أبوه ليتسلى به عنه، فأمر بإنزالهم وإكرامهم » .

أبناء يعقوب يتجهزون للرحيل

﴿ وَلَمَّا جَهَّزَهُم بِجَهَازِهِمْ ﴾

قد أنزل الصديق إخوته كخير المنزلين ٥٠
أعطى لهم من خير ما أعطى لقوم آخرين ٥١
قد جهزوا أوثاقهم كيما يعودوا قافلين ٥٢
لكن يوسف قال يوصيهم وصية ناصحين ٥٣
فلتسمعوا قولي وكونوا للمقالة مدركين ٥٤

لقد انتهى الحوار بين يوسف الصديق عليه السلام ،وبين إخوته ، وذلك بعد أن وجه إليهم عدة أسئلة ، اطمأن من خلالها على أبيه وأخيه ، وأنهما لا يزالان على قيد الحياة، من ثم أمر بإنزالهم أحسن منزل ، وأغدق عليهم فى الإنفاق، بحيث بهرهم من شدة إكرامه لهم .. ولا غرو فهم إخوته ،وهم أحق الناس بالكرم والتكريم، ثم أصدر أوامره للعمال والخدم ،القائمين على الكيل والحراسة ، أن يعدوا لإخوته أحد عشر حمل بعير .الواقع أن هذا كان استثناء خاصاً لإخوته ،لأن النظام المعمول به ، أن لكل رجل حمل بعير فقط .. وهؤلاء عشرة رجال ،وقد أعطوا أحد عشر حملاً ، فلماذا ؟!

كان هذا التساؤل باديا على وجوه القوم ،من العمال والخدم والحراس ، والوفود أيضاً . .بيد أن الجواب على هذا التساؤل المكتوم ،جاء على لسان يوسف عليه السلام نفسه، أنه استثنى هؤلاء القوم من القرار ،الذى يعاملون كل الوافدين به ، ذلك لأنه تبين أنهم أحد عشر أخاً فعلاً فهؤلاء عشرة،وأخوهم الحادى عشر تخلف عند أبيه لأسباب هامة ، فأعطاهم نصيب أخيهم ذاك. لقد جهزوا أوثاقهم،واستعدوا للرحيل، عائدين إلى بلادهم،فى فلسطين من أرض الشام،إلى حيث ينتظرهم أبوهم ، بل كل آل يعقوب من النساء والأطفال .بيد أن الفخر الرازى يقول: إن يوسف أعطى إخوته العشرة ، عشرة أحمال،وزادهم حملين آخرين لأبيهم وأخيهم،وهذا قوله:«إن عادة يوسف عليه السلام ، مع الكل أن نعطيه حمل بعير ،لا أزيد عليه ولا أنقص ،وإخوة يوسف الذين ذهبوا إليه كانوا عشرة،فأعطاهم عشرة أحمال فقالوا : إن لنا شيخاً كبيراً وأخاً آخر بقى معه ، وذكروا أن أباهم لأجل سنّه،وشدة حزنه لم يحضر،وأن أخاهم بقى فى خدمة أبيه ، ولا بد لهما أيضاً من شىء من الطعام ، فجهز لهما أيضاً بعيرين آخرين من الطعام » .

يوسف يطلب إحضار بنيامين

﴿ قَالَ ائْتُونِي بِأَخٍ لَّكُم مِّنْ أَبِيكُم ﴾

لكن يوسف قال يوصيهم وصية ناصحين ٥٣
فلتسمعوا قولى وكونوا للمقالة مدركين ٥٤
إذ ما أردتم عودة للكيل عود الراغبين! ٥٥
هاتوا أخاكم من أبيكم فليكن فى الوافدين ٥٦

لما همَّ أبناء يعقوب بالرحيل ، عائدين إلى بلادهم وذويهم ، تحدث يوسف عليه السلام إليهم فقال لهم: إنى أوصيكم وصية صادقة ،إن كنتم عقلاء ـ وإنكم لكذلك ـ فاسمعوا قولى، ونفذوا ما أوصيكم به . . فوصيتى أسديها لكم خالصة لوجه اللّه . ذلك لأننى تأثرت بكم ، فأهمنى أمركم لكونكم ـ كما ذكرتم ـ من سلالة آباء كرام، لذا فإننى أبغى لكم الخير،لا أريد منكم جزاء ولا شكورا.بعد أن انتهى يوسف من حديثه لإخوته ، ودعهم بحرارة وانقلبوا عائدين متجهين إلى أرض فلسطين ، لقد كان يوسف عليه السلام ، يتمنى أن يرافقهم فى رحلة عودتهم، ليملأ عينيه برؤية أبيه الحزين ،وأخيه بنيامين الذى يحن لرؤيته أشد الحنين.بيد أن يوسف عليه السلام ،لم ينس حين ودعهم أن كرر نصحه لهم ، ولكن نصحه هذه المرة كان مشفوعاً بكلام آخر وهو : إن شئتم العودة إلينا مرة ثانية ، لأجل الميرة ،فلتحضروا معكم أخاكم الذى تركتموه وراءكم ـ كما قلتم ـ وقد صدّقنا قولكم ، فأعطيناكم حملاً لأجله . . وذلك الحمل زائد على العدد المقرر لكم .

قال الفخر الرازى فى قوله : ﴿ قَالَ ائْتُونِي بِأَخٍ لَّكُم مِّنْ أَبِيكُم ﴾ لعلهم لما ذكروا أباهم قال يوسف: فلم تركتموه وحيدا فريدا ؟! قالوا : ما تركناه وحيداً ، بل بقى عنده واحد ، فقال لهم : لم استخلصه لنفسه ، ولم خصه بهذا المعنى ؟! ألأجل نقص فى جسده ! فقالوا: لا ، بل لأجل أن يحبه أكثر من محبته لسائر الأولاد .فعند هذا قال يوسف: لما ذكرتم أن أباكم رجل عالم حكيم ، بعيد عن المجازفة ، ثم إنه خصه بمزيد المحبة ، وجب أن يكون زائداً عليكم فى الفضل ، وصفات الكمال، مع أنى أراكم فضلاً علماء حكماء ، فاشتاقت نفسى إلى رؤية ذلك الأخ فأتونى به .

يوسف يذكر إخوته بإكرامه لهم

﴿ أَلا تَرَوْنَ أَنِّي أُوفِي الْكَيْلَ وَأَنَا خَيْرُ الْمُنزِلِينَ (٥٩) فَإِن لَّمْ تَأْتُونِي بِهِ فَلا كَيْلَ لَكُمْ عِندِي وَلا تَقْرَبُونِ (٦٠) ﴾ .

أفليس قد أوفيتكم كيلاً وكنتم مكرمين؟! ٥٧
إنو لمْ يجئْ معكم فلا تأتوا لكيل طالبين ٥٨
فلتدركوا ما قلته كونوا لنصحى فاهمين ٥٩

قال الفخر الرازى فى قوله تعالى: ﴿ أَلا تَرَوْنَ أَنِّي أُوفِي الْكَيْلَ وَأَنَا خَيْرُ الْمُنزِلِينَ (٥٩) ﴾ أى أتمة ولا أبخسه . وأزيدكم حمل بعير آخر لأجل أخيكم . . وخير المنزلين، أى خير المضيفين ،لأنه حين أنزلهم أحسن ضيافتهم . . ثم قال: اعلم أنه عليه السلام لما طلب منهم إحضار ذلك الأخ ،جمع بين الترغيب والترهيب. أما الترغيب فهو قوله تعالى: ﴿أَلا تَرَوْنَ أَنِّي أُوفِي الْكَيْلَ وَأَنَا خَيْرُ الْمُنزِلِينَ (٥٩)﴾ وأما الترهيب فهو قوله تعالى : ﴿ فَإِن لَّمْ تَأْتُونِي بِهِ فَلا كَيْلَ لَكُمْ عِندِي وَلا تَقْرَبُونِ (٦٠) ﴾ وذلك لأنهم كانوا فى نهاية الحاجة إلى تحصيل الطعام ،وما كان يمكنهم تحصيله إلا من عنده ،فإذا منعهم من الحضور عنده ، كان ذلك نهاية الترهيب والتخويف .

قال الأستاذ عبد الكريم الخطيب فى « القصص القرآنى »: « وهنا وجد يوسف فرصة فى معاسرتهم ، والتضييق عليهم ، وأخذهم بشىء من الابتلاء الذى سقوهم كأسه مترعة ، فطلب إليهم أن يأتوه بهذا الأخ الذى لهم من أبيهم ـ كما يقولون ـ ليكون ذلك دليلاً على صدقهم فيما قالوه ، من أنهم أبناء يعقوب نبى الله ، وإلا فإنه لن يتعامل معهم ، ولن يعطيهم من ميرة مصر شيئا. ﴿ وَلَمَّا جَهَّزَهُم بِجَهَازِهِمْ قَالَ ائْتُونِي بِأَخٍ لَّكُم مِّنْ أَبِيكُمْ أَلا تَرَوْنَ أَنِّي أُوفِي الْكَيْلَ وَأَنَا خَيْرُ الْمُنزِلِينَ (٥٩) فَإِن لَّمْ تَأْتُونِي بِهِ فَلا كَيْلَ لَكُمْ عِندِي وَلا تَقْرَبُونِ ﴾ .وهكذا ترك يوسف إخوته يعودون إلى بلادهم ، بعد أن حمل كل واحد منهم حمل بعير من الحب » .

قال ابن كثير فى قوله تعالى: «﴿ وَلَمَّا جَهَّزَهُم بِجَهَازِهِمْ ﴾أى وفاهم كيلهم ، وحمل لهم أحمالهم قال: ﴿ ائْتُونِي بِأَخٍ لَّكُم مِّنْ أَبِيكُمْ﴾، هذا الذى ذكرتم ، لأعلم صدقكم فيما ذكرتم : ﴿ أَلا تَرَوْنَ أَنِّي أُوفِي الْكَيْلَ وَأَنَا خَيْرُ الْمُنزِلِينَ (٥٩)﴾ يرغبهم فى الرجوع إليه ، ثم رهبهم فقال: ﴿فَإِن لَّمْ تَأْتُونِي بِهِ فَلا كَيْلَ لَكُمْ عِندِي وَلا تَقْرَبُونِ﴾ إن لم تقدموا معكم فى المرة القادمة ، فليس لكم عندى ميرة ».

أبناء يعقوب يعدون يوسف بإحضار بنيامين

﴿ قَالُوا سَنُرَاوِدُ عَنْهُ أَبَاهُ وَإِنَّا لَفَاعِلُونَ ﴿٦١﴾ ﴾

قالوا :فلن يرضى أبوهُ ، لأنه شيخٌ حزين ٦٠	
من بعد يوسف لم يكفّ عن البكاءِ مدَى السنين ٦١	
لكن سنسأله ونرجو أن يجيب وأن يلين ٦٢	
فلعلهُ يرضى ويعطينا الغلام المستكين ٦٣	

بعد أن انتهى يوسف عليه السلام ، من الحديث مع إخوته ، إذ قال لهم : إذا شئتم أن تعودوا مرة ثانية،إلى مصر لأجل الميرة، فليكن أخوكم معكم .قالوا : ﴿سَنُرَاوِدُ عَنْهُ أَبَاهُ وَإِنَّا لَفَاعِلُونَ ﴿٦١﴾﴾ .إنهم يعدون يوسف وعداً غير قاطع ، بأنهم سوف يطلبون من أبيهم أن يرسل أخاهم معهم،وسوف يحاولون إقناعه، ما وجدوا إلى ذلك سبيلاً .ذلك لأنهم يعلمون أن أباهم يعقوب،لن يأمنهم عليه وبالتالى فلن يعطيهم إياه،فهو منذ أن فقد ولده يوسف،لم يكف عن البكاء ليل نهار،حتى الآن،ولاغرو،فمن شدة حزنه على يوسف، وكثرة بكائه المتواصل، أذهب البكاء نور عينيه، فصار أعمى لا يبصر .وبرغم هذا ،فالوا ليوسف:سنراود عنه أباه وإنا لفاعلون،أى سنطلبه منه، وسوف نتلطف فى الطلب ، وسوف نحاول إقناعه . . فلعله يتنازل عن رأيه ،وإصراره الذى نعرفه عنه . . وهو أنه لن يسمح لولده هذا بالبعد عنه ،مهما كانت الأسباب .بيد أنه إذا ما استجاب لنا،ووافق على إرساله معنا ،فإننا سوف نكون سعداء لكوننا وفّينا ،وأثبتنا صدق قولنا .

قال القرطبى فى تفسيره:« ﴿ قَالُوا سَنُرَاوِدُ عَنْهُ أَبَاهُ وَإِنَّا لَفَاعِلُونَ ﴿٦١﴾﴾ أى سنطلبه منه، ونسأله أن يرسله معنا، وضامنون المجىء به ومحتالون فى ذلك.

مسألة ـ إن قيل : كيف استجاز يوسف إدخال الحزن على أبيه بطلب أخيه ؟ قيل له:عن هذا أربعة أجوبة أحدها : يجوز أن يكون اللّه عز وجل أمره بذلك ابتلاء ليعقوب ، ليعظم له الثواب، فاتبع أمره فيه .

الثانى : يجوز أن يكون أراد بذلك أن ينبه يعقوب على حال يوسف عليه السلام .

الثالث : لتتضاعف المسرة ليعقوب برجوع ولديه عليه .

الرابع: ليقدم سرور أخيه بالاجتماع معه ، قبل إخوته ، لميل كان منه إليه » .

يوسف يأمر بوضع بضاعة إخوته في رحالهم

﴿ وَقَالَ لِفِتْيَانِهِ اجْعَلُوا بِضَاعَتَهُمْ فِي رِحَالِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَعْرِفُونَهَا إِذَا انقَلَبُوا إِلَىٰ أَهْلِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ (٦٢) ﴾ .

فتيان يوسف حوله كانوا جميعاً واقفين ٦٤
أوحى لهم ، دُسوا البضاعة فى رحال العائدين ٦٥
إذ ما رأوها عند عودتهم يصيروا لائمين ٦٦
فيكون هذا دافعاً لمجيئهم ، هذا يقين ٦٧
فوراً أطاعوا أمره كانوا بحق فاهمين ٦٨

فى الوقت الذى كان يوسف يتحدث فيه مع إخوته قبيل رحيلهم بقليل، كان هو قد قرر أمرا، اتفق مع عماله وخدمه، الذين يعملون تحت إمرته فى الكيل والوزن لكل الوفود. أمر يوسف الصديق، عماله وخدمه، أن يضعوا بضاعة أبناء يعقوب، البضاعة التى جاءوا بها معهم ثمناً للطعام، أمرهم أن يضعوها لهم فى أمتعتهم خفية، بحيث لا يرونهم أثناء إخفائها فى الأمتعة، ولا يرون البضاعة ساعة سفرهم ، ولا أثناء رحيلهم متجهين إلى أهليهم فى فلسطين من أرض الشام . يوسف الصديق أقدم على هذا العمل، لعلمه أن إخوته، بعد أن يصلوا إلى أهليهم، هنالك سوف يكتشفون أن بضاعتهم، قد عادت معهم، لم يعطوها لعزيز مصر ثمناً لأحمال الطعام الذى أخذوه. حينئذ سوف يجدون أنفسهم ، مضطرين للعودة إلى مصر، على الأقل ليؤدوا ثمن الطعام الذى أخذوه، فليس من خلقهم، أن يأكلوا شيئا لا يؤدون ثمنه، من ثم سوف يتحقق ليوسف ما أراد .

قال الأستاذ عبد الكريم الخطيب فى كتابه « القصص القرآنى » فى قوله تعالى: ﴿ وَقَالَ لِفِتْيَانِهِ اجْعَلُوا بِضَاعَتَهُمْ فِي رِحَالِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَعْرِفُونَهَا إِذَا انقَلَبُوا إِلَىٰ أَهْلِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ (٦٢) ﴾ . فلقد قدر يوسف، أن إخوته إذا عادوا إلى مصر [1] وفتحوا أمتعتهم، ثم وجدوا فيها البضاعة التى كانوا قد حملوها معهم إلى مصر، وقع فى أنفسهم أن فى الأمر خطأ، وأن العزيز - أى يوسف - قد نسى هو أو أتباعه، أخذ هذه البضاعة، فى مقابل ما أخذوه من ميرة مصر، وهذا من شأنه أن يحملهم العودة إلى مصر مرة أخرى، ليردوا هذه البضاعة التى لم يكن لهم حق فيها، إن دينهم - كما يعلم يوسف - يمنعهم من أخذ ما ليس لهم » .

(١) لعل الصواب [إذا عادوا إلى أهليهم فى الشام] .

يطلبون من أبيهم أن يرسل معهم بنيامين

﴿ فَلَمَّا رَجَعُوا إِلَىٰ أَبِيهِمْ قَالُوا يَا أَبَانَا مُنِعَ مِنَّا الْكَيْلُ فَأَرْسِلْ مَعَنَا أَخَانَا نَكْتَلْ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ (٦٣) ﴾ .

قدْ عادَ إخوةُ يوسفٍ للأهلِ عَوْدَ الغانمين ٦٩
وصَلُوا لأهليهم، وكانوا من رحيلٍ متعبين ٧٠
واستقبلَ الشيخُ الكبيرُ بنيه كانوا غائبين ٧١
عن قول يوسفَ أخبَرُوه، ولم يكونوا كاذبين ٧٢
قالوا: فإن عُدنَا لمصرَ لأجلِ كيلٍ طالبين! ٧٣
لا بدْ يصحبنا أخُونا ، وهو في أمنٍ أمين ٧٤
أرسلْه معْنَا سوفَ نحفظُه من المتطاولين ٧٥

وصلت القافلة التى تضم أبناء يعقوب، إلى قريتهم ، إلى حيث الأهل والأحباب، لقد عادوا بعد غيبة طويلة، عادوا ومعهم القوت، الطعام الذى به قوام الحياة . . جلبوه من مصر ، مصر التى لها اليد الطولى على كل من حولها من الأمصار .ولا غرو فالمجاعة تهدد الأحياء جميعاً ، فى كل بقاع الأرض بالفناء . وهذه مصر يهرع الناس إليها ،من كل حدب وصوب،من كل أنحاء الأرض، ليجدوا فيه ما يقيم الأود، ويبقى على الحياة، وتلك لعمر الله مفخرة لمصر على كل بلاد الدنيا ، ودين لها على كل الأصقاع. . دين واجب الأداء فى كل زمان، يودى لمصر صاحبةالفضل فى تلك الحقبة من الزمن !! فرح نبى الله يعقوب عليه السلام . بعودة بنيه سالمين ، وغانمين أيضاً . بعد أن استقر بهم المقام، بدأوا حديثهم مع أبيهم ،أخبروه بما حدث لهم مع عزيز مصر ، وعن إكرامه الزائد لهم ، وماذا دار بينه وبينهم من حوار، وعن النظام المعمول به فى مصر،لتوزيع الطعام على كل الوافدين. . إذ كل وافد له حمل بعير . إذن فنحن نطلب منك يا أبانا ، أن ترسل معنا أخانا ، وذلك لكى ينال نصيبه من الطعام مثلنا، وهو حمل بعير . . ولقد تلطف بنا عزيز مصر ، حينما قلنا له: نحن إخوة أحد عشر، لكن أخونا الحادى عشر، ظل عند أبيه كى يؤنسه ويسليه، مدة غيابنا عنه ، فصدق كلامنا وأعطانا حملاً لأجله . لذلك نرجوك يا أبانا أن ترسل معنا أخانا ، فى الرحلة القادمة إلى مصر،وذلك لكى نثبت لعزيز مصر أننا صادقون،ولسنا كاذبين .أرسله معنا يا أبانا ، وسوف نحرسه ونحميه من كل أذى ،ولن يصيبه مكروه أبداً، لسوف نحفظه من كل سوء ما دمنا أحياء وفينا عين تطرف .

أبوهم يوافق على إرساله معهم

﴿ قَالَ هَلْ آمَنُكُمْ عَلَيْهِ إِلاَّ كَمَا أَمِنتُكُمْ عَلَىٰ أَخِيهِ مِن قَبْلُ فَاللَّهُ خَيْرٌ حَافِظًا وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ ﴿٦٤﴾ ﴾.

الشيخُ قالَ لهم: فكفُّوا، لا تكونُوا جَاهلين ٧٦
هل تدهبون بهِ كما كنتم بيوسفَ ذاهبين؟! ٧٧
لكنْ لأجلِ العيشِ قد أرضى رضاءَ المكرهين ٧٨
والله يحفظُكم جميعاً ،فهْو خيرُ الحافظين ٧٩

لقد استمع نبى اللّه يعقوب لحديث أولاده ، وقد أدهشه أن عزيز مصر ، طلب منهم أن يحضروا أخاهم معهم !! وسرعان ما عاد بذاكرته إلى الوراء ، وذلك حينما جاءه هؤلاء الأبناء أنفسهم ، فطلبوا منه أن يرسل معهم أخاهم يوسف ، ليرتع ويلهو ويلعب فى الصحراء.

يالله !! ما أشبه هذا الموقف بذاك.. التاريخ يعيد نفسه.. نفس الصورة تتكرر ، والشيخ فى الوقت نفسه يجتر الذكريات الحزينة، بيد أنه قال لهم : لا ، لا تقولوا هذا القول مطلقاً ،لن أسلمكم ابنى .. فلقد ذهبتم بيوسف من قبل ،ولم تعودوا به، قلتم: أكله الذئب فى الصحراء، واللّه أعلم بكم وبأعمالكم . قالوا: يا أبانا ! إن لم ترسله معنا ، فلن نحصل على حقنا المقرر لنا من الطعام.. وعلى كل حال، نرجو منك ألا تتعجل فى إصدار القرار..ففكرالشيخ فى الأمر ملياً ثم قال : إننى لا أجد مفراً من إرساله معكم ،لأن عدم إرساله معناه حرماننا من الطعام، كما ذكرتم فى حديثكم . وعلى كل حال فقولكم : إنكم سوف تحفظونه من كل سوء ، ليس هذا هو الذى جعلنى أوافق على إرساله. فقد قلتم القول من قبل ،لما طلبتم منى يوسف ، ومن ثم فإننى أقول: ﴿ فَاللَّهُ خَيْرٌ حَافِظًا وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ ﴿٦٤﴾ ﴾ . إننى أسأل اللّه أن يحفظه من كل كيد،رحمة بشيخوختى من ناحية ،وبشبابه من ناحية أخرى .

قال الأستاذ عبد الكريم الخطيب فى« القصص القرآنى» : « وفى تلك الحال التى استولت على يعقوب من هذا الخبر المزعج ، الذى تلقاه من أبنائه ،وأنه لن يكال لهم

حتى يأخذوا أخاهم معهم ،لم يجد بداً من التسليم ـ مقدماً ـ بما لا بد من التسليم به، تحت وطأة هذا الظرف العصيب فيقول لبنيه : ﴿ **هَلْ آمَنُكُمْ عَلَيْهِ إِلاَّ كَمَا أَمِنتُكُمْ عَلَىٰ أَخِيهِ مِن قَبْلُ فَاللَّهُ خَيْرٌ حَافِظًا وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ** (٦٤) ﴾ .

لقد تمثل يعقوب فى هذا الموقف ،ما كان منهم من إلحاح عليه فى طلب يوسف، ليرتع ويلعب معهم كما كانوا يقولون . . ! لقد تمثل له هذا الموقف ،فرأى فيما يطلبه منه أبناؤه الآن ،صورة مشابهة تماماً له، وأن الذى دبروه ليوسف من كيد ،ليس ببعيد أن يدبروا مثله لأخيه ».

لقد وجدوا بضاعتهم مخبوءة فى رحالهم

﴿ وَلَمَّا فَتَحُوا مَتَاعَهُمْ وَجَدُوا بِضَاعَتَهُمْ رُدَّتْ إِلَيْهِمْ قَالُوا يَا أَبَانَا مَا نَبْغِي هَذِهِ بِضَاعَتُنَا رُدَّتْ إِلَيْنَا﴾ .

فتحوا المتاع إذا بضاعتهم! غدواْ متسائلين ٨٠
فتلاوموا من كونهم قد أشبهوا للسارقين ٨١
من ثم قالوا : يا أبانا ، قد غدونا حائرين ٨٢
هذى بضاعتنا أتتْ معنا ،ولسنا فاهمين ٨٣
هيا فسوف نعيدها لعزيز مصر،مبادرين ٨٤
هذا إذا شئنا العدالة ، أو سنغدو ظالمين ٨٥

لقد سُرَّ أبناء يعقوب ،لكون أبيهم وافق بعد لأى وجهد ،على أرسال ولده معهم، فى حين أنهم كانوا يشكون فى موافقة أبيهم على ذلك ، مهما كانت الأسباب .على كل حال ، لقد وافق الشيخ على إرسال ولده مع إخوته ، لأن ذلك كان حتماً، كان أمراً ضرورياً ، لا مفر منه ، ولا معدى عنه ، كما تبادر إلى فهمه من مقال أولاده . قد كان هذا الحوار ، بين الشيخ وبين أولاده، قبل أن يفتحوا أمتعتهم، ثم اتجه كل واحد منهم إلى حمل بعيره ،وفتحوا أمتعتهم . . وهنا بدت الدهشة على وجوههم جميعاً، لقد وجد كل منهم البضاعة التى كان قد أخذها معه ، ليشترى بها الطعام !!ياالله!! هل نسى عزيز مصر أن يأخذ ثمن الطعام ؟! أم ماذا ؟! فأخذ كل واحد منهم ينحنى باللائمة على الآخر، لقد شعروا بالحرج من كونهم كافأوا عزيز مصر على إكرامه لهم ، بعدم دفع ثمن الطعام. . وتصوروا بأن عزيزمصر، سوف لا يغفر لهم هذا ، حينئذ هتفوا قائلين : **﴿قَالُوا يَا أَبَانَا مَا نَبْغِي هَذِهِ بِضَاعَتُنَا رُدَّتْ إِلَيْنَا﴾** . قالوا لأبيهم : يا أبانا إننا فى أشد الحرج والحيرة ، لقد وجدنا بضاعتنا موجودة فى رحالنا ، فمن ثم وجب علينا أن نسرع بالعودة إلى مصر ، وذلك لكى نعطى الحق لأصحابه،وإلا كنا كالسارقين سواء سواء .

قال ابن كثير فى تفسيره :«**﴿وَلَمَّا فَتَحُوا مَتَاعَهُمْ وَجَدُوا بِضَاعَتَهُمْ رُدَّتْ إِلَيْهِمْ﴾** ولما فتح إخوة يوسف متاعهم،وجدوا بضاعتهم ردت إليهم، وهى التى كان أمر يوسف فتيانه بوضعها فى رحالهم، فلما وجدوها فى متاعهم **﴿قَالُوا يَا أَبَانَا مَا نَبْغِي﴾**؟! أى ما نريد ؟ **﴿هَذِهِ بِضَاعَتُنَا رُدَّتْ إِلَيْنَا ﴾** كما قال قتادة: ما نبغى وراء هذا ؟! إن بضاعتنا ردت إلينا، وقد أوفى لنا الكيل » .

يتحدثون عن زيادة الكيل

﴿ وَنَمِيرُ أَهْلَنَا وَنَحْفَظُ أَخَانَا وَنَزْدَادُ كَيْلَ بَعِيرٍ ذَلِكَ كَيْلٌ يَسِيرٌ ﴿٦٥﴾ ﴾

أما أخونا فهو فى أمن من الكيد المهين ٨٦
ونصيبه سيكون حملا من طعام الآكلين ٨٧
الحمل سوف يزاد مع أحمالنا ، هذا يقين ٨٨

لا يزال أبناء يعقوب يتحدثون إلى أبيهم ، بشأن البضاعة التى وجدوها قد عادت معهم فى أمتعتهم. . وتلك البضاعة هى ثمن الطعام الذى كالوه من مصر، إذن فالقول كله يدور حول معنيين اثنين .أحدهما : أن هذه البضاعة هى حق عزيز مصر ، الثانى : المبادرة بالعودة إلى مصر ، لإعطاء الحق لأهله . . فليس هذا هو جزاء عزيز مصر ، الذى أنزلنا فى ضيافته،وأحسن إلينا ، وأكرمنا كرمًا لا يقل قدراً عن أفعال آل يعقوب .

إن العودة إلى مصر حتمية يا أبانا ،لا مفر منها ،لنؤدى الدين الذى فى أعناقنا لأصحابه ،هذا من ناحية، ونعود بأحمال الطعام ،مع زيادة حمل بعير ،لأجل أخينا الذى سوف يرافقنا فى هذه الرحلة، من ناحية أخرى. . وثمة أمر ثالث هو: أن نثبت لعزيز مصر أننا صادقون ، فنقدم له أخانا ، فيراه ويتأكد منه .

قال الأستاذ عبد الرحمن الخطيب فى « القصص القرآنى » : «﴿وَنَمِيرُ أَهْلَنَا وَنَحْفَظُ أَخَانَا وَنَزْدَادُ كَيْلَ بَعِيرٍ ذَلِكَ كَيْلٌ يَسِيرٌ ﴿٦٥﴾﴾الواو فى ﴿وَنَمِيرُ أَهْلَنَا﴾ هى واو العطف على محذوف تقديره: إذا كان ذلك،فإنا سنعود إلى مصر ﴿وَنَمِيرُ أَهْلَنَا﴾أى نأتيهم بالميرة ،وهى الطعام ﴿وَنَحْفَظُ أَخَانَا﴾الذى سترسله معنا ﴿وَنَزْدَادُ كَيْلَ بَعِيرٍ﴾ حيث سيكون له حمل بعير، كما أن لكل واحد منا بعير! وانظر كيف استدعوا أخاهم من أبيهم ،بهذا الأسلوب اللبق الحكيم﴿وَنَمِيرُ أَهْلَنَا وَنَحْفَظُ أَخَانَا وَنَزْدَادُ كَيْلَ بَعِيرٍ ﴾لقد جعلوا أخذ أخيهم معهم طلبا ثانيا بعد الطلب الأول، وهو الميرة وربطوه به ، بحيث لا تكون الميرة إلا وأخوهم معهم.ثم هم من جهة أخرى يقولون: ﴿وَنَحْفَظُ أَخَانَا﴾ولا يقولون: ونأخذ أخانا كأن أخذه أمر مفروغ منه ،لا مراجعة لأبيهم فيه، فهم آخذوه ،وحافظوه . . إلخ ما قال » .

يعقوب يستوثق من أولاده بشأن بنيامين

﴿ قَالَ لَنْ أُرْسِلَهُ مَعَكُمْ حَتَّىٰ تُؤْتُونِ مَوْثِقًا مِّنَ اللَّهِ لَتَأْتُنَّنِي بِهِ إِلَّا أَن يُحَاطَ بِكُمْ فَلَمَّا آتَوْهُ مَوْثِقَهُمْ قَالَ اللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٌ (٦٦) ﴾ .

الشيخ قال لهم: فكونوا للمقالة مدركين٨٩
إنى المجيب لما طلبتم بالشروط الحازمين٩٠
أن تقسموا بالله ربِّ العرش ربِّ العالمين٩١
أن تحفظوه من الأذى ما لم تكونوا عاجزين٩٢

لقد انتهى أبناء يعقوب من الحديث إلى أبيهم ، بشأن إرسال أخيهم بنيامين معهم، وذلك لسببين اثنين:

١ـ لكي يعيدوا الحق إلى أصحابه بمصر ، أى ثمن أحمال القمح التى أخذوا ، وقد تبينوا أن بضاعتهم التى كانوا أخذوها معهم ، لشراء أحمال الطعام، بينوا عند عودتهم إلى أهليهم ، أنها موجودة فى رحالهم ،وكانت هذه خطة يوسف عليه السلام . حينما أمر فتيانه قائلاً لهم : ﴿ اجْعَلُوا بِضَاعَتَهُمْ فِي رِحَالِهِمْ ﴾ .

٢ـ ليؤكدوا ليوسف عليه السلام صدقهم ،بأن لهم أخاً وليسوا كاذبين،وليعودوا بالميرة وزيادة حمل بعير .

أطرق نبى الله يعقوب: يفكر فى أمر إرسال ولده بنيامين مع إخوته ،ومما قالوه تبين له أن ذلك أمرحتمى لا مفر منه . . بيد أنه يفكر فى الضمان،إنه يريد أن يستوثق من أولاده. .يريد أن يكبلهم بقسم يقسمونه أمامه، أنهم لن يتهاونوا فى حفظ أخيهم، مهما كانت الظروف، ولسوف يعيدونه معهم سالماً ،ما لم يكونوا مغلوبين على أمرهم فقال : ﴿ لَنْ أُرْسِلَهُ مَعَكُمْ حَتَّىٰ تُؤْتُونِ مَوْثِقًا مِّنَ اللَّهِ لَتَأْتُنَّنِي بِهِ إِلَّا أَن يُحَاطَ بِكُمْ﴾ ولا غرو، فموقف أبناء يعقوب الآن ، ليس كموقفهم السابق، لما طلبوا يوسف من أبيهم ، لأنهم فى المرة الأولى ،تظاهروا بالحرص والحدب على يوسف، بينما كانت قلوبهم تقطر مرارة وغلاً وحقداً عليه وفى الوقت نفسه كانوا مبيتين النية للغدر به. . أما هذه المرة فهم صادقون ، فليس لديهم نية الغدر بأخيهم هذا .

لذلك لما طلب أبوهم منهم أن يقسموا أمامه ، أنهم سوف يحفظون أخاهم من كل سوء ، وأنهم سوف يعيدونه سليماً معافى ، ما لم يكونوا فى موقف لا قبل لهم به، أى فوق طاقتهم وقدرتهم ، لم يتوانوا .

أبناء يعقوب يقسمون أمام أبيهم

﴿ فَلَمَّا آتَوْهُ مَوْثِقَهُمْ قَالَ اللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٌ (٦٦) ﴾ .

قد أقسمو اللشيخ حتى يطمئن ويستكين ٩٣	لما اطمأن الشيخ صاروا كلهم متوكلين ٩٤

لقد طلب يعقوب من أولاده، أن يقسموا بالله أمامه ،للحفاظ على بنيامين، فأبدوا استعدادهم جميعا ، بل أقسموا فعلاً ، حينئذ اطمأن قلب يعقوب ، ولم يخامره الشك هذه المرة فى صدق أولاده . « أخذ يعقوب عليه السلام ،الموثق من أبنائه ، ليس فيه البتة منافاة لإيمانه بالقضاء والقدر والتوكل على اللّه ، بدليل أنه أخذ الموثق من أبنائه بألا يفعلوا من جانبهم ، أى ضرر يقدرون على عدم فعله، أما ما لا بد لهم فيه،فقد جاء على لسانه قبل أخذ الموثق ﴿فَاللَّهُ خَيْرٌ حَافِظًا وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ (٦٤)﴾ وجاء على لسانه بعده ﴿ اللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٌ (٦٦) ﴾ بل إن ما فعله يعقوب من أخذ الموثق على الإخوة الذين فعلوا بيوسف ما فعلوا ، يعتبر درساً نافعاً لكل ذى بصيرة نيرة .

والمؤمن لا يلدغ من حجر مرتين ، وإن يعقوب قد أخذ الموثق من أبنائه وفلذات كبده ، فمن باب أولى أن يؤخذ الموثق من سواهم ، ممن قد يخشى أذاهم .

ثم . . إن اطمئنان يعقوب لأبنائه ، بأخذ الشقيق ، بعد إعطاء الموثق ، شهادة منه بصلاح أبنائه ، وأنهم يقدّرون العهد الذى آتوا حق التقدير ،ولو كان اعتقاده فيهم بغير ذلك ، لما فكر البتة فى طلب الموثق الذى سيعطى ، ولكن لن ترعى له حرمة»(١).

قال ابن كثير فى قوله تعالى :﴿ فَلَمَّا آتَوْهُ مَوْثِقَهُمْ ﴾ أى أكده عليهم فقال: « ﴿ اللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٌ (٦٦)﴾ قال ابن إسحاق : وإنما فعل ذلك لأنه لم يجد بداً من بعثهم لأجل الميرة التى لا غنى لهم عنها ، فبعثه معهم » .

---

(١) تأملات فى سورة يوسف للدكتور حسن محمد باجوده .

الحلقة الثامنة

يعقوب يخشى على بنيه الحسد فيأمرهم ألا يدخلو مصر من باب واحد

يوسف يهمس لنيامين : أنا أخوك

مؤامرة يوسف لتأخير أخيه بنيامين عنده تنفيذ المؤامرة

إتهام بنيامين بالسرقة وأخذه بها

الآيات القرآنية التى صيغ منها شعر الحلقة الثامنة

﴿ وَقَالَ يَا بَنِيَّ لا تَدْخُلُوا مِنْ بَابٍ وَاحِدٍ وَادْخُلُوا مِنْ أَبْوَابٍ مُّتَفَرِّقَةٍ وَمَا أُغْنِي عَنكُم مِّنَ اللَّهِ مِن شَيْءٍ إِنِ الْحُكْمُ إِلاَّ لِلَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَعَلَيْهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ (٦٧) وَلَمَّا دَخَلُوا مِنْ حَيْثُ أَمَرَهُمْ أَبُوهُم مَّا كَانَ يُغْنِي عَنْهُم مِّنَ اللَّهِ مِن شَيْءٍ إِلاَّ حَاجَةً فِي نَفْسِ يَعْقُوبَ قَضَاهَا وَإِنَّهُ لَذُو عِلْمٍ لِّمَا عَلَّمْنَاهُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ (٦٨) وَلَمَّا دَخَلُوا عَلَىٰ يُوسُفَ آوَىٰ إِلَيْهِ أَخَاهُ قَالَ إِنِّي أَنَا أَخُوكَ فَلا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (٦٩) فَلَمَّا جَهَّزَهُم بِجَهَازِهِمْ جَعَلَ السِّقَايَةَ فِي رَحْلِ أَخِيهِ ثُمَّ أَذَّنَ مُؤَذِّنٌ أَيَّتُهَا الْعِيرُ إِنَّكُمْ لَسَارِقُونَ (٧٠) قَالُوا وَأَقْبَلُوا عَلَيْهِم مَّاذَا تَفْقِدُونَ (٧١) قَالُوا نَفْقِدُ صُوَاعَ الْمَلِكِ وَلِمَن جَاءَ بِهِ حِمْلُ بَعِيرٍ وَأَنَا بِهِ زَعِيمٌ (٧٢) قَالُوا تَاللَّهِ لَقَدْ عَلِمْتُم مَّا جِئْنَا لِنُفْسِدَ فِي الأَرْضِ وَمَا كُنَّا سَارِقِينَ (٧٣) قَالُوا فَمَا جَزَاؤُهُ إِن كُنتُمْ كَاذِبِينَ (٧٤) قَالُوا جَزَاؤُهُ مَن وُجِدَ فِي رَحْلِهِ فَهُوَ جَزَاؤُهُ كَذَلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ (٧٥) فَبَدَأَ بِأَوْعِيَتِهِمْ قَبْلَ وِعَاءِ أَخِيهِ ثُمَّ اسْتَخْرَجَهَا مِن وِعَاءِ أَخِيهِ كَذَلِكَ كِدْنَا لِيُوسُفَ مَا كَانَ لِيَأْخُذَ أَخَاهُ فِي دِينِ الْمَلِكِ إِلاَّ أَن يَشَاءَ اللَّهُ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَّن نَّشَاءُ وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ (٧٦) ﴾ .

أشعار الحلقة الثامنة

قد أقسم الأبناء للشيخ الكبير ليستكين ١
من ثم قال : توكلوا ، والله للمتوكلين ٢
فلتذهبوا ، يرعاكم المولى ، فكونوا مخلصين ٣
لكن سأوصيكم فكونوا للوصية حافظين ٤
لا تدخلوا مصر العزيزة هكذا متجمعين ٥
ولتدخلوا متفرقين ، أخاف عين الحاسدين ٦
ما شاءه المولى يكون ، قضاء رب العالمين ٧
هو قادر هو قاهر ، هو مالك دنيا ودين ٨
هو صاحب الحكم الذى نرضاه كلاً طائعين ٩
ربى عليه توكُّلى ذاكم شعار المؤمنين ١٠
إن التوكل من صفات المؤمنين العارفين ١١
ذهبوا وقد أخذوا أخاهم ، لم يعودوا خائبين ١٢
عادوا لمصر لكى يؤدوا ما عليهم مسرعين ١٣
وصلوا هنالك أرض مصر مع الوفود الذاهبين ١٤
دخلوا كما أمروا فكانوا بالوصية عاملين ١٥
رأيًا رآه الشيخ ، ما كانوا له مستغربين ١٦
هى حاجة فى نفسه أقضى بها ، هذا يقين ١٧
أعطاه رب العرش علمًا فوق علم الآخرين ١٨
لله دركِ أرض مصر بكل خير تنعمين ١٩
قد كنت دوما بالسيادة والحضارة تُعْرَفين ٢٠
النيل فيك هو الحياة عطاء رب العالمين ٢١
ولأنت أم الشرق دومًا مثل أمّ للبنين ٢٢
تعطينه من كل شىء ، لا بشىء تبخلين ٢٣
لولاك مات الشرق جوعًا منذ آلاف السنين ٢٤
لولاك صار الشرق نهبًا للغزاة الفاتحين ٢٥
واستقبل الصديق إخوته بشوق مع حنين ٢٦
دخلوا عليه فمال نحو أخيه ميل الهامسين ٢٧

أوحى له ، إنـى أخوك ، وصرت فى أمـن أمين ٢٨
من فعلـهم فيما مضـى ، لا تبتئس من حـاقدين ٢٩
قـد أنـزل الصـديـق إخـوتـه نـزول المكـرمـين ٣٠
أعـطى لـهم مـا قد أتـوا من أجـله مـتكـاملـين ٣١
أعطـى لكـل منـهمـو حمـلاً فصـاروا شاكـرين ٣٢
قـد جـهـزوا أوثـاقـهم بـرًا لطـعـم الجـائـعـين ٣٣
لـم يبـق إلا أن يـعـودوا بالـغـنيـمـة ظـافريـن ٣٤
لـكـنْ يـوسـف كـان من أعـمـاقـه سـرٌ دفـين ٣٥
الـسـرُّ يـعـلـمـه إلـه الـعـرش رب الـعـالمـين ٣٦
يَنـوى بـأن يُبـقى أخـاه بـحـيـلـة لا تسـتـبـين ٣٧
أوحـى إلى غـلـمـانه قـولا فـصـاروا فاهـمـين ٣٨
قـد غـافـلوا إخـوانـه فـى خـفـة المتسـلـلـين ٣٩
فى رحـل بنـيامين قـد أخفـوا الصواع مـخبـئين ٤٠
إخـوان يوسـف قد تـنادوا لـلرحـيل مـبادريـن ٤١
وإذا المنادى فـى الـوفـود وصوتـه كـالمنذريـن ٤٢
نـادى علـى كل الـقوافـل قـائلاً : يـا سارقـين ٤٣
لا تـرحلـوا حـتـى نراكـم بـاحثـين ونـسـتبـين ٤٤
شيـئًا ثمينـا قد فقـدنا ، فاعـلموا العـلم اليـقين ٤٥
إخوان يـوسف ساءهـم ، قول المنـادى المستـهين ٤٦
قالـوا له : مـاذا تريـد ؟! تسـاؤل المسـتفـهمـين ٤٧
ماذا فـقدتم ! أخبـرونا . . ! ولتـكونوا صـادقين ٤٨
لا ، لا تسيـئوا الظن فـينا ، لا تكـونوا مفتـرين ٤٩
قـالوا : فـقدنـا غاليًا ، فـلذا غـدونا سـائلـين ٥٠
ذاكـم صـواع للـمـلـيـك ، وإنـه شىء ثـمـين ٥١
مـن ردّه ، فلـسـوف نشـكـره بأسـلـوب مبـين ٥٢
ويـنال أيـضًا حـمل برٍّ فـوق حمـل الـوافديـن ٥٣
ولسـوف نوفى ، لـن نكون لما وعـدنا جاحـدين ٥٤
قـالوا لـهم : تـالله ما كـنا جـميـعًا مفـسديـن ٥٥
نـحن الـكرام بـنو الـكرام مـن الجدود الأولـين ٥٦
أفـما عـلمـتم أنـنـا من آل بـيت المـرسلـين ؟! ٥٧

لسنا بحمد الله خوَّانًا ، ولسنا سارقين ٥٨
قالوا : فإنا سوف نبحث في الرحال مفتشين ٥٩
إذما وجدنا صاعنا في رَحْلِ أحد الوافدين ٦٠
ماذا يكون جزاؤه ؟! فلتحكموا الحكم الأمين ٦١
إخوان يوسف قد أجابوا حيث كانوا غاضبين ٦٢
هذى الرحال ففتشوها ، إن تشاءوا باحثين ٦٣
إذا ما وجدتم صاعكم فى رحل أحد السامعين ! ٦٤
فلتأخذوه به لكى يجزى جزاء الخائنين ٦٥
قد سُرَّ يوسف من إجابتهم سرور الفائزين ٦٦
من ثَم صار يُفتش الأحمال تفتيش الأمين ٦٧
بدءًا بأمتعة الكبار ، لكى يظلوا غافلين ٦٨
فى رحل بنيامين كانت دهشة للناظرين ٦٩
وجدوا الصواع مُخبأً فى رحله ، هذا يقين !! ٧٠
من أجل ما يبغيه يوسف صار كالمتآمرين ٧١
تلكم إرادته تلاقت مع إله العالمين ٧٢
لا ينبغى أخذ البرىء كأخذ بعض المجرمين ٧٣
لكنْ إذا شاء الإله ، فقف وقوف الخاشعين ٧٤
الله يرفع من يشاء إلى مقام المحسنين ٧٥
العلم ليس له كبيرٌ ، فاعلموا العلم اليقين ٧٦
قد تم ما يبغيه يوسف ، إنه كيدٌ متين ٧٧
لكنه كيدٌ أصاب أخاه دون الآخرين ٧٨
أخذوه أخذة سارق ، والكل كانوا ناظرين ٧٩
الكل يفغر فاه دهشًا ، إنه حقًا أهين ٨٠
إذ كون بنيامين يسرق ، قد غدوا مستغربين ٨١
صاروا حيارى ، إنهم بالغيب ليسوا عالمين ٨٢
هم فى تحيرّهم ويوسف فى سرور ، لا يُبين ٨٣
إذ أن يوسف كان محزونًا لعشرات السنين ٨٤
وبقاء بنيامين سوف يُبدّد الحزن الدفين ٨٥
أخوَان كانا مبعدين ، فأصبحا متقاربين ٨٦
رب السماء هو القدير ، ليجمع المتفرقين ٨٧

يعقوب يخشى على أولاده الحسد

﴿ وَقَالَ يَا بَنِيَّ لا تَدْخُلُوا مِنْ بَابٍ وَاحِدٍ وَادْخُلُوا مِنْ أَبْوَابٍ مُّتَفَرِّقَة ... ﴾

قد أقسم الأبناء للشيخ الكبير ليستكين ١
من ثم قال : توكلوا ، والله للمتوكلين ٢
فلتذهبوا ، يرعاكم المولى ، فكونوا مخلصين ٣
لكن سأوصيكم فكونوا للوصية حافظين ٤
لا تدخلوا مصر العزيزة هكذا متجمعين ٥
ولتدخلوا متفرقين ، أخاف عين الحاسدين ٦

لقد أقسم أبناء يعقوب،أمام أبيهم،أقسموا له أن يحافظوا على أخيهم بنيامين ، ولن يفرطوا فيه،ولن يعودوا بغيره، إلا أن يكونوا مغلوبين لقوة أكبر وأقوى من قوتهم. بعد أن أقسموا ،قال لهم: ﴿ قَالَ اللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٌ ﴾ توكلوا على الله اذهبوا ، يرعاكم الله.ثم أردف قائلاً:لكن قبل أن تبرحوا،أريد أن أوصيكم وصية، أن تحفظوها وتعملوا بها ، فهل أنتم مستعدون لتنفيذ ما أوأصيكم به ؟! قالوا جميعا : نعم يا أبانا ، فوصيتك سوف نحترمها ، وبإذن الله سوف نقوم بتنفيذها . . فما هى تلك الوصية يا أبانا ؟! .

قال: عندْ وصولكم أبواب مصر ، لا تدخلوا كلكم من باب واحد ، ولكن ادخلوا من أبواب متفرقه ، فأنتم يا بنىَّ كثيرون ، وذوو هيئات وسمت حسن ، فضلاً عن كونكم أبناء رجل واحد . . لذا فأنا أخشى عليكم عيون الحاسدين .

قال القرطبى فى تفسيره : « لما عزموا على الخروج ، خشى عليهم العين ، فأمرهم ألا يدخلوا مصر من باب واحد ، وكانت مصر لها أربعة أبواب ، وإنما خاف عليهم العين لكونهم أحد عشر رجلاً ، لرجل واحد ، وكانوا أهل جمال وكمال وبسطه »

قال القاضى بيضاوى فى تفسيره : ﴿ وَقَالَ يَا بَنِيَّ لا تَدْخُلُوا مِنْ بَابٍ وَاحِدٍ وَادْخُلُوا مِنْ أَبْوَابٍ مُّتَفَرِّقَة ﴾ لأنهم كانوا ذوى جمال أوبهة ، مشتهرين فى مصر بالقربة والكرامة عند الملك ، فخاف عليهم أن يدخلوا كوكبة واحدة فيعانوا ، ولعله لم يوصهم بذلك فى الكرةّ الأولى،لأنهم كانوا مجهولين حينئذ . . وكان الداعى إليها ، خوفه على بنيامين ، وللنفس آثار ، منها : العين ، والذى يدل عليه قوله عليه الصلاة والسلام فى عوذته : « اللهم إنى أعوذ بكلمات الله التامة ، من كل شيطان وهامة ،ومن كل عين لامّة ».

قلت : ولهذا السبب كان رسول الله ﷺ ، يأمر العائن بالوضوء ، ومن أصابته العين بالإغتسال من ماء وضوء العائن .

يعقوب يتوكل على الله

﴿ وَمَا أُغْنِي عَنكُم مِّنَ اللَّهِ مِن شَيْءٍ إِنِ الْحُكْمُ إِلاَّ لِلَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَعَلَيْهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ (٦٧) ﴾ .

ما شاءه المولى يكون ، قضاء رب العالمين ٧
هو قادر هو قاهر ، هو مالك دنيا ودين ٨
هو صاحب الحكم الذى نرضاه كلاً طائعين ٩
ربى عليه توكلى ذاكم شعار المؤمنين ١٠
إن التوكل من صفات المؤمنين العارفين ١١

وهكذا ، لقد خاف نبى الله يعقوب ، على بنيه عيون الحاسدين، فأوصاهم وصيته الخالدة التى سجلها القرآن الكريم، هى: ﴿ لا تَدْخُلُوا مِنْ بَابٍ وَاحِدٍ وَادْخُلُوا مِنْ أَبْوَابٍ مُتَفَرِّقَةٍ ﴾ ولا غرو ، فالعين حق كما أخبر بذلك المعصوم محمد ﷺ حيث قال : « إن العين لتدخل الرجل القبر ، والجمل القدر » .

وقد روى مالك عن محمد بن أبى أمامة : سهل بن حنيف ، أنه سمع أباه يقول : اغتسل أبى سهل بن حنيف بالخرار ـ ماء بالمدينة ـ فنزع جبة كانت عليه ، وعامر بن ربيعة ينظر قال : وكان سهل رجلاً أبيض ، حسن الجلد ، قال فقال له عامر بن ربيعة : ما رأيت كاليوم ، ولا جلد عذراء !! فوعك سهل مكانه ، واشتد وعكه ، فأتى رسول الله ﷺ ، فأخبر أن سهلاً وعك ، وأنه غير رائح معك يا رسول الله . . فأتاه رسول الله ﷺ ، فأخبره سهل بالذى كان من شأن عامر ، فقال رسول الله ﷺ : « علام يقتل أحدكم أخاه ؟! ألا برّكت ؟! إن العين حق ، توضأ له » فتوضأ عامر ، فراح سهل مع رسول الله ﷺ ليس به بأس .

وفى رواية « اغتسلْ » فغسل له عامر وجهه ويديه ومرفقيه وركبتيه ، وأطراف رجليه ، وداخل إزاره فى قدح وصب عليه ، فراح سهل مع رسول الله ﷺ ليس به

بأس . . لذلك وجب على كل مسلم ، إذا رأى شيئًا أعجبه أن يبرّك أن يقول : بارك الله فيه ، تأثير العين يبطل بإذن الله [١] .

قال ابن كثير فى تفسيره : ﴿ وَمَا أُغْنِي عَنكُم مِّنَ اللَّهِ مِن شَيْءٍ ﴾ أى هذا الاحتراز لا يرد قدر الله وقضاءه ، فإن الله إذا أراد شيئًا ، لا يخالَف ولا يمانَع ﴿ إِنِ الْحُكْمُ إِلاَّ لِلَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَعَلَيْهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ﴾ .

وقال الشيخ محمد على الصابونى فى « مع أعلام المفسرين » أى لا أدفع عنكم بتدبيرى شيئًا مما قضاه الله عليكم ، فإن الحذر لا يمنع القدر ، ما الحكم إلا لله جل وعلا وحده ، لا يشاركه أحد ، ولا يمانعه أحد ، عليه وحده اعتمدت : وبه وثقت ، وعليه فليعتمد أهل التوكل والإيمان وليفوضوا أمورهم إليه » .

(١) تفسير القرطبى .

أبناء يعقوب يعملون بوصية أبيهم

﴿ وَلَمَّا دَخَلُوا مِنْ حَيْثُ أَمَرَهُمْ أَبُوهُم مَّا كَانَ يُغْنِي عَنْهُم مِّنَ اللَّهِ مِن شَيْءٍ إِلَّا حَاجَةً فِي نَفْسِ يَعْقُوبَ قَضَاهَا وَإِنَّهُ لَذُو عِلْمٍ لِّمَا عَلَّمْنَاهُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ (٦٨) ﴾ .

ذهبوا وقد أخذوا أخاهم ، لم يعودوا خائبين ١٢
عادوا لمصر لكى يؤدوا ما عليهم مسرعين ١٣
وصلوا هنالك أرض مصر مع الوفود الذاهبين ١٤
دخلوا كما أمروا فكانوا بالوصية عاملين ١٥
رأيًا رآه الشيخ ، ما كانوا له مستغربين ١٦

لقد تحركت قافلة أبناء يعقوب ، وبارحت الديار متجهة صوب مصر ، وكم كانت فرحة أبناء يعقوب،لكون أبيهم تنازل عن رأيه الأول ، الذى أبداه وأجاب به لأول وهلة على طلبهم ، من أنه لن يرسل ولده بنيامين معهم . لقد تنازل الشيخ عن رأيه لاقتناعه بحجة بنيه ، فمن ثم وافق وأرسل بنيامين مع إخوته . عادوا إلى مصر يغذون السير مسرعين ، يريدُون الوصول إلى مصر بأسرع من سير الإبل ، يريدون رؤية عزيز مصر ، ذلك الذى أكرمهم وأحسن إليهم ، إنهم يشعرون بميل شديد من أعماقهم ، نحو هذا الرجل لا يدرون ما أسبابه،ذلك لأنه أكبر وأقوى مما يسببه إكرامه لهم فى المرة الماضية . على كل حال ، إن تعجلهم الوصول إلى مصر ، فى ظاهره له سببان اثنان هما : الأمانة، والصدق . وأما الأمانة فهى رد البضاعة التى وجدوها فى أمتعتهم عند عودتهم إلى ديارهم ، وهى ثمن أوثاق الطعام التى أخذوها . وأما الصدق فهو ، تقديم أخيهم الحادى عشر ، الذى أخبروا العزيز عنه ، فصدقهم وأعطاهم لأجله حمل بعير ، برغم عدم وجوده معهم ، على أن يأتوا به معهم عند عودتهم للميرة مرة ثانية .

وعند وصولهم مصر،دخلوا متفرقين من أبواب متعددة،كما أوصاهم أبوهم ، وقد كانت تلك الوصية من نبى الله يعقوب،ترجمة لما يعتمل فى أعماق نفسه،وفى هذا المعنى يقول الأستاذ عبد الكريم الخطيب فى كتابه «القصص القرآنى»:وأيًا كان الأمر،فإنه شعور الأب الذى يتخوف على أبنائه ، نسمات الريح ، حين تهب عليهم ، فكيف وهم على سفر طويل ، وفى يد غربة بعيدة ؟! ثم كيف وفجيعته فى يوسف ، لاتزال تفرى كبده ، ثم ها هى ذى فجيعة أخرى ، تكاد تتمثل له فى ابنه الآخر : شقيق يوسف ؟!

يعقوب على علم بالله

﴿ وَإِنَّهُ لَذُو عِلْمٍ لِّمَا عَلَّمْنَاهُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ (٦٨) ﴾

هى حاجة فى نفسه أفضى بها ، هذا يقين ١٧
أعطاه رب العرش علمًا فوق علم الآخرين ١٨

قال الفخر الرازى فى قوله تعالى : ﴿ وَإِنَّهُ لَذُو عِلْمٍ لِّمَا عَلَّمْنَاهُ ﴾ فقال الواحدى : يحتمل أن تكون - ما - مصدرية ، والهاء عائدة إلى يعقوب ، والتقدير : وإنه لذو علم من أجل تعليمنا إياه ، ويمكن أن تكون - ما - بمعنى الذى ، والهاء عائدة إليها ، والتأويل ، وإنه لذو علم للشىء الذى علمناه ، يعنى أنا لما علمناه شيئًا ، حصل له العلم بذلك الشىء ، وفى الآية قولان آخران :

الأول : أن المراد بالعلم ، الحفظ ، أى إنه لذو حفظ لما علمناه ومراقبة له .

الثانى : لذو علم لفوائد ما علمناه ، وحسن آثاره وهو إشارة إلى كونه عاملاً بما علمه ، ثم قال تعالى : ﴿ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ .

وفيه وجهان :

الأول : ولكن أكثر الناس لا يعلمون مثل ما علم يعقوب .

الثانى : لا يعلمون أن يعقوب بهذه الصفة والعلم ، والمراد بأكثر الناس ، المشركون ، فإنهم لا يعلمون بأن الله كيف أرشد أولياءه ، إلى العلوم التى تنفعهم فى الدنيا والآخرة .

يقول صاحب كتاب « تأملات فى سورة يوسف » : ولو أنه تعالى قدر عليهم سوءًا ، لما نفعتهم نصيحة والدهم وعملهم بها ، ولكن الآية تنص صراحة ، على أن نصيحة يعقوب وتحذيرهم من العين ، كان من عالم الغيب والشهادة ، ومن علمه تعالى الذى علمه يعقوب ، فعمل به .

إن يعقوب لم يكن ليكتم علمًا عله البارى إياه ، عن أى مخلوق ، فكيف إذا كان المنتفع من ذلك العلم أبناءه ! .

﴿ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُون ﴾ تنص على أن قليلاً من الناس فقط ،هم المؤمنون ، الذين يؤمنون بهذا القرآن ، وبكل ما جاء فيه ، يعلمون ما علمه يعقوب ، من الجمع بين الأخذ بالأسباب ، وبين التوكل ، أما جمهور الناس ، فهم عن هذا غافلون .

قال القرطبى فى تفسيره : ﴿وَإِنَّهُ لَذُو عِلْمٍ لِمَا عَلَّمْنَاهُ ﴾ أى بأمر دينه ﴿ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُون ﴾ أى لا يعلمون ما يعلم يعقوب عليه السلام من أمر دينه .

وقيل: ﴿ لَذُو عِلْمٍ ﴾ أى عمل،فإن العلم أول أسباب العمل ،فسمى بما هو بسببه.

النيل : شريان الحياة فى مصر

....

لـلـه دركِّ أرض مصـر بـكـل خـيـر تنـعـمـين ١٩
قـد كنـت دومـا بـالسـيـادة والحـضارة تُعْرَفـين ٢٠
الـنـيل فـيـك هـو الحيـاة عـطـاء رب العـالمين ٢١
ولأنـت أم الـشـرق دومًا مـثـل أمّ لـلـبـنـين ٢٢
تـعطـيـنه مـن كل شـىء ، لا بـشىء تـبـخلـين ٢٣
لـولاك مات الـشرق جـوعًا مـنذ آلاف الـسنـين ٢٤
لـولاك صـار الشـرق نـهـبًا لـلـغزاة الـفـاتحـين ٢٥

يا مصر! يا أرض الخصب والخير والنماء ، يا أرض الوفاء والعطاء ، يا أرض السيادة والحضارة منذ القدم ، فى حين كانت الأمم كلها ، تحيا حياة الفوضى ، إذ لا قانون ولا دستور ، جهالة جاهلية ، لا حضارة ولا مدنية .. وإنما هى شريعة الغاب .

إن الله وهب النيل لمصر، فهو شريان الحياة فيها.. هو معطاء دائمًا.. هو عطاء الخالق العظيم، لشعب مصر العظيم، الذى لا يكف عن العطاء، فى كل أحواله ، فى السراء وفى الضراء. إن مصر بشعبها العظيم المتمدين المتحضر، استحقت أن تكون سيدة للشرق كله، ولا غرو فالشرق بغير مصر، لا يمكن أن يقف فى مواجهة الأمم التى تنظر إليه على أنه غنيمة، يريدون أن يقتسموها فيما بينهم .. لقـد أشار المصطفى محمد ﷺ إلى هذا المعنى حيث قال: «توشك أن تداعى عليكم الأمم كما تداعى الأكلة على قصعتها، قالوا: وهل من قلة نحن يومئذ يا رسول الله؟! قال: لا، بل أنتم يومئذ كثير، ولكن تكونون غثاء كغثاء السيل، ولينتزعن الله من قلوب عدوكم المهابه منكم، وليقذفن فى قلوبكم الوهن، قالوا: وما الوهن يا رسول الله؟! قال: حب الدنيا وكراهية الموت. ولا غرو، فمصر كانت ولا تزال، هى القلعة الحصينة التى تتهاوى دون أسوارها كل غارات المـغيرين ، الذين يريدون التهام الشرق ، على مدى أحقاب التاريخ . إن مصر دائمًا بالنـسبة للشرق العَربى ، تشبه الأم الحانية .. والأم دائما تعطى ، لا تبخل بشىء مطلقًا ، تعطى كل شىء ، ولا تنتظر شيئًا .

وفى هذه القصة، دليل أكيد على صدق هذا المعنى، فلولا مصر، وخير مصر ، لمات الشرق جوعًا وذلك فى ظل سنى الجدب، السبع التى عمت بلاد الشرق، حيث هرع الناس من أنحاء الشرق، يطلبون الغوث، فوجدوه فى مصر. وكما هرعوا إلى مصر لأجل الطعام، فهم طالما هرعوا ولا يزالون يهرعون إليها لدرء خطر الغزاة والمغيرين فى كل زمان .

يوسف يهمس لبنيامين : أنا أخوك

﴿ وَلَمَّا دَخَلُوا عَلَىٰ يُوسُفَ آوَىٰ إِلَيْهِ أَخَاهُ قَالَ إِنِّي أَنَا أَخُوكَ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (٦٩) ﴾ .

واستقبل الصديق إخوته بشوق مع حنين ٢٦
دخلوا عليه فمال نحو أخيه ميل الهامسين ٢٧
أوحى له ، إنى أخوك ، وصرت فى أمن أمين ٢٨
من فعلهم فيما مضى ، لا تبتئس من حاقدين ٢٩

وصل أبناء يعقوب مصر ، ودخلوا المكان الذى يتم فيه نزول الوفود القادمة من كل أنحاء البلاد ،لأجل الميرة . . وقد كان يوسف الصديق ينتظر قدومهم بفارغ الصبر ، فهو فى شوق شديد ، لرؤية أخيه بنيامين .

ومنذ أن رآهم يوسف مقبلين ، هش لهم ، واستقبلهم بالبشر والترحاب ، ثم أخذ يصافحهم واحدًا واحدًا ، فلما صافح أخاه بنيامين ، همس إليه قائلاً : أنا أخوك يوسف ، فلا تخف من شيء،ومنذ الآن أنت فى أمن وأمان،لا تخش شيئًا ،ولا يؤلمنك ما كانوا قد فعلوه بك من قبل .

قال ابن كثير فى تفسيره : ﴿ وَلَمَّا دَخَلُوا عَلَىٰ يُوسُفَ آوَىٰ إِلَيْهِ أَخَاهُ ...﴾ إلخ .

يخبر تعالى عن إخوة يوسف،لما قدموا على يوسف ،ومعهم أخوه شقيقه بنيامين ، فأدخلهم دار كرامته،ومنزل ضيافته،وأفاض عليهم الصلة والإلطاف والإحسان، واختلى بأخيه فأطلعه على شأنه،وما جرى له ،وعرفه أنه أخوه وقال له : ﴿ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ .أى لا تأسف على ما صنعوا بى،وأمره بكتمان ذلك عنهم، وألا يطلعهم على ما أطلعه عليه،من أنه أخوه،وتواطأ معه أنه سيحتال على أن يبقيه عنده معززا مكرمًا .

قال القاضى بيضاوى فى تفسيره ﴿وَلَمَّا دَخَلُوا عَلَىٰ يُوسُفَ آوَىٰ إِلَيْهِ أَخَاهُ ...﴾ إلخ .

ضم إليه بنيامين على الطعام أو فى المنزل ، روى أنه أضافهم ، فأجلسهم مثنى مثنى ، فبقى بنيامين وحيدًا ، فبكى وقال لو كان أخى يوسف حيًا لجلس معى ! فأجلسه

معه على مائدته ،ثم قال: لينزل كل اثنين منكم بيتًا ، وهذا لا ثانى له ، فيكون معى ، فبات عنده وقال له : أحب أن أكون أخاك بدل الهالك ، قال : من يجد أخًا مثلك ، ولكن لم يلدك يعقوب،ولا راحيل ،فبكى يوسف ، وقام إليه وعانقه وقال : ﴿ إِنِّي أَنَا أَخُوكَ فَلا تَبْتَئِس﴾ فلا تحزن .

قال الفخر الرازى فى قوله تعالى : ﴿ إِنِّي أَنَا أَخُوك ﴾ فيه قولان :

قال وهب : لم يرد أنه أخوه من النسب ، ولكن أراد به أنى أقوم لك مقام أخيك فى الإيناس لئلا تستوحش بالتفرد . . والصحيح ما عليه سائر المفسرين من أنه أراد تعريف النسب ، لأن ذلك أقوى فى إزالة الوحشة وحصول الأنس ، ولأن الأصل فى الكلام الحقيقة ، فلا وجه لصرفه عنها إلى المجاز من غير ضرورة .

يستعدون للرحيل بعد إتمام الكيل

﴿ فَلَمَّا جَهَّزَهُمْ بِجَهَازِهِم ﴾

قد أنزلَ الصدّيقُ إخوتَه نزولَ المُكرَمين ٣٠
أعطى لهمْ ما قد أتَوا من أجلِهِ متكاملِين ٣١
أعطى لكلٍّ منهمو حِملاً فصاروا شاكرين ٣٢
قد جهزوا أوثاقهم بُراً لِطعمِ الجائعين ٣٣
لم يبقَ إلا أن يعودوا بالغنيمةِ ظافِرين ٣٤

لقد أمر الصديق عماله ومعاونيه ، أن يُنزلوا أبناء يعقوب خير منزل ، وأن يُكرَموا أحسن تكريم ، وأن تُهّيأ لهم إقامة طيبة ، ماداموا فى مصر ، إلى أن يرحلوا منها عائدين إلى موطنهم ، حيث يقيم أهلوهم . ثم أمر يوسف أن يعطى لكل واحد منهم حمل بعير من البر ، وهذا لعمر الله هو أهم ما جاءوا لأجله ، إنه الطعام .. قوام الحياة .. فلولا طلب الطعام ، لما عرفوا طريقهم إلى مصر ، ولولا مجيئهم مصر ، لما رأوا أخاهم يوسف الصديق ، ولما تم هذا الذى دبّر له يوسف !

أولا : طلب منهم أن يحضروا أخاهم الحادى عشر .

ثانيا : تخبئة صواع الملك فى رحل أخيه بنيامين ، توطئة لإبقائه عنده .

ثالثا: عودتهم بغير بنيامين .   **رابعًا** : اشتداد حزن يعقوب على بنيامين .

خامسًا : تجدد أمل يعقوب بأن يوسف لا يزال على قيد الحياة ، فمن ثم يوصى أولاده بالعودة إلى مصر ، وليبحثوا عن يوسف وأخيه ، من غير يأس . هذه كلها أسباب ، أوجدها مسبب الأسباب ، إذ كل حدث له سبب ، وكل سبب يوصل إلى سبب آخر .. وهكذا تتصل الأسباب ، بعضها ببعض ، وفى النهاية ينكشف الغطاء ، وتظهر الحكمة الإلهية ، المطوية فى ثنايا الأحداث المؤلمة المتتالية . لسوف تتمخض تلك الأحداث القاسية فى منظرها،المرة فى وقعها على النفوس عن الآتى :

١ ـ جمع شمل يعقوب نبى الله على بنيه .

٢ ـ اعتلاء يوسف الصديق عرش مصر .

٣ ـ تحقق تأويل رؤيا يوسف بسجود إخوته الأحد عشر وأبيه وأمه .

على كل حال ، لقد انتهى أبناء يعقوب،من الكيل والميزان،ثم جهزوا أوثاقهم من البر واستعدوا للرحيل عائدين فرحين .

تآمر يوسف على أخيه ، ليبقيه عنده

﴿ جَعَلَ السِّقَايَةَ فِي رَحْلِ أَخِيه ... ﴾

لكنّ يوسفَ كان من أعماقه سرٌّ دفين ٣٥
السرُّ يعلمُه إله العرشِ ربُّ العالمين ٣٦
يَنوى بأن يُبقِي أخاهُ بحيلة لا تستبين ٣٧
أوحى إلى غِلمانه قولاً فصًاروا فاهمين ٣٨
قدْ غافَلوا إخوانَه فى خِفّة المتسَلّلين ٣٩
فى رَحْلِ بنيامين قد أخفُوا الصواعَ مخبّئين ٤٠

أبناء يعقوب ، شدوا رحالهم ، وحملوا متاعهم على إبلهم ، وتأهبوا للرحيل ، ولم يبق إلا أن يودعوا العزيز ـ يوسف ـ لينطلقوا عائدين إلى الأهل فرحين ، إنهم فى أشد الفرحة لسببين اثنين ، الأول : عودتهم بأخيهم بنيامين ، حيث لم يصبه أذى أو سوء ، الثانى : حصولهم على ما يريدون من الطعام ، كل واحد منهم حمل بعير . بينما كان أبناء يعقوب يتأهبون للرحيل،كان يوسف الصديق قد قرر فى نفسه أمرًا ، هذا الأمر لم يكن قد أفضَى به لأحد قبل ذلك .. ولا يعلمه أحد إلا الله عز وجل .

هذا الأمر هو : أن يوسف يريد استبقاء أخيه بنيامين عنده ، دون أن يكشف لإخوته عن حقيقة شخصيته،ذلك لأنه يريد أن يضايقهم قدر استطاعته، بل لعله يستطيع أن يضعهم أمام أبيهم،فى موضع اللوم المر،والتأنيب القاسى،والاتهام بسوء النية، لكونهم أضاعوا بنيامين. فهم قبل ذلك أخذوا يوسف،ووعدوا أباهم بحفظه ورعايته، ثم قالوا: أكله الذئب،وهاهم أولاء هذه المرة قد أخذوا بنيامين، وأقسموا بأغلظ الأيمان أن يحافظوا عليه ،ولن يصيبه أذى أو سوء ما دام فيهم عين تطرف، بيد أنهم لم يبروا بقسمهم ،ولم يوفوا بعهدهم .. إذن فهى مؤامرة على الشيخ ، وعلى ولديه: يوسف وبنيامين. لقد أمر يوسف غلمانه، أن يدسوا صواع الملك فى رحل بنيامين،وذلك خفية بحيث لايشعر بهم أحد.. وفعلاً لقد قام غلمان يوسف بتنفيذ أمر يوسف.

لقد اغتنموا فرصة انشغال إخوة يوسف ،ببعض الأمورالهامة،قبيل رحيلهم،فدسوا صواع الملك فى رحل بنيامين.

والآن لم يبق إلا المفاجأة المذهلة،حيث ينادى المنادى بأن شيئاً هاما قد فقد ومن ثم تبدأ مشكلة جديدة لم تكن فى حسبان أحد من أبناء يعقوب.

المنادى يقول لكل القوافل:إنكم سارقون

﴿ ثُمَّ أَذَّنَ مُؤَذِّنٌ أَيَّتُهَا الْعِيرُ إِنَّكُمْ لَسَارِقُونَ (٧٠) ﴾

إخـوانُ يوسـفَ قد تـنادَوا لـلرحـيلِ مـبادِريـن ٤١
وإذا المـنـادِى فى الـوفـودِ وصـوتُه كـالمنـذِريـن ٤٢
نـادَى علـى كلِّ الـقوافـلِ قـائلاً : يـا سارِقـين ٤٣
لا تـرحـلـوا حـتـى نراكُم بـاحِـثِين ونـسـتَبِـين ٤٤
شيـئًا ثميـناً قد فـقدنَا ، فاعـلمُوا العـلمَ اليـقين ٤٥

لم يبق أمام أبناء يعقوب الآن إلا أن يرحلوا، لـقدودعوا العزيز وشكروه على حسن استقباله لهم، وعلى تزويدهم بأوثاق الطعام. وفعلاً، لقد تنادوا . . الرحيل الرحيل . . وإذا المنادى ينادى بصوت جهورى، يسمعه القاصى والدانى. المنادى يقول: أيها الوفود الوافدة! أيها الرجال! اسمعوا وعوا، لقد فقدنا شيئاً ثميناً، انتظروا جميعاً، لا تبرحوا المكان، لابد أن نجد هذا الـشىء الذى فقدناه، وإن لـم نجده فسوف يكون لـنا معكم موقـف آخر، قد لا ترضونه ! لا يرحلنّ أحد منكم ، لسوف نبحث عن هذا الشىء حتى نجده ، هذا الشىء الذى فقدناه، هو خاص بالملك، وتالله لو علم الملك بفقده، فسوف يغضب غضبًا لا مزيد عليه، وقد يترتب على هذا الغضب أشياء خطيرة. وهكذا لقد قذف رجال يوسف الوفود بتهمة السرقة .

قال الأستاذ عبد الكريم الخطيب فى « القصص القرآنى » :وفى المناداة عليهم بهذا النداء ﴿ أَيَّتُهَا الْعِيرُ ﴾ دون المناداة عليهـم بالنداء « أيها الركب أو يا أصحـاب العير » فى هذا دعوة لهم إلى أن يتوقفوا عن المسير، لأن العير هى المنظور إليها ، عند هذا النداء ، وأن عليها أن تقف. . ولهذا حسن مخاطبتها ، لأنها هى المطلوبة أولاً ، فإذا وقفت كان للمنادين شأنهم مـع راكبيها ، ولهذا فإنه ما إن صدر النداء « أيتها الـعير » حتى توقفت بفعل أصحابها ، وما إن توقفت حتى توجه الخطاب إلى أصحابها ﴿ إِنَّكُمْ لَسَارِقُون ﴾ .

قال القاضى بيضاوى فى تفسيره : ﴿ ثُمَّ أَذَّنَ مُؤَذِّن ﴾ نادى مناد ﴿ أَيَّتُهَا الْعِيرُ إِنَّكُمْ لَسَارِقُون ﴾ لعله لم يقله بأمر يوسف عليه السلام ،أو كان تخبئة السقاية والنداء برضى بنيامين، وقيل: معناه إنكم لسارقون يوسف من أبيـه، أو إنكم لسارقون، العير: القافلة، وهو اسم الإبل التى عليها الأحمال .

أبناء يعقوب يتساؤلون : ماذا تفقدون ؟!

﴿ قَالُوا وَأَقْبَلُوا عَلَيْهِم مَّاذَا تَفْقِدُونَ (٧١) ﴾

إخوانُ يوسفَ ساءهُم ، قولُ المنادِى المستَهين ٤٦
قالوا لهُ : ماذا تريُد ؟! تساؤلَ المستفهِمين ٤٧
ماذا فقدتُم ! أخبِرونا ..! ولْتكُونوا صادِقين ٤٨
لا ، لا تسيئُوا الظن فينَا ، لا تكونوا مفتَرين ٤٩

صوت المنادى صك أسماع الناس جميعًا ، قاصيهم ودانيهم ، ولا غرو فالنداء لكل الوفود ، من كل أنحاء الأرض ، لأجل الميرة .لقد كان وقع هذا الخبر سيئا ، على أسماعهم ونفوسهم .. فالمنادى يقول: ﴿ أَيَّتُهَا الْعِيرُ إِنَّكُمْ لَسَارِقُونَ﴾ لقد صاروا جميعًا يتساءلون فيما بينهم، ما هو الشىء المسروق ؟! ثم من ذا الذى عساه أن تسول له نفسه ، فيسرق شيئًا قل أوجل ، وممن ؟!من الرجل الذى يمد يده للجميع بما فيه قوام حياتهم ؟! هذا لعمر الله - إن صح - يعتبر جحودًا ، وإنكارًا للجميل ، ومقابلة الحسنة بالسيئة .

بعد أن بلغ صوت المنادى ، كل الوفود التى كانت قد تهيأت للرحيل ، ومنهم أبناء يعقوب ، أناخ الجميع إبلهم وأنزلوا أمتعتهم من على ظهور الإبل ، انتظارًا للتعليمات التى سوف تعقب هذا النداء .فمن المؤكد أن أمرًا ما سوف يصدره العزيز،وهذا الأمر له علاقة بالشىء المسروق ، وهذا الأمر سيكون على الأقل ، إرجاء رحيل الوفود الآن .

بيد أن الجميع اتجهوا نحو المنادى ومن معه ، فسألوهم قائلين : ﴿ ... مَّاذَا تَفْقِدُون﴾ ؟! أخبرونا ، أى شىء فقدتموه ؟! أخبرونا بالصدق ، فنداؤكم هذا قد أساء لنا جميعًا ، ويبدو أن المتسائلين كانوا هم أبناء يعقوب .. ثم أردفوا قائلين : ليس من المعقول ، أن يرتكب هذه الحماقة أحد من كل الوافدين ، أهكذا يكون ردّ الجميل ؟! هذا لا يمكن أن يقبله عقل مطلقًا .وقبل أن يجيب المنادى على تساؤل السائلين ، كان الهمس بين رجال الوفود قد أخذ شكل العلانية ، لابد أن شيئًا هامًا فقده القوم ، إذن فلابد أن يجدوه حتى يأذنوا للوفود بالرحيل .. وإذا لم يجدوه ، فلابد أن إجراء ما سوف يتخذونه حيال هذا التصرف السيىء من قبل الوفود .

المفقود صواع الملك ، ونعطى حمل بعير لمن يجىء به

﴿ قَالُوا نَفْقِدُ صُوَاعَ الْمَلِكِ وَلِمَن جَاءَ بِهِ حِمْلُ بَعِيرٍ وَأَنَا بِهِ زَعِيمٌ ﴿٧٢﴾ ﴾

قـالوا : فـقَدنـا غاليًا ، فـلذا غـدَونـا سائلـين ٥٠
ذاكـم صـواع للـمـلـيـك ، وإنـه شىءٌ ثـمـين ٥١
مَن ردّه ، فـلـسـوفَ نـشكُره بـأسـلـوبٍ مُبـين ٥٢
ويـنـالُ أيـضًا حمْلَ بُرّ فـوقَ حمْلَ الـوافـديـن ٥٣
ولـسـوفَ نوفى ، لن نـكونَ لما وعدْنا جـاحدين ٥٤

لقد تلكأ المنادى فى الإجابة علـى السؤال الذى سألوه عن نوع الشىء المسروق . . وقد كان بلا شك تلكؤًا مقصودًا ، وذلك ليلقى فى روع السامعين خطورة هذا الأمر .

ولا غرو فقد كان هذا المنادى هو أحد الذين شاركـوا فى تنفيذ خطة إخفاء الصواع فى رحل بنيامين . . ثم تكرر السؤال للمنادى! أخبرونا ، ماذا فقدتم ؟! فأجاب قائلاً : إن الشىء الذى فقدناه،هو إحدى التحف الثمينة التى يعتز بها الملك . . يالله !! إن الإجابة على تساؤل المتسائلين ، كانت إجابة مدروسة ، أعدت بحكمة وإتقان . . ذلك لأنها أضافت إلى الأمر هولاً وخطورة . . ولم لا ؟! فالشىء المسروق خاص بالملك نفسه .

لقد أسقط فى أيدى القوم ، فتهامسوا فيما بينهم قائلين : مادام الأمر يتعلق بالملك فلابد أن يكون العقاب صارمًا ، ولا ندرى ما هو بالتأكيد . ثم أردف المنادى قائلاً بعد أن أفصح عن نوع الشىء المسروق: إننا لا نبغى أن نشق عليكم،فالذى أخذ صواع الملك ، فليرده إلينا قبل أن نتخذ أى إجراء جزائى ، وللعلم فمن يرده إلينا قبل أن نتخذ إجراء جزائيًا ،فسوف نكافئه على هذا ، ولن نعتبره سارقًا ، بل سوف نعطيه حمل بعير من البر ، وسوف ننظر إليه على أنه رجل أمين .

قال الأستاذ عبد الكريم الخطيب فى كتابه « القصص القرآنى » : ﴿ **قَالُوا نَفْقِدُ صُوَاعَ الْمَلِكِ وَلِمَن جَاءَ بِهِ حِمْلُ بَعِيرٍ وَأَنَا بِهِ زَعِيمٌ** ﴾ إن الذى يفقدونه، ويتهمون الركب بسرقته ، هو صواع الملك ، وهو السقاية التى هى القدح الذى يشرب فيه الملك شرابه ، وأن من جاء بهذا المسروق ، قبل أن ينكشف أمر السارق ، فإن له جزاء هـذا حمل بعير ، وإن هذا الحمل فى ضمانة رئيس الجماعة المنتدبة للبحث عن صواع الملك ، فهو بهذا الوعد زعيم ، أى كفيل به وضامن له » .

أبناء يعقوب يتبرأون من تهمة السرقة

﴿ قَالُوا تَاللَّهِ لَقَدْ عَلِمْتُم مَّا جِئْنَا لِنُفْسِدَ فِي الأَرْضِ وَمَا كُنَّا سَارِقِينَ (٧٣) ﴾

قَالـوا لهـم : تالـلـهِ ما كـنا جـمـيعًا مـفسديـن ٥٥
نـحنُ الـكرام بـنو الـكرامِ مـنَ الجدودِ الأولـين ٥٦
أفـمَا علـمـتُم أنـنا مـن آلِ بـيـتِ المرسَلـين ؟! ٥٧
لـسـنـا بـحـمدِ الـلـه خُوّانًا ، ولـسـنَا سَارِقـين ٥٨

لقد أجاب أبناء يعقـوب ، فنفوا عن أنفسهم تهمة السرقـة بكل قوة وحزم ، فقالوا لأعوان يوسف : نحن أبعد ما نكون عن هذه التهمة ، لعدة أسباب :

أحدها : نحن أبناء نبى الله يعقوب بن اسحاق نبى الله ، بن إبراهيم خليل الله ، أى أننا سلالة آباء كـرام ، ومن ثم فلا يمكن أن ننزل إلى حضيض الـسلوك الإنسانى ، فنلوث شرفنا ، ونسىء إلى عرقنا وتاريخنا ، وبارتكاب هذه الجريمة القذرة .

ثانيها : وذلك دليـل على صدق ما نـقول : إنا رددنا البضـاعة التى وجدنـاها فى رحالنا، رددناها بعد أن وصلنا إلى بلادنا فى الشام ولم يكن أحد منكم يعلم عنها شيئًا ، وإنما رددناها لأننا أمناء لا نقبل ولا نأخذ ما ليس لنا .

ثالثها : لقد قلنا للعـزيز : إن لنا أخًا تركناه عند أبيه كى يسلـيه ويؤنسه فى وحدته أثناء غيبتنا ، فقـال لنا : هاتوه معكم لكى أراه . فأحضرناه معنـا ، فمن ثم تبين العزيز صدق قولنا . . « ومن كان الصدق منهجه ، فلا يمكن أن يكون سارقًا » .

رابعها :أن العزيز قد أنزلنا منزلاً حسنًا،وأكرمنا غاية الإكرام ، ولم يكن هذا عبثًا ، فهو قد علم بفراسته وفطنته ، أننا أهل للتكريم ، فأمر بإكرامنا .

قال القرطبى فى تفسيره **﴿ قَالُوا تَاللَّهِ لَقَدْ عَلِمْتُم مَّا جِئْنَا لِنُفْسِدَ فِي الأَرْضِ ﴾** : يروى أنهم كانوا لا ينزلون على أحد ظلـمًا ، ولا يرعون زرع أحد ، وأنهم جمعوا على أفواه إبلهم الأكـمّة لئلا تعبث فى زروع الـناس، ثم قال: **﴿وَمَا كُنَّا سَارِقِين﴾** يروى أنهم ردوا البضاعة التى كانت فى رحالهم . . أى فمن رد ما وجد، فكيف يكون سارقًا ؟!

وقال القاضي بيضاوى فى تفسيره : ﴿ قَالُوا تَاللَّهِ ﴾ قسم فيه معنى التعجب ، والتاء بدل من الياء ، مختصة باسم الله ﴿ لَقَدْ عَلِمْتُم مَّا جِئْنَا لِنُفْسِدَ فِي الأَرْضِ وَمَا كُنَّا سَارِقِينَ ﴾ استشهدوا بعلمهم على براءة أنفسهم ، لما عـرفوا عنهم فى كرتى مجيئهم ، ومداخلتهم للملـك ، مما يدل على فرط أمـانتهم ، كرد البـضاعة التى جعـلت فى رحالهم وتـكمم الدواب لئلا تتناول زرعا أو طعامًا لأحد .

يتفقون على عقوبة السارق

﴿ قَالُوا فَمَا جَزَاؤُهُ إِن كُنتُمْ كَاذِبِينَ (٧٤) ﴾

قالـوا : فَإنا سوفَ نـبحثُ فى الـرحالِ مفـتِّشين ٥٩
إذ ما وجـدنا صَاعـنا فـى رَحْلِ أحد الـوافدين ٦٠
ماذا يـكون جزاؤه ؟! فلـتحكُموا الحَـكمَ الأمين ٦١

قال عمال يوسف الصديق ، المكلـفون بالبحث عن الصواع المسروق : ﴿ قَالُوا فَمَا جَزَاؤُهُ إِن كُنتُمْ كَاذِبِينَ ؟! ﴾ .أى أنتم ترفضـون هذا الاتهام ، وتنفونه عن أنفـسكم نفيًا قاطعًا ، فى حين أننـا نؤكد لكم أن صواع الملك قد فقد .وفى الـوقت نفسه ، لا نزال نقول : من أخذه فليرده ، وبدلاً من أن نوجهّ له تهمة السرقة ، سوف نشكره ، ونزيده حملاً من البر أيضًا .وما دمتم ترفضون هذا الاتهام ، فإننا سوف نقوم بتفتيش الرحال ، بحثًا عـن الصواع المفقـود .بيد أننا قـبل أن نبدأ حمـلة البحث والـتفتيش عـن الصواع المفقود ، نريد أن نسألكم سؤالاً واحدًا ، ونرجوا أن تجيبوا عنه إجابة واضحة . . !

هذا السـؤال هو :ترى ماذا يكـون جزاء من وجدنـا الصواع فى رحلـه؟! وقد كان السؤال موجهًا بالدرجـة الأولى،لأبناء يعقوب.ذلك لأنهم هم الذين كـانوا يتحدثون مع أعوان يوسف، بالأصالة عن أنفسهم ، وبالنيابة عن الآخرين ، لأنهم أكثر عددًا وتوحدًا فى الرأى ، لكونهم أخـوة أبناء رجل واحد . لقد فوجىء أبناء يعـقوب بهذا السؤال ، فهم أبناء يعقوب نبى الله،وبالتالى فهم يحتكمون إلى شريعة . . أما أهل مصر ، فليسوا مثلهم، فـهم يحتكمون إلى قانون وضـعى . . فبماذا يجيبون عـن سؤال أعوان يوسف بالنسبة لعقوبة السارق ؟!هل يحكمون عليه بشرع يعقوب؟! أم بقانون أهل مصر .

قال صاحب كتـاب : « تأملات فى سورة يوسف » فى قـوله تعالى : ﴿ قَالُوا فَمَا جَزَاؤُهُ إِن كُنتُمْ كَاذِبِينَ ﴾ بقصد أخذ الحكم على الـسارق من أفواه الإخوة ، وذلك كما هو معلوم ، بإيـحاء من الله تعالى إلى يوسـف ، قال تعالى : ﴿كَذَلِكَ كِدْنَا لِيُوسُفَ مَا كَانَ لِيَأْخُذَ أَخَاهُ فِي دِينِ الْمَلِكِ إِلاَّ أَن يَشَاءَ اللَّهُ ﴾ فإن ذلك يدل على أن هؤلاء السائلين إنما سألوا بإيحاء من يوسف الذى نبههم إلى ضرورة طرح هذا السؤال .

جزاء السارق .. أن يؤخذ بجريمته

﴿ قَالُوا جَزَاؤُهُ مَن وُجِدَ فِي رَحْلِهِ فَهُوَ جَزَاؤُهُ كَذَٰلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ (٧٥) ﴾

إِخْوانُ يُوسُفَ قَدْ أجَابُوا حَيْـــثُ كـــانُوا غَاضِبِين ٦٢
هَذِى الــــرِّحَالُ فَفَتِّشُوهَا ، إن تَشَاءُوا بَاحِثِين ٦٣
إذ مَا وَجَدْتُم صَاعَكُم فِى رَحْلِ أحَدِ الـسَّامِعِين ! ٦٤
فَلْتَأْخُذوهُ بِهِ لِكَى يُجْزَى جَزَاءَ الخَائِنـــــين ٦٥

﴿ قَالُوا جَزَاؤُهُ مَن وُجِدَ فِي رَحْلِهِ فَهُوَ جَزَاؤُهُ ﴾ هكذا كان جواب أبنـاء يعقوب ، عن سؤال أعوان يوسف الصديق، حـينما قالوا لهم : **﴿ ... فَمَا جَزَاؤُهُ إِن كُنتُمْ كَاذِبِـين ﴾**؟! كانت إجابـتهم ممزوجة بغـضب وحماس شديدين، ثـم أردفوا قائلين: هيـا، هذه الرحال ففتشوها ، فتشوا كل الأمتعة ، لا تتركوا شيئًا من أمتعة الوافدين دون أن تفتشوه . فإذا ما وجدتم الصواع المفقود الذى تتحدثـون عنه، فى رحل أحد من الوفود ، فخذوه به ، خذوه بجريمته ، فليكن رقيقًا عندكم ، ولـن تجدوا أحدًا منا يشفع له . . هذا لعمر الله هو شرعنا الذى نحتكم إليه عندنا !! ولا غرو فالسارق خائن ، والخائن ينبغى أن يعاقب على خيانـته ، دونما عطف أو رحمة . هذه الإجـابة من أبناء يعقوب . . هـى التى كان ينتظرها يوسف الصديق ، لكى تكتمل الحيلة التى دبرها لاستبقاء أخيه بنيامين عنده .

قال ابن كثير فى تفسيره : **﴿ قَالُوا جَزَاؤُهُ مَن وُجِدَ فِي رَحْلِهِ فَهُوَ جَزَاؤُهُ كَذَٰلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِين ﴾**، وهكذا كانت شريعة إبراهيم ، أن السارق يُدفع إلى المسروق منه . . هذا هو الذى أراد يوسف عليه السلام .

وقال الأستاذ عبـد الكريم الخطيب فى « القـصص القرآنى » : **﴿ قَالُوا جَزَاؤُهُ مَن وُجِدَ فِي رَحْلِهِ فَهُوَ جَزَاؤُهُ كَذَٰلِكَ نَجْزِي الـظَّالِمِين ﴾** . أى أن جزاء السارق ، هـو أن يؤخذ بجرم ما سرق . . إنه وحده الذى يتحمل وزر ما فعل ، وذلك هو شرعنا الذى ندين به ، فلا تزر وازرة وزر أخرى .

وقال القرطبى فـى تفسيره : **﴿ جَزَاؤُهُ مَن وُجِدَ فِي رَحْلِهِ فَهُوَ جَزَاؤُهُ ﴾** أى يستعبد ويسترق **﴿ كَذَٰلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِين ﴾** أى كذلك نفعل فى الظالمين ، إذا سرقوا أن يسترقوا وكان هذا دين يعقوب عليه السلام وحكمه .

وقولهم هذا، قول من لم يسترب نفسه، لأنهم التزموا استرقاق من وجد فى رحله، وكان حكم السارق عند أهل مصر، أن يغرم ضعفى ما أخذ . . قاله الحسن والسدى وغيرهما .

إخراج الصواع من رحل بنيامين

﴿ فَبَدَأَ بِأَوْعِيَتِهِمْ قَبْلَ وِعَاءِ أَخِيهِ ثُمَّ اسْتَخْرَجَهَا مِن وِعَاءِ أَخِيهِ ﴾

قد سُرَّ يوسُفُ من إجَابتهم سرُورَ الفَائزين ٦٦
من ثَم صَار يُفَتِّشُ الأَحْمَال تَفْتيشَ الأَمين ٦٧
بَدْءًا بِأمْتعَة الكِبَار ، لكَى يَظَلُوا غَافلين ٦٨
فى رَحْلِ بنْيَامين كَانَت دَهْشَة للنَّاظِرين ٦٩
وَجَدُوا الصُّوَاعَ مُخبأً فى رَحْلِه ، هَذَا يقين !! ٧٠

لما سمع يوسف الصديق إجابة إخوته .. وهى تطبيق شرع يعقوب على من سوف يجدون الصواع فى رحله .. وهو أن يؤخذ السارق بجريمته .. فيصير عبدًا رقيقًا لمن سرق منه .سُرّ يوسف بهذا ، لقد نجحت حيلته لاستبقاء أخيه بنيامين عنده !! فمن ثم بدأ هو ورجاله تفتيش الرحال ، وإمعانًا فى تثبيت وترسيخ الحيلة ، فى نفس الجيع ، بدأوا التفتيش فى رحال أبناء يعقوب الكبار ، وذلك لكى لا يراودهم أدنى شك فى الأمر .لقد انتهوا من تفتيش رحال أبناء يعقوب الكبار ، ثم جاءوا بعد ذلك ليفتشوا رحل بنيامين .. ذلك الغلام الذى اختير ليكون كبش الفداء ، فى جريمة لا يدرى من أمرها شيئًا .بدأوا تفتيش رحل بنيامين ، وبعد لحظات من بدء التفتيش ، وقعت المفاجأة التى لم تكن متوقعة .. يالله !! لقد وجدوا الصواع المفقود فى رحل بنيامين .. وذلك أبعد ما يمكن أن يفكر فيه أحد ، أو أن يحوم بتفكيره حوله .. لم يدر بخلد أبناء يعقوب أن أخاهم هذا ، قد يكون سارقًا .

قال القرطبى فى تفسيره ﴿ فَبَدَأَ بِأَوْعِيَتِهِمْ قَبْلَ وِعَاءِ أَخِيهِ ﴾ :إنما بدأ يوسف برحالهم ، لنفى التهمة والريبة من قلوبهم ، إن بدأ بوعاء أخيه ﴿ ثُمَّ اسْتَخْرَجَهَا مِن وِعَاءِ أَخِيهِ ﴾ يعنى بنيامين ، أى استخرج السقاية أو الصواع .

فلما رأى ذلك إخوته،نكسوا رؤوسهم ،وظنوا الظنون كلها ،وأقبلوا عليه وقالوا : ويلك يا بنيامين ! ما رأينا كاليوم قط ، أمك راحيل ولدت أخوين لصين ، قال لهم أخوهم : والله ما سرقته ، والله ما سرقته ، ولا علم لى بمن وضعه فى متاعى . ويروى أنهم قالوا له : يا بنيامين ! أسرقت ؟ قال لا والله ، قالوا : فمن جعل الصواع فى رحلك ؟! قال : الذى جعل البضاعة فى رحالكم !

يوسف يطبق على أخيه شريعة أبيه

﴿ كَذَٰلِكَ كِدْنَا لِيُوسُفَ مَا كَانَ لِيَأْخُذَ أَخَاهُ فِي دِينِ الْمَلِكِ إِلاَّ أَن يَشَاءَ اللَّهُ ... ﴾

مِنْ أجْلِ مَا يَبْغِيه يُوسُفُ صَارَ كَالْمُتآمرين ٧١
تلكُم إرادتُه تَلاقَتْ مَع إله العَالمين ٧٢
لا يَنْبَغِي أخذُ البَرىء كَأَخْذِ بَعْضِ المجْرمين ٧٣
لكنْ إذَا شَاءَ الإله ، فَقفْ وُقُوفَ الخَاشعين ٧٤

لقد تصرف يوسف الصديق عليه السلام ، لأجل استبقاء أخيه عنده ، تصرفًا يضع موضع اللوم، لقد غامر يوسف بهذا التصرف الذى لا يليق بنبى مله ، لقد ركب الصعب لأجل تحقيق غرضه .إذ لا ينبغى أن يضع أخاه البرىء فى صورة السارق المجرم ، مهما كانت الأهداف التى قد تتحقق من وراء هذا العمل . . بيد أن يوسف عليه السلام أقدم على هذا التصرف بتدبيره وإرادته ، ولكنه كان فى الوقت نفسه ، يسير فى فلك المشيئة العليا ، وهل يقع فى كون الله إلا ما شاء الله ؟! إن يوسف عليه السلام أخضع أخاه بهذه التصرف لنظام الرق والعبودية. .الرق الذى ضرب عليه هو من قبل ، ودونما ذنب جناه ، وهكذا هو موقف بنيامين أيضًا .ولا غرو فنحن أمام إرادة عليا ومشيئة سامية ، لا نملك إلاَّ أن نحنى رءوسنا لها ، تسليمًا وإجلالاً وتعظيمًا .

ذلك لأن تفكيرنا قاصر عن إدراك حقيقة ما هو مخبوء فى ضمير الغيب ، فكيرًا ما تكون الأحدا المرئية مستنكرة فى نظر كل من شاهدها ، وذلك لقسوتها بالنسبة لشخص ما،وهى فى الوقت نفسه تكون سبيلاً لسعادته ورفعته.وهذا ما تمخضت عنه الأحداث ، بالنسبة ليوسف عليه السلام ، أما بالنسبة لبنيامين ، فلا بأس أن يُبتلى بما يكره ، وصولا إلى ما يكون فيه سعادة الأسرة كلها بحيث يتم جمع شملها بعد التفرق .إن الله عز وجل ، هو مالك الملك ، لا شريك له فى ملكه . . وإذا أراد أمرًا أمضاه .

قال القرطبى فى تفسيره: ﴿ دِينِ الْمَلِكِ ﴾ أى سلطانه ، عن ابن عباس ابن عيسى : عادته ، أى يظلم بلاحجة :مجاهد:فى حكمه ؛وهو استرقاق السراق : ﴿ إِلاَّ أَن يَشَاءَ اللَّهُ ﴾ أى إلا بأن يشاء الله،أن يجعل السقاية فى رحله ، تعلة وعذرًا له ، وقال قتادة : بل كان حكم الملك الضرب والعزم ضعفين ، ولكن شاء الله أن يجرى على ألسنتهم حكم بنى إسرائيل ، على ما تقدم .

يوسف أساء إلى أخيه بتطبيق قانون الملك عليه

﴿اللَّهُ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَّن نَّشَاءُ وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ (٧٦)﴾

اللَّهُ يَرْفَعُ مَنْ يَشَاءُ إلى مَقَامِ المحْسنين	٧٥
العِلْمُ لَيْس لَه كَبيرٌ ، فَاعْلَمُوا العِلْم اليَقِين	٧٦

الله عز وجل صاحب القوة والجبروت ، يرفع ويخفض ، يعز من يشاء ويذل من يشاء ، ولا ندرى حكمته فى كونه ، وما علمنا مع علم الله سبحانه وتعالى ، إلا كنقطة فى بحر لجى بعيد الغور ، مترامى الأطراف .

ـ قال الشيخ الصابونى فى « صفوة التفاسير » فى قوله تعالى : ﴿ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَّن نَّشَاءُ ﴾ أى نرفع بالعلم منازل من نشاء من عبادنا ، كما رفعنا يوسف ، ﴿ وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ﴾ أى فوق كل عالم من هو أعلم منه ، حتى ينتهى إلى ذى العلم البالغ ، وهو رب العالمين . . قال الحسن : ليس عالم إلا فوقه عالم حتى ينتهى العلم إلى الله ، وقال ابن عباس : الله العليم الخبير فوق كل عالم .

ـ قال الفخر الرازى فى قوله تعالى : ﴿ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَّن نَّشَاءُ ﴾ هو أنه تعالى يريه وجوه الصواب فى بلوغ المراد ، ويخصه بأنواع العلوم ، وأقسام الفضائل ، والمراد هاهنا أنه تعالى رفع درجات يوسف عليه السلام على إخوته فى كل شىء .

واعلم أن هذه الآية تدل على أن العلم أشرف المقامات ، وأعلى الدرجات ، لأنه تعالى لما هدى يوسف عليه السلام ،إلى هذه الحيلة والفكرة ، مدحه لأجل ذلك فقال تعالى : ﴿ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَّن نَّشَاءُ﴾ وأيضًا وصف إبراهيم عليه السلام بقوله : ﴿ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَّن نَّشَاءُ﴾ [الأنعام :٨٣] عند إيراده ذكر دلائل التوحيد والبراءة عن إلهية الشمس والقمر الكواكب.

ووصف هاهنا يوسف أيضًا بقوله : ﴿ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَّن نَّشَاءُ﴾ لما هداه إلى هذه الحيلة،وكم بين المرتبتين من التفاوت. .ثم قال تعالى:﴿ وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ﴾ والمعنى أن إخوة يوسف عليه السلام ،كانوا علماء فضلاء، إلا أن يوسف كان زائدًا عليهم فى العلم .

واعلم أن المعتزلة احتجوا بهذه الآية،على أنه تعالى عالم بذاته لا بالعلم ، فقالوا : لو كان عالما بالعلم،لكان ذا علم، ولو كان كذلك لحصل فوقه عليم ، تمسكًا بعموم هذه

الآية، وهذا باطل . واعلم أن أصحابنا قالوا : دلت سائر الآيات ، على إثبات العلم لله تعالى ، وهى قوله تعالى : ﴿ **إِنَّ اللَّهَ عِندَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ** ﴾ [لقمان: ٣٤] ﴿ **أَنزَلَهُ بِعِلْمِهِ** ﴾ [النساء: ١٦٦] ﴿**وَلا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِّنْ عِلْمِهِ** ﴾ [البقرة: ٢٥٥] ﴿**وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنثَىٰ وَلا تَضَعُ إِلاَّ بِعِلْمِهِ** ﴾ [فصلت : ٤٧] وإذا وقع التعارض ، فنحن نحمل الآية التى تمسك الخصم بها، على واقعة يوسف وإخوته خاصة .

الحراس يقتادون بنيامين بجريمته

....

قَدْ تَم مَا يَبْغِيه يُوسُفُ ، إنّه كَيْدٌ مَتِين ٧٧
لكنّه كَيْدٌ أصَابَ أخَاهُ دُون الآخَرين ٧٨
أخَذُوه أخْذَة سَارِق ، والكُلُّ كَانُوا نَاظِرين ٧٩
الكُلّ يَفْغَرُ فَاهُ دَهْشًا ، إنّه حقّاً أُهين ٨٠
إذْ كوْنُ بِنْيامِين يَسْرِقُ ، قَدْ غَدَوْا مُسْتَغْرِبين ٨١

لقد تمت المكيدة التى دبرها يوسف الصديق ، لاستبقاء أخيه بنيامين عنده . . إنها مكيدة تفتق عنها فكر عبقرى . . هو فكر يوسف الصديق ، فهو الذى فكر وخطط ، وقد قام عماله بتنفيذ الفكرة . . فنجحت تمامًا . هذه المكيدة كانت بالنسبة ليوسف الصديق ، هدفًا يرنو إليه ، ومن ثم فنجاحها حقق له أمنية كانت تجيش فى صدره ، وتداعب خياله . هذا بالنسبة ليوسف عليه السلام . . أما بالنسبة لبنيامين ، فقد كانت هذه المكيدة كارثة ، حطمت أو كادت تحطم حياته ، حاضرا ومستقبلاً ! ولم لا ؟! فلقد سيق بنيامين ، كما يساق المجرمون ، أخذوه بجريمته ، وقد كان ذلك أمام الجميع . لقد ألجمت الدهشة ألسنة أبناء يعقوب ، وأسقط فى أيديهم ، فلم ينبس أحد منهم ببنت شفة آنذاك . وطبيعى أن السارق حينما يؤخذ بجريمته ، لن يعامل معاملة حسنة ، بيد أن يوسف كان على رأس الفئة الذين قاموا بتفتيش الرحال ، والذين أخرجوا الصواع من رحل بنيامين . . فلم يترك بنيامين للإهانة . . وفى الوقت نفسه لقد كان أعوان يوسف ، هم الذين نفذوا فكرة إخفاء الصواع فى رحل بنيامين ، إذن فهم يعلمون جيدًا أن بنيامين ليس سارقًا .

لقد كان لسان حال الجميع ، استبعاد كون بنيامين يسرق . . بيد أنهم رأوا بأعينهم رجال يوسف الصديق ، حينما استخرجوا الصواع من رحل بنيامين ، وبرغم هذا ، فهم فى شك مما رأوا . . لا يكادون يصدقون أعينهم .

تحير أبناء يعقوب أمام هذا الموقف

....

صَارُوا حَيَارَى ، إنّهم بِالْغَيْبِ لَيْسُوا عَالمين ٨٢
هُم فِى تَحَيُّرِهم ويُوسُفُ فِى سُرُور ، لا يُبين ٨٣
إذْ أنّ يُوسُفَ كَانَ مَحْزُونًا لعَشْرَاتِ السّنِين ٨٤
وبَقَاءُ بنيَامين سَوفَ يُبَدّدُ الحُزْنَ الدّفِين ٨٥
أخَوَان كَانَا مُبعَدَيْن ، فأصبحا متقاربين ٨٦
ربّ السَّماء هُوَ القَدِيرُ ، لِيَجْمَع المتَفَرّقين ٨٧

بعد لحظات من وقوع هذا الحدث الجلل ، الذى اعتبر بنيامين بسببه سارقًا . . صار أبناء يعقوب فى حيرة من أمرهم . . لم يدر بخلد أحدهم أن أخاهم بنيامين ، ربما يكون سارقًا يوما ما، وتحت أى ظرف من الظروف. وبينما كان أبناء يعقوب فى حيرتهم ، التى شلت تفكيرهم، وقضت على آمالهم التى كانوا يحلمون بها، ألا وهى عودتهم سالمين غانمين لأهليهم، لقد كانوا قبيل وقوع هذا الحدث، يهنئون أنفسهم، لأنهم سيعودون لأبيهم، ومعهم الميرة ، وفى الوقت نفسه أوفوا بعهدهم لأبيهم ، فحافظوا على أخيهم بنيامين ، وقد عاد معهم !! بيد أن هذا الحدث حطم آمالهم ، فصاروا ذاهلين من هول المفاجأة .

أقول: بينما هم كانوا فى حيرتهم، يفكرون فى المصيبة التى وقعت بهم، كان يوسف الصديق فى الوقت نفسه ، سعيدًا مسرورًا . . بيد أنه كان سرورًا مكتومًا فى أعماقه . . ولا غرو فلا بأس أن يشعر يوسف بشىء من السعادة والسرور ، فكفاه مالاقاه من آلام وأحزان فيما مضى، ولا بأس إن يشعر إخوته بشىء من الألم والحزن . . فطالما سُروا وسعدوا بتنفيذ خططهم الإجرامية .

إن استبقاء بنيامين، هو جزء من خطة كبيرة، سوف تتبدى شيئًا فشيئًا ، كل شىء فى حينه. يالله!! يوسف وبنيامين أخوان لأب وأم، لقد ضربت الأيام ضربتها، ففرقت بينهما لعشرات السنين ، ثم أراد الله لهما باللقاء بعد الفراق . . وإذا أراد الله أمرًا أمضاه .

وقد يجمع الله الشتيتين بعدما يظنان كل الظن ألا تلاقيا

الحلقة التاسعة

أبناء يعقوب يؤيدون تهمة السرقة على بنيامين فيقولون :

إن يسرق فقد سرق أخ له من قبل

يحاولون استبدال بنيامين بواحد منهم ، ويوسف

يرفض

عودتهم خائبين بغير بنيامين

الآيات القرآنية التى صيغ منها شعر الحلقة التاسعة

﴿ قَالُوا إِن يَسْرِقْ فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَّهُ مِن قَبْلُ فَأَسَرَّهَا يُوسُفُ فِي نَفْسِهِ وَلَمْ يُبْدِهَا لَهُمْ قَالَ أَنتُمْ شَرٌّ مَّكَانًا وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَصِفُونَ ﴿٧٧﴾ قَالُوا يَا أَيُّهَا الْعَزِيزُ إِنَّ لَهُ أَبًا شَيْخًا كَبِيرًا فَخُذْ أَحَدَنَا مَكَانَهُ إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ ﴿٧٨﴾ قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ أَن نَّأْخُذَ إِلَّا مَن وَجَدْنَا مَتَاعَنَا عِندَهُ إِنَّا إِذًا لَّظَالِمُونَ ﴿٧٩﴾ فَلَمَّا اسْتَيْأَسُوا مِنْهُ خَلَصُوا نَجِيًّا قَالَ كَبِيرُهُمْ أَلَمْ تَعْلَمُوا أَنَّ أَبَاكُمْ قَدْ أَخَذَ عَلَيْكُم مَّوْثِقًا مِّنَ اللَّهِ وَمِن قَبْلُ مَا فَرَّطتُمْ فِي يُوسُفَ فَلَنْ أَبْرَحَ الْأَرْضَ حَتَّىٰ يَأْذَنَ لِي أَبِي أَوْ يَحْكُمَ اللَّهُ لِي وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ ﴿٨٠﴾ ارْجِعُوا إِلَىٰ أَبِيكُمْ فَقُولُوا يَا أَبَانَا إِنَّ ابْنَكَ سَرَقَ وَمَا شَهِدْنَا إِلَّا بِمَا عَلِمْنَا وَمَا كُنَّا لِلْغَيْبِ حَافِظِينَ ﴿٨١﴾ وَاسْأَلِ الْقَرْيَةَ الَّتِي كُنَّا فِيهَا وَالْعِيرَ الَّتِي أَقْبَلْنَا فِيهَا وَإِنَّا لَصَادِقُونَ ﴿٨٢﴾ ﴾ .

أشعار الحلقة التاسعة

إخْوَانُ يُوسُفَ مَعَه كَانُوا فِى حُوارِ سَاخِطِين ١
قَدْ سَاءَهُم هَذَا الذى صَاروا بِه مُتَخَاذِلين ٢
إذ سِيقَ بِنْيَامين ، قَدْ أَخَذُوه أخْذَ المجْرِمين ٣
فَتَجَمَّعُوا وتَشَاوَرُوا فِى أمْرِهِم مُتَهَامِسين ٤
مِن بَعْدِ ذَاك الهَمْسِ ، قَدْ هَتَفُوا جَمِيعًا قَائِلين ٥
هَذا الغُلام لَه أخٌ مِن قَبْل ضمن السّارِقين ٦
لَمْ يَرْحَمُوا الصّدّيق حَتّى بَعْدَ عَشَرَات السّنين ٧
وَصَفُوهُ وَصْفاً ظَالماً ، لاَ لَمْ يكُونُوا صَادِقِين ٨
فَأَسَرَّها فِى نَفْسِه مِنْهم ، فكَانُوا كاذِبين ٩
لكنّه مَا كَان يَرْضَى ذَلكَ الوَصْفَ المهِين ١٠
فَأَجَابَهم فِى نَفْسه ، يابئْس قَوْل المفْتَرِين ١١
لاَ خَيْر فِيكم إذْ وَصَفْتُم غائِباً فى الخَائِنين ١٢
أبناءُ يَعقُوبٍ غدَوا فى حَسْرة مُتَأَسّفين ١٣
وَتَذَكّرُوا عَهداً علَيْهِم، أقْسَمُوا مُتَضَامِنِين ١٤
قَدْ أقْسَمُوا لأَبِيهِمُ قَسَمَ الرّجَال المدْرِكين ١٥
أنْ يَحْفَظُوا هَذَا الغُلام، وَلَن يكُونُوا مُهْمِلين ١٦
ولسَوْفَ يَحْزَن شَيْخُهم إذْ مَا يَعُودُوا خَائِبين ١٧
ويُجَدّد الأحْزَانَ بَعَد خُمُودِها ، هَذَا يقين ١٨
قَالُوا لِيُوسُف: أيّها الصّدّيق ! يا ابْنَ الأكْرَمين! ١٩
هَذا الغُلام لَه أبٌ بين الشُّيوخ الطّاعنين ٢٠
يَبكِى لأَجل فِرَاقه ، بلْ لاَ يكُفّ عَنِ الأنين ٢١
إنَ لم يَعْد مَعَنا الغُلامُ ، فَلَنَ نكُونَ المفْلحين ٢٢
وَأَبُوهُ سُوفَ يُجَدّد الأحْزَان ، واللَّوْم المهين ٢٣
خُذْ واحداً منّا بديلاً عنه ، لَسْنَا هَازِلين ٢٤
إنّا نَراكَ وقَدْ عَلِمْنا منْك فِعْل المحْسِنين ٢٥

كَانَت إجَابَةُ يُوسُفَ لِلإخْوَةَ المُتَرَدِّدِين ٢٦
قَولاً حكيمًا حَازِمًا ، يَحْكِي فِعَال العَادلين ٢٧
لا نَأْخُذَنّ الأَبرياءَ ونَتْرُكَنّ الفَاعِلين ٢٨
لا نأْخذَنّ سوَى الذى قدْ قَارفَ الفعْل المشين ٢٩
إذ مَا أَخذْنَا غَيْرهُ صِرنَا بِحَقّ ظَالمين ٣٠
لمْ يَستَجِبْ لرَجَائهم ، مِنْ ثَم صَارُوا نادمين ٣١
فَتَشَاوَرُوا فى أمْرِهِم ، قَدْ أصبَحوا مُتَحَيّرين ٣٢
بَل قَالَ أكبَرُهم : فَلاَ تَنْسَوْا وكُونُوا ذَاكرين ٣٣
العَهْد قَدْ أَعْطَيْتُمُوه إلى أبيكُم مُوثِقين ٣٤
أن تَحفَظُوا هَذَا الغُلام مِن الأذى مُتَضَامِنين ٣٥
لكنّه يَا حَسْرةً ، قَد ضَاع ضَيْعَة ضَائعين ٣٦
مِن قَبْلِه قَدْ ضَاع يُوسُفُ كان وضّاء الجَبين ٣٧
قَدْ ضَاع مِن حقْدِ عليه ، فَبِئس فِعلُ الحَاقِدين ٣٨
عُودُوا فإنّى لَن أَعُودَ إلى أبى فِى العَائِدين ٣٩
لا أستَطيعُ بأن أراهُ ، فَقَد غدَوْنا كاذبين ٤٠
بَل سَوْفَ أبْقَى هاهُنا ، أخْشَى مِنَ اللَّوْم المهِين ٤١
إن يَرْضَ عَنى الشّيخُ جِئت إليه جيئَةَ آسفين ٤٢
أو إن يَشَأْ رِبى بِأمْرٍ ، فَهوَ ربّ العَالمين ٤٣
هو مَالكُ الأسْبَاب والأقْدار فى دُنيا وَدِين ٤٤
إن يُعْطنى أمْرًا بحَرْب القَوْم ، لا ، لنْ أستكِين ٤٥
السَّيْفُ أحمِلُه لحكْم اللّهِ ، خَيْرِ الحَاكمين ٤٦
عُودُوا إلى الشّيخ الكَبِير فأخْبِروُه مُؤَكّدين ٤٧
قُولُوا له : سَرَقَ الغُلام ، فَبِئْسَ فِعل السارقين ٤٨
أَخذُوه فِى ذَنْبِ جنَاه ، فَصَار فِى سِجْنٍ رَهين ٤٩
قَدْ تَم هَذَا جَهْرَةً والنّاس كانُوا شَاهِدين ٥٠
إنّا لَعَمْرُ اللّه مَا كُنّا لِلغَيْب حَافِظِين ٥١
عَادُوا بِغَيْر أخِيهمُو ، لا شَك عَادوا خَائِبين ٥٢

واسْتَقْبَل الشيْخُ الكَبِيرُ بَنِيه كَانُوا غَائِبين ٥٣
فَوْرًا تَسَاءل قَائًا : فَلْتُخْبِرُونِى صَادِقين ! ٥٤
مَالِى أَراكُم قَدْ أَتيتُم لَم تكُونُوا كَامِلين ؟! ٥٥
أينَ الغُلام أخُوكُمو ؟! قَالُوا وكَانُوا آسِفِين ٥٦
قَالُوا لَه : فَاسْمَع مَقَالَتْنَا سَمَاع الموقنين ٥٧
تَاللّه قَدْ سَرَقَ الغُلامُ ، ولَمْ نكُن مُتَوقِعين ٥٨
أخَذُوه فِى جُرم جَنَاهُ ، ونَحْن كُنّا شَاهِدين ٥٩
لم نَسْتَطِع أنْ نَفْتَدِيه بِكُلّ غَالٍ أو ثَمين ٦٠
قُلْنَا لَهُم : فَلْتَأخُذُوا مِنا سِواهُ مُبَادِلين ٦١
قَالُوا : فَلسْنا آخِذِين سِوَى الغَرِيمِ المسْتَهِين ٦٢
تَاللّه قَد كَانوا بحَق مُنْصفِين وعَادلين ٦٣
إن لَمْ تُصدّقْ مَا نقول وكُنْت فى شَك مُبين ! ٦٤
فَاسأل بِمصرْ هُناك كَيْما تَعْرِف الخَبَر اليَقين ٦٥
وسأل رِجَالاً رَافَقُونا ، فِى المسِيرة قَادِمين ٦٦

أبناء يعقوب يؤيدون التهمة على بنيامين

﴿ قَالُوا إِن يَسْرِقْ فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَّهُ مِن قَبْلُ ﴾

إِخْوَانُ يُوسُفَ مَعَـــــه كَانُوا فِى حُوارٍ سَاخِطِين ١
قَدْ سَاءَهُم هَذَا الـــذى صَارُواْ بـــه مُتَخَاذِلـــين ٢
إذ سِيــقَ بِنْيامـــين ، قَدْ أَخَذُوه أخْذ المجْرِمـــين ٣
فَتَجَمَّعـــــــــواْ وتَشَاوَرواْ فِى أَمْرِهِم مُتَهَامِسِين ٤
مِن بَعْد ذَاك الـــهَمْسِ ، قَدْ هَتَفُوا جَمِيــعًا قَائِلـــين ٥
هَذا الـــغُلام لَه أخٌ مِن قَبْل ضِمـــن الـــسَّارِقـــين ٦

أبناء يعـقوب فى حوار مع يوسـف الصديق عليه السلام ، إنهم يستنكـرون تلك الواقعة المؤسفة ، وفى الوقت نفسه ، يبدون أسفهم لما حدث ، لقد شعروا بالاستهانة والتخاذل فى أعمـاقهم ، بل شـعروا بضآلة أقـدارهم ، بعد أن كانـوا أعزة مكرمـين ، وذلك لما أنزلهم العزيز منزلاً كريما ، فيه توقيـر وتكريم واحترام . لقد أُخِذَ أخوهم بنيامين ، كما يؤخذ المجرم الآثم ، ولا غرو ، فأمـر بنيامين لا شفاعة فيه ، الجريمة ثـابتة ضده ، لقد وجدوا الصواع المسروق مخبوءًا فى رحله ، وقـد أخرجوه علنًا أمام الجميع . وأمام هذا الموقف العصيب ، الذى فوجئ به أبناء يعقوب ، رأوا أن يتشاوروا فى الأمر ، ليتخذوا قرارًا يواجهون به هذا الموقف .فتنحوا جانبًا وتـهامسوا ، ولم يطل همسهم وحديثهم ، لقد ارتضوا أمرًا خطـيرًا ، ترى ما هو ؟! لقد هتف قائلهم بعـد التشاور قائلاً : إن كان هذا الغلام قد سرق ، فليس هذا جديدًا ولا غـريبًا ، لقد كان أخوه من قبله سارقًا !!! لقد طعنوا أخاهم هذا الذى اختارته الأقدار ، ليكون كبش الفداء ، فبدلاً من أن يدافعوا عنه ، أيدوا التهمة التى نسبت إليه . . وفى الوقت نفسه ، نالوا من يوسف ، وألصقوا به تهـمة هو منها بـراء . . إنهم لم يرحمـوا يوسف ، حتى بـعد السنين الطـويلة ، إن ضميرهم لم يستيقظ بعد ، ولم يؤنبهم بشأن أخيهم يوسف ، على ما فعلوه به !!

لقد أسقط فى يد أبـناء يعقوب ، وأمسكت التهمة بهم ، ووقـع أخوهم لأبيهم فى شباكها ، وإذ لم يكـن لهم ما يقولون فى دفع التهمـة ، إزاء هذا الواقع الصريح ، إلا

أنهم لكى يقولوا شيئًا ما يعذرون به لأنفسهم فى هذا الموقف، ألقوا بالتهمة بعيدًا عنهم، وعزلوا أنفسهم عن الصلة الجامعة بينهم وبين أخيهم، فهذا السارق ليس أخًا شقيقًا لهم، وأنه من طينة غير طينتهم، فإنه وإن كان ابن أبيهم يعقوب، فإن أمه ليست أمهم، ثم لكى يدعموا هذا القول ويؤكدوه، جعلوا لابنى يعقوب من تلك الأم سابقة فى السرقة .. إلى أن قالوا : ﴿ إِن يَسْرِقْ فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَّهُ مِن قَبْلُ ﴾ (١) .

---

(١) القصص القرآنى .

يوسف يؤلمه وصف إخوته له بالسرقة

﴿فَأَسَرَّهَا يُوسُفُ فِي نَفْسِهِ وَلَمْ يُبْدِهَا لَهُمْ قَالَ أَنتُمْ شَرٌّ مَّكَانًا وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَصِفُونَ ﴿٧٧﴾﴾

لمْ يَرْحَمُوا الصّدّيق حتّى بَعْدَ عَشَراتِ السّنين ٧
وَصَفُوهُ وَصفاً ظَالماً ،لاَ لَمْ يكونُوا صادقِين ٨
فَأَسَرَّها فِى نَفْسه مِنْهم ، فكَانُوا كاذِبين ٩
لكنّه مَا كَان يَرْضَى ذَلكَ الوَصْفَ المهِين ١٠
فَأَجَابَهم فِى نَفْسه ،يابئْس قَوْل المفْتَرِين ١١
لاَ خَيْر فِيكم إذْ وَصَفْتُم غائَباً فِى الخَائِنين ١٢

يالله !! إن الحقد الذى فى أعماق أبناء يعقوب ، على أخيهم يوسف الصديق ، لم تمحه الأيام ، وبعده عنهم عشرات السنين . . لم يتأثروا أيضًا بحزن أبيهم على يوسف ، بل زادتهم الأيام قسوة . . لقد قست قلوبهم ، وتبلدت مشاعرهم .

لا غرو أن هذا السلوك من أبناء يعقوب تجاه أخيهم يوسف، يعتبر عداءً وعدوانًا ، ولم لا ؟ !فإن جريمتهم فى حق يوسف ، برغم مرور عشرات السنين ، فإنهم لم يندموا على فعلها ، بل إنهم أضافوا إليها افتراء جديدًا ، ألا وهو - السرقة - وهذه صفة لا تطلق إلا على أسفل الطبقات من البشر .وهم فى الوقت نفسه ، قد تبرأوا من أُخُوَّتهم لبنيامين،وهو أحوج ما يكون إلى كلمة دفاع عنه فى لحظة استخراج الصواع من رحله .

لقد تألم يوسف فى أعماقه ، حينما سمع قولهم الظالم فى حقه ، لقد كان يظن أن الأعوام الطويلة قد أذهبت ما فى قلوبهم من حقد عليه ، لا لذنب جناه ، بل لأن أباه أحبه ، ومن ثم فهم يشعرون ، ويتمنون لو أنهم لم يفعلوا ذاك الفعل . . بيد أنه تبين فيهم غير ما يظن .فى هذا المقام شعر يوسف بالأسى والمرارة ، لكنه كظم غيظه ، ولم يرد على بهتانهم وكذبهم ؛ لأنه لو ردّ عليهم مدافعًا عن نفسه ،لانكشف أمره وعرفوه، **﴿ فَأَسَرَّهَا يُوسُفُ فِي نَفْسِهِ وَلَمْ يُبْدِهَا لَهُمْ ﴾** فهو لم يقرر بعد أن يظهر حقيقة أمره لهم،فمن ثم منع نفسه من الرد على إخوته ، وهم يطعنون فى أعز ما يملك ، ويصفونه بأخس الصفات - السرقة - **﴿ قَالَ أَنتُمْ شَرٌّ مَّكَانًا وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَصِفُونَ ﴾** .

هذه الجملة ، قالها يوسف فى نفسه ،لم يقلها لإخوته بلسانه ، بل ربما قال أيضًا :

لا خير فيكم أيها الإخوة ، كنت أظن أنكم قد ندمتم على ما فعلتم معى ، وأنكم تتمنون رؤيتى شوقًا ؛ لكونى أخاكم وابن أبيكم ، بيد أننى تبينت من قولكم الذى سمعته ، أن نار الحقد والبغضاء ، لم تنطفئ جذوتها من قلوبكم ، بل زادتها الأيام والأعوام تأججًا . ولو أننى عاملتكم من جنس عملكم ، لانتقمت منكم لنفسى ، وفى الوقت نفسه لم أكن معتديًا ولا ظالمًا ، وإنما بمنطق الحق والعدل ؛ لقوله تعالى : ﴿ **وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِ** ﴾ [النحل : ١٢٦] .

أبناء يعقوب فى حوار مع بعضهم

....

أبـنــــاءُ يَعــقُوبِ غَدَوا فِى حَسْرةٍ مُتَأسِّفـــين ١٣
وَتَذَكّرُوا عَهـــداً عَـلـــيْهِم،أقْسَمُوا مُتَضَامِنِين ١٤
قَدْ أقسَمُوا لأَبِيــهِمُ قَســمَ الـرِّجَالِ المـدْركـين ١٥
أنْ يَحْفَظُوا هَذَا الـغُلام،ولَـن يـكُونُـوا مُهْملِـين ١٦
ولـــسَوْفَ يَحزَن شَيْخُهـم إذْ مَا يَعُودُوا خَائبـــين ١٧
ويُجَدّد الأَحْزَانَ بَعَد خُمُودِهـــا ،هَذَا يـــقـــين ١٨

لقد وجد أبناء يعقوب أنفسهم ، فى موقف لم يكونوا مهيئين له ، فمن ثم ألجمتهم الدهشة عن التـعبير المناسب فى هذا المقـام الخطير . . لقد قالوا قولا يخـلو من الحكمة والفطنة أيضًا،قد يكونون هكذا ،مع إحسان الظن بهم. .وقد يكونون سيّئى النية، ذلك لأنهم بدلاً من أن يدافعوا عن أخيهم ، بالمنطق والحجة ليبرئوه من التهمة القذرة ، التى ألصقت به. . انقلبوا ضده ، فأيّدوا الاتهام ، وياليتهم اكتفوا بتأييد الاتهام ، بل أضافوا من عندهم فرية جديدة ، تؤكـد وتدعم هذا الاتهام فقالوا : ﴿ **إِن يَسْرِقْ فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَّهُ مِن قَبْلُ** ﴾ .لقد خذلوا أخاهم فى موقف كان ينتظر منهم أن ينصروه، ذلك لأنه أخوهم، وهم أعلم الناس بسلوكه وأخلاقه. .ولا غرو،فهم كلهم أبناء يعقوب،نبى الله ابن اسحاق نبى الله،ابن إبراهيم خليل الله. إن سلسلة إبراهيم خليل الله،وذريته كانت معروفة لدى المصريين فـى مصر . . لقد كان يكفـى منهم أن يذكروا نسـبهم للمصريين ، لـدفع تلك التهمة عـن أخيهم . . لكن ما شاء اللـه كان ، وما لم يشأ لم يكن. لما أفاقوا من هول المفاجـأة، كان أول شىء تذكروه ، هو عـهدهم الذى أخذوه علـى أنفسهم ، وقسـمهم الذى أقسموه أمام أبيهم، أن يحفظوا أخاهم بنيامين من كل سوء ، ولن يعودوا بدونه ، مهما كانت الأسباب ، إلا أن يكونوا مغلوبين ، فمن ثم لا حول لهم ولا قوة .

لقد تصوروا ما سوف يكون حال أبيهم معهم ، من حيث التأنيب العنيف ، واللوم المر ، من ناحية ، وأحزانه التى سوف تتضاعف على ولده بنيامين ، من ناحية أخرى . إن أحزان يعـقوب على ولـده يوسف ، ربما تكـون قد خمدت نوعـا ما ، لكن تـخلف بنيامين فى مصر عند يوسف ، سوف يجددها ، ويؤجج نارها ، ويشعل أوارها .

يطلبون من العزيز أن يأخذ واحدًا منهم بديلا عن بنيامين

﴿ قَالُوا يَا أَيُّهَا الْعَزِيزُ إِنَّ لَهُ أَبًا شَيْخًا كَبِيرًا فَخُذْ أَحَدَنَا مَكَانَهُ إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ (٧٨) ﴾

قَالُوا لِيُوسُفَ: أيّهـا الـصّديق ! يـابْنَ الأكْرَمـين! ١٩
هَذا الـغُلام لَه أبٌ بـين الـشُّيوخ الـطّاعـنـين ٢٠
يَبـكِى لأجـل فِراَقه ،بـلْ لاَ يكُفّ عَنِ الأنـين ٢١
إنَ لـم يَعْد مَعَنا الـغُلامُ ،فَلـنَ نـكُونَ المفْلحـين ٢٢
وَأبُوهُ سُوفَ يُجَدّد الأحْزَان ، والـلَّوْم المـهـين ٢٣
خُذْ واحـدًا مـنّا بـديـلاً عـنـه ، لَسْنَا هَازِلـين ٢٤
إنّا نَراكَ وقَدْ عَلِمْنـا مـنْك فِعْل المحْسِنـين ٢٥

بعد الحوار الذى تمخض عن خذلان أبناء يعقوب، لأخيهم بنيامين، رأوا أن يستدركوا هذا الموقـف المخزى الذى وقفـوه ،فطلبوا مـن العزيز ـ يوسـف الصديق ـ طـلبًا ، هم يعرفون سلفًا أنه مـرفوض ، وذلك بحكم المنطق والعقل والـقانون فيقولون :**﴿ ... يَا أَيُّهَا الْعَزِيزُ إِنَّ لَهُ أَبًا شَيْخًا كَبِيرًا فَخُذْ أَحَدَنَا مَكَانَهُ إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ (٧٨) ﴾** .

يقولون : إن أباه شـيخ كبير ، يحبه حبًا لا مزيـد عليه ، وبالتالى فلـن يحتمل أن يغيب عنه، فلو أننا عدنا إليه، ولم يكن ولده هذا معنا، فسوف تتجدد أحزانه ، ولن يكف عن البكاء والأنين ليل نهار، وحينئذ سوف يصب جام غضبه علينا . والواقع أن القوانين والشرائع لا تعترف بالعواطف ، التى تربط بـين الآباء والأبناء ، ولو أننا بحثنا حالة كل إنسان يرتكب جرما ما ، فسوف نجد أن أباه يحبه ، ولا يرضى ببعده عنه، هذا مع اعتبار بنيامين مجرمًا جدلاً . . إذن فطلبهم هذا مرفوض عقلاً ومنطقًا . ويقول أيضًا : **﴿ فَخُذْ أَحَدَنَا مَكَانَهُ ﴾** هم يعلـمون أيضًا ، أنه ما من حاكـم يرضى أن يترك المجرم الحـقيقى ، ليأخذ بديلاً عنه ، إذ فـى هذه الحالة يستطيع المجرمون الحقيقيـون أن يجيئوا بمن يرضى بالسجن نيابة عنهم ، وفى هذا فساد حال المجتمع . . هذا العرض من أبناء يعقوب ، لا إخالهم يجهلون أنه مرفوض أيضًا بحكم الـقانون ، ثم يختتمون سؤالهم قائلين : **﴿ إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ (٧٨) ﴾** ولو أجابهم لما طلبوه منه ، ما كان محسنًا .

وإذ يرى أبناء يعقوب ، أنهم بحيث لا تعلق بهم تهمة السرقة ؛ لأن الذى سرق ليس أخًا شقيقًا لهم ، وأن نظرة العزيز إليهم غير النظرة التى ينظر بها إلى أخيهم هذا ، إنهم إذ يرون هذا ، يجيئون إلى العزيز متلطفين مستعطفين بضعف أبيهم وشيخوخته ، وما يكون لوقع الخبر عليه بأن ابنه قد سرق، وأخذ بما سرق: ﴿ قَالُوا يَا أَيُّهَا الْعَزِيزُ ... ﴾ إلخ فهذا من شأنه أن يخفف كثيرًا من الآم الشيخ الكبير، إذا أطلق سراح هذا الابن ، وحل محله واحد منا ، فإنك أيها العزيز ، محسن كريم ، لا تبخل علينا بإجابة هذا الطلب الذى فيه إحسان إلى أب شيخ هرم [1] .

(١) القصص القرآنى .

يوسف يرفض البديل عن بنيامين

﴿ قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ أَن نَّأْخُذَ إِلاَّ مَن وَجَدْنَا مَتَاعَنَا عِندَهُ إِنَّا إِذًا لَّظَالِمُونَ (٧٩) ﴾

كَانَت إجَابَةُ يُوسُفَ لِلإخْوَةَ المُتَرَدِّدِين ٢٦
قَولاً حَكِيمًا حَازِمًا ، يَحْكِي فِعَالَ العَادِلين ٢٧
لا نَأْخُذَنَّ الأَبرِياءَ ونَتْرُكَنَّ الفَاعِلين ٢٨
لا نأْخذَنَّ سوَى الذى قدْ قَارفَ الفعْلَ المَشين ٢٩
إذ مَا أَخَذْنَا غَيْرهُ صِرنَا بِحَقّ ظَالمين ٣٠
لَمْ يَسْتَجِبْ لرَجَائهم ، مِنْ ثَم صَارُوا نادِمين ٣١

يوسف الصديق يتعامل مع إخوته ، بكل جفاء وقسوة - فى ظاهر الأمر - لا سيما بعد أن وجد الصواع فى رحل أخيه بنيامين ، وبعد أن قالوا قولتهم الظالمة : **﴿ إِن يَسْرِقْ فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَّهُ مِن قَبْلُ ... ﴾**. إنه يحاول أن يقسو عليه، فمن ثَم صار يتحدث إليهم، على كونهم إخوة لإنسان مجرم قد ارتكب جريمة السرقة .. فلما طلبوا منه أن يأخذ واحدًا منهم مكانه ، سخر من أفهامهم، وأعطاهم درسًا فى القانون والعدالة معناه : أن لا تزر وازرة وزر أخرى. لقد رفض يوسف الصديق ، عرض إخوته الذى عرضوه ، بكل حزم وقوة فقال : **﴿ مَعَاذَ اللَّهِ أَن نَّأْخُذَ إِلاَّ مَن وَجَدْنَا مَتَاعَنَا عِندَهُ إِنَّا إِذًا لَّظَالِمُون (٧٩) ﴾** . إن يوسف يستعيذ بالله من الظلم ، ومن كل شىء يؤدى إلى الظلم ، ولا غرو فقد عانى من ألوان الظلم منذ طفولته .

قال الأستاذ عبد الكريم الخطيب (١): « لقد استنكر يوسف هذا الطلب من إخوته ، واستعاذ بالله منه .. فإنه ليس من الإحسان فى شىء ، أن يأخذ البرىء بجريرة المذنب ، ثم لماذا لم يطلب أبناء يعقوب ، إلى العزيز أن يكون إحسانه ، بإطلاق سراح أخيهم تفضلاً منه وكرمًا ؟!

إنهم لم يفعلوا هذا لأن فى ذلك تعطيلاً لحد من حدود الله ، فالسارق لا بد أن يعاقب ، وأن يقتص منه ، ليكون ذلك ردعًا له عن معاودة السرقة ، وعبرة لغيره ، من أن تدعوه نفسه إلى السرقة ، ولهذا طلبوا القصاص منه فى شخص واحد منهم » .

---

(١) القصص القرآنى .

قال الأستاذ أحمد بهجت [١] : بدأوا استرحام يوسف . . يوسف أيها العزيز يوسف أيها الملك ، إن له أبا شيخًا . . فخذ أحدنا مكانه إنا نراك من المحسنين ، قال يوسف بهدوء: كيف تريدون أن نترك من وجدنا كأس الملك عنده ؟! ونأخذ إنسانًا آخر ؟ هذا ظلم ، ونحن لا نظلم .

حاول الإخوة أن يستمروا فى استرحامه ، ولكن الضباط والجنود أفهموهم أن عزيز مصر . . يوسف الصديق ، قد تكلم ، وانتهى الأمر ، لينصرفوا ويتركوا أخاهم عبدًا عنده . . » .

(١) أنبياء الله .

لقد تأكدوا من رفض عرضهم على العزيز

﴿ فَلَمَّا اسْتَيْأَسُوا مِنْهُ خَلَصُوا نَجِيًّا قَالَ كَبِيرُهُمْ أَلَمْ تَعْلَمُوا أَنَّ أَبَاكُمْ قَدْ أَخَذَ عَلَيْكُم مَّوْثِقًا مِّنَ اللَّهِ ﴾ .

فَتَشَاوَرُوا فى أَمْرِهِم ، قَدْ أَصْبَحوا مُتَحَيّرين ٣٢
بَل قَالَ أَكْبَرُهم : فَلاَ تَنْسَوْا وكُونُوا ذَاكرين ٣٣
العَهْد قَدْ أَعْطَيْتُمُوه إلى أبيكُم مُوثِقين ٣٤
أن تَحْفَظُوا هَذَا الغُلام مِن الأذى مُتَضَامنين ٣٥
لكنّه يَا حَسْرةً ، قَد ضَاع ضَيْعَة ضَائعين ٣٦

﴿ فَلَمَّا اسْتَيْأَسُوا مِنْهُ خَلَصُوا نَجِيًّا ﴾ : لما رفض يوسف الصديق عليه السلام رجاء إخوته ، مع عرضهم الذى عرضوه، وذلك بأسلوب حضارى وعلمى ومنطقى . . استيأسوا منه . أن لا أمل فى استخلاص بنيامين من قبضة عزيز مصر . لقد أُخِذ بجريمته التى ارتكبها . تحيروا فى أمرهم ، لا يدرون ماذا يصنعون ! ضاع الرأى منهم ، أرتج عليهم ، فذلك أمر لم يحسبوا حسابه، فمن ثم تنادوا ، ثم انتحوا جانبًا ، وأخذوا يتناجون فيما بينهم ، ليتخذوا قرارهم فى هذا المأزق الذى وجدوا أنفسهم فيه ، والذى طرأ على تفكيرهم وأفكارهم، ولم يكونوا قد هيأوا أنفسهم لمواجهته . قال أكبرهم سنًا: ماذا أنتم صانعون ؟! لقد أعطيتم أباكم عهدًا وميثاقًا ، وأقسمتم أمامه بأغلظ الإيمان ، أن تحفظوا بنيامين من كل سوء قد يصيبه ، ما دمتم تقدرون على منعه ، وها هوذا قد ضاع من بين أيدينا . . وها نحن أولاء نقف مكتوفى الأيدى عاجزين ، لا نستطيع أن نفعل لأجله شيئًا .

قال الأستاذ عبد الكريم الخطيب [(١)] : وإذ رأى أبناء يعقوب ، أن العزيز لم يستجب لما طلبوا ، بعد أن جاءوا إليه من كل سبيل من سبل الرجاء والاستعطاف ، ووقع اليأس فى نفوسهم، من أن العزيز لن يطلق سراح أخيهم، إذا رأوا هذا، خلوا بأنفسهم، فى مكان بعيد عن أعين الناس وآذانهم . . وجعلوا يقلبون الأمر على وجوهه المختلفة ، ﴿ فَلَمَّا اسْتَيْأَسُوا مِنْهُ خَلَصُوا نَجِيًّا ﴾ أى حين استيأسوا من خلاص أخيهم ، أداروا الحديث بينهم

(١) القصص القرآنى .

فى عزلة منقطعة عن الناس .

قال ابن كثير فى تفسيره : يخبر الله تعالى عن إخوة يوسف : أنهم لما يئسوا من تخليص أخيهم بنيامين، الذى قد التزموا لأبيهم برده إليه، وعاهدوه على ذلك ، فامتنع ذلك ﴿ **خَلَصُوا** ﴾ أى انفردوا عن الناس ﴿ **نَجِيًّا** ﴾ يتناجون فيما بينهم ﴿ **قَالَ كَبِيرُهُم** ﴾ ، وهو روبيل ، قيل : يهوذا ، وهو الذى أشار عليهم بإلقائه فى البئر عندما هموا بقتله ، قال : لهم : ﴿ **أَلَمْ تَعْلَمُوا أَنَّ أَبَاكُمْ قَدْ أَخَذَ عَلَيْكُم مَّوْثِقًا مِّنَ اللَّهِ** ﴾ لتردنه إليه . . » .

أخوهم الأكبر ... يرفض العودة معهم

﴿ وَمِن قَبْلُ مَا فَرَّطتُمْ فِي يُوسُفَ فَلَنْ أَبْرَحَ الأَرْضَ حَتَّىٰ يَأْذَنَ لِي أَبِي ﴾

من قَبْلِــه قَدْ ضَاع يُوسُفُ كـــان وضّاء الجَبـــين ٣٧
قَدْ ضَاع مِن حقْد عَلَيـه ، فَبِئس فِعْلُ الحَاقِديـــن ٣٨
عُودُوا فـإنّى لَن أَعُودَ إلـــى أبـى فِى الـــعَائِديـن ٣٩
لا أستَطِيـــعُ بـأن أراهُ ، فَقَد غَدَوْنـــا كـاذبـــين ٤٠
بَل سَوْفَ أبْقَى هاهُنـا ، أخْشى مِنَ اللَّوْم المــهين ٤١
إن يَرْضَ عَنـى الشّيـخُ جِئت إلـيه جِيئَةَ آسفـين ٤٢

لا يزال أكبر أبـناء يعقوب ، يتـحدث إلى إخوته حديثًا مـشفوعًا باللوم الـعنيف ، مذكرًا إياهـم جريمتهم القـديمة فى حق أخيهم يـوسف .. يوسف الذى كان مـثلاً أعلى لنبل الأخلاق ، وجمال الـصورة . لقد أضعتم يوسف من قبل .. أضعـتموه بحقدكم وعدائكم ، وهو لم يكـن من قبل قد ارتكب جرمًا يستحق لأجـله هذا منكم : **﴿ وَمِن قَبْلُ مَا فَرَّطتُمْ فِي يُوسُفَ فَلَنْ أَبْرَحَ الأَرْضَ حَتَّىٰ يَأْذَنَ لِي أَبِي ﴾** . وها أنتم اليوم قد فرطتم فى أخيه بنيامين، وهو مثل أخيه حلمًا وأخلاقًا . عودوا إلى أبيكم ، فإنى لن أعود معكم ، فلـيس لى وجـه أواجه به أبـى .. لن أغادر أرض مصـر ، سوف أبقـى ها هنـا ، فى الأرض التى ظل فيه بنيامين سجينًا ، بل عبدًا رقيقًا . لن أعود إلى أبى إلا إذا أذن لى ، إن يأذن لى بالرجوع إليه ، راضيًا عنى ، رجعت ، وإلا فلا .

قال الأستاذ عبد الكريم الخطيب : **﴿ وَمِن قَبْلُ مَا فَرَّطتُمْ فِي يُوسُفَ فَلَنْ أَبْرَحَ الأَرْضَ حَتَّىٰ يَأْذَنَ لِي أَبِي ﴾** . هذا هو رأى كبيـرهم ، وصاحب الرأى فيهم ، وذلـك هو توقعه من هذا الحدث الذى طرقهم ، إنه لن يبـرح الأرض التى هو فيها ، وهى أرض مصر ، ولن يلقى أباه إلا إذا دعاه إليه ، صافحًا عنه القصص القرآنى .

قال الشيخ محمد على الصـابونى فى « مع أعلام المفسرين » : **﴿وَمِن قَبْلُ مَا فَرَّطتُمْ فِي يُوسُفَ فَلَنْ أَبْرَحَ الأَرْضَ حَتَّىٰ يَأْذَنَ لِي أَبِي ﴾** . أى قال أكبرهم سـنًا: وهو « روبيل » أليس قد أعطيتم أباكم عهدًا وثيقًا برد أخيكم ، **﴿ وَمِن قَبْلُ مَا فَرَّطتُمْ فِي يُوسُفَ ﴾** فكيف ترجعون إليه الآن **﴿ فَلَنْ أَبْرَحَ الأَرْضَ حَتَّىٰ يَأْذَنَ لِي أَبِي ﴾**: أى فلن أفـارق أرض مصر ، حتى يسمح لى أبى بالخروج منها .

كبير أبناء يعقوب ينتظر حكم الله

﴿ أَوْ يَحْكُمَ اللَّهُ لِي وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ (٨٠) ﴾

أو إن يَشأ ربـي بـأمرٍ ، فَهـوَ ربّ الـعَالمـين	٤٣
هـو مَالكُ الأسبَاب والأقدار فـي دُنيـا ودِيـن	٤٤
إن يُعْطنى أمرًا بـحَرْب القَوْم ، لا ، لـنْ أستَكين	٤٥
السَّيفُ أحْمِلُه لحـكْم الـلّه ، خَيْر الحَاكـمين	٤٦

لا زال كبير أبناء يعقوب ، يتحدث إلى إخوته ، وقد واجههم بالحقيقة المرة التى قد تناسوها . . هى الجريمة التى ارتكبوها ، فى حق يوسف ، وقد أعلن أمامهم أنه لن يعود إلى أبيه ، لأنه يستحيى من مواجهته . . ثم أردف قائلاً : ﴿ أَوْ يَحْكُمَ اللَّهُ لِي وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ ﴾ . فيقول : أو لعل اللـه عز وجل يهيئ سببًا من الأسباب ، يكون فيـه خلاص أخى بنيامين ، من عزيـز مصر ، الذى أخذه بـجريمة الصواع الـذى وجده فى رحله . ولا غـرو ، فهو سبحانه وتعالى ، قادر على كل شىء ، وهـو مسبب الأسباب ، هذا من ناحية . . ومن ناحية أخرى ، فلعله يأمرنى بقتال هؤلاء القـوم ، لتخليص أخى من قبضتهم . . وتالله لو أمرنى ، فلن أجبن ، ولن أضعف ، ولسوف أقاتل ، وأقاتل حتى يقضى الله أمره .

قال القرطبى فى تفسيره : ﴿ أَوْ يَحْكُمَ اللَّهُ لِي ﴾ بالمر (١) مع أخى ، فأمـضى معه إلى أبى ، وقيل : المعنى ، أو يحكم الله لى بالسيف ، فأحارب وآخذ أخى ، أو أعجز فانصرف بعذر ، وذلـك أن يعقوب قال : ﴿ لَتَأْتُنَّنِي بِهِ إِلاَّ أَن يُحَاطَ بِكُمْ ﴾ ، ومن حارب وعجز فقد أحيط به .

قال الأستاذ عبد الكـريم الخطيب : « فبأى وجه بعد هذا يلقـى كبيرهم أباه ، وهو قائد الركب ، والمسئول عن سلامة كل عضو فيه ؟!

إنه لن يـبرح الأرض ، ولن يغادر مـكانه حتى يأذن لـه أبوه ، أو تغلبـه إرادة الله الغالبة » القصص القرآنى .

(١) هكذا فى الأصل ـ بالمرّ ـ ولعلها ـ بالبقاء أو الاستمرار .

﴿ أَوْ يَحْكُمَ اللَّهُ لِي ﴾ أو يقضى الله لى بالخروج منها ، أو بخلاص أخى منهم ، أو بالمقاتلة معهم لتخليصه . . روى أنهم كلموا العزيز فى إطلاقه ، فقال روبيل : أيها الملك ،والله لتتركنا (١) أو لأصيحن صيحة تضع منها الحوامل ،ووقفت شعور جسده ، فخرجت من ثيابه ، فقال يوسف ﷺ لأحد أولاده : قم إلى جنبه فمسه ، وكان بنو يعقوب ﷺ إذا غضب أحدهم،فمسه الآخر ، ذهب غضبه . فقال روبيل : من هذا ، إن فى هذا البلد لبذراً من بذر يعقوب . تفسير البيضاوى .

(١) هكذا فى الأصل . . ولعلها : لتتركنه ، أى بنيامين .

يوصى إخوته بما يقولونه لأبيهم

﴿ ارْجِعُوا إِلَىٰ أَبِيكُمْ فَقُولُوا يَا أَبَانَا إِنَّ ابْنَكَ سَرَقَ وَمَا شَهِدْنَا إِلاَّ بِمَا عَلِمْنَا وَمَا كُنَّا لِلْغَيْبِ حَافِظِينَ (٨١) ﴾ .

عُودُوا إلى الشّيخ الكَبِير فَأَخْبِرُوهُ مُؤَكدّين ٤٧
قُولُوا له : سَرَقَ الغُلام ، فَبِئْسَ فِعْل السارقين ٤٨
قَدْ تَم هَذَا جَهْرَةً والنّاس كانُوا شَاهِدِين ٤٩
أَخَذُوه فِى ذَنْبِ جَنَاه ، فَصَار فِى سجْنٍ رَهين ٥٠
إنّا لَعَمْرُ اللّه مَا كُنّا لغَيْب حَافِظِين ٥١

ها نحن أولاء لا نزال نسمع كبير أبناء يعقوب ، يتحدث لإخوته حديثا ممزوجًا باللوم والتأنيب فيقول : فهذه هى المرة الثانية التى نرزأ فيها أبانا . . المرة الأولى كانت فى يوسف ، وقد كان ذلك بتدبيركم المجنون الحقود ، وكنت أنا المسئول أمام أبى الذى كان يثق بى ، واضطررت آنذاك أن أؤيد أكذوبتكم التى مازال أبونا فى شك من صحتها وهى مقولة: ﴿ أَكَلَهُ الذِّئْبُ ﴾. ومع ذلك فإننى مضطر أن أسير معكم إلى نهاية المشوار . . فقال : ﴿ ارْجِعُوا إِلَىٰ أَبِيكُمْ فَقُولُوا يَا أَبَانَا إِنَّ ابْنَكَ سَرَقَ ﴾ . ثم يردف قائلاً : على كل حال ، فالموقف فى هذه المرة بشأن بنيامين ، غيره فى شأن يوسف ؛ لأن شأن يوسف كان جريمة مدبرة،اتفقتم على خطوطها وتفاصيلها قبل تنفيذها .أما أمر بنيامين ، ففى ظاهر الأمر ، لا غبار عليكم ، وإن كان من الممكن أن تتغير صورة الموقف ، لو أوليتم هذا الأمر اهتمامكم.قولوا لأبيكم:إن بنيامين سرق. . وقد ضبط متلبسًا بجريمته؛ لقد أخرجوا الشىء المسروق من متاعه ، أمام جميع الناس . . وقد كنا شاهدين ، نرى بأعيننا ، الحدث الذى أخزانا وجعلنا نطأ طئ رءوسنا أمام العزيز . لذلك . . فقد أخذوه بجريمته،وما كنا نستطيع أن ندفع عنه،أو نفعل لأجله شيئًا ،ذلك لأننا كنا أكثر الناس تحاملاً على السارق ، قبل أن نعرف من هو ؟! وقبل أن نتبين أنه واحد منا !!

﴿ وَمَا شَهِدْنَا إِلاَّ بِمَا عَلِمْنَا وَمَا كُنَّا لِلْغَيْبِ حَافِظِينَ ﴾ . هذه هى الحقيقة يا أبانا، نذكرها لك كما وقعت ، لم نخطئ منها كلمة واحدة ، ولقد كان هذا الأمر بعيدًا عن تصورنا ، وعن دائرة تفكيرنا ، فنحن لا نعلم ، ولا نتصور أن بنيامين قد يرتكب جريمة السرقة التى شاهدناها بأعيننا .

أبناء يعقوب يعودون بغير بنيامين

....

عَادُوا بِغَيْر أَخِيهِمُو ، لا شَكَّ عَادُوا خَائِبِين ٥٢
واسْتَقْبَل الشَّيخُ الكَبِيرُ بَنِيه كَانُوا غَائِبِين ٥٣
فَوْرًا تَسَاءل قَائِلاً : فَلْتُخْبِرُونِي صَادِقِين ! ٥٤
مَالِى أَراكُم قَدْ أَتَيْتُم لَم تكُونُوا كَامِلِين ؟! ٥٥
أَينَ الغُلام أخُوكُمُو ؟! قَالُوا وكَانُوا آسِفِين ٥٦

لقد عاد أبناء يعقوب بالخيبة والخزى . . لقد كانت الظروف أقوى من إرادتهم ، لقد تركوا أخاهم بنيامين ، عند عزيز مصر رقيقًا لكونه ارتكب جناية السرقة . . وقد ظل أخوهم الأكبر روبيل ، ظل فى مصر خجلاً ، أو خوفًا من لوم وتأنيب أبيه يعقوب . وصلوا الديار المصرية: ديار آل يعقوب ، مقر إقامتهم ، وكان الأسف باديًا على وجوههم ، ويكسو محياهم . . كل واحد منهم يتحاشى النظر فى وجه أبيه . بيد أنهم لا مفرّ لهم من المواجهة ، ولا بد لهم من ذكر الحقيقة المرة للشيخ ، ليعذرهم فى موقفهم ، ولا يشدد اللوم عليهم .

لم يغب عن يعقوب عليه السلام حالة بنيه عند وصولهم ؛ لأن حرارة الاشتياق فى قلب الشيخ ، ليست هى كذلك عند بنيه القادمين من السفر ، بعد غيبة طالت ، وطال انتظار الشيخ لقدومهم .وبعد لحظات ، أجال الشيخ نظره فى بنيه يتفقدهم ، وقد كان يحس أن شيئا ما يخفونه عنه . . لقد قرأ هذا المعنى على وجوههم . . لكنه لم يجد صعوبة فى معرفة ما كانوا يخفونه عنه ،فهتف قائلاً: ما لى أراكم واجمين ؟! هل هناك شيء تخفونه عنى ؟! ثم إنى لا أرى بنيامين معكم ، فأين هو ؟؟! هل تأخر عن القافلة لأمر ما ؟! أم حدث له مكروه ؟! أجيبونى بصدق عن هذا السؤال . أجيبونى ، لعلكم أضعتموه كما أضعتم أخاه يوسف من قبل ، لقد كنت أحس وأتوقع هذا من أعماق نفسى . . ثم قال بعد أن هدأ قليلاً : يا بنى ، لقد وطنت نفسى على استقبال المكاره ، وذلك لكى لا يذهب عقلى ، عندما تفاجئنى النكبات .

تعليق : كيف أجال الشيخ نظره فى بنيه يتفقدهم ، وهو كما قيل قد عمى من حزنه على يوسف ، وقوله تعالى : ﴿ وَابْيَضَّتْ عَيْنَاهُ مِنَ الْحُزْنِ فَهُوَ كَظِيمٌ ﴾ ؟!

قلت : قال الفخر الرازى فى قوله تعالى : ﴿ وَابْيَضَّتْ عَيْنَاهُ مِنَ الْحُزْنِ ﴾ وفيه وجهان :

الوجه الأول : أنه لما قال : ﴿ يَا أَسَفَىٰ عَلَىٰ يُوسُفَ ﴾ غلبه البكاء ، وعند غلبة البكاء يكثر الماء فى العين فتصير العين كأنها ابيضت ، من بياض ذلك الماء .

وقوله تعالى : ﴿ وَابْيَضَّتْ عَيْنَاهُ مِنَ الْحُزْنِ ﴾ كناية عن غلبة البكاء . والدليل على صحة هذا القول : أن تأثير الحزن فى غلبة البكاء ، لا فى حصول العمى ، فلو حملنا الابيضاض على غلبة البكاء ، كان هذا التعليل حسنًا ، ولو حملناه على العمى ، لم يحسن هذا التعليل ، فكان ما ذكرناه أولى .

وهذا التفسير مع الدليل ، رواه الواحدى فى البسيط عن ابن عباس رضي الله عنهما .

الوجه الثانى : أن المراد هو العمى ، قال مقاتل : لم يبصر بهما ست سنين ، حتى كشف الله تعالى عنه بقميص يوسف عليه السلام ، وهو قوله تعالى : ﴿ اذْهَبُوا بِقَمِيصِي هَٰذَا فَأَلْقُوهُ عَلَىٰ وَجْهِ أَبِي يَأْتِ بَصِيرًا ﴾ .

قيل : إن جبريل عليه السلام ، دخل على يوسف حينما كان فى السجن ، فقال : إن بصر أبيك ذهب من الحزن عليك ، فوضع يده على رأسه وقال : ليت أمى لم تلدنى ولم أك . . حزنًا على أبى،والقائلون بهذا التأويل قالوا :الحزن الدائم يوجب العمى ؛ لأنه يورث كدورة فى سوداء العين . ومنهم من قال : ما عمى لكنه صار بحيث يدرك إدراكًا ضعيفًا .

يقولون لأبيهم : ابنك سرق

....

قَالُوا لَه : فَاسْمَع مَقَالَتَنا سَمَاعَ الموقنين ٥٧
تَالَلَّه قَدْ سَرَقَ الغُلامُ ، ولَمْ نكُن مُتَوقِعين ٥٨
أخَذُوه فِى جُرم جَنَاهُ ، ونَحْن كُنّا شَاهِدين ٥٩
لم نَسْتَطِع أنْ نَفْتَدِيه بِكُلّ غَالٍ أو ثَمِين ٦٠
قُلْنَا لَهُم : فَلْتَأخُذُوا مِنا سِواهُ مُبَادِلين ٦١
قَالُوا : فَلَسْنا آخِذِين سِوَى الغَرِيمِ المسْتَهِين ٦٢

لقد انتهى نبىّ الله يعقوب من تساؤله لأبنائه العائدين ، من السفر البعيد ، بعد غيبة طالت .. سألهم عن أخيهم بنيامين ، وذلك بعد أن استقبلهم وصافحهم ، ولما لم ير ولده بنيامين معهم ، سألهم عنه !وطال صمتهم فى الإجابة عن سؤاله .. ثم تشجعوا، فقال قائلهم : يا أبانا .. ! إننا فى أشد الأسف لما حدث .. بيد أننا سنفضى لك بالحقيقة كاملة ، وإن كانت فيها شىء من الغرابة التى لم تخطر على بال . إلا أنه أمر قد وقع ، وقد كان ما كان ، ولا حول ولا قوة إلا بالله .. ! أتدرى يا أبانا ماذا حدث ؟! لقد سرق بنيامين !! وهذا لعمر الله ما كنا لنصدقه ، لو أن أحدًا ذكره لنا .. بنيامين الصغير ، ذو الخلق الحسن ، سلالة يعقوب نبى الله ، ابن إسحاق نبى الله ، ابن إبراهيم خليل الله ، أيكون سارقًا ؟! هذا شىء لم نكن نتوقعه ، ولا حتى فى الخيال ، أو فى أضغاث الأحلام ..!! وقد أُخِذَ بجريمته على رءوس الأشهاد ، أخذوه كما يؤخذ المجرم الآثم ، وكيف لا ؟! فقد استخرجوا صواع الملك من رحله ، ونحن كنا ننظر بأعيننا .والذى آلمنا كثيرًا ، أننا لم نستطع أن نصنع لأجله شيئًا ، لقد رجونا عزيز مصر ، بكل أساليب الرجاء ، فلم يستجب لنا ، عرضنا عليه أن يأخذ واحدًا منا بديلاً عنه ، فأبى وقال : لن تأخذ إلا الذى وجدنا متاعنا عنده .. وكيف نأخذ البرىء ونترك المذنب ؟! وهذا لعمر الله هو العدل بعينه ، فليس من العدل فى شىء أن يؤخذ إنسان بجريمة غيره ولو كان ذلك كذلك لفسد حال الناس .

يؤكدون صدقهم لأبيهم

﴿ وَاسْأَلِ الْقَرْيَةَ الَّتِي كُنَّا فِيهَا وَالْعِيرَ الَّتِي أَقْبَلْنَا فِيهَا وَإِنَّا لَصَادِقُونَ (٨٢) ﴾

تَالــلّه قَد كَانــوا بــحَق مُنْصِفين وعَادلــين ٦٣
إن لَمْ تُصــدّقْ مَا نـقول وكُنْت فـى شَك مُبـين ! ٦٤
فَاسـأل بِمِصرْ هُنـاك كَيْمــا تَعْرِف الخَبَر اليَقـين ٦٥
واسْأل رِجَالاً رَافقُونــا ، فِى المسيِــرة قَادِمــين ٦٦

يواصل أبناء يعقوب حـديثهم لأبيهم ، جوابًا عن سؤاله لهم ، عن أخـيهم بنيامين الذى ظل فى مصر . . لدى عزيز مصر ، مأخوذا بجريمته التى نسبت إليه ، وقصوا على أبيهم ما حدث هـنالك لبنيامين تفصيـلا . ثم أردفوا قائلين : تالله لقـد كان عزيز مصر عادلاً منصفًا ، يقيم الحق ، ويحكم بالعدل ! لقد أبى أن يأخذ أحدنا مكان بنيامين !!

وإن كنت يا أبانا تشك فى قولنا هذا ، ولم تصدقه ، فتستطيع أن ترسل رسولاً إلى مصر ،فيسأل هنالك عن صحة هذا الخبر. وإن لم يتيسر لك التوصل لسؤال أهل مصر ، لبعد المسافة ، ومشقـة الرحلة ، فاسأل أهل القافلة التى قدمنا فـيها،والذين رافقونا فى مسيرة العودة من مصـر إلى الشام فهم ليسوا غرباء ، بل هم من أهـل تلك البلاد . إننا نحكى لك هذا الذى حدث ، وكلنا أسف على عـدم استطاعتنا الوفاء بوعدنا لك ، بأن نعيـد بنيامين معـنا . .فالذى حدث كان أبـعد من تقديرنـا ، وفوق مدار تفكيـرنا ، وفى الوقت نفسه ، نؤكد لك ، أننا صادقون فى كل كلمة ذكرناها لك ، فى هذه القصة .

قال ابن كثير فى تفسيره : **﴿ وَاسْأَلِ الْقَرْيَةَ الَّتِي كُنَّا فِيهَا وَالْعِيرَ الَّتِي أَقْبَلْنَا فِيهَا وَإِنَّا لَصَادِقُونَ ﴾** قيل : المراد مصر ، قال قتادة ، وقيل : غيرها. **﴿ وَالْعِيرَ الَّتِي أَقْبَلْنَا فِيهَا ﴾** أى التى رافقناها ، عن صدقنا وحفظنا وحراستنا **﴿ وَإِنَّا لَصَادِقُونَ ﴾** فيما أخبرناك به ، من أنه سرق ، وأخذ بسرقته .

قال البيضاوى فـى تفسيره :**﴿ وَاسْأَلِ الْقَرْيَةَ الَّتِي كُنَّا فِيهَا ﴾** يعنون مصر،أو قرية بقربها ، لحقهم المنادى فيها ، والمعـنى أرسل إلى أهلها ، واسألهم عن القصة **﴿ وَالْعِيرَ الَّتِي أَقْبَلْنَا فِيهَا ﴾** وأصحاب العير التى توجهنا فيهم ، وكنا معهم ، **﴿ وَإِنَّا لَصَادِقُونَ ﴾** تأكيد فى محل القسم » .

الحلقة العاشرة

يعقوب ينفى عن ولده بنيامين تهمة السرقة

ويتذكر يوسف .. وابيضت عيناه من الحزن

يلومونه على ذكر يوسف

يحثهم على البحث عن يوسف فى مصر

يوسف يكشف عن نفسه لأخوته

يعطيهم قميصه ليلقوه على وجه أبيه

الآيات القرآنية التى صيغ منها شعر الحلقة العاشرة

﴿قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا فَصَبْرٌ جَمِيلٌ عَسَى اللَّهُ أَن يَأْتِيَنِي بِهِمْ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ (٨٣) وَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ يَا أَسَفَىٰ عَلَىٰ يُوسُفَ وَابْيَضَّتْ عَيْنَاهُ مِنَ الْحُزْنِ فَهُوَ كَظِيمٌ (٨٤) قَالُوا تَاللَّهِ تَفْتَأُ تَذْكُرُ يُوسُفَ حَتَّىٰ تَكُونَ حَرَضًا أَوْ تَكُونَ مِنَ الْهَالِكِينَ (٨٥) قَالَ إِنَّمَا أَشْكُو بَثِّي وَحُزْنِي إِلَى اللَّهِ وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ (٨٦) يَا بَنِيَّ اذْهَبُوا فَتَحَسَّسُوا مِن يُوسُفَ وَأَخِيهِ وَلَا تَيْأَسُوا مِن رَّوْحِ اللَّهِ إِنَّهُ لَا يَيْأَسُ مِن رَّوْحِ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ (٨٧) فَلَمَّا دَخَلُوا عَلَيْهِ قَالُوا يَا أَيُّهَا الْعَزِيزُ مَسَّنَا وَأَهْلَنَا الضُّرُّ وَجِئْنَا بِبِضَاعَةٍ مُّزْجَاةٍ فَأَوْفِ لَنَا الْكَيْلَ وَتَصَدَّقْ عَلَيْنَا إِنَّ اللَّهَ يَجْزِي الْمُتَصَدِّقِينَ (٨٨) قَالَ هَلْ عَلِمْتُم مَّا فَعَلْتُم بِيُوسُفَ وَأَخِيهِ إِذْ أَنتُمْ جَاهِلُونَ (٨٩) قَالُوا أَإِنَّكَ لَأَنتَ يُوسُفُ قَالَ أَنَا يُوسُفُ وَهَٰذَا أَخِي قَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا إِنَّهُ مَن يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ (٩٠) قَالُوا تَاللَّهِ لَقَدْ آثَرَكَ اللَّهُ عَلَيْنَا وَإِن كُنَّا لَخَاطِئِينَ (٩١) قَالَ لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ يَغْفِرُ اللَّهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ (٩٢) اذْهَبُوا بِقَمِيصِي هَٰذَا فَأَلْقُوهُ عَلَىٰ وَجْهِ أَبِي يَأْتِ بَصِيرًا وَأْتُونِي بِأَهْلِكُمْ أَجْمَعِينَ (٩٣)﴾ .

أشعار الحلقة العاشرة

يعقوبُ يسمعُ من بنيه لقصة الخبرِ الحزين ١
أن ابنَه سرقَ الصَّواعَ ، فَسِيقَ مثل السَّارقين ٢
لكنَّه لم يرضَ منهُم ذلك القولَ المهِين ٣
بل قالَ: أنتم تكذبونَ ولم تكُونوا صادقِين ٤
أنتمْ تآمرتُم عليهِ ، وذاك فعلُ المجرِمين ٥
من قبلِ هذا ضاعَ يوسفُ، كان وضَّاءَ الجَبين ٦
واحسْرتاهُ عليهِ ،إن الحزنَ فاضَ مع الحنِين ٧
صبرٌ جميلٌ عَلَّ ربى، أن يردَّ الغائبِين ٨
هو قادرٌ، هو عالمٌ، هو خالقٌ للعَالَمين ٩
الشيخ أعرضَ عن بنيه، وقال من حزنٍ دَفين ١٠
إنى لأشعرُ بالأسَى، وفُجِعْتُ فى ثانِى البنين ١١
الحزنُ فى أعماقِه قد فاقَ وصفَ الواصِفين ١٢
وسوادُ عينيهِ اختفَى، إذ لا يَرى كالمبصِرين ١٣
قد صارَ أعمَى لا يكفُّ عن البكاءِ ولا الأنِين ١٤
أبناؤه قالوا: فصبراً ،لا تكنْ فى الجازِعين ١٥
تاللهِ إنك فى عدادِ الأنبياءِ المرسَلين ١٦
هل لا تزالُ لاسمِ يوسفَ ذاكراً لا تستكِين ؟! ١٧
فلتنسَ هذا يا أبانا ، بعدَ عشراتِ السنِين ١٨
فلتنسَهُ، أو سوفَ تغدُو فى عدادِ الهَالكِين ١٩
الشيخُ قال لهُم: فكفُّوا، لا تكونوا لائمِين ٢٠
للهِ أشكُو ما ألاقِى من همومِ الغَائبين ٢١
فلتسمعُونى يابَنِىَّ ، فلا تكونوا جَاهلين ٢٢
إنى علَى علمٍ يفوقُ علومكُم متجَمِّعين ٢٣
لكننى لازلتُ أوصِيكم، فكونوا سامِعين ٢٤

تلك الوصيةُ أن تعودُوا نحوَ مصرَ مبادرين ٢٥
وهناكَ فى مصرَ العَزيزة فلتكُونوا باحثين ٢٦
فلتبحثُوا فى مصرَ بحثَ الصادقين المخلصين ٢٧
فلتبحثُوا عن يوسف وأخيه بحث الصادقين ٢٨
لازالَ يوسف ملءَ قلبى، لم يمتْ هذا يقين ٢٩
لا ينبغى أن تيأسُوا من رَوْح ربٍّ العَالمين ٣٠
اليأسُ كُفرٌ لا تكُونوا فى عداد الكافرين ٣١
ولتجعَلوا الآمالَ ملءَ قلوبكُم كالمؤمنين ٣٢
فلتذهبُوا تلقاءَ مصرِ موطنِ المتحضّرين ٣٣
أرضِ الحضارة والسيادة منذُ آلاف السنين ٣٤
الشرقُ يرنُو نحوَها، كالطفلِ للصدرِ الحَنُون ٣٥
دخلوا على الصِّديق بعد وصُولِهم متردِّدين ٣٦
قالُوا له: فاسمعْ مقالتَنا سماعَ الموقنين ٣٧
قد مسَّنا ضرٌّ ومسَّ الأهلَ، لسنَا كاذبين ٣٨
وبضاعةٌ جئنا بها من أرضنا كالجَالبين ٣٩
لكنْ لأجلِ الكيلِ جئنَا، لم نَجئْ متطفِّلين ٤٠
إنا سنعطى نقدَ ما نكتالُه كالآخرين ٤١
فلتُوفنا كيلاً، وأحسنْ شيمةَ المتصدقين ٤٢
إن الجزاءَ من الإله، وسوفَ يجزى المحسنين ٤٣
لكنَّ يوسفَ كانَ فى أعماقه شىءٌ دفين ٤٤
ينوى مواجهةً لإخوته، بأسلوبٍ مُبين ٤٥
كى يجمعَ الشملَ الشتيتَ بُعَيْدَ تفريقٍ مهين ٤٦
من ثَم بادرهُم فقالَ لهم مقالَ المستبين ٤٧
هل تذكرونَ بأنكُم قارفتُمُ الفعلَ المشين؟! ٤٨
مع يوسف وأخيه إذ كنتُم بحقٍّ جاهلين ٤٩
سمعُوا مقالتَه فصاروا دون شكّ ذاهلين ٥٠
نظروا إليه، فبادَروه جميعُهم متسائلين ٥١

هل أنت يوسفُ؟! فلتُجبْ بالصدقِ والقولِ الأمين٥٢
تاللهِ قد كنا نشكُّ،ولم نكنْ متيقنين ٥٣
فأجابهُم،أنا يوسفٌ من آلِ بيتِ المرسَلين ٥٤
هذا أخي أيضاً،لقد تمَّ اللقاءُ على اليقين ٥٥
الله منَّ على الشتاتِ فجمَّع المتفرِّقين ٥٦
مَنْ كانَ ذا صبرٍ وتقوى فهْو بين الفائزين ٥٧
وجزاؤه عند الإله،يكونُ أجرَ المحسنين ٥٨
إخوانُ يوسفَ مسَّهُم شيءٌ من الحزنِ المهين ٥٩
لكنهُم قد بادَروه بلهجةِ المتنَدمين ٦٠
قالوا:لقد فُضِّلْتَ حقاً من إلهِ العالمين ٦١
ها نحنُ بؤْنا بالندامة،في عِداد الخاطئين ٦٢
لكنَّ يوسفَ لم يدعْ إخوانَه متحيِّرين ٦٣
بل قال فوراً: قد عفوت فلا تكونوا آسفين ٦٤
إني على هذا قديرٌ،لا أحبُّ الناقمين ! ٦٥
اللهُ يغفرُ كل ذنبٍ ، من ذنوبِ التَّائبين ٦٦
ذاكُم إلهُ العرشِ ، رحمَانٌ وخيرُ الراحمِين ٦٧
هاكُم قميصِي فاذهبوا للآلِ فوراً مسْرِعين ٦٨
ولتطرحُوه على أبي،يصبحْ بصيراً عن يقين ٦٩
هاتوا جميعَ الأهلِ ، ولتأتوا إلينَا قادمين ٧٠
حتى يعودَ الشملُ حقاً،بعد عشراتِ السنِين ٧١

يعقوب لم يصدق ما قالوه عن بنيامين

﴿ قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا ﴾

يعقوبُ يسمعُ من بنيهِ لقصةِ الخبرِ الحزين ١
أن ابنَه سرقَ الصَّواعَ ، فسيقَ مثلَ السَّارقين ٢
لكنَّه لم يرضَ منهُم ذلك القولَ المهين ٣
بل قالَ: أنتم تكذبونَ ولم تكُونوا صادِقين ٤
أنتمْ تآمرتُم عليهِ ، وذاك فعلُ المجرِمين ٥

لقد استمع يعقوب عليه السلام، من بنيه أسوأ خبر. . لقد كان وقع هذا الخبر على قلب يعقوب كوقع الصاعقة، ولم لا؟!إنها فاجعةجديدة وأحزان وآلام، إن بنيامين يعتبر أحب أبناء يعقوب إليه، بعد غياب يوسف، يوسف الذى لم تنسه الأيام، ولا طول الأعوام ذكره. ولا غرو فالفاجعة الجديدة التى أصابت يعقوب عليه السلام، فى ولده بنيامين ،لم تكن فى تخلفه فى مصر فحسب، بل فى كونها مرتبطة بجريمة قذرة. . هى جريمة السرقة التى ألصقت به بتدبير محكم. . !! يالله!! أيسرق بنيامين؟! هذا أمر لم يكن فينا آل البيت مطلقاً. . لا ولن يكون فينا أيضا مستقبلاً. . لماذا يحدث هذا؟! هل انقلبت موازين الفضيلة فينا آل البيت؟! أيكون الأمين خائنا؟! أيكون التقى فاسقاً؟!لا، لا يمكن أن يحدث هذا، إن ابنى بنيامين ،لم يسرق، ولن يكون سارقاً يوما ما. . ولا أشك فى أنكم تكذبون عليه. . إن هذا الذى ذكرتموه، ما هو إلا شىء من نضح نفوسكم المريضة.

ـ قال ابن كثير فى تفسيره: « قال لهم حين جاءوا على قميص يوسف بدم كذب: ﴿ **بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا فَصَبْرٌ جَمِيلٌ** ﴾ قال محمد بن إسحاق: لما جاءوا يعقوب، وأخبروه بما جرى، اتهمهم، وظن أنها كفعلتهم بيوسف قال: ﴿ **بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا فَصَبْرٌ جَمِيلٌ** ﴾ ».

وقال بعض الناس: لما كان صنيعهم هذا مرتباً على فعلهم الأول، سحب حكم الأول عليه. . وصح قوله: ﴿ **بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا فَصَبْرٌ جَمِيلٌ** ﴾.

ـ قال الشيخ الصابونى فى « صفوة التفاسير » : ﴿ **بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا** ﴾ أى زينت وسهلت لكم أنفسكم أمراً. وميكدة فنفذتموها، اتهمهم بالتآمر على « بنيامين » كما سبق فى أمر يوسف.

يعقوب يواسى نفسه بالصبر

﴿فَصَبْرٌ جَمِيلٌ عَسَى اللَّهُ أَن يَأْتِيَنِي بِهِمْ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ (٨٣)﴾

من قبلِ هذا ضاعَ يوسفُ، كان وضَّاءَ الجَبين ٦
واحسْرتاهُ عليهِ ، إن الحزنَ فاضَ مع الحنِين ٧
صبرٌ جميلٌ علَّ ربى، أن يردَّ الغائبِين ٨
هو قادرٌ، هو عالمٌ، هو خالقٌ للعالَمين ٩

يواصل نبى الله يعقوب عليه السلام، حديثه إلى بنيه، فبعد أن نفى عن ولده بنيامين تلك الفرية القذرة - جريمة السرقة - لم يخنه حلمه ، بل لم يقترب اليأس من نفسه، برغم شدة حزنه، من ثم هتف قائلاً: **﴿فَصَبْرٌ جَمِيلٌ عَسَى اللَّهُ أَن يَأْتِيَنِي بِهِمْ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ﴾**. وهذا دليل على أن يعقوب عليه السلام، برغم مرور عشرات الأعوام، على غياب ولده يوسف عنه، فإنه لم يفقد الأمل فى وجوده، وأنه لا يزال يأمل فى اللقاء به. وهكذا يكون حال المؤمنين حينما تدهمهم المصائب دائما. . فإنهم يتجملون بالصبر، يتسلون به عن مصابهم. . ولا غرو فالصبر نصف الإيمان. . والمؤمنون أشد بلوى. ولقد سئل محمد صلى الله عليه وسلم، أى الناس أشد بلوى ؟! قال: الأنبياء، ثم الأمثل فالأمثل، يبتلى الناس على قدر دينهم، فمن ثخن دينه اشتد بلاؤه ، ومن ضعف دينه، ضعف بلاؤه، وإن الرجل ليصيبه البلاء حتى يمشى على وجه الأرض ما عليه من خطيئة . رواه ابن حبان فى صحيحه.

قال ابن كثير فى تفسيره: **﴿عَسَى اللَّهُ أَن يَأْتِيَنِي بِهِمْ جَمِيعًا﴾**. ثم ترجى من الله أن يرد عليه أولاده الثلاثة: يوسف وأخاه بنيامين ، وروبيل الذى أقام بديار مصر، ينتظر أمر الله فيه، إما أن يرضى عنه أبوه، فيأمره بالرجوع إليه، وإما أن يأخذ أخاه خفية. . ولهذا قال: **﴿عَسَى اللَّهُ أَن يَأْتِيَنِي بِهِمْ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ﴾** أى العليم بحالى **﴿الْحَكِيمُ﴾** فى أفعاله وقضائه وقدره.

وفى القصص القرآنى قال الأستاذ عبدالكريم الخطيب: « ثم لا يجد يعقوب إلا الصبر على هذا المكروه ، والاستسلام لأمر الله ، والرجاء فى رحمته وإحسانه، **﴿فَصَبْرٌ جَمِيلٌ عَسَى اللَّهُ أَن يَأْتِيَنِي بِهِمْ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ﴾** ذلك ظنه بربه ، ورجاؤه فى فضله وإحسانه، وإذن فهو صابر لحكم الله ، مترقب لما وراء هذا الصبر من فرج، إذ لابد من وراء الصبر الجميل من جزاء طيب، وبشريات مسعدة».

لقد ابيضت عينا يعقوب

﴿وَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ يَا أَسَفَىٰ عَلَىٰ يُوسُفَ وَابْيَضَّتْ عَيْنَاهُ مِنَ الْحُزْنِ فَهُوَ كَظِيمٌ ﴿٨٤﴾﴾

الشيخ أعرضَ عن بنيه، وقال من حزنٍ دَفين ١٠
إنى لأشعرُ بالأسَى، وفُجِعْتُ فى ثانى البنين ١١
الحزنُ فى أعماقه قد فاقَ وصفَ الواصفين ١٢
وسوادُ عينيه اختفَى، إذ لا يَرى كالمبصرين ١٣
قد صارَ أعمَى لا يكفُّ عن البكاءِ ولا الأنين ١٤

لقد هاجت الآلام بنبى الله يعقوب عليه السلام، وكان يتحدث إلى بنيه، ينفى عن ولده بنيامين تهمة السرقة التى ألصقت به، ثم أخذ بها كما يؤخذ المجرمون. وبينما هو يتحدث إليهم، إذ به يشعر بضعف قد اعتراه، من هول ما قد أصابه، من شدة وقع الخبر على نفسه.. فيعرض عنهم فيوليهم ظهره، لماذا؟! لعله يخفى دموعاً قد انهمرت فجأة، فلم يشأ أن يراه أبناؤه ضعيفاً.. منهاراً، وكأنى به يريد أن يخفى ما يعتمل فى أعماقه.. ولا غرو فالآلام فى أعماقه كانت هادئة نوعاً ما من حزنه على يوسف، فجاءت أخبار بنيامين، فأججت النار بعد خمودها، لقد كان بنيامين هو سلوة أبيه، بعد غياب يوسف. والآن لقد غاب الثانى، فمن ثم كانت الفاجعة فوق احتمال الشيخ، الذى أنهكته الأحزان، فلم يتمالك أن هتف قائلاً: ﴿يَا أَسَفَىٰ عَلَىٰ يُوسُفَ﴾. وحينئذ شعر كأن سحابة حجبت رؤية عينيه، فهو لا يكاد يبصر ما حوله إلا قليلاً، «وابيضت عيناه من الحزن فهو كظيم».

- قال ابن كثير فى تفسيره: «﴿وَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ يَا أَسَفَىٰ عَلَىٰ يُوسُفَ﴾ أى أعرض عن بنيه وقال متذكراً حزن يوسف القديم الأول، جدد له حزن الابنين، الحزن الدفين قال عبدالرازق، عن سعيد بن جبير إنه قال: لم يعط أحد غير هذه الأمة، الاسترجاع، ألا تسمعون إلى قول يعقوب عليه السلام: ﴿يَا أَسَفَىٰ عَلَىٰ يُوسُفَ وَابْيَضَّتْ عَيْنَاهُ مِنَ الْحُزْنِ فَهُوَ كَظِيمٌ﴾ أى ساكت لا يبدى ولا يشكو أمره إلى مخلوق».

- قال الأستاذ أحمد بهجت فى «أنبياء الله»: انكفأ يعقوب عائداً إلى غرفته، لم يكد يستدير ويمضى حتى خرجت من قلبه مرتعشة، ترتجف بالحب، وامتلأت عيناه بالدموع كبيرة، راحت تزيد حزنه اشتعالاً، بدلاً من تسكينه وإطفائه.. وذلك بعد أن تولى عن أبنائه وقال: ﴿يَا أَسَفَىٰ عَلَىٰ يُوسُفَ﴾ أسلمه البكاء الطويل إلى فقد بصره، أو ما يشبه فقد بصره.

أهناك من يقول: كان نبياً ويبكي هذا البكاء؟! أليس البكاء لونا من ألوان اليأس؟! ونقول رداً على هذا: إن الأنبياء هم أعظم الناس إحساساً بالمشاعر، وأعمقهم تأثراً، وأشدهم استجابة للمؤثرات.. والبكاء درجة من درجات الحب ولون من ألوان الشكوى إلى الله.

أبناء يعقوب يلومونه

﴿قَالُوا تَاللَّهِ تَفْتَأُ تَذْكُرُ يُوسُفَ حَتَّىٰ تَكُونَ حَرَضًا أَوْ تَكُونَ مِنَ الْهَالِكِينَ (٨٥)﴾

أبناؤه قالوا: فصبراً ،لا تكنْ في الجازعين ١٥
تالله إنك في عداد الأنبياء المرسَلين ١٦
هل لا تَزالُ لاسمِ يوسفَ ذاكراً لا تستكين ؟! ١٧
فلتنسَ هذا يا أبانا ، بعدَ عشراتِ السنينِ ١٨
فلتنسَهُ،أو سوفَ تغدُو في عدادِ الهَالكِين ١٩

يعقوب عليه السلام، يتحدث إلى بنيه حديثاً فيه مرارة ، وفيه ألم، وذلك من واقع ما يشعر به من أحزان ملأت قلبه، وتأثرت بها نفسه. . فقال قولته التى سجلها القرآن الكريم وحياً يتلى على سمع الدنيا كلها: **﴿يَا أَسَفَىٰ عَلَىٰ يُوسُفَ﴾**. هنالك فقط شعر أبناء يعقوب، بما يعانيه أبوهم من مرارة وآلام، فقالوا له: **﴿تَاللَّهِ تَفْتَأُ تَذْكُرُ يُوسُفَ حَتَّىٰ تَكُونَ حَرَضًا أَوْ تَكُونَ مِنَ الْهَالِكِينَ﴾**. يا أبانا ! ألا تزال تذكر يوسف ،حتى بعد عشرات السنين؟! إنهم يقولون له هذا القول، بأسلوب فيه نغمة التأنيب واللوم، كأنهم يريدون أن يقولوا له: ألا يكفيك يا أبانا، هانحن عشرة أمامك. . ألا ترى فينا سلوة لك عن يوسف؟! . لقد انتهى يوسف. . لقد ذهب يوسف ولن يعود، فحاول أن تنساه، وما عليك إلا أن تترحم على روحه. . وإن لم تكف عن هذا، فإننا نخشى أن يكون ذلك سبباً فى إهلاكك.

قال الأستاذ عبدالكريم الخطيب فى كتابه « القصص القرآنى » : « إن أبناء الشيخ الجليل، ليغارون من يوسف حتى بعد أن ألقوا به فى غيابات الجب، ويستكثرون على أبيهم أن يحزن هذا الحزن الذى لا نهاية له. . إن ذلك لدليل على هذا الحب العميق الذى كان ليوسف ،فى قلب أبيهم، وأنه لا يزال مشغولاً عنهم بالحزن عليه، بعد فقده، كما كان مشغولاً عنهم بالحب كله له وهو حى.

فهم يلقون أباهم منكرين عليه هذا الحزن أن يظل ملازما له، حتى يتلف كيانه، ويتهدم بنيانه **﴿حَتَّىٰ تَكُونَ حَرَضًا أَوْ تَكُونَ مِنَ الْهَالِكِينَ﴾** والحرض الشىء الذى استحالت طبيعته ،وتغيرت معالمه، كالنبات يتحول إلى حطب، وكالثوب الجديد يصير بالياً. . وأنك لا تنقطع عن هذا الحزن حتى تذبل وتجف وتموت ».

قال الشيخ الصابونى فى « صفوة التفاسير » فى قوله تعالى: **﴿ قَالُوا تَاللَّهِ تَفْتَأُ تَذْكُرُ يُوسُفَ ﴾** أى لا تفتأ ولا تزال تذكر يوسف ،وتتفجع عليه **﴿ حَتَّىٰ تَكُونَ حَرَضًا أَوْ تَكُونَ مِنَ الْهَالِكِينَ﴾** أى حتى تكون مريضاً، مشرفاً على الهلاك، أو تهلك حسرة وأسى وتموت.

يعقوب يشكو آلامه إلى مولاه

﴿ قَالَ إِنَّمَا أَشْكُو بَثِّي وَحُزْنِي إِلَى اللَّهِ وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لا تَعْلَمُونَ (٨٦) ﴾

الشيخُ قال لهُم: فكفُّوا، لا تكونوا لائمين ٢٠
للهِ أشكُو ما ألاقِى من همومِ الغَائبين ٢١
فلتسمعُونى يابَنِىَّ، فلا تكونوا جَاهلين ٢٢
إنى علَى علمٍ يفوقُ علومكُم متجمِّعين ٢٣

لا يزال الحوار مستمراً، بين نبى الله يعقوب عليه السلام، وبين أبنائه.. ولا غرو فيعقوب يتحدث مع بنيه، والآلام فى أعماقه تشبه النار المتأججة.. أما أبناؤه فلم يعجبهم من أبيهم، انطواؤه واستغراقه فى الأحزان، لا سيما ترديده لاسم يوسف، فذلك يثيرهم، ويذكرهم بجريمتهم.. من ثم قالوا له: ﴿ تَاللَّهِ تَفْتَأُ تَذْكُرُ يُوسُفَ ... ﴾ الخ. يبد أنه رداً على لومهم وتأنيبهم قال: ﴿.. إِنَّمَا أَشْكُو بَثِّي وَحُزْنِي إِلَى اللَّهِ﴾. أى إننى لا أشكو لكم ما أعانيه من آلام وأحزان، ذلك لكونكم تجهلون مشاعر وأحاسيس الأبوة الصادقة.. ولكننى ألجأ إلى الله العظيم، العالم بحالى، والذى يستطيع أن يخفف آلامى وأحزانى.. ﴿وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لا تَعْلَمُونَ﴾ إننى - والحمد لله - آتانى الله علماً منه، لم تعملوه وأما الأحزان التى مست أعماق نفسى، فهى ليست جزعاً أو اعتراضاً على قضاء الله.. لا، بل هى نوع من الخضوع، وإظهار الضعف للخالق العظيم، لأداء حق العبودية بالضراعة الصادقة له سبحانه وتعالى. إننى أتوجه إليه بالشكوى، لا لأشرح وأفسر له ما أنا فيه.. لا، فهو سبحانه وتعالى، يعلم السر وأخفى.

- قال الأستاذ عبدالكريم الخطيب فى « القصص القرآنى»: «وكان رد أبيهم عليهم: ﴿ إِنَّمَا أَشْكُو بَثِّي وَحُزْنِي إِلَى اللَّهِ﴾ أى إنما أتوجه بأنينى وحزنى إلى الله.. والبث: إذاعة الحزن، والإعلان عنه بلفظ أو أنين.. والحزن: الألم الذى يكتمه صاحبه، ولا يصرح عنه بقول أو حركة. فيعقوب يشكو ما به إلى الله فى سر وفى جهر، وهو يعلم من الله ما لا يعلم أبناؤه ومن علمه أن هذه الضراعة إلى الله، والشكاية إليه: هى عبادة خالصة، وولاء صادق لله رب العالمين. إنه يشكو إلى سيده ومالكه، ومن بيده الأمر كله، وليست هذه الشكوى إعلاماً لله بحالى الشاكى.. فالله سبحانه يعلم كل شىء علماً أزلياً: ما وقع وما سيقع، وإنما هذه الدعوات والابتهالات، هى عبادة لله بما يستولى على العبد منها من مشاعر الحاجة، والعوز إلى الله».

يعقوب يحث أولاده للبحث عن يوسف

﴿ يَا بَنِيَّ اذْهَبُوا فَتَحَسَّسُوا مِن يُوسُفَ وَأَخِيهِ﴾

لكننى لازلتُ أوصيكم، فكونوا سامعين ٢٤
تلك الوصيةُ أن تعودُوا نحوَ مصرَ مبادِرين ٢٥
وهناكَ فى مصرَ العزيزةِ فلتكُونوا باحِثين ٢٦
فلتبحثُوا فى مصرَ بحثَ الصادِقين المخلصِين ٢٧
فلتبحثُوا عن يوسف وأخيه بحث الصادِقين ٢٨
لازالَ يوسف ملءَ قلبِى، لم يمتْ هذا يقِين ٢٩

أبناء يعقوب، قصرت أفهامهم عن إدراك وفهم مشاعر أبيهم ،فمن ثم عبر عن ذلك بقوله: **﴿ قَالَ إِنَّمَا أَشْكُو بَثِّي وَحُزْنِي إِلَى اللَّهِ....﴾** إلخ . أى أنتم أقل وأجهل من أن أشكو لكم حقيقة ما أعانيه، وإنما أشكو إلى الذى يعلم سرى وعلانيتى. .إلى عز وجل. ويواصل نبى الله يعقوب، حديثه إلى بنيه فيقول: **﴿ يَا بَنِيَّ اذْهَبُوا فَتَحَسَّسُوا مِن يُوسُفَ وَأَخِيهِ﴾**. الأمل لا يزال يراود خيال يعقوب، ويملأ قلبه، ويضىء أعماقه. .إنه لم ييأس، وإن أحاسيسه لتقول له: إن يوسف لا يزال حياً يرزق. .وانطلاقاً من هذا المعنى أوصاهم فقال: **﴿ يَا بَنِيَّ اذْهَبُوا فَتَحَسَّسُوا مِن يُوسُفَ وَأَخِيهِ﴾**. اذهبوا إلى مصر هنالك. . ابحثوا بحثاً صادقاً، فتشوا فى شوارعها ،فى أزقتها ،فى كل مكان اسألوا عن يوسف ، وسوف تجدونه فى مصر. .وبإذن الله سوف تعودون إلينا جميعا ومعكم يوسف وبنيامين وروبيل. إن يوسف لا تزال صورته ماثلة فى خيالى، كأنى أراه أمام عيناى. .لم يغب عنى مطلقاً.

قال القاضى بيضاوى فى تفسيره: **﴿يَا بَنِيَّ اذْهَبُوا فَتَحَسَّسُوا مِن يُوسُفَ وَأَخِيهِ﴾** فتعرفوا منهما، وتفحصوا من حالهما. . والتحسس: طلب الإحساس.

قال ابن كثير فى تفسيره: « يقول تعالى مخبراً عن يعقوب عليه السلام، أنه ندب بنيه على الذهاب فى الأرض ، يستعملون أخبار يوسف وأخيه بنيامين . . والتحسس يكون فى الخير. . والتجسس يستعمل فى الشر».

قال القرطبى فى: ﴿ **يَا بَنِيَّ اذْهَبُوا فَتَحَسَّسُوا مِن يُوسُفَ وَأَخِيهِ** ﴾ هذا يدل على أنه تيقن حياته؛ إما بالرؤيا، وإما بإنطاق الله تعالى الذئب، كما فى أول القصة، وإما بإخبار ملك الموت إياه بأنه لم يقبض روحه؛ وهو أظهر، والتحسس: طلب الشىء بالحواس. أى اذهبوا إلى هذا الذى طلب منكم أخاكم، واحتال عليكم فى أخذه، فاسألوا عنه وعن مذهبه. ويروى أن ملك الموت قال له: اطلبه من ها هنا، وأشار إلى ناحية مصر. وقيل: إن يعقوب تنبه على يوسف برد البضاعة، واحتباس أخيه، وإظهار الكرامة؛ فلذلك وجههم إلى جهة مصر دون غيرها ».

وينهاهم عن اليأس

﴿ وَلا تَيْأَسُوا مِن رَّوْحِ اللَّهِ إِنَّهُ لا يَيْأَسُ مِن رَّوْحِ اللَّهِ إِلاَّ الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ (٨٧) ﴾

لا ينبغي أن تيأسُوا من رَوْح ربٍّ العَالمين ٣٠
اليأسُ كُفْرٌ لا تكُونوا فى عِداد الكافِرين ٣١
ولتجعَلوا الآمالَ ملءَ قلوبِكُم كالمؤمِنين ٣٢

لا يزال نبى الله يعقوب عليه السلام ، يتحدث إلى بنيه . . وفى الوقت نفسه لا يريد أن يقسو عليهم، فى اللوم والتقريع، لضياع يوسف، فى المرة الأولى، والتهاون فى شأن بنيامين، فى المرة الثانية. ذلك لأنهم بلاشك بنوه، وبالتالى هم عدته وسلاحه فى الحياة، فليس له حول ولا قوة إلا بالله ثم بهم، يأمرهم فيطيعونه، ويشير عليهم برأيه ، فينفذون ما يشير به، وما سوى ذلك فهو يهرع إلى الله عزوجل ضارعاً بدعائه، أن يحقق له مطالبه. لذلك، خاطبهم بقوله: **﴿ يَا بَنِيَّ اذْهَبُوا فَتَحَسَّسُوا مِن يُوسُفَ وَأَخِيهِ ﴾** إن كلمة - يابنى - فيها ود وملاطفة منه لبنيه، بعد أن احتدم الحوار بينه وبينهم ، ثم يردف قائلاً: **﴿وَلا تَيْأَسُوا مِن رَّوْحِ اللَّهِ﴾** يبث فيهم روح الأمل، ويناشد فيهم وازع الإيمان ، يذكرهم بالله عز وجل. لا غرو ، فهم بلاشك ذاهبون إلى مصر ، وذلك اضطراراً وليس سياحة ولا ترفاً، وذلك لسببين اثنين:

١- لأن اثنين من أبناء يعقوب فى مصر . . هما: بنيامين أصغرهم، وروبيل أكبرهم، هذا إذا استثنينا يوسف.

٢- طلب الميرة ، فهم فى حاجة إلى الطعام ، من ثم فالذهاب إلى مصر أمر حتمى لا مناص منه قال الفخر الرازى فى: **﴿وَلا تَيْأَسُوا مِن رَّوْحِ اللَّهِ﴾** قال الأصمعى: الروح، ما يجده الإنسان من نسيم الهواء فيسكن إليه، وتركيب الراء والواو والحاء، يفيد الحركة والاهتزاز، فكل ما يهتز الإنسان له، ويلتذ بوجوده فهو روح.

وقال ابن عباس : **﴿لا تَيْأَسُوا مِن رَّوْحِ اللَّهِ﴾** ، يريد : من رحمة الله، وعن قتادة: من فضل الله، وقال ابن زيد: من فرج الله، وقرأ الحسن وقتادة: **﴿ مِن رَّوْحِ اللَّهِ ﴾** أى من رحمته، وهذه الألفاظ متقاربة، ثم قال: «إنه لا ييأس من روح الله إلا القوم الكافرون» قال ابن عباس: إن المؤمن من الله على خير، يرجوه فى البلاء، ويحمده فى الرخاء. واعلم أن اليأس من رحمة الله تعالى، لا يحصل إلا إذا اعتقد الإنسان أن الإله غير قادر على الكمال ، أو غيرعالم بجميع المعلومات، أو ليس بكريم بل هو بخيل ، وكل واحد من هذه الثلاثة يوجب الكفر . . فإذا كان اليأس لا يحصل إلا عند حصول أحد هذه الثلاثة، وكل واحد منها كفر. ثبت أن اليأس لا يحصل إلا لمن كان كافراً، والله أعلم.

يتوسلون ليوسف

﴿ فَلَمَّا دَخَلُوا عَلَيْهِ قَالُوا يَا أَيُّهَا الْعَزِيزُ مَسَّنَا وَأَهْلَنَا الضُّرُّ... ﴾

فلتذهبُوا تلقاءَ مصرِ موطنِ المتحضِّرين ٣٣
أرضِ الحضارةِ والسيادةِ منذُ آلافِ السنين ٣٤
الشرقُ يرنُو نحوَها،كالطفلِ للصدرِ الحَنُون ٣٥
دخَلوا على الصِّديقِ بعد وصُولِهم متَردِّدين ٣٦
قالُوا له: فاسمعْ مقالتَنا سماعَ الموقنين ٣٧
قد مسَّنا ضُرٌّ ومسَّ الأهلَ،لسنَا كاذِبين ٣٨

لقد رحل أبناء يعقوب،متوجهين إلى مصر،كى يبحثوا عن يوسف وأخيه،كما أمرهم أبوهم ،وما كان لهم أن يرفضوا أمره،ذلك لأن أباهم لا يزال يذكر يوسف، وبالتالى لم يقتنع ببراءتهم من ضياع يوسف،فى المرة الأولى،ويتهمهم بالتهاون فى شأن بنيامين،فى المرة الثانية ،من ثم فهم يحاولون أرضاءه،بتنفيذ ما يشير به أو يأمر. القافلة تواصل مسيرتها إلى مصر،للمرة الثالثة ذهاباً وإياباً ،بين مصر والشام ،ولا غرو فالمسافة طويلة ،والمسيرة شاقة مضنية عسيرة،لقد جهد أبناء يعقوب من كثرة الأسفار: حلاً وترحالاً. إن أبناء يعقوب يشعرون فى أعماقهم بوخز الضمير،وهم فى الوقت نفسه يعتقدون أن ما عانوه من عنت وجهد فى أسفارهم،إنما هو كفارة لما فعلوه بيوسف،إذاً فالذنب لا ينفك يئج فى أعماقهم،كالنار تكوى قلوبهم،وتقض مضاجعهم. وصلوا أرض مصر. .مصر الحضارة والمدنية والعلم،ولا غرو فمصر تاج الشرق، والشرق بغير مصر ،قليل،بل صغير. .يشبه الطفل محتاج للأم،ومصر هى الأم.

﴿ فَلَمَّا دَخَلُوا عَلَيْهِ قَالُوا يَا أَيُّهَا الْعَزِيزُ مَسَّنَا وَأَهْلَنَا الضُّرُّ... ﴾. إنهم يذكرون ليوسف حقيقة حالهم،وسوء ما انتهى بهم الأمر: مادياً ومعنوياً،وجسدياً ،فهم من حيث المادة ، قد استنفذوا ما بأيديهم،فى رحلاتهم الثلاث بين مصر والشام،وشراء الطعام،ومن حيث المعنى،فنفوسهم متعبة عما أصابهم بشأن أخيهم بنيامين،ومن حيث الجسد،فرحلات ثلاث ذهاباً وإياباً ،بين مصر والشام ،أنهكت قواهم ،قالوا له: أيها العزيز. . نحن قوم لازمنا سوء الطالع،فى روحاتنا وغدواتنا ،وأصابنا وأهلنا الضر ـ الجوع وسوء الحال،وكثرة العيال،وقلة الطعام. .وقولهم: **﴿مَسَّنَا وَأَهْلَنَا الضُّرُّ﴾** يعنون أهلهم من خلفهم، أى تركناهم فى حالة يرثى لها. الواقع أن أبناء يعقوب،فى حالة يرثى لها من ناحيتين اثنتين:

الأولى: تركهم أباهم فى حالة حزن شديد، بسبب ما حدث لولده بنيامين. الذى أثار ما كان كامنا فى أعماق الشيخ من أحزان.

الأخيرة: عدم رضائهم عن أنفسهم فى أعماقهم، ولا غرو فالإنسان إذا لم يكن راضياً عن نفسه، فإنه يكون مهزوماً من داخلة لعدم ثقته بنفسه. . لذا كان حديثهم مع يوسف من هذا المنطلق: ﴿ مَسَّنَا وَأَهْلَنَا الضُّرُ ... ﴾.

ويعتذرون إليه أيضاً

﴿ وَجِئْنَا بِبِضَاعَةٍ مُّزْجَاةٍ فَأَوْفِ لَنَا الْكَيْلَ وَتَصَدَّقْ عَلَيْنَا إِنَّ اللَّهَ يَجْزِي الْمُتَصَدِّقِينَ (٨٨) ﴾

وبضاعةٌ جئنا بها من أرضنا كالجالبين ٣٩
لكنْ لأجلِ الكيلِ جئنَا، لم نجئْ متطفّلين ٤٠
إنا سنعطِي نقدَ ما نكتالُه كالآخَرين ٤١
فلتُوفِنا كيلاً، وأحسِنْ شيمةَ المتصَدقين ٤٢
إن الجزاءَ من الإلهِ، وسوفَ يجزِي المحسنِين ٤٣

لا يزال أبناء يعقوب ، يتحدثون إلى يوسف الصديق ، حديثاً فيه توسل واستعطاف، وإنهم لصادقون. . فقد أجهدهم كثرة الأسفار، فضلاً عن نفاذ ما لديهم من مال. لقد جبلوا بضاعة معهم، ثمنا لما يحتاجونه من الطعام . يبد أنهم يعتذرون ليوسف ، من أن البضاعة التى جاءوا بها ، من النوع الذى قد لا يفى بثمن الطعام المطلوب. . لذلك فهم يقولون: ﴿وَجِئْنَا بِبِضَاعَةٍ مُّزْجَاةٍ﴾ أى رديئة، وذلك أقصى ما استطعنا إحضاره، نظراً لفقرنا، وقلة ذات اليد. وفى الوقت نفسه يطلبون منه، أن يعطيهم من الطعام فى هذه المرة، كما أعطاهم فى المرتين السابقتين، فقالوا: ﴿فَأَوْفِ لَنَا الْكَيْلَ﴾ لا تنقصه، ثم يردفون قائلين: ﴿وَتَصَدَّقْ عَلَيْنَا إِنَّ اللَّهَ يَجْزِي الْمُتَصَدِّقِينَ﴾ يبدو أنهم يقصدون بقولهم: ﴿وَتَصَدَّقْ عَلَيْنَا﴾ أى رد أخانا إلينا ، فإن فعلت ذلك، تكون قد تصدقت علينا، وأحسنت إلينا. . والله سبحانه وتعالى يعطى المحسنين أحسن الجزاء. ﴿وَجِئْنَا بِبِضَاعَةٍ مُّزْجَاةٍ﴾أى وجئنا ببضاعة رديئة مدفوعة، يدفعها كل تاجر رغبة عنها واحتقاراً، قال ابن عباس: كانت دراهمهم رديئة، لا تقبل فى ثمن الطعام، أظهروا له الذل والانكسار، استرحاماً واستعطافاً ﴿فَأَوْفِ لَنَا الْكَيْلَ﴾ أى أتمم لنا الكيل، ولا تنقصه لرداءة بضاعتنا ﴿وَتَصَدَّقْ عَلَيْنَا﴾ أى برد أخينا إلينا ، أو بالمسامحة عن رداءة البضاعة﴿إِنَّ اللَّهَ يَجْزِي الْمُتَصَدِّقِينَ﴾ أى يثيب المحسنين أحسن الجزاء [١]. ﴿وَجِئْنَا بِبِضَاعَةٍ مُّزْجَاةٍ﴾ أى ومعنا ثمن الطعام الذى نمتاره، وهو ثمن قليل، قال مجاهد وغيره: وقال ابن عباس: الرديء الذى لا ينفق ، مثل خلق الغرارة ، والحبل والشيء، وفى رواية عنه: الدرهم الرديئة التى لا تجوز إلا بنقصان، وقال سعيد بن جبير: هى الدراهم الفول، وهو الرديء من كل شيء، ﴿فَأَوْفِ لَنَا الْكَيْلَ﴾ أى أعطنا بهذا الثمن القليل، ما كنت تعطينا قبل ذلك، وقرأ ابن مسعود: فأوقر ركابنا وتصدق علينا، وقال ابن جريج: ﴿وَتَصَدَّقْ عَلَيْنَا ﴾ برد أخينا إلينا» تفسير ابن كثير.

(١) مع أعلام المفسرين للشيخ الصابونى.

يوسف يذكر إخوته بما فعلوه معه

﴿ **قَالَ هَلْ عَلِمْتُم مَّا فَعَلْتُم بِيُوسُفَ وَأَخِيهِ إِذْ أَنتُمْ جَاهِلُونَ** (٨٩) ﴾

لكنَّ يوسفَ كان فى أعماقه شىءٌ دفين ٤٤
ينوِى مواجهةً لإخوته، بأسلوبٍ مُبين ٤٥
كى يجمعَ الشملَ الشتيتَ بُعَيْدَ تفريقٍ مهين ٤٦
مِن ثَم بادرهُم فقالَ لهم مقالَ المستبين ٤٧
هل تذكرونَ بأنكُم قارفتُمُ الفعلَ المشين؟! ٤٨
مع يوسفٍ وأخيهِ إذ كنتُم بحقٍّ جاهلين ٤٩

لقد استمع يوسف الصديق، حديث إخوته الممزوج بالضعف والانكسار. . إن إخوته يتحدثون إليه عن البضاعة المزجاة، وعن أخيهم الذى أخذه فأبقاه عنده بالجريمة التى نسبت إليه، ولا يدرون أن هذا الذى يستعطفونه، ويتوسلون إليه، هو أخوهم يوسف، وأن فى أعماقه شىء مدفون، يريد أن يخرجه إلى الواقع. . يريد أن يفاجئ إخوته بحقيقة شخصه. . فهم يتوسلون إليه فى ضعف وذلة، وهو يتمزق فى داخله ويتألم، لا يريد لإخوته أن يكونوا فى هذا الموقف الذليل. إنهم لم يعرفوه طوال هذه المدة، برغم أنه اختلط بهم، وتحدث إليهم أكثر من مرة، خلال الرحلتين السابقين، إنه يريد أن ينقذهم من هذا الموقف الذى هم فيه، يريد أن يدخل الفرحة على قلوبهم، يريد أن يقول لهم: لا تتذللوا هكذا! فأنا صاحب الكلمة فى هذا الخير كله، وأنا أخوكم، ابن أبيكم. . بيد أنه يفكر فى كيفية إلقاء هذا الخبر على أسماعهم، إنه يخشى أن يكون لهذا الخبر، وقع سئ عليهم. . إذن فلابد أن يمهد لحديثه، ليوقظ أسماعهم ووعيهم، لما سوف يلقى عليهم من أخبار مفاجئة. . فقال: ﴿ **قَالَ هَلْ عَلِمْتُم مَّا فَعَلْتُم بِيُوسُفَ وَأَخِيهِ إِذْ أَنتُمْ جَاهِلُونَ**؟! ﴾ يالله!! ما هذا الذى يسمعونه من عزيز مصر، ذى الجاه والسلطان. . هل تذكرون أخاكم يوسف؟! وماذا فعلتم معه أيام طيشكم وشبابكم، فذلك كان منكم جهلاً.

قال صاحب القصص القرآنى: «ويثير هذا التساؤل، تساؤلات كثيرة، كانوا يرونها بينهم وبين أنفسهم، ثم فيما كان بينهم وبين يوسف من قبل، حتى لقد كادوا يسألونه: من أنت؟! وما لك تشغل نفسك بنا وبأبينا وأخينا؟! ولم تختصنا بالحديث إليك؟! ولم تحملنا على أن نأتيك بأخينا من أبينا؟! ثم ها أنت تحتجزه عندك؟!، هذه الأسئلة وكثير غيرها، كانت تدور بين القوم، ويتناجون بها، فى حلهم وترحالهم، ثم لا يجدون الجواب عليها، حتى جاءهم الخبر اليقين فيها، فإنه ما كان يوسف يسألهم هذا السؤال: ﴿ **هَلْ عَلِمْتُم مَّا فَعَلْتُم بِيُوسُفَ وَأَخِيهِ**. . . ﴾ إلخ. حتى يطل عليهم الجواب الذى كان تائها فى رؤسهم، منذ أمد بعيد».

إخوته..يتعرفون عليه حين سألهم

﴿ قَالُوا أَئِنَّكَ لَأَنتَ يُوسُفُ قَالَ أَنَا يُوسُفُ وَهَذَا أَخِي... ﴾

سمعُوا مقالتَه فصاروا دون شكّ ذاهلين ٥٠
نظروا إليهِ، فبادَروه جميعُهم متسائلين ٥١
هل أنت يوسفُ؟! فلتُجبْ بالصدقِ والقولِ الأمين٥٢
تاللهِ قد كنا نشكُّ، ولم نكنْ متيقِنين ٥٣
فأجابهُم، أنا يوسفٌ من آلِ بيتِ المرسَلين ٥٤
هذا أخي أيضاً، لقد تمَّ اللقاءُ على اليقين ٥٥

يالله!! ما الذى أدرى عزيز مصر، بيوسف وأخيه؟! هذا سؤال تبادر إلى أذهان أبناء يعقوب، حينما قال لهم يوسف: **﴿هَلْ عَلِمْتُم مَّا فَعَلْتُم بِيُوسُفَ وَأَخِيهِ...﴾** كل منهم قال لنفسه: إذن، هو هو.. إنه يوسف لا شك فى ذلك. لقد كانوا يشعرون قبل ذلك، بأن العزيز قد ترخص فاندمج معهم، واختلط بهم أكثر من غيرهم، فهم ليسوا إلا طلاب ميرة، شأنهم شأن كثيرين غيرهم، من الوفود القادمين من كل الأصقاع..! وكانوا يشعرون أنه أولادهم عناية خاصة.. فلماذا؟! وكانوا أيضا يشعرون نحوه بميل لا إرادى، لا يدرون له تفسيراً.

فلما فاجأهم بقوله: **﴿هَلْ عَلِمْتُم مَّا فَعَلْتُم بِيُوسُفَ وَأَخِيهِ...﴾**. نظروا إليه فوراً نظرة جديدة، فكأنهم كانت على أبصارهم غشاوة من قبل، فانقشعت.. وحينئذ رأوه.. نعم لقد رأوه الآن فقط.. إنه يوسف أخوهم!!.. فمن ثم **﴿قَالُوا أَئِنَّكَ لَأَنتَ يُوسُفُ﴾** فأجابهم دون تردد، لكي لا تنطفئ فى نفوسهم جذوة الفرحة التى فوجئوا بها وملأت قلوبهم: **﴿قَالَ أَنَا يُوسُفُ﴾** نعم أنا يوسف، وكان بنيامين يقف بجانبه، ثم قال وهو يشير إلى أخيه بنيامين: **﴿وَهَذَا أَخِي﴾**.

قال القاضى بيضاوى فى تفسيره: **﴿قَالُوا أَئِنَّكَ لَأَنتَ يُوسُفُ﴾** استفهام تقرير، ولذلك حقق بأن ودخول اللام عليه، قيل: عرفوه بروائه وشمائله حين كلمهم به، وقيل: تبسم فعرفوه بثناياه، وقيل: رفع التاج عن رأسه، فرأوا علامة بقرنه، تشبه الشامة وكان لسارة ويعقوب مثلها. **﴿قَالَ أَنَا يُوسُفُ وَهَذَا أَخِي﴾** من أبى وأمى، ذكره تعريفاً لنفسه به، وتفخيماً لشأنه.

قال الأستاذ عبدالكريم الخطيب فى « القصص القرآنى » : **﴿أَئِنَّكَ لَأَنتَ يُوسُفُ﴾** أى: أإنك لأنت يوسف الذى كنا نشك أنه أنت، **﴿قَالَ أَنَا يُوسُفُ وَهَذَا أَخِي﴾**.

يوسف يشكر ربه على جمع الشمل

﴿قَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا إِنَّهُ مَن يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ ﴿٩٠﴾﴾

الله منَّ على الشتات فجمَّع المتفرِّقين ٥٦
مَنْ كانَ ذا صبرٍ وتقوى فهْو بين الفائزين ٥٧
وجزاؤه عند الإلهِ، يكونُ أجرَ المحسنين ٥٨

لقد تخفف يوسف الصديق من العبء الذى كان يعانى منه ،هو إخفاء حقيقة شخصه عن إخوته، ويعاملهم على أنهم غرباء عنه، لا صلة له بهم. . كان يشعر كأنه يحمل ثقلاً أجهده. . فمن ثم ألقاه، وذلك بالكشف لهم عن نفسه. إن يوسف الصديق حينما قال لإخوته: ﴿هَلْ عَلِمْتُم مَّا فَعَلْتُم بِيُوسُفَ وَأَخِيهِ﴾ لم يكن غرضه تأنيبهم ،بيد أنه كان يريد أن يفتح لهم نافذة ،يطلون منها على الحقيقة ،فرأى أن ذكر قصته التى بينه وبينهم، أسرع إلى وعيهم ووجداناتهم، فمن ثم يعرفونه دون أن يقدم نفسه لهم. وفعلا لقد أصاب يوسف. . وتم التعارف بسرعة ،وساد المكان نوع من الابتهاج، وأجاب على تساؤلهم فقال: ﴿أَنَا يُوسُفُ وَهَذَا أَخِي قَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا إِنَّهُ مَن يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ﴾. نعم، لقد أكرمنا المولى عز وجل، فمن علينا إذ جمع شملنا بعد التفرق ، ومسح آلامنا ،وآسى جراحنا ،وكفكف دموعنا. . ولا غرو فالتقوى والصبر ،هما خير ما يتسلح بهما الإنسان ،حينما تدهمه المصائب والنكبات. . فجزاؤهما عند الله عظيم. . هو جزاء المحسنين، وتلك لعمر الله منزلة عالية.

قال الأستاذ عبدالكريم الخطيب فى « القصص القرآنى »: « وقوله تعالى: ﴿ إِنَّهُ مَن يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ﴾ هو تعقيب من يوسف على هذا الذى هو هبة من عطاء ربه. . إنه جزاء من الله تعالى، لمن كان منه تقوى الله ومراقبته ،والاستقامة على طريق الحق ،والصبر على ما يبتلى الله به من مكاره ،فإنه من يتق الله ويصبر على ما يبتليه به ،يكون من المحسنين ،وإن الله لا يضع أجر المحسنين».

قال ابن كثير فى تفسيره: «﴿قَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا﴾ أى بالسلامة والكرامة ﴿ إِنَّهُ مَن يَتَّقِ وَيَصْبِرْ﴾ أى يتقى الله، ويصبر على البليات ،أو على الطاعات، وعن المعاصى﴿ فَإِنَّ اللَّهَ لا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ﴾ وضع المحسنين موضع الضمير للتنبيه على أن المحسن من جمع بين التقوى والصبر ».

إخوة يوسف يشعرون بالحزن أمام يوسف

﴿قَالُوا تَاللَّهِ لَقَدْ آثَرَكَ اللَّهُ عَلَيْنَا وَإِن كُنَّا لَخَاطِئِينَ (٩١)﴾

إخـوانُ يوسـفَ مسَّهُم شـىءٌ من الحـزنِ المهـين ٥٩
لـكـنـهُم قــد بـادَروه بـلـهـجـةِ المـتـنَدمـين ٦٠
قـالـوا: لـقـد فُضِّلْتَ حـقاً مـن إلـهِ الـعـالمـين ٦١
هـا نحـنُ بـؤْنا بـالـندامـةِ، فـى عِداد الخاطِئـين ٦٢

بعـد موجة الفـرح التى غـمرت يوسف وإخـوته ،خيـم على المكان سحابـة من الصمت، نعم لقد تذكر أبناء يعقوب ،بشـاعة ما فعلوه مع أخيهم يوسف. . يوسف هذا الذى يرونه أمامـهم ،فى زى الملوك وهيبتـهم !!لقد كانوا أرادوا قتلـه من قبل !!! ولو شاء لقتلهم جميعا، ولو فعل لما كان ظالماً. حينئذ شعروا بالخزى والانكسار أمامه، لأنه هو فقط الذى يعرف ماذا صنـعوا. . لأنه هو الضحية. . فكونهم أخفوا الحـقيقة عن أبيهم ، أيخفونها عنه هو؟! ﴿ قَالُوا تَاللَّهِ لَقَدْ آثَرَكَ اللَّهُ عَلَيْنَا وَإِن كُنَّا لَخَاطِئِينَ ﴾ . نعم، لقد فضلك الله علينا ،لقد أجـرمنا فى حقك عامدين. . لا نستطيع أن ننكـر ما فعلنا ،وقد أراد الله لك غير ما أردنا ،وأعطـاك من فضله ما أنت جدير به. . لقد تبـوأت أرفع وأعظم مكانة فى مصر. . أعرق دولة فى العالم. . لقد أخطأنا يا يوسف.

قال ابن كثير فى تفسيره: « ﴿قَالُوا تَاللَّهِ لَقَدْ آثَرَكَ اللَّهُ عَلَيْنَا وَإِن كُنَّا لَخَاطِئِينَ﴾. يقولون: معترفين له بالفضل والأثرة عليهم، فى الخَلْق والخُلُق ،والسعة والملك، والتصرف والنبوة أيضا ـ على قول من لم يجعلهم أنبياء ـ وأقروا له بأنهم أساؤا إليه وأخطأوا فى حقه».

قال الأستـاذ عبدالكريم الخـطيب فى «القصـص القرآنى»: « وهنـا يستشعـر إخوته الندم، على ما كان منهم ،وأنهم كانوا على طريق ضال، فى الكيد الذى كادوه له ﴿قَالُوا تَاللَّهِ لَقَدْ آثَرَكَ اللَّهُ عَلَيْنَا وَإِن كُنَّا لَخَاطِئِينَ﴾. أى أن هذا الحب، وذاك الإيثـار الذى كان من أبيك لك دوننا، هو فضل من فضل الله عليك ،وإن فى غيرتنا وحسدنـا لما ألبسك الله من نعم ،هو ضلال منا ،وإن هذا الذى أنت فيه ،مـن مكان عال، ومن سلطان عظيم ،هو فضل اختصـك الله تعالى به. . ولكنا كـنا خاطئين إذ حسدناك ،على هـذا الفضل الذى يختص به الله من يشاء من عباده.

يوسف يغفر لإخوته

﴿قَالَ لا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ يَغْفِرُ اللَّهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ (٩٢)﴾

لكنَّ يوسفَ لم يدعْ إخوانَه متحيِّرين ٦٣
بل قال فوراً: قد عفوت فلا تكونوا آسفين ٦٤
إني على هذا قديرٌ، لا أحبُّ الناقمين ! ٦٥
اللهُ يغفرُ كل ذنبٍ ، من ذنوبِ التَّائبين ٦٦
ذاكُم إلهُ العرشِ ، رحْمَانٌ وخيرُ الراحمين ٦٧

إن من عادة الكرام ، ذوى الهمم العالية ، والعقول الواعية ، ألا يتركوا أحداً يقف أمامهم ، موقف ذلة وانكسار ، ولا سيما إذا كان من ذوى القرابة . . ويوسف الصديق ، من أعلى الرجال همة . . ومن أرجحهم عقلاً . . وهو أيضاً من أكرم الرجال .

هكذا قال عنه سيد الخلق محمد ﷺ ، حينما قال له وفد بنى تميم : نحن أكرم العرب . فقال عليه الصلاة والسلام : « بل أكرم منكم يوسف نبى الله ، ابن يعقوب نبى الله ، ابن إسحاق نبى الله ، ابن إبراهيم خليل الله » .

فلما رأى يوسف الصديق ، إخوته فى موقف الخزى ، والذل والانكسار ، وهم يعتذرون إليه مما صنعوا . . عز عليه أن يرى إخوته فى هذا الموقف ، إنهم فى حالة اعتذارهم ، يتضاءلون أمامه ويتصاغرون . . فمن ثم هتف قائلا : ﴿ لا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ ﴾ . لا لوم ولا تأنيب لكم منى . . إننى لا أحمل فى قلبى ضغينة لأحد منكم . ﴿ الْيَوْمَ يَغْفِرُ اللَّهُ لَكُمْ ﴾ يتجاوز عنكم ، ذلك لأننى متسامح معكم ، لا أريد الانتقام منكم ، وقد تنازلت عن حقى راضياً ؛ إذن فإن الله عز وجل سوف يغفر لكم . . لأنه غفور رحيم . . ذلك لأنكم نادمون على ما فعلتم ، فهو رحيم بعباده ، لاسيما التائبون النادمون منهم .

قال الأستاذ أحمد بهجت فى كتاب « أنبياء الله » : لا مؤاخذة ، ولا لوم ، انتهى الأمر من نفسى ، وذابت جذوره ، لم يقل لهم : إننى أسامحكم أو أغفر لكم ، إنما دعا الله أن يغفر لهم ، وهذا يتضمن أنه عفا عنهم ، وتجاوز عفوه . . ومضى بعد ذلك خطوات . . دعا الله أن يغفر لهم . . وهو نبى ، ودعوته مستجابة ، وذلك تسامح ، نراه آية الآيات فى التسامح .

يوسف يرسل قميصه لأبيه مع إخوته

﴿اذْهَبُوا بِقَمِيصِي هَذَا فَأَلْقُوهُ عَلَىٰ وَجْهِ أَبِي يَأْتِ بَصِيرًا وَأْتُونِي بِأَهْلِكُمْ أَجْمَعِينَ (٩٣)﴾

هـاكُم قمـيـصِى فاذهـبوا لـلآلِ فـوراً مسْرِعـين ٦٨
ولتـطرحُوه علـى أبى، يصـبحْ بصـيراً عن يـقين ٦٩
هـاتوا جـميـعَ الأهـلِ ، ولتـأتـوا إليـنَا قادمـين ٧٠
حتـى يعـودَ الشمـلُ حقـاً، بعد عـشراتِ الـسنِين ٧١

أراد يوسف الصديق ، أن ينـهى هذا الحوار الثقيل ، بينه وبين إخـوته . . وينتقل من هذا الموقف إلى موقف آخـر ، بأسلوب جديد ، بحيث يخفف عن إخوتـه ، وينسيهم مرارة هذا الموقف فقال : **﴿اذْهَبُوا بِقَمِيـــصِي هَذَا فَأَلْقُوهُ عَلَىٰ وَجْهِ أَبِي يَأْتِ بَصِيــرًا﴾** خذوا هذا القـميص . . إنه قـميصى الـذى يعرفه أبـى الذى ورثة عن جـدنا الاكبر إبـراهيم خلـيل الله . . فألقوه علـى وجه أبى . . ولسوف يشم فيه أبى رائحتى ، ومن ثـم فسوف يعود إليه بصره بـإذن الله . **﴿وَأْتُونِي بِأَهْلِكُمْ أَجْمَعِينَ﴾** هاتوا جـميع آل يعـقوب ، لا تتركـوا أحداً هنالك ، اتركوا الصـحراء الجرداء القاحلة ، وتعالوا إلى مصر أرض الخيـر والنماء . . تعالوا جميعاً ، لكى تلتئم الجراح ، ونجـتمع بعد فراق طال وطال ، مع المرارة والآلام والأحزان ، لعشرات السنين . . ما أحسن جمع الشمل بعد الفراق .

قال الأستاذ عبدالـكريم الخطيب فى كتابه « القـصص القرآنى » : **﴿اذْهَبُوا بِقَمِيصِي هَذَا فَأَلْقُوهُ عَلَىٰ وَجْهِ أَبِي يَأْتِ بَصِيــــرًا وَأْتُونِي بِأَهْلِكُمْ أَجْمَعِينَ﴾** يكشف يوسـف عما لهذا القميص من أثر فى شفاء أبيه ، ورد بصـره إليه بعد أن ذهب به الحزن ، إن يوسف يقول على سبيل القطع والجزم **﴿يَأْتِ بَصِيرًا﴾** فما هذا القميص؟! ، ومـا شأنه ؟ ! أهو معجزة نبى أم ماذا ؟! تكثر أقـوال المفسرين حول هذا القميص . . حتى لتـنسبه بعض الأقوال ، إلى إبراهيم الخليل عليه السلام ، وأنه كان القمـيص الذى يقال : إن جبريل جـاء به من الجنة ، وألبسه إبراهيم حين ألقى فى النار ، فلم تصبه بسوء ، ثم جعل إبراهيم هذا القميص ميراثاً فى ذريـته ، أعـطاه إسـحاق ، ثـم أعطـاه يعقـوب ، ثم هـا هو ذا يـوسف يـدفع بـه إلى إخوته ، ليلقوه على وجه أبيه فيرتد بصيراً ، ويأتى بتلك المعجزة الخارقة . وقد كان يمكن أن يصبح هذا ، لو كان له مستند من كتاب الله وسنة رسوله ، وأما وليس فى القرآن الكريم ، ولا فى حديث رسول الله شاهد لهذا ، فإنه من الخير أن يتخفف العقل من هذه الغيبيات القائمة على الرجم بالغيب ، وأن يأخذ الأمور على ظاهرها .

الحلقة الحادية عشرة

يعقوب يشم رائحة يوسف من مسافة ألف ميل

يعود إليه بصره

أبناؤه يطلبون منه أن يستغفر لهم

آل يعقوب جميعاً فى مصر

يوسف يرفع أبويه على عرش مصر

تفسير رؤيا يوسف القديمة

بسجود أبويه وإخوته له

يشكر ربه ويتضرع إليه

الآيات القرآنية التى صيغ منها شعر الحلقة الحادية عشرة

﴿ وَلَمَّا فَصَلَتِ الْعِيرُ قَالَ أَبُوهُمْ إِنِّي لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ لَوْلَا أَن تُفَنِّدُونِ (٩٤) قَالُوا تَاللَّهِ إِنَّكَ لَفِي ضَلَالِكَ الْقَدِيمِ (٩٥) فَلَمَّا أَن جَاءَ الْبَشِيرُ أَلْقَاهُ عَلَىٰ وَجْهِهِ فَارْتَدَّ بَصِيرًا قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ (٩٦) قَالُوا يَا أَبَانَا اسْتَغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا إِنَّا كُنَّا خَاطِئِينَ (٩٧) قَالَ سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّي إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ (٩٨) فَلَمَّا دَخَلُوا عَلَىٰ يُوسُفَ آوَىٰ إِلَيْهِ أَبَوَيْهِ وَقَالَ ادْخُلُوا مِصْرَ إِن شَاءَ اللَّهُ آمِنِينَ (٩٩) وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى الْعَرْشِ وَخَرُّوا لَهُ سُجَّدًا وَقَالَ يَا أَبَتِ هَٰذَا تَأْوِيلُ رُؤْيَايَ مِن قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّي حَقًّا وَقَدْ أَحْسَنَ بِي إِذْ أَخْرَجَنِي مِنَ السِّجْنِ وَجَاءَ بِكُم مِّنَ الْبَدْوِ مِن بَعْدِ أَن نَّزَغَ الشَّيْطَانُ بَيْنِي وَبَيْنَ إِخْوَتِي إِنَّ رَبِّي لَطِيفٌ لِّمَا يَشَاءُ إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ (١٠٠) رَبِّ قَدْ آتَيْتَنِي مِنَ الْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِي مِن تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ فَاطِرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أَنتَ وَلِيِّي فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ تَوَفَّنِي مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ (١٠١) ﴾

أشعار الحلقة الحادية عشرة

هذا هُو الصِّديقُ يوصِى الإخوةَ المتسَمعين ١
أن يذهبُوا بقميصِه لأبيه ، كانوا طائعِين ٢
سمعُوا وصيتَه وعادوا بالقميصِ مسَارعين ٣
وقلوبُهم ملأى بفرْحٍ ، لم يعودُوا خائبِين ٤
يعقوبُ لا ينفَكُ مع أحزانِه لا يستكِين ٥
لم ينسَ يوسفَ أو أخَاه ، وإنه باكٍ حزِين ٦
أبناء يعقُوبِ تولوْا بالأمانِى عائِدين ٧
وهناكَ يعقوبٌ يعيشُ مع البكاء مع الأنِين ٨
ريحُ الحبيبِ تجيئُه من ألفِ ميلٍ كامِلين ٩
جاءتْهُ يحملُها النسيمُ بأمرِ ربٍّ العالمِين ١٠
هَذى لعمرُ اللهِ إحدَى معجزاتِ المرسَلين ١١
إذ قالَ فيمَن حولَه : كونُوا لقولى مدرِكين ١٢
إنى أشُمّ لريحِ يوسفَ فى الركَابِ القادِمين ١٣
لا تنكِروا قولِى ، وكونُوا بالمقالةِ موقنين ١٤
لولا ملامَتُكم لقلتُ مؤكّدًا : هذا يَقين ١٥
كانتْ إجابتُهم كلامًا فيهِ عُنْفُ اللائِمين ١٦
تاللهِ إنك لا تزالُ على ضلالِ التائِهين ١٧
هل لا تزال لذكرِ يوسفَ بعد عشراتِ السنِين ؟! ١٨
قد صَار يوسفُ دون شكّ فى عِدادِ الغابِرين ١٩
فلتنسَهُ كى تستريحَ ، وكن من المتجَلدِين ٢٠
العيرُ قد وصلتْ لحيثُ الأهلُ كونوا نازِلين ٢١
جاءَ القميصُ مع البشيرِ ، وفرحةٌ فى القادِمين ٢٢
ألقى القميصُ عليهِ أصبحَ فى عِدادِ المبصرِين ٢٣
الشيخُ يشكرُ ربَّه شكرَ الرجالِ العارِفين ٢٤

ويوجهُ القولَ العنيفَ إلى بنيه السامعين ٢٥
أفَقَدْ رأيتُم أن قولِى كلّه صدقٌ مُبين ؟! ٢٦
فَلكَمْ سخِرتُم من مقَالى ، لم تكُونوا مُوقنين ٢٧
أفلمْ أقلْ : إنى علَى علمٍ ، ولستُم عَالمين ؟! ٢٨
قالوا : صدقتَ ، فإننا كنا جميعًا جاهِلين ٢٩
من بعد أن قَالوا : صدقتَ ، تسَاءلوا متوسلِين ٣٠
قالوا : فإنكَ يا أبانَا ، فى عِدادِ المرسَلِين ٣١
ولأنتَ أيضًا مستجابٌ فى دعاءِ الضَّارِعين ٣٢
فاستغفرِ المولى لنا ، فلقد غدوْنا نادمين ٣٣
اللهُ غفَّارٌ يحبُّ النادِمين التائبِين ٣٤
الشيخُ قالَ لهم : عفوتُ ، فلا تكُونوا خائفِين ٣٥
ولسوفَ أطلبُ من إلهى فى دجَى الليلِ السكِين ٣٦
أن يغفرنَّ ذنوبكُم كىْ تصبحُوا متطهرِين ٣٧
ولقدْ توجَّهَ ضارِعًا للهِ ربِّ العَالمين ٣٨
ربّاهُ فاقبلْ دعوتِى ، إنى عفوتُ عن البنِين ٣٩
يعقوبُ معَ أولادِه صاروا معًا متآلفِين ٤٠
الحب صار يسودهم كانوا معًا متباعدين ٤١
قَالوا : فهيَّا يا أبانا ، نأتِ أرضَ الخَالدين ٤٢
هيا إلى مصرَ العزيزةِ موطنِ المتحضّرين ٤٣
النيلُ أعطَى أهلَها أمنًا ، فعاشُوا راغدين ٤٤
فيهَا حبيبُك يوسف ، هو خازنُ المالِ الأمين ٤٥
قد قالَ : هاتوا لى أبِى ، والأهلَ كُلاً مسرِعين ٤٦
يعقُوبُ مع أبنائِه قد قرَّروا متكامِلين ٤٧
أن يرحَلوا عن أرضِهِم ، أرضِ الجدودِ الأولين ٤٨
تركُوا منازلَهم لأرضِ النيلِ صَاروا ذاهبين ٤٩
وصَلوا هنالِكَ حيثُ كانَ الحبُّ وضَّاءَ الجَبين ٥٠
دخلوا على الصِّديقِ قد كَانوا له متشَوقِين ٥١

أعطَى إلى أبويه قُرْبًا ، ثم بِرّ المؤمنين ٥٢
بل قالَ : مرحى ، فادخلوا مصرَ العزيزَة آمنين ٥٣
لما اطمأنُّوا إذ بهم خرُّوا جميعًا ساجِدين ٥٤
كان السجُود تحيةً ، لا ، لم يكونوا عابِدين ٥٥
أو ربّما سجَدوا لربِّ العرشِ سجدةَ شاكِرين ٥٦
العرشُ قد جلسُوا عليهِ ، بأمرِ يوسفَ عن يقين ٥٧
لما رآهُم يوسفٌ سجَدوا سجودَ الخاشِعين ٥٨
هتفتْ خواطرُه ببعضِ الذكرياتِ السابِقين ٥٩
فتذكَّرَ الرؤيا التى أودتْه للكيدِ المشين ٦٠
من ثَم قال مخاطِبًا لأبيه بالقول المبين ٦١
هذى هى الرؤيا القديمةُ فُسِّرتْ للعالَمين ٦٢
رؤياى كانتْ يا أبى حقًا شبيهًا باليقين ٦٣
قد تمَّ ما قدْ شاءه المولَى ، وكنَّا غافِلين ٦٤
اللهُ أكرمَنى فأخرجَنى من السِّجنِ المهين ٦٥
أيضًا وجاء بكُم ، وكنتُم فى البداوةِ ماكثِين ٦٦
قد كانَ للشيطانِ نزغٌ فى قلوبِ مظلمين ٦٧
بينى وبينَ بنى أبى ، قد كانَ نزغٌ للعين ٦٨
حمدًا إله العرشِ إنك ناصرُ المستضعَفين ٦٩
أنتَ اللطيفُ لما تشاءُ وراحمُ المسترحمين ٧٠
أعطيتنى مُلكًا وفضلاً ، فوقَ حُلْم الحَالمين ٧١
أعطيتَنى علمًا لتفسيرِ الرؤَى للنائِمين ٧٢
يا خالقًا لسمائنا ولأرضِنا والعالَمين ٧٣
أنت الولىّ وملجَأى ، لا شكَّ فى دنيًا ودين ٧٤
يا رب خذنى مسلمًا وتوفنى فى الصالحين ٧٥

أبناء يعقوب يعودون فرحين بقميص يوسف

هذا هُو الصِّديقُ يوصِى الإخوةَ المتسَمِّعين ١
أن يذهبُوا بقميصه لأبيه ، كانوا طائعين ٢
سمعُوا وصيتَه وعادوا بالقميصِ مسَارِعين ٣
وقلوبُهم ملأى بفرْحٍ ، لم يعودُوا خائبين ٤
يعقُوب لا ينفكّ معَ أحزانِه ، لا يستكين ٥
لم ينسَ يوسفَ أو أخَاهُ ، وإنه باكٍ حَزِين ٦

أما يوسف الصديق ، فإنه أبدى لإخوته تسامحًا وودًا . . لقد عفا عنهم ، وهو فى مركز القوة ، بحيث يستطيع أن ينكل بهم - بإشارة منه لمعاونيه - ردًا على صنيعهم المشين معه ، حينما كان صغيرًا ضعيفًا وحيدًا ، وقد كانوا أكبر منه سنًا ، وأقوى . . ! ويؤكد تسامحه لهم ، أنه أعطاهم قميصه وقال لهم : اذهبوا إلى أبى ، الذى أضناه الشوق ، وهدته الأحزان ، وفقد نور عينيه حزنًا على فراقى ، وفراق أخى بنيامين . ألقوا هذا القميص على وجه أبى ، يرتد إليه بصره ، سوف يبصر كما كان من قبل. . !! وهنا لابد من جواب ، على سؤال يطرح نفسه ، من خلال الحوار الذى دار بين يوسف وبين إخوته . . هذا السؤال هو ! ما الذى أدرى يوسف ، بأن أباه صار أعمى لا يبصر ؟! آيات القرآن الكريم ، لم تذكر شيئًا عن هذا ، وأيضًا لم يَدُر بينه وبين إخوته حوار عن أبيهم ، وعن أحواله . . إذن فمن أين علم يوسف ، بأن أباه قد ابيضت عيناه من الحزن عليه ؟! لا جواب من واقع الآيات القرآنية ، على هذا السؤال . . ولا يوجد دليل من سنة رسول الله ﷺ . ولا أخال يوسف أخذ علمه بفقد بصر أبيه ، إلا من جهة عليا . . إنها شفافية النبوة ، ولا شيء غير هذا . . !! أخذ أبناء يعقوب قميص يوسف ، وعادوا أدراجهم مسرعين ، نحو وطنهم . . يريدون أن يطيروا بغير أجنحة ، الفرحة تملأ قلوبهم. . لقد تبينوا الآن فقط أن أباهم كان على صواب ، حينما قال لهم : ﴿ **اذْهَبُوا فَتَحَسَّسُوا مِن يُوسُفَ وَأَخِيهِ** ﴾ . إنهم يستحثون الإبل ، لتسرع الخطى . . لأنهم يحملون معهم ما يدخل الفرحة والسرور على قلب أبيهم ، الذى أضناه الحزن والشوق على يوسف وأخيه . . ولا غرو فسرور أبيهم ، سرور لكل آل يعقوب . وبينما هم فى طريق عودتهم ، كان يعقوب عليه السلام ، قابعًا فى خلوته مع أحزانه ، منطويًا على نفسه ، لا يتحدث إلى أحد . . ولا يتحدث إليه أحد .

رائحة القميص تصل يعقوب

﴿ وَلَمَّا فَصَلَتِ الْعِيرُ قَالَ أَبُوهُمْ ﴾

أبناءُ يعقوبِ تولَّوْا بالأمانى عائِدين ٧
وهناكَ يعقوبٌ يعيشُ مع البكاءِ مع الأنِين ٨
ريحُ الحبيبِ تجيئُه من ألفِ ميلٍ كامِلين ٩
جاءتْه يحملهَا النسيمُ بأمر ربّ العَالمين ١٠
هذِى لعمرُ اللهِ إحدى معجزاتِ المرسَلين ١١

ما فى ذلك من شك أن يعقوب عليه السلام، عاش السنين الطويلة الماضية مع الأحزان، حتى صارت سمة له عرف بها ، فلا تراه باسمًا مطلقًا ، وإذا ما تحدث ، فحديثه ممزوج بالمرارة والأسى ، تبدو على محياه ظلال من الكآبة . بينما هو فى أحزانه التى ألفها، فجأة شعر بنشاط يدب فى أوصاله، فهب قائمًا، خرج من معتكفه الذى كان قابعًا فيه مع أحزانه، خرج إلى صحن المنزل يستنشق الهواء . . كى يملأ صدره به ، وقد رآه كل من فى المنزل ، يتلفت يمنة ويسرة ، كأنه مبصر يبحث عن شىء ما .الواقع أن شيئًا ما ، جعل هذا الشيخ يخرج من معتكفه الذى كان قابعًا فيه منذ سنين طويلة مع أحزانه التى ألفها . نعم،لقد أحس الشيخ، بشىء خفى، أجرى فى عروقه وأوصاله نشاطًا ملحوظًا. . نعم، إنه شعر برائحة ملأت حاسة الشم لديه، رائحة زكية محببة، إنه يعرف هذه الرائحة، ويعرف مصدرها، بيد أنها انقطعت عنه منذ بعيد ، منذ أن غاب عنه يوسف. . بالله!!هل للإنسان رائحة تشم من البعد البعيد ؟! لقد جاءته رائحة يوسف ، منبعثة من القميص الذى تحمله القافلة ، والقافلة كانت لا تزال تغذ السير ، متجهة إلى أرض كنعان ، بيد أنها لما تبرح حتى الآن حدود أرض مصر . . فكانت لمسافة أكثر من ألف ميل ، وكان القميص مخبوءًا على ظهور الإبل بين الأوعية ، فكيف خرجت رائحته فوصلت يعقوب عليه السلام فى معتكفه؟!أمام هذا الأمر ، ينبغى أن نقف خاشعين . . فتلك لعمر الله قدرة الإله العظيم ، ولله عز وجل ألطاف خفية ، لا تستند إلى القوانين التى نتعامل بها ، بل نستند إلى العظيم الذى يقول للشىء كن فيكون . . ولا غرو فيعقوب عليه السلام، نبى مرسل، ويوسف نبى مرسل، وكلاهما على صلة وثيقة بوحى الإله الذى يأتى بأخبار الغيب. قال تعالى: **﴿ عَالِمُ الْغَيْبِ فَلا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِ أَحَدًا (٢٦) إِلاَّ مَنِ ارْتَضَىٰ مِن رَّسُولٍ ﴾** [الجن] .

يعقوب يعلن : إنى لأجد ريح يوسف

﴿ إِنِّي لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ لَوْلَا أَن تُفَنِّدُونِ ﴿٩٤﴾ ﴾

إذ قالَ فيمنْ حولَه : كونوا لقولِى مدرِكين ١٢
إنى أشُمّ لريحِ يوسفَ فى الركَابِ القادِمين ١٣
لا تنكِروا قولِى ، وكونوا بالمقالةِ موقِنين ١٤
لولا ملامتُكمْ لقلتُ مؤكّدًا : هذا يَقين ١٥

لقد تأكد نبى الله يعقوب عليه السلام ، أن الرائحة التى هبت عليه ، وملأت حاسة الشم لديه ، هى رائحة يوسف ولده ، ما فى ذلك من شك . إن تأكده من ذلك ، كان من حدسه ، أو من الجهة العليا التى لا تنفك تمده بصادق المعلومات التى لا يتسرب الشك إليها . . لقد اطمأن إلى أن هذه هى رائحة يوسف ، فمن ثم هتف قائلاً : ﴿ إِنِّي لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ ﴾ . كل من فى البيت ، سمعوا ما قاله الشيخ ، أصيبوا بالدهشة ، تساءلوا فيما بينهم قائلين : ماذا يقول الشيخ ؟! شعر الشيخ أنهم يتهامسون، فى غرابة وارتياب، فكرر قوله للمرة الثانية ، ليتأكدوا مما سمعوه ﴿ إِنِّي لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ لَوْلَا أَن تُفَنِّدُونِ ﴿٩٤﴾ ﴾ أى لا تسخروا منى ، لا تنكروا منى هذا القول ، لا تظنوا بى الظنون ، فأنا بكامل قواى العقلية ، لم أفقد صوابى ، إنكم تشكون فى قولى هذا ، وسوف تفسرونه حسب تصوراتكم التى بنيتموها على حسابات خاطئة . . إلا أننى أؤكد لكم ، أن هذا الذى أقوله ، هو حق صواب .

قال الفخر الرازى : واختلفوا فى كيفية وصول تلك الرائحة إليه ، فقال مجاهد : هبت ريح فصفقت القميص ، ففاحت روائح الجنة فى الدنيا ، واتصلت بيعقوب ، فوجد ريح الجنة ، فعلم عليه السلام أنه ليس في الدنيا من ريح الجنة ، إلا ما كان من ذلك القميص ، فمن ثم قال : ﴿ إِنِّي لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ ﴾ .

قال الأستاذ عبد الكريم الخطيب : « أما كيف وجد يعقوب ريح يوسف فى هذا القميص ، على هذا المدى البعيد ، الذى أحد طرفيه مصر ، وطرفه الآخر كنعان ، فإن هذا السؤال يرد على أى قميص ، سواء أكان القميص الذى يقال إنه قميص إبراهيم ،

أم قميص آخر . والذى علينا ، هو أن نصدق يقينًا ، بأن يعقوب قد وجد ريح يوسف من مصر ، أما هذه الريح التى وجدها يعقوب ، فهى إما أن تكون ريحًا شمها فعلاً بأنفه على الحقيقة ، كما تُشم أرواح الأشياء ذات الريح ، وإما أن تكون هذه الريح مشاعر وخواطر مثلت له يوسف مقبلاً عليه أشبه بالطيف الزائر فى المنام ، أو الخاطر المسعد فى اليقظة ، وذلك كله من ألطاف الله تعالى بيعقوب ، ومن إشراق نفسه الصافية ، وانطلاق الروح من قيود المادة والجسد » القصص القرآنى .

قال صاحب كتاب: « تأملات فى سورة يوسف » :وما معنى قول يعقوب : ﴿ إِنِّي لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ ﴾ معناه أن يوسف حى يرزق ، بل معناه أن ريحه متجهة إليه ، بل إنها ليست بعيدة منه .وإذا كان كل ذلك يفهم من كلامه ضمنًا، فإن الجزئية التالية ﴿لَوْلَا أَن تُفَنِّدُونِ ﴿٩٤﴾﴾ قوة لما سبقها على ذلك الفهم إذ أنها تكاد تكون قولاً صريحًا، بقرب لقائه بابنه الحبيب، يوسف ، ولولا خوفه من نسبة آله له إلى ضعف الرأى ، لصرح بذلك . فإنى معنى هذه الجزئية ﴿ لَوْلَا أَن تُفَنِّدُونِ ﴿٩٤﴾ ﴾ لولا خوفى من نسبتكم الخرف لى، لكان لى تعبير أكثر صراحة ووضوحًا ، ولقلت لكم ، قد حانت ساعة لقائى بابنى الحبيب يوسف ، بعد طول غياب ، والله أعلم .

يعقوب يتهم بالضلال والخطأ

﴿ قَالُوا تَاللَّهِ إِنَّكَ لَفِي ضَلَالِكَ الْقَدِيمِ (٩٥) ﴾

كانتْ إجابتُهم كلامًا فيهِ عُنْفُ اللائمين ١٦
تاللهِ إنكَ لا تزالُ على ضلالِ التائهين ١٧
هل لا تزالُ لذكرِ يوسفَ، بعدَ عشراتِ السنين ؟! ١٨
قد صارَ يوسفُ دون شكٍ فى عدادِ الغابرين ١٩
فلتَنْسَهُ كى تستريحَ ، وكنْ من المتجَلدِين ٢٠

لما أعلن يعقوب عليه السلام، فيمن حوله من أهل بيته، من النسوة والأولاد قائلاً: ﴿ إِنِّي لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ لَوْلَا أَن تُفَنِّدُونِ (٩٤) ﴾ . لم يخف أهل بيته استنكارهم لهذا القول، الذى اعتبروه هذرًا، وسفهًا من الرأى، بل أظهروا له ما كانوا يتهامسون به ، فيما بينهم عنه . . كانوا يقولون عنه: إنه شيخ ضال، من شدة الأحزان ، فقد رشده ، فصار يهذى، لا يدرى ما يقول . . وها هم الآن ، يؤكدون هذا المعنى فيقولون : ﴿ قَالُوا تَاللَّهِ إِنَّكَ لَفِي ضَلَالِكَ الْقَدِيمِ (٩٥) ﴾. أى كف أيها الشيخ عن ذكر يوسف ، لأن ذلك يسبب لك الضيق والآلام ، فانسه واترك الأمر ، وتذرع بالصبر ، لأن يوسف قد ذهب ، منذ عشرات السنين ، ألا يكون ذلك دليلاً على أنه هلك ، وأصبح فى عداد الغابرين ؟!

قال القاضى بيضاوى فى تفسيره : « قالوا ـ أى الحاضرون ـ ﴿ تَاللَّهِ إِنَّكَ لَفِي ضَلَالِكَ الْقَدِيمِ (٩٥) ﴾ .أى لفى ذهابك عن الصواب قدمًا ، بالإفراط فى محبة يوسف ، وإكثار ذكره ، والتوقع للقائه ».

قال ابن كثير فى تفسيره: « وقولهم: ﴿ إِنَّكَ لَفِي ضَلَالِكَ الْقَدِيمِ (٩٥) ﴾ قال ابن عباس: لفى خطئك القديم .

وقال قتادة: أى من حب يوسف: لا تنساه ولا تسلاه ، قالوا لوالدهم كلمة غليظة، لم يكن ينبغى لهم أن يقولوها لوالدهم: ولا لنبى الله ﷺ. . وكذا قال السدى وغيره» .

قلت : الذين قالوا ليعقوب : ﴿ إِنَّكَ لَفِي ضَلَالِكَ الْقَدِيمِ (٩٥) ﴾ ليسوا أولاده ، وإنما هم نساء أولاده ، وأولادهم ممن هم فى البيت أيضًا . . ذلك لأن يعقوب قال : ﴿ إِنِّي لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ ﴾ قبل وصول القافلة التى فيها أولاده ، ومعهم قميص يوسف الذى انبعث منه الرائحة .وأرى أن الذين نسبوا هذه الجملة « إنك لفى ضلالك القديم » لأبناء يعقوب ، بأنهم قالوها لأبيهم : قد جانبهم الصواب .

يعقوب يعود إليه بصره

﴿ فَلَمَّا أَن جَاءَ الْبَشِيرُ أَلْقَاهُ عَلَىٰ وَجْهِهِ فَارْتَدَّ بَصِيرًا ﴾

العيرُ قد وصلتْ لحيثُ الأهلُ كونوا نازِلين ٢١
جاءَ القميصُ مع البشيرِ ، وفرحةٌ فى القادِمين ٢٢
ألقى القميصُ عليهِ أصبحَ فى عِدادِ المبصِرين ٢٣
الشيخُ يشكرُ ربَّهُ شكرَ الرجالِ العارِفين ٢٤

لقد وصلت القافلة أرض كنعان فى الشام ، إلى المكان الذى فيه مساكن آل يعقوب.. وقد كان أبناء يعقوب ، فى الوقت نفسه مملوئين فرحة وسرورًا ، لماذا ؟! لأنهم يحملون معهم ما فيه سعادة لأبيهم ، ويدخل السرور على قلبه .. فهم لم يروه مبتسمًا منذ أن غاب يوسف .. أما الآن فسوف يبتسم .. هذا من ناحية ، ومن ناحية أخرى، فإن حالهم سوف يتبدل من الشقاء إلى السعادة ، ومن شظف العيش إلى رغده، ومن الأحزان إلى الأفراح .هذا كله سوف يكون بسبب لقائهم بيوسف ، إنه الضالة المنشودة ..لسوف تضحك لهم الحياة بعد عبوسها .

أحد أبناء يعقوب،تباطأ سير الإبل ، فأخذ القميص ـ عندما اقتربوا من قريتهم ـ وانطلق يسابق الريح ، عدوًا على رجليه ، بشيرًا كى يبشر أباه ، كما هى العادة عند أهل البادية ، وأهل الحضر أيضًا : دخل البشير على أبيه فى معتكفه القابع فيه .. والذى قضى فيه سنىّ أحزانه .. فألقى قميص يوسف على وجهه .. فورًا ارتد إليه بصره .. يا الله!! لقد تم هذا بسرعة ، كان أشبه بمصباح كهربائى غير مضاء ، فضغط بأصبعه على مفتاح الإضاءة،فأضاء .

فكأن يعقوب عليه السلام، لم يكن طوال المدة الماضية ، أعمى لا يبصر! بل كان مغمضًا عينيه فقط ، فلما ألقى القميص على وجهه،فتح عينيه، فأبصر .. من ثم فإننا لا نستطيع أن نفسر هذا بأفهامنا المادية القاصرة .. لأنه أمر يجرى بقوانين غير القوانين التى نحتكم إليها نحن .. إنها علاقة بين نبيين كريمين .. قد يكون بينهما تراسل روحى ،

ولدى كل منهما علم من الله لدنّى . . علم من الله ليوسف بأن قميصه سوف يعيد إلى أبيه بصره ، بمجرد إلقائه على وجهه ، وعلم من الله ليعقوب أوصل له ريح القميص، من مسيرة ألف ميل !!

قال الفخر الرازى : قال جمهور المفسرين : البشير هو يهوذا ، قال : أنا ذهبت بالقميص الملطخ بالدم وقلت : إن يوسف أكله الذئب ، فاذهب اليوم بالقميص ، فأفرحه كما أحزنته .

قوله تعالى : ﴿ أَلْقَاهُ عَلَىٰ وَجْهِهِ ﴾ أى طرح البشير القميص على وجه يعقوب ، أو يقال : ألقاه يعقوب على وجه نفسه قوله تعالى : ﴿ فَارْتَدَّ بَصِيرًا ﴾ أى رجع بصيراً ، ومعنى الارتداد ، انقلاب الشىء إلى حالة قد كان عليها .

واختلفوا فيه فقال بعضهم : إنه كان قد عمى بالكلية ، فالله تعالى جعله بصيراً فى هذا الوقت .

وقال آخرون : بل كان قد ضعف بصره من كثرة البكاء وكثرة الأحزان ، فلما ألقوا القميص على وجهه ، وبُشِّر بحياة يوسف عليه السلام عظم فرحه ، وانشرح صدره، وزالت أحزانه ، فعند ذلك قوى بصره وزال النقصان عنه .

يعقوب يعنف بنيه

﴿ قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لا تَعْلَمُونَ (٩٦) ﴾

ويوجهُ القولَ العنيفَ إلى بنيه السامعين ٢٥
أفَقَدْ رأيتُم أن قولى كلّه صدقٌ مُبين ؟! ٢٦
فَلكَمْ سخرتُم من مقَالى ، لم تكُونوا مُوقنين ٢٧
أفلمْ أقلْ : إنى علَى علمٍ ، ولستُم عَالمين ؟! ٢٨
قالوا : صدقتَ ، فإننا كنا جميعًا جاهلين ٢٩

يعقوب عليه السلام ، فتح عينيه وأبصر ، بعد عمى حقيقى .. لقد رأى أولاده ، والبشر يكسو محياهم ، والبسمة على شفاههم .. وكلمات تتردد على ألسنة الجميع ، حول هذا الحدث العظيم .. أخيرًا لقد غشيت الفرحة هذا البيت ، بعد أن كان الغم والحزن يخيمان عليه ، لسنين طويلة . بيد أن يعقوب عليه السلام ، برغم الفرحة الغامرة التى ملأت قلبه ، وقلوب بنيه أيضًا ، لم ينس أن يذكّر أبناءه بموقفهم منه .. وعدم تصديقهم كلامه فيوجه حديثه لهم ، معنفًا مؤنبًا فيقول :هل ثبت لديكم الآن ، أننى كنت صادقًا فى كل كلمة قلتها لكم ؟! هل أيقنتم أيضًا ، أننى على علم من الله لا تعلمونه أنتم ؟! لم يستطع أحد منهم أن ينبس ببنت شفة .. سلبًا أو إيجابًا ، معترضًا أو مسلمًا بكل ما يقوله أبيهم . أخيرًا وجدوا أنفسهم صامتين ، بينما أبوهم يتساءل ، إذن فينبغى أن يجيبوا على تساؤلات أبيهم .. فمن ثم هتفوا جميعًا قائلين : صدقت يا أبانا ، فنحن قد كنا أقل وأجهل من أن نتطاول بإدراكنا وأفهامنا ، إلى مقام إدراكك وعلمك ومعرفتك .

قال ابن كثير فى تفسيره : وقال لبنيه عند ذلك : ﴿ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لا تَعْلَمُونَ (٩٦) ﴾ أى : أعلم أن الله سيرده إلى .

قال القاضى بيضاوى فى تفسيره : « ﴿ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لا تَعْلَمُونَ (٩٦) ﴾ من حياة يوسف عليه السلام وإنزال الفرج » .

وقال الفخر الرازى : والمراد علمه بحياة يوسف من جهة الرؤيا ، لأن هذا المعنى هو الذى له تعلق بما تقدم ، وهو إشارة إلى ما تقدم من قوله : ﴿ **إِنَّمَا أَشْكُو بَثِّي وَحُزْنِي إِلَى اللَّهِ وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لا تَعْلَمُونَ (٨٦)** ﴾ .

قلت : ما قاله الفخر الرازى فى هذا المعنى : ﴿ **أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لا تَعْلَمُونَ (٩٦)** ﴾ هو أقرب الأقوال إلى الصواب، وأميل إليه، ذلك لأن الرؤيا التى رآها يوسف الصديق فى صغره ، رؤيا صادقة وحق ، ومن ثم فلابد من تأويلها يومًا ما ، بيد أن تأويلها لما يأت بعد . من هذا المنطلق ، كان يعقوب متأكدًا من حياة يوسف ، هذا من ناحية ، ومن ناحية أخرى ، فإن يعقوب عليه السلام نبى مرسل ، وله مع خالقه العظيم صلة قوية، فليس بمستبعد أن يكون الله عز وجل أخبره بأن يوسف لم يمت ، وهو لما يزل حيًا .

أبناء يعقوب يستعطفون أباهم

﴿ قَالُوا يَا أَبَانَا اسْتَغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا إِنَّا كُنَّا خَاطِئِينَ ﴿٩٧﴾ ﴾

من بعد أن قَالوا : صدقتَ ، تسَاءلوا متوسلِين ٣٠
قالوا : فإنكَ يا أبانَا ، فى عِدادِ المرسَلِين ٣١
ولأنتَ أيضًا مستجابٌ فى دعاءِ الضَّارِعين ٣٢
فاستغفِرِ المولى لنا ، فلقد غدوْنا نادِمين ٣٣
اللهُ غفَّارٌ يحبُّ النادِمين التائبِين ٣٤

أبناء يعقوب الآن فى حالة سعادة غامرة ، فقد انقلب البيت كله من حال إلى حال، من الكآبة والحزن ، إلى الابتسامة والفرح . إنهم فرحون ، والفرحة تغمرهم ، وتملأ قلوبهم ، وذلك بما طرأ عليهم من واقع الحدث الجديد . . هذا الحدث ، سوف تتغير فى ظله حياتهم ، من البؤس والشقاء إلى الأمل ، إلى الاطمئنان ، إلى رغد العيش ، إلى السعادة والراحة . بيد أنهم فى غمرة هذا الفرحة ، لم ينسوا ما فعلوه فى حق يوسف أخيهم ، وبالتالى كذبهم على أبيهم ، بأن الذئب قد أكله . إن شبح هذه الجريمة، يبرز فى خاطر كل منهم ، فينغص عليه فرحته ، فماذا يصنعون ؟! لقد تنادوا ، ثم انتحوا جانبًا ، ليقول كل منهم للآخرين : ما يحس به ، فإذا هم جميعًا فى أحاسيسهم سواء. . فاتفقوا على شىء واحد، هو : أن يسألوا أباهم ، ويتوسلون إليه ، أن يستغفر لهم ذنوبهم ، ويتضرع إلى ربه أن يغفر لهم فقالوا لأبيهم فى ضعف واستعطاف : ﴿ قَالُوا يَا أَبَانَا اسْتَغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا إِنَّا كُنَّا خَاطِئِينَ ﴿٩٧﴾ ﴾ . يا أبانا ! إننا نقر ونعترف بين يديك ، بأننا قد أخطأنا فى حقك بالكذب عليك ، وأجرمنا فى حق أخينا يوسف ، بإلقائه فى الجب . . لا عذر لنا فى هذا ، فاغفر لنا ، واعف عنا ، لقد كنا ضحية كيد الشيطان . . لقد لعب برؤوسنا ، فزين لنا ما فعلناه. لذلك ، فإننا نسألك يا أبانا ، بما أودع الله فى قلبك من حنو وحنان ، وتقوى وإيمان ، أن تلجأ إلى مولاك ضارعًا ، وتستغفر لنا ، عساه أن يقبل توبتنا ، وندمنا ، فأنت نبى ، ومستجاب الدعاء والله عز وجل غفور رحيم ، يغفر للمستغفرين ، ويقبل التائبين ويحبهم .

قال القاضى بيضاوى فى تفسيره : «ومن حق المعترف بذنبه ، أن يصفح عنه ، ويُسأل له المغفرة » .

يعقوبُ يستغفرُ لبنيه

﴿ قَالَ سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّي إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ (٩٨) ﴾

الشيخُ قالَ لهم : عفوتُ ، فلا تكُونوا خائفِين ٣٥
ولسوفَ أطلبُ من إلهى فى دجَى الليلِ السكِين ٣٦
أن يغفرنَّ ذنوبكُم كىْ تصبحُوا متطهرِين ٣٧
ولقدْ توجَّهَ ضارِعًا للهِ ربِّ العَالمين ٣٨
ربّاهُ فاقبلْ دعوتِى ، إنى عفوتُ عن البنِين ٣٩

لقد أحسن نبى الله يعقوب عليه السلام بما يعانيه بنوه من الذلة والإنكسار، إن الخزى والندم يخيمان عليهم، حتى وجوههم، لتبدو كئيبة من هول ما يجول فى أعماقهم، من شعور بالإحباط والضآلة فى هذا الموقف . فقال لهم أبوهم مواسيًا مطمئنًا : اطمأنوا ، لقد عفوت عنكم، فلا تخافوا. . أنتم أبنائى، ويسوؤنى ما يسوؤكم . . ويسرنى ما يسركم . . فأبشروا وابتهجوا ، ولا تجعلوا شبح الماضى ، يعكر صفو هذا اليوم ، الميمون المبارك .

﴿ قَالَ سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّي إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ (٩٨) ﴾ . سوف أطلب من المولى عز وجل ، أن يغفر لكم ذنوبكم ، ويطهركم من خطاياكم، وذلك حينما يذهب ثلثا الليل ، لأن ذلك هو وقت الإستجابة .وفعلاً لقد انتظر يعقوب عليه السلام ، ذهاب معظم الليل ، فوقف بين يدى ربه ضارعًا داعيًا، سائلاً مولاه أن يغفر لبنيه ، وأن يتجاوز عنهم ، ويختتم دعاءه قائلاً : رباه ! إنى عفوت عن أبنائى ، غفرت لهم ، فاعف عنهم واغفر لهم . . إنك أنت الغفور الرحيم.

قال ابن كثير فى تفسيره : ﴿ سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّي إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ (٩٨) ﴾ أى: من تاب إليه ، تاب عليه .

قال ابن مسعود وإبراهيم التيمى ، وعمرو بن قيس ، وابن جريج وغيرهم : أرجأهم إلى وقت السحر .

وعن عطاء وعكرمة ، عن ابن عباس ، عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ﴿ سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّي ﴾ يقول : حتى تأتى ليلة الجمعة ، وهو قول أخى يعقوب لبنيه ، قال ابن كثير فى هذا الحديث : وفى رفعه نظر ، والله أعلم . . عن تفسير الطبرى .

أبناء يعقوب يعرضون على أبيهم الذهاب إلى مصر

....

يعقوبُ معَ أولادِه صاروا معًا متآلفِين ٤٠
الحب صار يسودهم كانوا معًا متباعدين ٤١
قَالوا : فهيًّا يا أبانا ، نأتِ أرضَ الخالدين ٤٢
هيا إلى مصرَ العزيزةِ موطنِ المتحضّرين ٤٣
النيلُ أعطَى أهلَها أمنًا ، فعاشُوا راغِدين ٤٤
فيهَا حبيبُك يوسف ، هو خازنُ المالِ الأمِين ٤٥
قد قالَ : هاتوا لى أبِى ، والأهلَ كُلاً مسرِعين ٤٦

الحب والود ، والألفة والسرور والتفاهم .. كل هذه الصفات هبطت على بيت آل يعقوب عليه السلام .. وذلك بعد كراهة متبادلة بين الشيخ وأولاده .. بسبب ضياع يوسف من قبل .. كان أسلوب التفاهم محدودًا ، بين الشيخ وأولاده .. فهو لم يبرئ أولاده من عمل شىء غير طبيعى ، ضد يوسف .. وهم أيضًا يشعرون بأن أباهم غير راض عنهم كل الرضاء . أما الآن ـ وقد تبين أن يوسف لا يزال حيًا ـ فقد ذهبت الأحزان، من قلب الشيخ، وأيضًا ذهبت معها الكراهة من قلب الشيخ .. فقد كانوا فى ظل الكراهة متباعدين، وحل محلها الحب والسرور والتفاهم، فصاروا إذن متآلفين متقاربين .

أما يعقوب عليه السلام فقد بدا عليه نشاط غير عادى، وصار وجهه مشرقًا بالابتسام، بعد أن كان دائم العبوس، ولم لا! فلقد صدق حدسه أخيرًا، وتبين أن حبيبه الغالى يوسف، لا يزال على قيد الحياة ، بل هو مع بقائه حيًا ، يتمتع بالجاه والسلطان .وقد اغتنم أبناؤه فرصة ابتهاجه ، فقالوا : يا أبانا ..! إنا سنعرض عليك أمرًا ..! فنرجوا أن نجد لديك القبول والموافقة عليه ..! قال الشيخ : ما هو ؟! قالوا : أن نترك هذه الأرض ، ونرحل إلى مصر ، إلى حيث الخير والعز .. فلنترك هذه الأرض الصحراء الجرداء ، ونذهب إلى مصر .. أرض النيل الخالد ، أرض الحضارة والسيادة .. النيل أعطى الأمان لأهل مصر ، فهم فى رغد من العيش ، لا يخافون الجوع . ولا غرو فتلك هى رغبة حبيبك يوسف .. وهو كما علمت ، خازن المال الأمين ، فى مصر كلها .. هو الذى قال : هاتوا أبى وهاتوا كل آل يعقوب ، فلا يبقى أحد من آل يعقوب فى الصحراء القاحلة هنالك .

قافلة آل يعقوب فى طريقها إلى مصر

....

يـعـقُوبُ مـع أبـنـائِه قـد قـرَّروا مـتـكـامليـن ٤٧
أن يرحَلـوا عن أرضِهِم ، أرضِ الجـدودِ الأولين ٤٨
تـركُوا مـنـازلَهم لأرضِ الـنـيـلِ صَاروا ذاهبـين ٤٩
وصَلـوا هنـالِكَ حـيـثُ كـانَ الحِبُّ وضَّاءَ الجَبين ٥٠

لقد استمـع يعقوب عليه السلام حديـث أولاده ، حيث عرضـوا عليـه أمر الرحيـل إلى مصر . . وأن يتركوا تلك البلاد التى ضنت عليهم ، بأدنى مطالب الحياة : هو الطعام .

بيد أن يعقوب ، لم يستقبل هذا الأمر بـإعجاب وتحمس . . بل استقبله بفتور . . ذلك لأنه أمر لم يـفكر فيه من قبل . . لم ينـاقشه مع نفسه يوما مـا . . لم يَدُرْ بخلده يومًا ما ، أن يهاجر من موطنه . . مـوطن الآباء والأجداد . . مسقط الرأس . . مدرج الطفولة ومـربع الصبا . . وفيه ما فيـه من ذكريات عزيزة . . إنه قرار يـحتاج إلى روية وأناة. لمح أبناء يعقوب ، ما يدور فى أعماق أبيهم ، بعد ما طرحوا عليه أمر الرحيل من أرض كنعان إلـى مصر . . فأخذوا ينـاقشونه بهدوء ، ودار حوار بـينه وبينهـم ، انتهى بإقناع الشيخ بفكرة الرحيل إلى أرض مصر .

لقد اقتنع الشيخ أخيرًا، بالرحيل من أرض كنعان . . أرض الآباء والأجداد، وفعلاً، لقد تحركت القافلة صوب مصر، يحدوها حنين جارف فى قلوب الجميع ، لا سيما قلب يعقوب، الذى يريد أن يطير بغير أجنحة ، مسارعًا لرؤية ولده الحبيب ، يوسف ، الذى هدته الأحزان ، بسـبب غيابه . . وقد ظل ملء خيـاله ووجدانه ، طيلة مدة غـيابه قيل هى: أربعون سنة . ويا للعجب !! فيعقوب عليه السلام لم يشك خلال تلك السنين الطويلة ، فى أن ولده يوسـف ، لا يزال حيًا . وبعد مسـيرة طويلة وشاقة ، قـطعتها القـافللة ، متجهة من الشام إلى مصر ، وصلوا إلى مشارف مصر . . مصر التى تحوى بين أحضانها الأحبة . . لاسيما يوسف الذى يتلألأ النور من جبينه ، ومن منطقه أيضًا .

يوسف يستقبل أبويه وإخوته

﴿ فَلَمَّا دَخَلُوا عَلَىٰ يُوسُفَ آوَىٰ إِلَيْهِ أَبَوَيْهِ وَقَالَ ادْخُلُوا مِصْرَ إِن شَاءَ اللَّهُ آمِنِينَ (٩٩) ﴾

دخلوا علـى الصِّديـق قد كانـوا لـه متشوِّقين ٥١
أعطَى إلـى ابـويـه قُرْبًا ، ـم برِّ المؤمـنـين ٥٢
بل قالَ : مرحـى ، ادخلوا مصرَ العزيزَةَ آمِنين ٥٣

لقد واصلت القافلة مسيرتها، فى قرى مصر وضواحيها ، حتى وصلوا المكان الذى يضم يوسف الصديق،هو مقر الدولة وكل الدوائر الحكومية . كان يوسف قد أعد لأبيه وإخوته استقبالاً ، يلـيق بمكانته هو ، لكونه ذا مكانة مرموقة فى الدولة . . إنه خازن المال الأمين . . وتلك كانت أعظم وأرفع منزلة يـتبوأها إنسان فى مصر . وفعلا لقد تم استقبال أبويه وإخوته،وتم الاحتفاء بهم ، وتكريمهم على أعلى مستوى رسمى وشعبى. وقد كان يوسف عليه السلام، بين المستقبلين ، وعلى الأصح على رأس المستقبلين ، فى موكبه المهيب ، تحفه الخدم والجند ، عليه مهابة الملوك ، وعظمة السلطان . . فلما رأى أبويه وإخوته مقبلين ، ترجل ، وسعى نحوهم على قدميه ، مبالغة فى تحيتهم ، وإظهارًا لتعظيمهم فى أعين المستقبلين لهم . تعانقوا وتصافحوا ، ولا غرو فالشوق يتأجج فى جوانح كل منهم . . وقد كان المستقبلون يحيونهم ، ويلوحون بالأيدى . احتضن يوسف أبويه وقال لهم : مرحبًا بكم فى مصر ، ادخلوها بأمن وأمان ، أنتم الآن بين شعب مصر العريق المضياف . . ولسوف تجدون فى مصر أهلاً ، وتنزلون منزلاً سهلاً .

قال الأستاذ عبد الكريم الخطيب : « فلما دخلوا على يوسف ، آوى إليه أبويه وقال ادخلوا مصر إن شاء الله آمنين » أى أنهم حين دخلوا على يوسف ، فى مجلس حكمه وسلطانه ، أخذ بيد أبويه ، وضمهما إليه ، ومن ورائهما إخوته ، وحياهما تحية السلام والإكرام » (١) .

قال ابن كثير فى تفسيره : «يخبر تعالى عن ورود يعقوب عليه السلام على يوسف عليه السلام وقدومه بلاد مصر ، لما كان يوسف قد تقدم إلى إخوته أن يأتوا بأهلهم أجمعين ، فتحملوا عن آخرهم ، وترحلوا من بلاد كنعان ، قاصدين بلاد مصر ، فلما أخبر يوسف عليه السلام باقترابهم ، خرج لتلقيهم ، وأمر الملك أمراءه ، وأكابر الناس ، بالخروج مع يوسف ، لتلقى نبى الله يعقوب عليه السلام » .

---

(١) القصص القرآنى .

يعقوب وأولاده يسجدون ليوسف تعظيمًا

﴿ وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى الْعَرْشِ وَخَرُّوا لَهُ سُجَّدًا ﴾

لما اطمأنُّوا إذ بهم خرُّوا جميعًا ساجِدين ٥٤
كان السجُود تحيةً ، لا ، لم يكونوا عابِدين ٥٥
أو ربّما سجَدوا لربِّ العرشِ سجدةَ شاكِرين ٥٦
العرشُ قد جلسُوا عليهِ ، بأمرِ يوسفَ عن يقِين ٥٧

وصل موكب المحتفى بهم - يعقوب عليه السلام وأبناؤه - إلى قصر الملك الذى يضم كبار رجال الدولة . . وهنالك حينما وجدوا أنفسهم،وسط قصر عظيم،فيه الأرائك مصفوفة، والفُرش وأنواع الطنافس الثمينة، تغطى أرض القصر ، وتلك لعمر الله هى أروع مظاهر الأبهة ، والجاه والسلطان ، أدركوا أن يوسف عليه السلام يعيش فى هذا القصر ، وقد تهيأت له كل أسباب الحياة، من حيث الرفاهية والترف . . حينئذ لم يتمالكوا أنفسهم. . فخروا ساجدين جميعهم . نعم ، لقد سجدوا جميعًا . . هكذا أخبر القرآن الكريم . . فمن أى أنواع السجود كان سجودهم؟! أهو سجود عبادة؟! وهذا بعيد جدًا . . أم هو سجود تشريف وتحية ؟! وهذا هو الأرجح ، قيل : كان هذا معمولاً به عندهم . . كانوا يحيون العظماء هكذا بالسجود . ثم أجلس يوسف عليه السلام أبويه على سرير الملك ، زيادة فى إكرامهم ، وإشعارهم بمكانتهم لديه .

قال ابن كثير فى تفسيره: « ﴿ وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى الْعَرْشِ ﴾ قال ابن عباس ومجاهد وغير واحد: يعنى السرير،أى أجلسهما معه على سرير . ﴿وَخَرُّوا لَهُ سُجَّدًا﴾أى سجد له أبواه وإخوته الباقون،وكانوا أحد عشر رجلاً ، وقد كان هذا سائغًا فى شرائعهم ، إذا سلموا على الكبير ،سجدوا له. .ولم يزل هذا جائزًا ، من لدن آدم إلى شريعة عيسى عليه السلام . . فحرم هذا فى هذه الملة ، وجعل السجود مختصًا بجناب الرب سبحانه وتعالى » .

قال القاضى بيضاوى فى تفسيره : « ﴿ وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى الْعَرْشِ وَخَرُّوا لَهُ سُجَّدًا ﴾ تحية وتكرمة له ، فإن السجود كان عندهم ، يجرى مجراها ، وقيل معناه : خروا لأجله سجدًا لله شكرًا » . ﴿ وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى الْعَرْشِ وَخَرُّوا لَهُ سُجَّدًا ﴾ أجلسهما معه على العرش - السرير - أى أبواه وإخوته ، سجدوا له سجود انحناء ، لا وضع جبهة ، وكان تحيتهم فى ذلك الزمان » (١) .

(١) تفسير الجلالين .

رؤيا يوسف القديمة تتحقق

﴿ وَقَالَ يَا أَبَتِ هَذَا تَأْوِيلُ رُءْيَايَ مِن قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّي حَقًّا ﴾

لما رآهم يوسفٌ سجدوا سجودَ الخاشعين ٥٨
هتفتْ خواطرُه ببعضِ الذكرياتِ السابقين ٥٩
فتذكَّرَ الرؤيا التى أودتْه للكيدِ المشين ٦٠
مِن ثَم قال مخاطبًا لأبيه بالقولِ المبين ٦١
هذى هى الرؤيا القديمةُ فُسِّرتْ للعَالمين ٦٢
رؤياى كانتْ يا أبِى حقًا شبيهًا باليقِين ٦٣

أما يوسف الصديق ، فقد امتلأ سعادة وسرورًا ، وهو يرى أبويه وإخوته وهم يسجدون له . . ولا غرو فتلك كانت هى التحية التى يؤديها سواد الشعب ، للعظماء من الحكام والملوك . إن هذا السجود أشبه بسجود العبادة، لا فرق بينهما . . فهذا سجود وذاك سجود، وإنما الفرق فى النية فحسب . وتهيج الخواطر والذكريات ، فى رأس يوسف الصديق عليه السلام ، تأثرًا بهذا الموقف ، وتقفز أحداث الماضى فى ذاكرته ، فَتَمثُل كأنها قد حدثت الآن. . أو من الممكن أن تقول : حينئذ عاد بذاكرته إلى الوراء ، يجتر أحداث الماضى القديم . . فتذكر رؤياه التى كان رآها وهو صبى صغير ، وقصها على أبيه ، والتى كانت سببًا فى حقد إخوته عليه، فمن ثم كادوا له .

فهتف يوسف قائلاً لأبيه : ﴿ يَا أَبَتِ هَذَا تَأْوِيلُ رُءْيَايَ مِن قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّي حَقًّا ﴾ أى أرأيت يا أبت ! هذا هو تأويل رؤياى التى كنت رأيتها ، وأنا صبى صغير ، وكان بسببها ما كان ! إذن فقد كانت رؤيا صدق وحق . . وها هى ذى قد تحققت .

قال صاحب القصص القرآنى : «وإذ يشهد يوسف هذا المنظر ، يذكر رؤياه التى رآها عندما كان صبيًا ، والتى قصها على أبيه فى قوله : ﴿ يَا أَبَتِ إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ ﴿٤﴾ ﴾ ثم ذكر ما قاله له أبوه إذ ذاك : ﴿ يَا بُنَيَّ لا تَقْصُصْ رُءْيَاكَ عَلَىٰ إِخْوَتِكَ ﴾ وها هو ذا يوسف يرى تأويل رؤياه واقعًا محسوسًا بعد أن رآها فى تأويل أبيه لها ، وعدًا بخير عظيم ، ودرجة عالية عند الله تعالى ، إذ يرى يوسف هذا كله يقول لأبيه : ﴿ يَا أَبَتِ هَذَا تَأْوِيلُ رُءْيَايَ مِن قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّي حَقًّا ﴾ أى أن هذه الرؤيا التى رآها يوسف فى صباه، قد تحققت اليوم ، إذ قد جعلها الله تعالى رؤيا صادقة، لأن فى الرؤى ما يصدق وما يكذب، ورؤى الأنبياء لا تكون إلا صدقًا، ويوسف وإن لم يكن نبيًا حين رأى تلك الرؤيا ، فإنه مرشح للنبوة ، لابس إهابها منذ ولد » .

يوسف يعترف بفضل الله عليه

﴿ وَقَدْ أَحْسَنَ بِي إِذْ أَخْرَجَنِي مِنَ السِّجْنِ وَجَاءَ بِكُم مِّنَ الْبَدْوِ مِن بَعْدِ أَن نَّزَغَ الشَّيْطَانُ بَيْنِي وَبَيْنَ إِخْوَتِي ﴾ .

قد تمَّ ما قدْ شاءه المولَى ، وكنَّا غافلين ٦٤
اللهُ أكرمَنِى فأخرجَنِى من السِّجنِ المهين ٦٥
أيضًا وجاء بكُم ، وكنتُم فى البداوةِ ماكثين ٦٦
قد كانَ للشيطانِ نزغٌ فى قلوبِ مظلمين ٦٧
بينى وبينَ بنِى أبِى ، قد كانَ نزغٌ للعين ٦٨

يستطرد يوسف الصديق عليه السلام فى حديثه لأبيه فيقول : هكذا قد تم ما أراده الله عز وجل .. وما قُدر يكون .. ولا يقع فى كون الله إلا ما أراده الله .. أما ما لم يقع ، فذلك شىء مخبوء فى ضمير الغيب ، لا ندريه . ولا غرو فهذه المحنة كانت ابتلاء لنا جميعًا .. فمنا من خرج من هذا الابتلاء ، كالذهب الإبريز ، لم تزده المحنة إلا إيمانًا بربه ، وبقضائه وقدره ، ومنا من كان دون ذلك **﴿ وَقَدْ أَحْسَنَ بِي إِذْ أَخْرَجَنِي مِنَ السِّجْنِ ﴾** . وقد أكرمنى ربى ، فأخرجنى من السجن عزيزًا مكرمًا .. **﴿ وَجَاءَ بِكُم مِّنَ الْبَدْوِ مِن بَعْدِ أَن نَّزَغَ الشَّيْطَانُ بَيْنِي وَبَيْنَ إِخْوَتِي ﴾** . ثم أراد الله عز وجل ، فساقتكم الأقدار ، فجئتم من البادية للإقامة فى مصر ، وتلك لعمر الله نعمة من الله ، تستوجب الشكر .. لأن الإقامة فى المدينة ، خير منها فى البادية ، لقوله عليه الصلاة والسلام : « من بدا جفا » لقد جئتم وافدين إلى مصر كغيركم أول الأمر ، تطلبون الميرة ، حيث عم القحط كل بلاد الشرق ، خلا مصر .. مصر الغنية بنيلها الخالد ، يمدها بأسباب الحياة ، إنه شريان الحياة فى مصر . وقد كان الشيطان لعنه الله ، لعب دورًا هامًا ، فأفسد بينى وبين إخوتى ، وقد نجح فى ذلك عليه اللعنة .

قال الأستاذ عبد الكريم الخطيب : فى « القصص القرآنى » « وفى قوله : « **﴿ وَقَدْ أَحْسَنَ بِي إِذْ أَخْرَجَنِي مِنَ السِّجْنِ وَجَاءَ بِكُم مِّنَ الْبَدْوِ ﴾** إشارة إلى التحول من البدو إلى الحضر ، يُعد من النعم التى تستوجب الحمد والشكران لله رب العالمين ، وذلك لما فى حياة البدو من جفاء وغلظة وجاهلية ، على خلاف حياة الحضر وما فيها من نعم كثيرة ، وخير عظيم ، لمن يرعى حق هذه النعم ، ويؤدى شكر هذا الخير » .

يوسف يشكر مولاه

﴿ إِنَّ رَبِّي لَطِيفٌ لِّمَا يَشَاءُ إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ (١٠٠) رَبِّ قَدْ آتَيْتَنِي مِنَ الْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِي مِن تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ ﴾ .

حمدًا إله العرشِ إنك ناصرُ المستضعَفين ٦٩
أنتَ اللطيفُ لما تشاءُ وراحمُ المسترحِمين ٧٠
أعطيتنِي مُلكًا وفضلاً ، فوقَ حُلْمِ الحَالمين ٧١
أعطيتَنى علمًا لتفسيرِ الرؤَى للنائِمين ٧٢

لا زال يوسف الصديق، يتحدث إلى أبيه، حديثًا فيه إيمان، وفيه تقوى، وفيه عبر وعظات .. لقد صقلته الأحداث ، وصهرته المصائب والابتلاءات ، فصار لا ينطق إلا بالحكمة .. ولا غرو فهو قد أصبح نبيًا ، والأنبياء لا ينطقون إلا بما فيه معنى وحكمة. فحديثهم إما أن يكون أمرًا بخير ، أو نهيًا عن شر ، أو دعوى إلى الإيمان بالله وتوحيده وتعظيمه فيقول يوسف : **﴿ إِنَّ رَبِّي لَطِيفٌ لِّمَا يَشَاءُ إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ (١٠٠) ﴾** نعم، إن الله عز وجل ذو لطف ورحمة .. وإذا ما أراد أمرًا ، فإنه يهيئ له الأسباب، ويقدر الأقدار ، وييسر السبل لتنفيذه .. إنه العليم الذى لايخفى عليه شىء فى الأرض ولا فى السماء ، الحكيم فى أفعاله وأقواله ، وقضائه وقدره . **﴿ رَبِّ قَدْ آتَيْتَنِي مِنَ الْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِي مِن تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ ﴾** . إن يوسف عليه السلام يشكر ربه على ما أسبغ عليه من كريم نعمه ، فلقد تولى أرفع مكانة فى ملك مصر .. إنه يعترف بفضل ربه عليه ، إذ علمه تأويل الأحلام ، وربما يكون قصده ، النبوة .

قال القاضى بيضاوى فى تفسيره :« **﴿ إِنَّ رَبِّي لَطِيفٌ لِّمَا يَشَاءُ ﴾** لطيف التدبير له ، إذ ما من صعب إلا وتنفذ فيه مشيئته ، ويتسهل دونها **﴿ إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ ﴾** بوجوه المصالح والتدبير **﴿ الْحَكِيمُ ﴾** الذى يفعل كل شىء فى وقته ، وعلى وجه يقتضى الحكمة .

روى أن يوسف عليه السلام طاف بأبيه فى خزائنه ، فلما أدخله خزانة القراطيس ، قال: يا بنى!ما أعقل ؟! عندك هذه القراطيس وما كتبت إلىّ ،على ثمانى مراحل؟! قال أمرنى جبريل ، قال : أو ما تسأله ؟! قال : أنت أبسط منى إليه ، فسأله ، قال جبريل : الله أمرنى بذلك ، لقولك : **﴿ وَأَخَافُ أَن يَأْكُلَهُ الذِّئْبُ ﴾** قال: فهلا خفتنى ؟! **﴿ رَبِّ قَدْ آتَيْتَنِي مِنَ الْمُلْكِ ﴾** بعض الملك ، وهو ملك مصر **﴿ وَعَلَّمْتَنِي مِن تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ ﴾** الكتب والرؤيا ، ومن أيضًا للتبعيض ؛ لأنه لم يؤت كل التأويل » .

يوسف يتضرع إلى مولاه

﴿فَاطِرَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ أَنتَ وَلِيِّي فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ تَوَفَّنِي مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ (١٠١)﴾

يا خـالقــاً لسمـائنا ولأرضنــا والعَـالمين ٧٣
أنت الـولىّ ومـلجأى ، لا شـكَّ فى دنـيًا ودين ٧٤
يا رب خـذنى مسـلمًا وتـوفنـى فى الـصالحين ٧٥

﴿ فَاطِرَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ (١٠١) ﴾ أى يا خالق السماوات والأرض ، ومبدعهما فى أحسن وأجمل صورة ، وخالق ما بينهما من عوالم ، بحيث لا يغيب عن علمك شىء من أحوالهم ﴿ أَنتَ وَلِيِّي فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ ﴾ أنت ربى وخالقى ، وإليك أمرى فى كل أحوالى، أنت حولى وقوتى، لا ملجأ لى إلا أنت، فى هذه الدنيا المملوءة بالأعاجيب.. وفى الآخرة ، يوم لا ينفع مال ولا بنون إلا من أتى الله بقلب سليم . ﴿ تَوَفَّنِي مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ (١٠١) ﴾ . أى أسألك يا مولاى ، أن تميتنى على الإسلام . . إنه الدين القيم الذى ارتضيته لعبادك ، وأرسلت به رسلك .واجعلنى يا رب فى عداد عبادك الصالحين ، الذين سوف يفوزون بالتكريم يوم القيامة ، ويجوزون على الصراط وهم آمنون ، ويقفون فى ظل العرش يوم لا ظل إلا ظله .

قال الأستاذ عبد الكريم الخطيب فى « القصص القرآنى »: « وبهذه الابتهالات والضراعات، وبتلك التسابيح والصلوات،يستقبل يوسف هذه النعم التى أنعم الله بها عليه.. فإنه بعد أن سوى حسابه مع أبيه وإخوته،وبعد أن وضع الأمور فى نصابها بينهم وبينه ، وأعطى كل ذى حق حقه ، خلص إلى مناجاة ربه، وإلى رفع آيات الحمد والشكران له » .

قال ابن كثير فى تفسيره: « هذا دعاء من يوسف الصديق ، دعا به ربه عز وجل ، لما تمت النعمة عليه ، باجتماعه بأبويه وإخوته ، وما من الله به عليه من النبوة والملك ، سأل ربه عز وجل ، كما أتم نعمته عليه فى الدنيا ، أن يستمر بها عليه فى الآخرة ، وأن يتوفاه مسلمًا حين يتوفاه . . قاله الضحاك . . وأن يلحقه بالصالحين ، وهم إخوانه من النبيين والمرسلين ، صلوات الله عليهم أجمعين » .

ختام قصة يوسف

....

تلكُم حكـايةُ يوسفَ الصِّديقِ فـى الذكْرِ الحكِيم ٧٦
هـىَ قصـةٌ عصْمَاءُ جـاءتْ كى تجيبَ الـسائلِـين ٧٧
فـيهَا عـظـاتٌ ، فاقْرأوهـا تسْتـفـيدُوا عـن يقِين ٧٨

هذه قصة يوسف الصديق عليه السلام .. صغتها شعرًا من واقـع الآيات القرآنية ، التى انتظـمت أحداث القـصة .. ثم ترجـمت هذا الشعـر ، إلى نثر ، بـأسلوب بعـيد عن التكلف، مستعينًا بآراء المفسرين ، وكبـار رجال الفكر من غير المفسرين . ولا غرو فهى قصة فريدة ، لم يرد ذكـرها فى القرآن الكريم ، إلا فى تلك السورة الـتى سميت باسم صاحب الـقصة وبطلـها .. يوسف . وسبـب عدم ذكرها فـى أكثر من سورة كـما هو الشأن فى قصص الأنبـياء .. كقصة نوح وإبراهيم وموسى وعيسى وغيرهم ! هى أنها جاءت إجابة على تساؤلات كانت مطروحة، وتتردد على كثير من الألسنة فى قوله تعالى: ﴿ لَقَدْ كَانَ فِي يُوسُفَ وَإِخْوَتِهِ آيَاتٌ لِّلسَّائِلِينَ ۝٧ ﴾ . إنها بلا شك قصة عجيبة، فيها من العبر والعظات ما لو تدبرها الناس، لكانوا إلى السعادة أقرب منهم إلى الشقاء، ولأخذت بأيديهم إلى رحاب الإيمان، لأن الله عز وجل، حينما يبتلى عباده، فإنه يكون قد هيأهم لما فيه خيرهم ومصلحتهم. ولنقتطف من كلام الأستاذ عبد الكريم الخطيب ، بعض السطور ، المشرقة بالمعانـى الفياضة إذ يقـول : « فمن كان يقع فى تـقديره أن تلك الأحداث الـتى وقعت ليوسف: من إلقائه فـى الجب، إلى وقوعه فى يد جماعة من التجار، إلـى بيعه لرجل من مصر، إلى كيد امرأة العزيز له، إلى تآمرها مع جماعة النسوة عليه ، إلى إلقائه فى السجن بضع سنين، من كان يقع فى تقديره، أن هذه الأحداث، ينسج من خيوطها عرش، ويصاغ من حصاها تاج، ويولد مـن تصارعها ملك يجلس على هذا العرش الـعظيم، ويتوج بهذا التاج الكريم؟! إن ذلك لا يكون إلا من تدبير حكيم خبير، يمسك الأسباب بلطفه، ويجريها بحكمته، فإذا هى طوع مشيئته ، ورهن إرادته، فيجعل من المكروه - فى تقديرنا - محبوبًا، ومن المحبوب مكروهًا ﴿ وَعَسَىٰ أَن تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ... ﴾ إلخ [البقرة: ٢١٦] .

تم الانتهاء من مراجعة هذا الكتاب، لتقديمه للمطبعة، مساء الخميس السادس من شهر ذى الحجة ١٤١٣هـ الموافق السابع والعشرين من شهر مايو ١٩٩٣ فإن كنت قد أحسنت، فبتوفـيق من الله عز وجل ، وإن كـنت قد أخطأت فى شىء مـن آراء أو أقوال فى هذا الكتاب، فذلك منى، ولما يخلق بعد الذى لا يخطئ. . ورحم الله امرأ أهدى إلىّ عيوبى. ﴿ إِنْ أُرِيدُ إِلَّا الْإِصْلَاحَ مَا اسْتَطَعْتُ وَمَا تَوْفِيقِي إِلَّا بِاللَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ ۝٨٨ ﴾ [هود].

ثبت المراجع

١ ـ تفسير الإمام ابن كثير .
٢ ـ تفسير الإمام القرطبى .
٣ ـ تفسير القاضى البيضاوى .
٤ ـ تفسير الجلالين .
٥ ـ تفسير المنار .
٦ ـ تفسير الكشاف .
٧ ـ تفسير صفوة التفاسير .
٨ ـ تفسير مفاتيح الغيب .
٩ ـ كتاب : قصص الأنبياء لابن كثير .
١٠ ـ كتاب : قصص الأنبياء عبد الوهاب النجار .
١١ ـ كتاب أنبياء الله أحمد بهجت .
١٢ ـ كتاب القصص القرآنى عبد الرحمن الخطيب .
١٣ ـ كتاب الشفاء بتعريف حقوق المصطفى .
١٤ ـ السيرة النبوية ابن هشام .
١٥ ـ السيرة النبوية ابن كثير .
١٦ ـ سبل الهدى والرشاد للصالحى .
١٧ ـ تغريدة السيرة النبوية للمؤلف .
١٨ ـ تاريخ الرسل والملوك الطبرى .
١٩ ـ فتح البارى بشرح صحيح البخارى .
٢٠ ـ صحيح مسلم بشرح النووى .
٢١ ـ إغاثة اللهفان ابن قيم الجوزية .
٢٢ ـ تأملات فى سورة يوسف ، الدكتور باجوده .

الفهرس

الموضوع | الصفحة

الموضـوع — الصفحة

الحلقة الثالثة

الموضـوع | الصفحة

الحلقة الرابعة

الحلقة الخامسة

الموضوع | الصفحة

الحلقة السادسة

الموضوع الصفحة

الحلقة السابعة

الموضـوع الصفحة

الحلقة الثامنة

الموضوع — الصفحة

الحلقة التاسعة

الحلقة العاشرة

الموضـوع **الصفحة**

الحلقة الحادية عشرة

رقم الإيداع: ٩٣٤٨ / ٢٠٠١م